شرح

الشيخ محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد
النفزى الرندى

على

كتاب الحكم

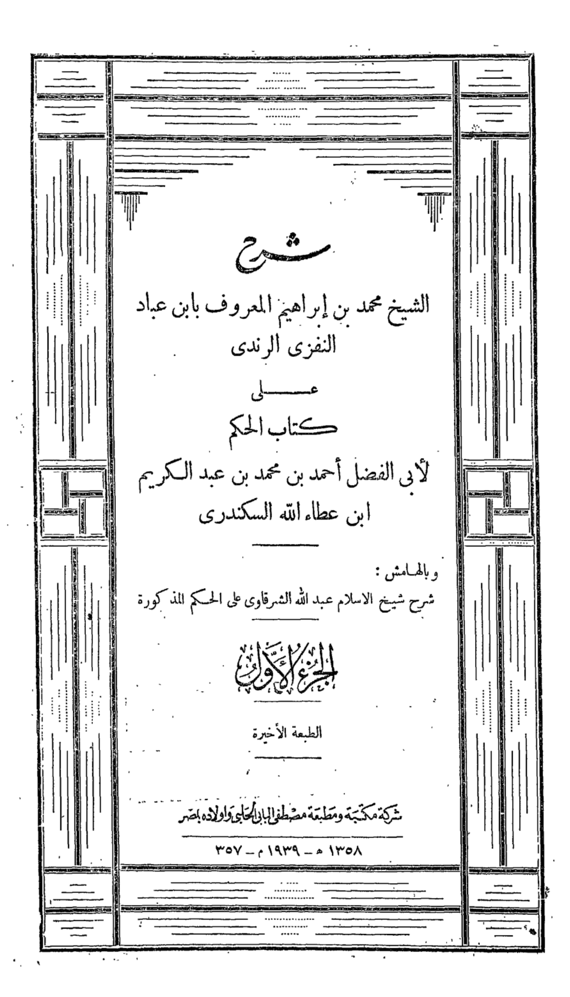
لأبى الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم
ابن عطاء الله السكندرى

يطلب من :

المكتبة المصرية

لاصحابها : عبدالله بن عفيف وشركاه

شربون (أندونيسيا)



شرح

الشيخ محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد
النفزى الرندى

على

كتاب الحكم

لأبى الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم
ابن عطاء الله السكندرى

وبالهامش :
شرح شيخ الاسلام عبد الله الشرقاوى على الحكم المذكورة

الجزء الأول

الطبعة الأخيرة

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م - ٣٥٧

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير إلى الله تعالى المعتمد فى غفران ذنوبه على الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن إبراهيم ابن عباد النفزى الرندى لطف الله به : الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال ، المتوحد باستحقاق نعوت الكمال ، المنزه عن الشركاء والنظراء والأمثال ، المقدّس عن سمات الحدوث من التغير والانتقال ، والاتصال والانفصال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادى من الضلال ، وعلى آله وأصحابه الذين خلصت لهم الأعمال ، وصفت منهم الأحوال ، وعلى جميع من اتبعهم فيما لهم من محامد الصفات ومحاسن الخلال .

أما بعد : فانا لما رأينا كتاب الحكم المنسوب إلى الشيخ الامام المحقق العارف المكاشف الولى الرّبانى أبى الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه ونفعنا به من أفضل ما صنف فى علم التوحيد ، وأجلّ ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كلّ سالك ومريد لكونه صغير الجرم عظيم العلم ذا عبارات رائقة ومعان حسنة فائقة ، قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين وإبانة مناهج السالكين والمتجرّدين ، أخذنا فى وضع تنبيه يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة ، وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة ، ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب وما تضمنه من لباب اللباب ، لأنّ كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة وجواهر حكم مكنونة لا يكشفها إلا هم ، ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقى منهم ، ونحن فى هذه الكلمات التى نوردها ، والمناحى التى نعتمدها ، غير مدّعين لشرح كلام المؤلف ، ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مذاهبهم حسبما يفعله كلّ مصنف ، فانا إن ادّعينا ذلك كان منا إساءة أدب ، تئول بنا والعياذ بالله إلى العطب ، وكنا قد تعرّضنا للخطر والضرر فى تعاطى ما لايليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى من غير خوف ولا حذر ، وإنما نورد ذلك على حسب ما فهمناه من كلامهم ، وما انتهى إلينا علمه من مذاهبهم ، فان وافقنا فيه حقيقة الأمر ، وعثرنا على مكنون السرّ كان ذلك من النعم التى لا نحصى لها شكرا ، ولا نقدّر لها قدرا ، وإن خالفناذلك ، ولم نهتد إلى تلك المسالك أحلناه على نقصنا وجهلنا ، وانتفى عنا التعزير بقولنا وفعلنا ، واقتصر الأمر فى ذلك علينا ، وكانوا هم مبرئين مما قلنا ونوينا ، فلا جرم إذ كان

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فيقول المرتجى غفر المساوى عبد الله بن حجازى الخلوتى المشهور بالشرقاوى : هذه تقييدات لطيفة على حكم العارف بالله سيدى أحمد بن عطاء الله قدس سره وقصده بها فى الغالب خطاب المريدين الصادقين وترقيهم إلى مقام العرفان فينبغى لنا أن نقتصر على بيان مقصوده بحسب الامكان .

قال رضى الله عنه :

(من علامات الاعتماد على العمل) أى عمل الجوارح من صلوات وأذكار وغيرها والمعتمد على ذلك العباد والمريدون فالأولون يعتمدون عليها فى دخول الجنة والتنعم فيها والنجاة من عذاب الله تعالى والآخرون يعتمدون عليها فى الوصول

إلى الله تعالى وكشف الأستار عن القلوب وحصول الأحوال القائمة بها والمكاشفات والأسرار كلاهما مذموم وناشئ من رؤية النفس ونسبة الأعمال اليها حتى ينتج ماذكر أما العارفون فلا يرون لأنفسهم شيئا حتى يعتمدوا عليه بل يشاهدون أن الفاعل الحقيقى هو الله تعالى وأنهم محل لظهور ذلك فقط . وأشار المصنف رحمه الله تعالى الى علامة يعرف بها العبد نفسه فمن علامة كونه من القسمين الأولين (نقصان الرجاء) أى رجائه فى الله تعالى أن يدخله الجنة وينجيه من العذاب إن كان من العباد وأن يوصله الى مطلوبه للتقدم إن كان من المريدين (عند وجود الزلل) بأن تصدر منه معصية كزنا وغفلة عن الله تعالى وترك أوراد ، ومن علامة كونه من العارفين فناؤه عن نفسه فاذا وقع فى زلة أو أصابه غفلة شهد

هذا مقصدنا لوجود السلامة التى جعلناها معتمدنا فينبغى لنا أن نقدم أولا كلام المؤلف رحمه الله تعالى مستوفى ثم نتبعه كلامنا بصيغة الخبر والدعوى ونأتى فيه بعبارة أبسط من عبارته وإشارة أجلى من اشارته ليفهم بذلك ماعندنا فى تفسير ماذكره لأنه تفسيره حقيقة مقررة ونذكر فى أثناء ذلك كثيرا مما ناسب عندى من الكلام المنبه عليه لتتم بذلك الفائدة فى الغرض المتوجه اليه وماظهرلنا فى كلامه من تكرار معان وتداخل فروع ومبان رأينا التنبيه عليه كالفرض وأحلنا بعضه على بعض وعلى الناسخ لهذا المجموع أن يتبع فيه مارسمناه ويكتب نص كلام المؤلف بصبغ يخالف لونه لون ما يكتب به سواه أو يكتبهما بقلمين مختلفين فى الغلظ والرقة ويوفى من ذلك كلا منهما حقه ليكون ذلك أقرب إلى حصول المرام فى استخراج فائدة ترتيب الكلام والله الموفق لارب غيره ولاخير إلا خيره والذى حملنى على وضعه وتكلف تصنيفه وجمعه بعد تقدم إرادة الله تعالى التى لاتغلب وتقديره الذى ليس للعبد منه منجى ولامهرب ثم الرأى الذى رأيناه من المطالب والمقاصد المعظمة ونبهنا عليه فى صدر هذه المقدمة إلحاح بعض الأصحاب فى ذلك على وترددهم بالمسئلة إلى لكونهم على اعتقاد صحيح فى هذه الطريقة ومحبة خالصة لأهل الحقيقة فأسعفتهم بما طلبوه وحققت لهم الأمل فيما رغبوه كما شاء الله تعالى وحكم وقضى به علينا وحتم نفعنا الله وإياهم بما يجرى منه على يدينا ولاجعله حجة عليهم ولاعلينا ونحن نستغفر الله تعالى مما تعاطيناه من الأمر العظيم ، واقتحمناه من الخطر الجسيم ، ونستعيذ به من الوقوع فى حبائل العدو الرجيم ونسأله توفيقا يقف بنا على جادة الاستقامة ويصرفنا عن العمل بما يعقب ملامة أوندامة ، ونرجوه مع هذا إذ من علينا بالانتماء إلى مذاهبهم والانتساب إلى كريم مناسبهم والتعلق بأذيالهم ومحاولة النسج على منوالهم ورزقنا شيئا من تعظيمهم وحبهم وقسطا من تكريمهم وبرهم أن لايحرمنا من شفاعتهم ولايخرجنا من كنف ولايتهم ولايطردنا عن بابهم الكريم ولايصرفنا عن منهجهم القويم فهم القوم لايشقى بهم جليسهم :

لى سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلى فى حبهم عز وجاه

اللهم إنا نتوسل اليك بحبهم فانهم أحبوك ولم يحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك الابحظنا منك فتمم لنا ذلك حتى نلقاك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين وسلم عليهم تسليما كثيرا . وهذا حين أبتدئ وبالله التوفيق ومنه الهداية إلى سواء الطريق. قال المؤلف قدس الله سره (من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل) أقول: الاعتماد على الله تعالى نعت العارفين الموحدين والاعتماد على غيره وصف الجاهلين الغافلين كائنا ما كان ذلك الغير حتى علومهم وأعمالهم وأحوالهم أما العارفون الموحدون فانهم على بساط القرب والمشاهدة ناظرون إلى ربهم فانون عن أنفسهم فاذا وقعوا فى زلة أو أصابتهم غفلة شهدوا تصريف الحق تعالى لهم وجريان قضائه عليهم كما أنهم إذا صدرت عنهم طاعة أولاح عليهم لائح من يقظة لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم ولم يروا فيها حولهم ولاقوتهم لأن السابق الى قلوبهم ذكر ربهم فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره ، ولا فرق عندهم بين الحالين لأنهم غرقى فى بحار التوحيد قد استوى خوفهم ورجاؤهم فلا ينتقص من خوفهم مايجتنبونه من العصيان ولا يزيد فى رجائهم مايأتون به من

تصريف الحق فيه وجريان قضائه عليه كما أنه إذا صدر منه طاعة أولاح له مشاهدة قلبية لم ير فى ذلك حوله وقوته فلافرق عنده بين الحالين لأنه غارق فى بحار التوحيد قد استوى خوفه ورجاؤه فلاينقص العصيان خوفه ولايزيد الاحسان رجاءه فمن لم يجد

هذه العلامة فيه فليجاهد نفسه بالرياضات والأذكار حتى يصل إلى مقام العرفان . ومراد المصنف بهذه الحكمة تنشيط السالك ورفع همته عن الاعتماد على شئ سوى مولاه لا التزهيد فى الأعمال لأنها سبب عادى فى الوصول الى الله تعالى ولا تحقير ما تنتجه من الأحوال وغيرها لأن ذلك منة من الله تعالى لاينبغى ردّه (إرادتك التجريد) أى ميل نفسك أيها المريد الصادق إلى التجريد عن الأسباب الظاهرية أى خروجها عنها وعدم معاناتها (مع إقامة الله إياك فى الأسباب) وعلامة ذلك أن يهيئها لك وأن تجد السلامة فى دينك عند معاناتها وينقطع بها طمعك عما بأيدى الناس ولا يشغلك عما أنت فيه من وظائف العبادات الظاهرة والأحوال الباطنة (من الشهوة) أى من شهوات النفوس التى تدعو اليها (الخفية) وكانت شهوة لعدم وقوفك على مراد سيدك وموافقتك مراد نفسك وخفية لأن ظاهر ذلك أن مرادك بالتجرّد الانقطاع إلى الله تعالى والتقرب اليه وباطنه أن مرادك الشهرة بالولاية لتقصدك الناس بالاعتقاد والتقرّب اليك فتقطع عما أنت بصدده فقد قال العارفون إقبال الناس على المريد قبل كماله سمّ قاتل وربما انقطعت بذلك عن وظائفك

(٤)

الاحسان. قال شارح المجالس: العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم فاذا ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها ثوابا لأنهم لم يروا أنفسهم عمالا لها وإن ظهرت منهم زلة فالدية على القاتل لم يشاهدوا غيره فى الشدّة والرخاء قيامهم بالله ونظرهم إليه وخوفهم هيبته ورجاؤهم الأنس به اه . وأما غيرهم فبقوا مع نفوسهم فى نسبة الأعمال والأفعال اليها وطلبوا الحظ لها وعليها فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم فاذا وقعوا فى زلة نقص بذلك رجاؤهم كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدهم فتعلقوا بالأسباب وحجبوا بتفرّقهم بها عن ربّ الأرباب فمن وجد هذه العلامة فى نفسه فليعرف منزلته وقدره ولا يتعدّ طوره فيدّعى مقامات الخاصة من المقرّبين وإنما هو من عامة أصحاب اليمين وستأتى إشارات إلى هذا المعنى فى مواضع من كلام المؤلف قدّس الله سره ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى والحافظ أبو نعيم الأصفهانى عن يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنهم قال عارضنى بعض الناس فى كلام وقال لى لاتستدرك مرادك من عملك إلا أن تتوب فقلت مجيبا لو أن التوبة تطرق بابى ما أذنت لها على أنى أنجو بها من ربى ولو أن الصدق والاخلاص كانا عبدين لى لبعتهما زهدا منى فيهما لأنى إن كنت عند الله فى علم الغيب سعيدا مقبولا لم أتخلف باقتراف الذنوب والمآثم وإن كنت عنده شقيا مخذولا لم تسعدنى توبتى وإخلاصى وصدقى وإن الله خلقنى إنسانا بلا عمل ولا شفيع كان لى اليه وهدانى لدينه الذى ارتضاه لنفسه فقال الله تعالى ـ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ـ فاعتمادى على فضله وكرمه أولى بى إن كنت حرا عاقلا من اعتمادى على أفعالى المدخولة وصفاتى المعلولة لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل . قلت وهذه الحكاية وأمثالها ربما تقرع سمع من لاحقيقة عنده من طريق القوم فينكر معناها ولا يعتقده أو يسلمه ويدعيه مقاما لنفسه وكلتا الحالتين مؤدية بصاحبها الى ضرر وخطر فليتق الله تعالى عبد ليس له بصر فى هذه الطريقة أن ينكر ماذكرناه فيقع فى الاعتراض على السادة والأولياء وفى ذلك بعده من الله تعالى أو يدعيه مقاما لنفسه من غير أن يستظهر عليها ويتوثق منها ويزنها بالمعيار الذى نبهنا عليه ومحل وجود ذلك ممن لم يصحح مقام الفناء عن النفس فيرتكب حينئذ مساخط الله تعالى ويتعدى حدوده ويجعل ذلك حجة لنفسه غلطا وجهلا وهذا باب من الزندقة والعياذ بالله سبحانه وتعالى (إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العليـة) الأسباب ههنا عبارة عما يتوصل به إلى غرض ما ينال فى الدنيا والتجريد عبارة عن عدم تشاغله بتلك الأسباب لأجل ذلك فمن أقامه الحق تعالى فى الأسباب وأراد هو الخروج منها فذلك من شهوته الخفية وإنما كانت من الشهوة لعدم وقوفه مع مراد الله تعالى به وإرادته هو خلاف ذلك وإنما كانت خفية لأنه لم يقصد بذلك نيل حظ عاجل وإنما قصد بذلك التقرب إلى الله تعالى بكونه على حال هى أعلى بزعمه

وأورادك وصرت تتطلع لما بأيدى الناس (وإرادتك الأسباب) أى التسبب والاكتساب (مع إقامة الله إياك فى التجريد) أى بأن يسر لك القوت من حيث لا تحتسب وجعل نفسك مطمئنة عند تعذره متعلقة بمولاها ودمت على الاشتغال بوظائف العبادات (انحطاط عن الهمة العلية) لارادتك الرجوع إلى الخلق بعد التعلق بالحق ولو لم يكن إلا مخالطة أبناء الدنيا فيما هم فيه لكان كافيا فى دناءة الهمة فالواجب على السالك أن يمكث فيما أقامه الحق فيه ويرضى به حتى يتولى الله إخراجه منه ولا يخرج بنفسه وإرادته وتسويل الشيطان فيقع فى بحر القطيعة والعياذ بالله تعالى لكن

لـكن فاته الأدب بعدم وقوفه مع مراد الله تعالى من إقامته إياه فيما أقامه فيه وتطلعه إلى مقام رفيع لا يليق به فى الوقت وعلامة إقامته إياه فى الأسباب أن يدوم له ذلك وأن تحصل له ثمرته ونتيجته وذلك بأن يجد عند تشاغله بالأسباب سلامة فى دينه وقطع المطمعه عن غيره وحسن نيته فى صلة الرحم أو إعانة فقير معدم إلى غير ذلك من فوائد المال المتعلقة بالدين ومن أقامه الحق تعالى فى التجريد وأراد الخروج منه إلى الأسباب فذلك من انحطاط همته وسوء أدبه وكان واقفا مع شهوته الجلية لأن التجريد مقام رفيع أقام الحقّ تعالى فيه خواص عباده من الموحدين والعارفين فاذا أقامه الحقّ تعالى فى مقام الخواص فلم ينحط عن رتبتهم إلى منازل أهل الانتقاص ؟ قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه من لم يأنف من مشاركة الأضداد فى الأسباب فهو خسيس الهمة وعلامة إقامته إياه فى التجريد ما ذكرناه من الدوام ووجدان الثمرة ومن ثمرات ذلك طيب وقت المتجرّد وصفاء قلبه ووجدان راحته من ملابسة الخلق ومخالطتهم والهمة حالة للقلب وهى قوّة إرادة وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما وتـكون عالية إن تعلقت بمعالى الأمور وسافلة إن تعلقت بأدانيها . قال الشاعر وأجاد :

وقائلة لم علتك الهموم ... وأمرك ممتثل فى الأمم

فقلت ذرينى على حالتى ... فان الهموم بقدر الهمم

وقال الآخر :

إذا أعطشتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعا وريا

فكن رجلا رجله فى الثرى ... وهامة همتــــه فى الثريا

فان إراقــة ماء الحيا ... ة دون إراقة ماء المحيا

وما ذكرته من معانى الاقامة فى نوعى الأسباب والتجريد هو شىء فهمته مما يقوله بعد هذا من علامة إقامة الحق لك فى الشىء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج والله أعلم . وقد ذكر فى التنوير هذه المسئلة بنصها حكيا عن هذا الـكتاب وقال بأثره وافهم رحمك الله أن من شأن العدوّ أن يأتيك فيما أنت فيه ممـا أقامك الله فيحقره عندك يتطلب غير ما أقامك الله فيه فيشوّش عليك قلبك ويكدّر وقتك وذلك أنه يأتى للتسببين فيقول لهم لو تركتم الأسباب وتجرّدتم لأشرقت لـكم الأنوار ولصفت منكم القلوب والأسرار قائلا وكذلك صنع فلان وفلان ويكون هذا العبد ليس مقصودا بالتجريد ولا طاقة له به إنمـا صلاحه فى الأسباب فيتركها فيتزلزل إيمـانه ويذهب إيقانه ويتوجه إلى الطلب من الخلق وإلى الاهتمام بأمر الرزق فيرمى فى بحر القطيعة وذلك قصد العدوّ منه لأنه إنما يأتيك فى صورة ناصح كما أتى أبويك فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله تعالى ـ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تـكونا ملـكين أو تـكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لـكما لمن الناصحين ـ كما تقدم بيانه وكذلك يأتى المتجردين ويقول لهم إلى متى تتركون الأسباب ألم تعلموا أن ترك الأسباب تتطلع معه القلوب إلى ما فى أيدى الناس ويفتح باب الطمع ولا يمكنكم الاسعاف والايثار والقيام بالحقوق وعوض ما تـكون منتظرا لما يفتح به عليك من الخلق فلو دخلت فى الأسباب بقى غيرك منتظرا ما يفتح به عليه منك إلى غير ذلك ويكون هذا العبد قد طاب وقته وانبسط نوره ووجد الراحة بالانقطاع عن الخلق فلا يزال به حتى يعود إلى الأسباب فتصيبه كدورتها وتغشاه ظلمتها ويعود الدائم فى سببه أحسن حالا منه لأن ذلك ما سلك طريقا ثم رجع عنها ولا قصد مقصدا ثم انعطف عنه فافهم واعتصم بالله ـ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ـ وإنما قصد الشيطان بذلك أن يمنع العباد الرضا عن الله تعالى فيما هم فيه وأن يخرجهم عن مختار الله لهم إلى مختارهم لأنفسهم وما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه

(سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار) هذه الحكمة كالتعليل لماقبلها وتصلح أيضا لما بعدها كأنه قال إرادتك أيها المريد خلاف ما أراده مولاك لا تجدى نفعا لأنه إذا كانت سوابق الهمم أى الهمم السوابق أى سريعة التأثير فى الأشياء وهى قوى النفس التى تنفعل عنها الأشياء وتكون للولى كرامة يقال فعل كذا بهمته إذاوجهها إليه فوجد ولغيره كالساحر والعائن إهانة لاتنفعل عنها الأشياء إلا بتقدير الله تعالى أى باذنه سبحانه فالهمم غير السوابق كهمتك أيها المريد لا أثر لها من باب أولى ففى هذا تبريد نار الحرص المشتعلة فى قلبه حتى يخيل له أن ذلك الشىء طوع يده وأنه يدركه لامحالة والاضافة فى قوله سوابق الهمم من إضافة الصفة إلى الموصوف كما تقرر وفى قوله أسوار الأقدار من إضافة المشبه به للمشبه ثم قال (أرح نفسك) أيها المريد (من التدبير) لأمر دنياك وهو أن يقدر الشخص فى نفسه أحوالا يكون عليها على ما تقتضيه شهوته ويدبر لها مايليق بها من أحوال وأعمال ويهتم لأجل ذلك وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه ولعل أكثر مايقدره لايقع فيخيب ظنه وفى تعبيره بأرح إشارة إلى أن المطلوب تركه للمريد هو مافيه تعب ومعاناة أما تدبير أمور معاشه على وجه سهل يستعين به على مطلوبه فلا بأس به ولذا ورد التدبير نصف المعيشة (فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك)

ومادخلت فيه بنفسك وكلك إليه ـ وقل ربّ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ـ فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك والمخرج الصدق أيضا كذلك فافهم ، والذى يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك حتى يكون الحق سبحانه هو الذى تولى إخراجك كما تولى إدخالك وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب . قال بعضهم تركت السبب كذا كذا مرّة فعدت إليه ثم تركنى السبب فلم أعد إليه ودخلت على الشيخ رضى الله عنه وفى نفسى العزم على التجريد قائلا فى نفسى إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة بعيد من الاشتغال بالعلوم الظاهرة ووجود المخالطة للناس فقال لى من غير أن أسأله صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدّر فيها فذاق من هذه الطريق شيئا فجاء إلىّ فقال ياسيدى أخرج عما أنا فيه وأتجرّد لصحبتك فقلت له ماليس الشأن ذا ولكن امكث فيما أنت فيه وماقسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل . ثم قال الشيخ ونظر إلىّ وهكذا شأن الصدّيقين لايخرجون من شىء حتى يكون الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى إخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى ولكنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم القوم لايشقى بهم جليسهم » اهـ كلامه فى التنوير فى هذا المعنى وهو كلام حسن وإنما أثبتناه ههنا على طوله لأنه تولى فيه بيان مسئلته التى ذكرها فى هذا الكتاب بنفسه بيانا شافيا فنقلناه بلفظه وودنا لو أن جميع مسائله تكون هكذا (سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار) الهمم السوابق هى قوى النفس التى تنفعل عنها بعض الموجودات باذن الله تعالى وتسميها الصوفية همة فيقولون أحال فلان همته على أمر ما فانفعل له ذلك وهذه الهمم السابقة لاتنفعل الأشياء عنها إلا بالقضاء والقدر وهو معنى قولنا باذن الله تعالى فهىَ على حال سبقيتها ونفوذها لا تخرق أسوار الأقدار ولا تنفذها وهذه الهمم قد تكون للأولياء كرامات وقد تكون لغيرهم استدراجا ومكرا كما تكون للعائن والساحر وقد ثبت أن العين حقّ والسحر حقّ ومعناه ماذكرناه . وحاصل ذلك أنه يجب أن يعتقد أنها أسباب لا تأثير لها ولا فاعلية وأن الفاعل هو الله تعالى وحده عندها لا بها وكأنّ المؤلف رحمه الله إنما أورد هذه المسئلة بين يدى كلامه فى التدبير ليعرفك بذلك أن وجود التدبير لاجدوى له ولافائدة لأن الهمة الفعالة إذا لم تفد فى خرق أسوار الأقدار شيئا كيف يفيد فى ذلك التدبير وما لا فائدة فيه فضول لاينبغى أن يتشاغل به ويتعب فيه ذوو العقول ، ولذلك قال (أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك) تدبير الخلق لأمور دنياهم على الوجه الذى نقوله مذموم لأن الله تعالى قد تكفل لهم بذلك وقام به عنهم وطلب منهم أن يفرغوا قلوبهم منه ويقوموا بحق عبوديته ووظائف تكليفاته فقط وهو أن يقدّر العبد لنفسه شؤونا يكون عليها

يعنى أن الأمر مفروغ منه إذ قدقام به غيرك وهو الله تعالى وماقام به غيرك لافائدة فى قيامك به من فيكون قيامك فضولا لاينبغى أن يتلبس به ذووالعقول وأيضافيه ترك العبودية ومضادة لأحكام الربوبية ومنازعة القدر وإنما خاطب المريد بذلك لأنه إذا توجه لحضرة الرب واشتغل بأوراد الطريق وأعماله تعطلت عليه أسباب معاشه فى الغالب فيأتيه الشيطان ويوسوس له ويصير يدبر فى نفسه أمورا لايقع أكثرها وذلك يشغله عماهو بصدده فيرجع عماهو متوجه له ودواء ذلك كثرة الذكر والرياضة حتى يرجع عنه الشيطان وتحصل له الراحة من تعب التدبير ولذا قال :

من أمر دنياه على ماتقتضيه شهوته وهواه ويدبر لها مايليق بها من أحوال وأعمال و يستعد لذلك ويهتم لأجله وهذا تعب عظيم استعجله لنفسه ولعل أكثر مايقدره لايقع فيخيب ظنه و يبطل سعيه ثم فيه من ترك العبودية ومضادة أحكام الربوبية ومنازعة القدر و إضاعة العمر مايحمل العاقل على تركه واجتنابه وقطع مواده وأسبابه . قال سهل بن عبدالله رضى عنه ذروا التدبير والاختيار فانهما يكدران على الناس عيشهم . وقال سيدى أبو الحسن الشاذلى إن كان ولا بد أن تدبروا فدبروا أن لا تدبروا وهذه المسئلة أساس طريق القوم بل هى جملته وكليته والكلام فيها طويل عريض وإنما اقتصرنا فيها على هذا القدر اليسير من التنبيه لأن المؤلف رحمه الله أفرد فى هذا المعنى كتابا سماه التنوير فى إسقاط التدبير أحسن فيه غاية الاحسان وقرب الأمر فيه بحيث يستغنى به عما صنف فى هذه الطريقة من ديوان فتحصيله متعين على كل مريد نجيب (اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك) الشىء المضمون للعبد هو رزقه الذى يحصل له به قوام وجوده فى دنياه ومعنى كونه مضمونا أن الله تعالى تكفل بذلك وفرغ العباد عنه ولم يطلب منهم الاجتهاد فى السعى فيه ولا الاهتمام له والشىء المطلوب من العبد هو العمل الذى يتوصل به إلى سعادة الآخرة والقرب من الله تعالى من عبادات وطاعات ومعنى كونه مطلوبا أنه موكول إلى اكتساب العبد له واجتهاده فيه ومراعاة شروطه وأسبابه وأوقاته بهذا جرت سنة الله تعالى فى عباده قال الله عزوجل فى المعنى الأول الذى ضمنه للعبد ـ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها و إياكم ـ وقال تعالى فى المعنى الثانى الذى طلبه منه ـ وأن ليس للانسان إلا ماسعى ـ وقد روى فى بعض الآثار أن الله تعالى يقول «عبدى أطعنى فيما أمرتك ولا تعلمنى بما يصلحك» وذكر فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مابال أقوام يشرفون المترفين و يستخفون بالعابدين و يعملون بالقرآن ماوافق أهواءهم وما خالف أهواءهم تركوه فعند ذلك يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض يسعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدور والأجل المكتوب والرزق المقسوم ولايسعون فيما لايدرك إلا بالسعى من الجزاء الموفور والسعى المشكور والتجارة التى لاتبور» وقال إبراهيم الخواص العلم كله فى كلمتين لاتتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت فمن قام بهذا الأمر على ماينبغى له من الوجه الذى ذكرناه من الاجتهاد فى الأمر المطلوب منه وتفريغ القلب عن الأمر المضمون له فقد انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق فى قلبه وحصل على غاية المقصود ومن عكس هذا الأمر فهو مطموس البصيرة أعمى القلب وفعله دليل على ذلك والبصيرة ناظر القلب كما أن البصر ناظر العين وناظر القلب إنما ينظر إلى العاقبة والعاقبة للمتقين فالتقوى هى التى يجب على العبد أن يجتهد فيها ولايتوانى و يقصر عما يمنع منها وتعبير المؤلف رحمه الله بالاجتهاد إشعار بأن طلب الرزق من غير اجتهاد فيه غير مقصود بالكلام وهو كذلك لأنه مباح ومأذون فيه فلايدل ذلك على انطماس بصيرة صاحبه إلا إن اقترن به تقصير فيما أمر به قال فى التنوير فى قوله تعالى ـ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك ـ أى قم بخدمتنا ونحن نقوم لك بقسمتنا وهما شيئان شىء ضمنه الله لك فلاتتهمه وشىء طلبه منك فلاتهمله فمن اشتغل بما ضمن له عما طلب منه فقد عظم جهله واتسعت غفلته وقل أن ينتبه لمن يوقظه بل حقيق على العبد أن يشتغل بما طلب منه عما ضمن له إذا كان الله سبحانه وتعالى قد رزق أهل الجحود كيف لايرزق أهل الشهود وإذا كان سبحانه قد أجرى رزقه على أهل الكفران كيف لايجرى رزقه على أهل الايمان فقد علمت أيها العبد أن الدنيا مضمونة لك أى مضمون لك منها مايقوم بأودك والآخرة مطلوبة منك أى العمل لها لقوله سبحانه وتعالى ـ وتزودوا فان خير الزاد التقوى ـ فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما

(اجتهادك فيما ضمن لك) أى تكفل الله لك به وهو الرزق تفضلا منه و إحسانا قال تعالى ـ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها و إياكم ـ إلى غير ذلك من الآيات (وتقصيرك فيما طلب منك) وهو العمل الذى تتوصل به عادة إلى مولاك من أذكار وصلوات وأوراد وغير ذلك من أنواع الطاعات قال تعالى ـ وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون ـ الآية فالمطلوب من المريد السعى فى قوت الأرواح وهو ذكر المولى وفعل مايقرب إليه لا قوت الأشباح لأنه قائم به غيره وهو مولاه (دليل على انطماس) أى عمى (البصيرة منك) وهى عين فى القلب تدرك الأمور المعنوية كما أن البصر يدرك الأمور المحسوسة وفى تعبيره بالاجتهاد إشارة إلى أن طلب الرزق من غير اجتهاد لا بأس به للمريد ولا يدل على انطماس بصيرته ثم قال

(لا يكن تأخر أمد) أي زمن (العطاء) بتأخر مايقع فيه (مع الالحاح فى الدعاء) بزوال أوصاف بشريتك ورفع الحجاب عنك ووصولك إلى مولاك (موجبا ليأسك) أي من إجابة الدعاء (فهوضمن لك الاجابة) بنحو قوله ــ ادعونى أستجب لكم ــ (فيما يختاره لك لافيما تختار لنفسك وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد) فقد يكون دوام الحجاب على المريد خيرا له ليجتهد فى الأعمال و يدوم خوفه من مولاه لكن الشيطان ربما أتى له وقال له لو كنت من أهل الارادة لأجابك مولاك وأزال أوصاف بشريتك وحصل لك مقصودك وجهل أن عدم إجابته قد يكون خيرا له وقد تكون بشريته غليظة فلا تنقطع إلا بعد مدة طويلة وما أتى به من المجاهدات والرياضات لا يفيد ذلك فى تلك المدة وقد شبه بعض العارفين الطبيعة بأرض ذات شوك فقد يكون الشوك غليظا كثيرا لاينقطع إلا بعد مدة ومعاناة تامة وقد يكون قليلا ضعيفا أدنى شئ يزيله وكذلك أوصاف النفوس قد تكون خبيثة كثيرة فتحتاج إلى مدة طويلة وشدة معاناة فى قطعها فاذا حصل المقصود ولو فى آخر نفس من عمره ولا
كان هو الغاية القصوى وكان ما تعب فيه حقيرا بالنسبة لذلك وقد تكون بعد ذلك فلا تحتاج إلى طول مدة وكثرة معاناة

ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك بما طلب منك من أمر الآخرة حتى قال بعضهم إن الله تعالى ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا (لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحاح فى الدعاء موجبا ليأسك فهو ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك لا فيما تختار لنفسك وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد) حكم العبد أن لا يتخير شيئا على مولاه و يجزم بصلاحية حال من الأحوال له لأنه جاهل من كل وجه قد يكره الشئ وهو خير له و يحب الشئ وهو شر له . قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه لا تختر من أمرك شيئا واختر أن لا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شئ إلى الله عز وجل ــ وربك يخلق مايشاء و يختار ــ ودخل رجل على سيدى أبى العباس المرسى رضى الله عنه وهو يتألم لما به فقال ذلك الرجل عافاك الله ياسيدى فسكت ولم يجاوبه ثم سكت ذلك الرجل ساعة وقال الله يعافيك ياسيدى فقال له الشيخ أبو العباس وأنا ماسألت الله العافية فقد سألته العافية والذى أنا فيه هو العافية هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سأل الله العافية وقد قال مازالت أكلة خيبر تعاودنى والآن قد قطعت أبهرى وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مسموما وسيدنا عمر رضى الله عنه سأل الله العافية و بعد ذلك مات مطعونا وسيدنا عثمان رضى الله عنه سأل الله تعالى العافية و بعد ذلك مات مذبوحا وسيدنا على رضى الله عنه سأل الله تعالى العافية و بعد ذلك مات مقتولا فاذا سألت الله تعالى العافية فاسأله من حيث يعلم أنها لك عافية اه فعلى العبد أن يسلم نفسه إلى مولاه و يعلم أن الخيرة له فى جميع مابه يتولاه وإن خالف ذلك مراده وهواه فاذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالاجابة لامحالة قال الله عز وجل ــ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ــ وقال تعالى ــ و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ــ وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مامن أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ماسأل أو كف عنه من السوء مثله مالم يدع باثم أو قطيعة رحم» وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «مامن داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته أو صرف عنه مثلها سوءا أو حط من ذنوبه بقدرها مالم يدع باثم أو قطيعة رحم» فاذن الاجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق إلا أن الاجابة أمرها إلى الله تعالى يجعلها متى شاء وقد يكون المنع وتأخر العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى ذلك فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى إذا رأى منعا أو تأخيرا و إن ألح فى دعائه وسؤاله وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيرا له فقد جاء فى بعض الأخبار يبعث عبد فيقول الله تعالى له ألم آمرك برفع حوائجك إلى فيقول نعم وقد رفعتها إليك فيقول الله تعالى ما سألت شيئا إلا أجبتك فيه ولكن نجزت لك البعض فى الدنيا وما لم أنجزه فى الدنيا فهو مدخر لك فخذه الآن حتى يقول ذلك العبد ليته لم يقض لى حاجة فى الدنيا وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى النهى عن الاستعجال فى إجابة الدعاء فى قوله «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى» وقد دعا موسى وهرون عليهما السلام على فرعون فيما أخبر الله به عنهما حيث قال ــ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ــ ثم أخبر أنه أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى ــ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ــ قالوا وكان بين قول الله تعالى لهما ــ قد أجيبت دعوتكما ــ وهلاك فرعون أربعون سنة . قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى قوله تعالى ــ فاستقيما ــ أى على عدم استعجال ماطلبتما

(لايشككنك فى الوعد) الذى وعدك به مولاك فى منام أوفى لسان ملك أو بالهام رحمانى (عدم وقوع الموعود وان تعين زمنه) أى و إن كان زمنه معينا بأن ألهمت أنه يحصل لك فى الوقت الفلانى فتح أو يحصل فى العام رخاء أوغير ذلك (لئلا يكون ذلك) الشك (قدحا فى بصيرتك و إخمادا لنور سريرتك) فمن وعده مولاه شيئا و إن كان معين الزمان ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغى أن يشككه ذلك فى صدق وعد ربه لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد لحكمة يريدها ومن هذا القسم مايقع لبعض الأولياء أن يخبر بأنه يحصل فى هذا العام كذا ثم لايحصل فيقع بعض الناس فى أعراضهم ومنه ما وقع له صلى الله عليه وسلم عام الحديبية من إخباره للصحابة بالفتح ثم لم يحصل فى ذلك العام بل فى عام بعده فاذا خطر للمريد خاطر رحمانى أوملكى ثم لم يحصل مقتضاه لاينبغى أن يشك فى حصول الموعود بل ينبغى أن يعرف قدره و يتأدب مع ربه و يسكن إليه فيما وعده به (٩) ولايتشكك فى ذلك ولايتزلزل اعتقاده فمن كان كذلك فهو عارف بالله سالم البصيرة منور السريرة و إلا فعلى العكس من ذلك (إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قلّ) بفتح الهمزة (عملك) أى بقلة عملك . اعلم أن السالك لابد له فى سلوكه من كثرة الأعمال ليقطع عقبات النفوس ويصل إلى حضرة الرب فاذا شرع فى المجاهدة وطالت عليه المدة ربما كسل عن بعض أنواع العبادات والأوراد التى رتبت عليه فيحصل عنده شدة الهم والغم ور بما تسوّل له نفسه الترك بالكلية مع كونه قد حصل عنده نوع من معرفة الله تعالى فأرشده الشيخ رضى الله عنه إلى أنه إذا فتح له وجهة من التعرف أى نوعا من المعرفة كأن عرف بطريق الذوق أن الله تعالى حاضر معه مطلع على حاله أو عرف ذوقا أنه لافاعل إلا الله بأن حصل له تجلى الأفعال الذى هو أول التجليات عندهم فلا يبال حينئذ بقلة العمل لأن القصد من العمل القرب من حضرة الرب وفتح تلك الوجهة دليل على ذلك وعلى أنه معتنى به وأنه سيصير من أهل وده وقد تكون قلة العمل بسبب مرض يعوقه عنه فاذا حصل عنده نوع من المعرفة بأن عرف أن نزول المرض به خير من الصحة لما فيه من ترقيه وأن الله يفعل مايريد فلا يبال حينئذ بقلة العمل (فانه مافتحها) أى تلك الوجهة (لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك) أى يواجهك بفضله و يقرب منك و يتجلى عليك بصفاته وأسمائه ولا شك أن ذلك أعظم من كثرة الأعمال الظاهرة (ألم تر أن التعرف هو مورده عليك) أى محصله لك بطريق التفضل

ـ ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون ـ هم الذين يستعجلون الاجابة وناهيك شرفا وحظا مايتحصل له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله يحب الملحين فى الدعاء» وقد جاء فى الحديث «قال جبريل عليه السلام يارب عبدك فلان اقض له حاجته فيقول دعوا عبدى فانى أحب أن أسمع صوته» رواه أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته وقد روى هذا المعنى أيضا منصوصا فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه كل من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج وهو ممن قيل له اقضوا حاجته فانى أكره أن أسمع صوته فاذا كان فى دعائه مع اختيار الحق تعالى لامع اختيار نفسه كان مجابا وان لم يعط والأعمال بخواتيمها اه وقد تكون الاجابة مرتبة على شروط لاعلم للداعى بها فتؤخر لعدم وقوع ذلك أو بعضه وذلك مثل وجود الاضطرار قال الله تعالى ـ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ـ فرتب الاجابة على الاضطرار . وقال بعض العارفين إذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار فى الدعاء والاضطرار لايتحققه العبد من نفسه فى جميع حالاته . قال بعضهم المضطرّ الذى إذا رفع إلى الله تعالى يده لم ير لنفسه عملا وهذا حال شريف ومقام منيف يعسر على أكثر الناس الوصول اليه فكيف يتحقق ماينبنى عليه وفى المسئلة التى بإثر هذا تنبيه على هذا المعنى (لايشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وان تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك و إخمادا لنور سريرتك) الحق سبحانه لايخلف الميعاد فمن وعده مولاه شيئا و إن كان معين الزمن ثم لم يقع ذلك الموعود فلا ينبغى أن يشككه ذلك فى صدق وعد ربه لجواز أن يكون وقوع ذلك الوعد معلقا على أسباب وشروط استأثر الحق تعالى بعلمها دون العبد فعلى العبد أن يعرف قدره و يتأدب مع ربه و يسكن اليه فيما وعده به و يطمئن اليه ولا يتشكك فى ذلك ولا يتزلزل اعتقاده فيه فمن كان على هذا الوصف فهو عارف بالله تعالى سالم البصيرة منوّر السريرة و إلا فعلى العكس (إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها أن قلّ عملك فانه مافتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف اليك ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك

والأعمال أنت مهديها إليه وأين ماتهديه إليه مماهو مورده عليك) معرفة الله تعالى هي غاية الطالب ونهاية الآمال والمآرب فاذا وجه الله تعالى عبده ببعض أسبابها وفتح له باب التعرف له منها وأوجد له سكينة وطمأنينة فيها فذلك من النعم الجزيلة عليه فينبغى أن لا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر وما يترتب عليها من جزيل الأجر وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقربين المؤدى إلى حقائق التوحيد واليقين من غير اكتساب من العبد ولا بعمل والأعمال التى من شأنه أن يتلبس بها وهى باكتسابه و بعمله فلا تسلم من دخول الآفات عليها والمطالبة بوجود الاخلاص فيها وقد لا يحصل له مايريد من الثواب عند مناقشة الحساب وأين أحدهما من الآخر . ومثاله مايصاب به الانسان من البلايا والشدائد التى تنغص عليه لذات الدنيا وتمنعه من تكثير أعمال البر فان مراده أن يستمر بقاؤه فى دنياه طيب العيش ناعم البال ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين المتورعين فلا تستخف نفسه إلا بالأعمال الظاهرة التى لا كبير مؤنة عليه فيها ولامشقة ولا تقطع عليه لذته ولا تفوته شهوته ومراد الله منه أن يطهره من أخلاقه اللئيمة ويحول بينه و بين صفاته الذميمة و يخرجه من أثر وجوده إلى متسع شهوده ولاسبيل له إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام إلا بما يضاد مراده ويشوش عليه معتاده ويكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن ولا مناسبة بينها و بين الأعمال الظاهرة فاذا فهم هذا علم أن اختيار الله له ومراده منه خير له من اختياره لنفسه ومراده لها وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه أنزلت بعبدى بلاء فدعانى فماطلته بالاجابة فشكانى فقلت عبدى كيف أرحمك من شىء به أرحمك . وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تبارك و تعالى إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عوّاده أنشطته من عقالى و بدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه و يستأنف العمل وروى عن سعيد المقبرى قال سمعت أباهريرة رضى الله عنه يقول قال الله تبارك وتعالى إنى أبتلى عبدى المؤمن فاذا لم يشك إلى عوّاده حللت عنه عقدى و بدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم قلت له استأنف العمل قال أبو عبد الله محمد بن على الترمذى رضى الله عنه ولقد مرضت فى سالف أيامى مرضة فلما شفانى الله تعالى منها مثلت فى نفسى مادبر الله تعالى من هذه العلة فى مقدار هذه المدة و بين عبادة الثقلين فى قدر أيام علتى فقلت لو خيرت بين هذه العلة و بين أن تكون لى عبادة الثقلين فى مقدار مدتها إلى أيهما يميل اختيارى فصح عزمى ودام يقينى ووقفت بصيرتى أن مختار الله تعالى أكثر شرفا وأعظم خطرا وأنفع عاقبة وهى العلة التى دبرها لى ولاشوب فيه إذا كان فعله فشتان بين فعله بك لتنجو به و بين فعلك لتنجو به فلما رأيت ذلك دق فى عينى عبادة الثقلين فى مقدار تلك المدة فى جنب ما آتانى فصارت العلة عندى نعمة وصارت النعمة منة وصارت المنة أملا وصار الأمل عطفا فقلت فى نفسى بهذا كانوا يستمرون فى البلاء على طيب النفوس مع الحق و بهذا الذى انكشف كانوا يفرحون بالبلاء اهـ فهذه هى وجهة التعرف التى فتحها الله تعالى له وحصلت له الغبطة بها وآثرها على عبادة الثقلين والله أعلم فاذا أنزل الله تعالى على العبد شيئا من البلايا فليستشعر ماذكرناه وليجعله نصب عينيه وليجدد تذكاره على نفسه حتى يحصل له من السكون والطمأنينة مايحمل عنه أثقال ذلك ويزيل عنه مرارته و يوجده حلاوته وعند ذلك يكون حاله فى بلائه حال الشاكرين من الفرح والاغتباط به فيرى من حق شكره أن يأتى بما يمكنه من أعمال بره واعتبر جميع ماقلناه فى هذه المسئلة بالحكاية التى ذكرها أبو العباس بن العريف رحمه الله فى كتابه مفتاح السعادة ومنهاج سلوك طريق الارادة قال فيه كان بالمغرب عمره الله بالاسلام رجل يدعى أبا الخيار رحمه الله ونفعنا بذكره أصله من صقلية

(والأعمال أنت مهديها وأين ماتهديه إليه مما هو مورده عليك) فان هدية العبيد وان كانت جليلة هى حقيرة بالنسبة إلى هدية السيد و إن كانت قليلة على أن هدية العبد هنا نفعها عائد عليه لا على السيد . وحاصل ماذكر أن قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بدونها فاذا حصل للسالك بعض المعرفة ينبغى له أن يوجه قلبه إلى حضرة مولاه ليزيده من معرفته وقربه و يهتم بذلك أكثر من اهتمامه بالأعمال الظاهرة ولذا كانت أعمال العارفين الظاهرة قليلة فى أواخر أمرهم وما زالوا يحنون إلى البداية لما فيها من كثرة الأنوار بسبب كثرة الأعمال ثم قال

(تنوّعت أجناس الأعمال) على العاملين (لتنوّع واردات الأحوال) أى الواردات التى تنتج أحوالا قائمة بقلوبهم تقتضى ميلهم إلى تلك الأعمال أو واردات هى الأحوال فان الوارد قد يسمى حالا كما سيأتى يعنى أن بعض المريدين تجده مشتغلا بالصلاة و بعضهم بالصيام وهكذا وسبب ذلك وارد إلهى اقتضى ميل هذا إلى كذا وهذا إلى كذا و ينبغى لكل أحد أن يعمل بمقتضى ميله المذكور إن لم يكن تحت تربية شيخ و إلا فلا يشتغل بشىء إلا باذنه و إرادته . وحاصل ذلك أن تنوّع

الأوراد فى حق المريدين الصادقين ناشىء عن تنوّع الواردات على قلوبهم فينبغى لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم ولا يعمل بمقتضى وارد غيره ولا يعترض على ذلك الغير فى عدم اشتغاله بما اشتغل به هو ثم قال (الأعمال) الظاهرة (صور قائمة) أى كالأشخاص التى ليس فيها أرواح فلا نفع بها (وأرواحها) التى بها حياتها ونفعها (وجود سر الاخلاص) أى سر هو الاخلاص (فيها) والاخلاص يختلف باختلاف الناس فاخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلى والخفى وكل ما فيه حظ للنفس فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلبا للثواب وهربا من العقاب مع نسبة العمل إليهم والاعتماد عليه فى تحصيل ما ذكر و إخلاص المحبين هو العمل لله إجلالا وتعظيما لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب ولذا قالت رابعة العدوية ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك فنسبت العبادة إليها و إخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم فى ذلك حولا ولا قوّة فلا يعملون العمل إلا بالله لا بحولهم ولا قوّتهم وهذا أرفع مما قبله . ثم ذكر رحمه الله ما يعين على الاخلاص و يحصله بقوله :

صقلية وموطنه بغداد وجاوز سنه التسعين وهو فى الرق لم يعتقه مولاه وذلك منه عن قصد واختيار وعم جسده الجذام ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة قال الذى حدثنى رأيته يصلى على الماء ثم لقيت بعده محمدا الاسفنجى فاذا هو الأبرص فقلت له ياسيدى كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم وأنتم خاصة أوليائه قال فقال لى اسكت لا تقل ذلك إنه لما أشرفنا على خزائن العطاء لم نجد عند الله شيئا أشرف ولا أقرب إليه من البلاء فسألناه إياه فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد وقطب العباد و إمام الأولياء الأوتاد بغار فى أرض طرسوس وجبال الحمه يتناثر وجلده يسيل قيحا وصديدا وقد أحاط به الذباب والنمل فاذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة وأسكن جسده من العافية حتى يشد نفسه بالحديد و يستقبل القبلة عامة ليله حتى يطلع الفجر اه وسيأتى شىء من كلام المؤلف رحمه الله فى هذا المعنى والتنبيه عليه والله ولى التوفيق (تنوّعت أجناس الأعمال لتنوّع واردات الأحوال) واردات الأحوال هى ما يرد على القلوب من المعارف الربانية والأسرار الروحانية وهى التى توجب لها أحوالا حميدة فمنها وارد يوجب هيبة ومنها وارد يوجب أنسا ومنها وارد يوجب قبضا ومنها وارد يوجب بسطا إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال ولما كانت هذه الواردات أيضا متنوّعة كانت أجناس الأعمال التى تقتضيها هذه الواردات أيضا متنوّعة والأعمال الظاهرة أبدا تبع لأحوال القلوب الباطنة كما سيقوله المؤلف بعد هذا فى قوله حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال (الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها) إخلاص كل عبد فى أعماله على حسب رتبته ومقامه فأما من كان منهم من الأبرار فمنتهى درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلى والخفى وقصد موافقة أهواء النفس طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب وهربا عما أوعد به المخلطين من أليم العذاب وسوء الحساب وهذا من التحقق بمعنى قوله تعالى ـ إياك نعبد ـ أى لا نعبد إلا إياك ولا نشرك فى عبادتنا غيرك . وحاصل أمره إخراج الخلق عن نظره فى أعمال بره مع بقاء رؤيته لنفسه فى النسبة إليها والاعتماد عليها وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا إلى عدم رؤيته لنفسه فى عمله فاخلاصه إنما هو فى شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه فى ذلك حولا ولا قوّة و يعبر عن هذا المقام بالصدق الذى به يصح مقام الاخلاص وصاحب هذا مسلوك به سبيل التوحيد واليقين وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى ـ و إياك نستعين ـ أى لا نستعين إلا بك لا بأنفسنا وحولنا وقوّتنا فعمل الأوّل هو العمل لله تعالى وعمل الثانى هو العمل بالله فالعمل لله يوجب المثوبة والعمل بالله يوجب القربة والعمل لله يوجب تحقيق العبادة والعمل بالله يوجب تصحيح الارادة والعمل لله نعت كل عابد والعمل بالله نعت كل قاصد والعمل لله قيام بأحكام الظواهر والعمل بالله قيام بالضمائر وهذه العبارات للامام أبى القاسم القشيرى رضى الله عنه و بهذا يتبين الفرق بين المقامين وتباينهما فى الشرف والجلالة فاخلاص كل عبد هو روح أعماله فبوجود ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها و يكون فيها أهلية وجود القبول لها و بعدم ذلك

لاتتعاطى أسباب الشهرة بأن تعرض نفسك للمناصب وغيرها مما فيه انتشار الصيت فان سلكت الطريق بعد شهرتك فالواجب عليك التواضع وأن لاترى لنفسك مقاما ولاترى ماأنت فيه من المناصب وغيرها شيئا عظيما بل ترى أن الخير فى تركه لكن لاتتركه إلا باشارة أستاذك أو باذن إلهى ثم ضرب لذلك مثلا بقوله (فما نبت) من الحب (مما لم يدفن لايتم تتاجه) بل يخرج ضعيفا مصفرا لاينتفع به الانتفاع التام و إذا لم ينبت فالغالب أن يلتقطه الطائر فلا ينتفع به أيضا وكذلك السالك إذا تعاطى أسباب الشهرة فى بدايته قل أن يفلح فى نهايته و بقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الاخلاص فمبنى أمره فى الابتداء على الفرار من الخلق و إخمال الذكر وعدم حب الشهرة حتى إذا فنيت أوصافه و بقى بربه كان مع مولاه إن شاء أظهره و إن شاء أخفاه .

يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار وتكون إذ ذاك أشباحا بلا أرواح وصورا بلا معان قال بعض المشايخ صحح عملك بالاخلاص وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة . ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الحالة التى إذا كان العبد عليها كان مخلصا بالمعنيين فقال (ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) لاشىء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت لأن ذلك من أعظم حظوظه التى هو مأمور بتركها ومجاهدة النفس فيها وقد تسمح نفس المريد بترك ماسوى هذا من الحظوظ ومحبة الجاه و إيثار الاشتهار مناقض للعبودية التى هو مطالب بها قال ابراهيم ابن أدهم رضى الله عنه ماصدق الله من أحب الشهرة وقال بعضهم طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل وقال أيوب السختيانى رضى الله عنه والله ماصدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه وقال رجل لبشر بن الحرث رضى الله عنه أوصنى فقال أخمل ذكرك وأطب مطعمك وقال بعضهم رضى الله عنه ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح وقال أيضا لايجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس وقال الفضيل رضى الله عنه بلغنى أن الله عز وجل يقول فى بعض ما يمن به على عبده ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخمل ذكرك . ثم إن تلك الأشياء الراجعة إلى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدح فى إخلاص العبد على اختلاف مراتبه لأنه إما بسقوط الناس عن النظر إليهم أو بسقوط النفس عن النظر إليها ولا يثبت للمريد جميع ذلك إلا بالخمول وسقوط المنزلة عند نفسه وعند الناس لأنه إن لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الأغراض التى تبعثه على استمالة قلوب الخلق لما يرى لنفسه عليهم من الحق فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاء خفيا فينصبغ عمله بالرياء انصباغا لايتفطن له كما سيأتى عند قوله ربما دخل الرياء عليك حيث لاينظر الخلق إليك و بقدر تحققك بوصف الخمول يتحقق لك مقام الاخلاص حتى تتخلص بذلك من رؤية إخلاصك و بهذا يتبين لك إفلاس جميع الناس إلا من رحم الله تعالى وأن الاخلاص فى غاية الصعوبة على النفس وأنه أعز الأشياء فى الوجود وقيل لسهل بن عبد الله رضى الله عنه أى شىء أشد على النفس قال الاخلاص لأنها ليس لها فيه نصيب وقال يوسف بن الحسين رضى الله عنه أعز شىء فى الدنيا الاخلاص وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه والاخلاص عند المخلصين إخراج الخلق عن معاملة الخالق وأول الخلق النفس والاخلاص عند المحبين أن لايعمل عملا لأجل النفس و إلا دخل عليه مطالبة العوض أو تشوف إلى حظ طبع والاخلاص عند الموحدين خروج الخلق عن النظر إليهم فى الأفعال وترك السكون والاستراحة بهم فى الأحوال اه فاذا أخمل العبد نفسه وألزمها التواضع والذلة واستمر على ذلك حتى صار له خلقا وجبلة بحيث لايجد لضعته ألما ولا لذلته طعما فحينئذ تتزكى نفسه و يستنير بنور الاخلاص قلبه و ينال من ربه أعلى درجات الخصوصية و يحصل على أوفر نصيب من المحبة الحقيقية قال الشيخ أبو طالب ومتى ذل فى نفسه واتضع عند نفسه فلم يجد لذلته طعما ولا لضعته حسا فقد صار الذل والتواضع كونه فهذا لا يكره الذم من الخلق لوجود النقص فى نفسه ولايحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة فى نفسه فصارت الذلة والضعة صفة له لاتفارقه لازمة لزوم الزبالة للزبال والكساحة للكساح وهما صنعتان له كسائر الصنائع وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما فهذه ولاية عظيمة له من ربه قد ولاه على نفسه وملكه عليها فقهرها بعزه وهذا مقام محمود محبوب و بعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب ثم قال ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه كما يطلب المستكبر العز و يستحليه إذا وجده فان فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله كما أن المتعزز إذا

قال سيدى أبو العباس قدس الله سره من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه اه

إذا فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه لأن ذلك حياة نفسه اه فاذن لابد للمريد من إسقاط جاهه وإخمال ذكره وفراره عن مواضع اشتهاره وتعاطيه أمورا مباحة تسقطه من أعين الناس كقصة السائح الذى سمع به ملك زمانه فجاء إليه فلما علم بذلك السائح استدعى بقلا وجعل يأكله أكلا عنيفا بمرأى من الملك فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره وانصرف عنه ذاما له وسيأتى نص هذه القصة بعد هذا عند قوله ربما دخل الرياء عليك حيث لا ينظر الخلق إليك . وقد بالغ أئمة الصوفية رضى الله عنهم فى مداواة علة الجاه الذى علق بالقلوب حتى استعملوا فى ذلك أشياء منكرة فى ظاهر الشرع ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه ويأمروا به وذلك مثل قصة الرجل الذى دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر ومشى بذلك متحيرا بحيث يرى ويظن به السرقة فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ونزعوا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام فحينئذ وجد قلبه . ومثله ما يروى عن أبى يزيد رضى الله عنه فى قصة الشاهد الذى أمره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز فى عنقه وإعطائه لمن يصفعه من الصبيان وطوافه على تلك الحالة فى المحافل والمحاضر والحكايتان مشهورتان ذكرهما الامام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه وغيره . وقال بعض المصنفين وإذا جاز لمن غص بلقمة من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره مع أن تحريمه مقطوع به ولا يفوته إلا حياة فانية فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين أولى إذ يفوته بذلك الحياة الباقية والقرب من الله تعالى فاذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات ماتت نفسه وحيى قلبه وقرب من حضرة ربه واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام وتلك الثمرة أخلاق الايمان التى تكيفت بها نفسه وصارت كصفات ذاتية له وهى نتيجة الحكمة التى أنبتها الله فى قلوب عباده المتواضعين — ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا — قال عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : أين تنبت الحبة قالوا فى الأرض فقال عيسى عليه الصلاة والسلام : كذلك الحكمة لا تنبت إلا فى قلب مثل الأرض . قلت وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة منها ما روى أبو أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله عز وجل إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك ثم نفض يده فقال عجلت منيته قلت بواكيه قل تراثه » وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » وروى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن يسيرا من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى نوه فيه باسم أويس القرنى وأشاد بذكره ونبه على عظيم أمره رضى الله عنه أنه قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حلقة من أصحابه إذ قال ليصلين معكم غدا رجل من أهل الجنة قال أبو هريرة فطمعت أن أكون ذلك الرجل فغدوت فصليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فأقمت فى المسجد حتى انصرف الناس فبقيت أنا وهو صلى الله عليه وسلم فبينما نحن كذلك إذ أقبل رجل أسود متزر بخرقة مرتد برقعة فجاء حتى وضع يده فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا نبى الله ادع الله لى بالشهادة فدعا النبى صلى الله عليه وسلم له بالشهادة وإنا لنجد منه ريح المسك الأذفر فقلت يا رسول الله أهو هو قال نعم إنه لمملوك

بنى فلان قلت أفلا نشتريه فتعتقه يانبى الله فقال وأنى لى بذلك إن كان الله تعالى يريد أن يجعله من ملوك الجنة ياأبا هريرة إنّ لأهل الجنة ملوكا وسادة و إنّ هذا الأسود أصبح من ملوك الجنة وساداتهم ياأباهريرة إنّ الله عزّ وجل يحبّ من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء الشعثة رءوسهم المغبرّة وجوههم الخمصة بطونهم من كسب الحلال الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم و إن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا و إن غابوا لم يفتقدوا و إن حضروا لم يدعوا و إن طلعوا لم يفرح بطلعتهم و إن مرضوا لم يعادوا و إن ماتوا لم يشهدوا قالوا يارسول الله كيف لنا برجل منهم قال ذلك أويس القرنى قالوا وما أويس القرنى قال أشهل ذو صهوبة بعيد ما بين المنكبين معتدل القامة آدم شديد الأدمة ضارب بذقنه إلى صدره رام بنظره إلى موضع سجوده واضع يمينه على شماله يتلوا القرآن يبكى على نفسه ذو طمرين لايؤبه له متزر إزار صوف ورداء صوف مجهول فى أهل الأرض معروف فى أهل السماء لو أقسم على الله لأبرّ قسمه ألا و إن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء ألا و إنه إذا كان يوم القيامة قيل للعباد ادخلوا الجنة و يقال لأويس القرنى قف فاشفع فيشفعه الله فى مثل عدد ربيعة ومضر ياعمر و ياعلى إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه يستغفر لكما يغفر الله لكما وذكر باقى الحديث . وفى حديث آخر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يكون فى أمتى رجل يقال له أويس القرنى يدخل فى شفاعته عدد ربيعة ومضر لو أقسم على الله لأبرّه فمن لقيه بعدى فليقرئه منى السلام ثم سئل عن علامته ؟ فقال هو رجل أصهب أشهل ذو طمرين أبيضين له أم وقد كان به بياض فدعا الله عزّ وجلّ فأذهبه عنه إلا مقدار الدينار أو الدرهم لايؤبه له مجهول فى الأرض معروف فى السماء » وكان قد بلغ من شدّة خموله ونهاية ضعفه أن الناس كانوا يسخرون منه و يستهزءون به و يؤذونه و يرون فيه أهلية الخداع والتلصص و ينسبونه إلى ذلك فقد روى فى ذلك أنه دفع إليه بعض فقهاء الكوفة ثوبين وكان يجالسه فانقطع عن مجلسه لأجل العرى فردّهما عليه بعد أن أخذهما منه وقال إن الناس يقولون من أين له هذان الثوبان ترى من خدع عليهما وكان فى ذلك الوقت يجالس الفقهاء و يظهر للناس وذلك قبل أن يعرف برفعة القدر وجلالة الخطر وتنويه عمر رضى الله عنه به على المنبر فلما رأى أن الناس عرفوا حاله هرب عنهم واستخفى منهم ولبس أمره عليهم برعاية الإبل وغير ذلك وقيل لعمر رضى الله عنه لما سأل عنه قومه مافينا أخمل منه ذكرا فلما لقيه هو وعلى رضى الله عنهما وسأله من هو فقال له راعى غنم وأجير قوم وستر ذكر أويس فلما سأله عن اسمه قال له عبد الله فلما سأله عن اسمه الذى سمته به أمه امتنع أن يجيبه عن ذلك فلما أخبراه بوصف النبى صلى الله عليه وسلم له وأنهما عرفاه بذلك قال لهما عسى أن يكون ذلك غيرى فلما قال له أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء وطلبا منه أن يوضحها لهما لم يجد بدا من أن يوضحها لهما وذلك والله أعلم ليريهما رؤية عين صحة قول النبى صلى الله عليه وسلم وصدقه فى إخباره بالغيب وذلك أمر واجب عليه وإلا فلعله كان يتعلل لهما كما فعله فى كل ماسئل عنه ثم بعد ذلك لما سأله عمر رضى الله عنه أن يلتقى معه و يجعل ذلك الموضع ميعادا بينه و بينه قال له ياأمير المؤمنين لاميعاد بينى و بينك ولا أعرفك ولا تعرفنى بعد اليوم ثم دفع الإبل إلى أصحابها وخلا عن الرعاية وكذلك فعل مع هرم بن حيان رضى الله عنه لما لقيه بشاطئ الفرات ووقع بينهما التعرّف قال له حدثنى بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحفظه عنك فقال له لا أحب أن أفتح هذا الباب على نفسى لا أحب أن أكون محدّثا ولا مفتيا ولا قاضيا فلما فرغا من الكلام الذى كانا بصدده سأله مداومة الاجتماع به فأبى وامتنع وقال له لا أراك بعد اليوم تطلبنى ولا تسأل عنى انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا ثم بعد ذلك اجتهد فى طلبه والبحث عنه

(مانفع القلب) أى قلب المريد فى التطهر من غفلاته والقرب إلى حضرة مولاه (شئ مثل عزلة) أى اعتزال عن الناس (يدخل بها ميدان فكرة) أى فكرة شبيهة بالميدان لتردد القلب فيها كتردد الخيول فى الميدان فالمريد إذا كان مخالطا للناس اشتغل نظره بالمحسوسات فلا يتفكر قلبه إلا فيها ولا يزال ناظرا إلا لعالم الشهادة فاذا اعتزلهم انعكس الحال وجال قلبه

فى عالم الغيب وقد جاء فى الخبر « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة» وقيل لأم الدرداء ما كان أفضل أعمال أبى الدرداء قالت التفكر وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء و إلى تعظيم الله وتعظيم كل مايرضيه فيفعله وتحقير كل مايسخطه فيجتنبه و يطلع به على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا و يتعرف به وجوه الحيل فى التباعد عنها ويسلم به من الآفات الناشئة عن مخالطة أهلها و بالعزلة المذكورة يحصل التمرن على الخلوة التى هى أحد أركان الطريق الأربعة بالنسبة للمريدين وباقيها الصمت والجوع والسهر و بهذه الأربعة تصير الأبدال أبدالا وهذا كله فى حق المريد الذى يسلك بنفسه فان كان تحت تربية شيخ فلابد من مخالطته ومخالطة

فلم يقع له على خبر ومن عجيب أمره أن حقق الله تعالى له هذا الحال من التخفى والتستر وأتمه له بعد موته مع ماأظهره بسببه من الآيات والعبر حينئذ قال عبد الله بن سلمة غزونا أذربيجان زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعنا أويس القرنى رضى الله عنه فلما رجعنا مرض فمات فنزلنا فاذا قبر محفور وماء مسكوب وحنوط فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه فقال بعضنا لبعض لو رجعنا فعلمنا قبره فرجعنا فاذا لاقبر ولا أثر . قلت والحكايات والآثار فى مدح الخمول وذم الاشتهار أكثر من أن يأتى عليها انحصار وقد أورد كثيرا منها الأئمة المصنفون فى هذا العلم فليطالع ذلك المريد مستمدا من الله تعالى أحسن التوفيق والتأييد وتعبير المؤلف رحمه الله تعالى ههنا بالدفن والأرض والنبات والنتاج من ملح الاستعارات (مانفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة) مداواة أمراض القلب واجبة على المريد وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للأضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده إلى هوى النفس وأنسه بعالم الحس ومداواة هذا المرض تأتى من وجوه كثيرة وأبلغها فى ذلك وأنفعها العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة من لاتصلح مخالطته ومن لايؤمن دخول الآفات عليه بصحبته فيتخلص بذلك المعتزل من المعاصى التى تعرض له بالمخالطة مثل الغيبة والمداهنة والرياء والتصنع و يتحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة و يستفيد بذلك أيضا صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشرور والفتن فان للنفس تولعا وتسارعا إلى الخوض فى مثل هذا فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس وماهم مشغولون به ومنهمكون فيه ومنكبون عليه و يصون سمعه عن الاصغاء إلى أراجيف البلدان وما اشتملت عليه من الأحوال التى ذكرناها وليحرص على أن لايغشاه فى خلوته وعزلته من شأنه التطلع لذلك والبحث عنه وليجتنب صحبة من لايتورع فى منطقه ولا يضبط لسانه عن الاسترسال فى دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس والقدح فيهم فان ذلك مما يكدر صفاء القلب و يؤديه إلى ارتكاب مساخط الرب فليهجره المعتزل وليفر منه فراره من الأسد ولا يجتمع معه فى مكان ألبتة وليتنكر إلى كل من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين فضلا عن غيرهم كما قال بعضهم أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لاتعرف وفى الخبر مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه وفى الأخبار السالفة أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام يا ابن عمران كن يقظان وارتد لنفسك إخوانا وكل أخ أو صاحب لايوازرك على مبرتى فهو لك عدو وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال له ياداود مالى أراك منتبذا وحدانيا فقال إلهى قليت الخلق من أجلك فقال يا داود كن يقظان وارتد لنفسك أخدانا وكل خدن لايوافقك على مبرتى فلا تصحبه فانه لك عدو ويقسى قلبك ويباعدك منى وما أحسن قول أبى اسحق ابراهيم بن مسعود الالبيرى فى هذا المعنى :

خف أبناء جنسك واخش منهم ... كما تخشى الضراغم والسبنتى
وخالطهم وزايلهم حذارا ... وكن كالسامرى إذا لمستا

الاخوان الذين يعينونه على سلوك الطريق فاذا ذهبت رعونات نفسه وصار من العارفين فلا تضره مخالطة الخلق أجمعين لأنه حينئذ لايرى غير الله تعالى . واعلم أن الفكرة هى المقصود والعزلة وسيلة لها ومعينة عليها . ثم بين الأمور التى تصيب القلب إذا لم يحصل له تطهير بعزلة ولا فكرة بقوله

و بالعزلة أيضا يجتمع همه و يقوى فى ذات الله عزمه بخلاف الخلطة فانها تفرق الهم وتضعف العزم فقد قيل إن العبد ليعقد فى خلوته على خصال من الخير يعملها فاذا خرج إلى الناس حللوا عليه ذلك عقدة عقدة حتى يرجع إلى بيته وقد انحلت العقد كلها وروى عن عيسى عليه السلام لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم قيل ومن الموتى قال المحبون للدنيا الراغبون فيها وفى الخبر المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين» وضعف اليقين إنما يكون من رؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة قال أبو طالب المكى رضى الله عنه وأضر ما ابتلى به العبد وأدخله وأعمله فى هلاكه وأشده لحجبه و إبعاده ضعف يقينه لما وعد من الغيب وتوعد عليه بالشهادة وقوة اليقين أصل كل عمل صالح وقال بعض هذه الطائفة قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق قال لا تنظر إلى المخلوقات فان النظر إليهم ظلمة قلت لا بدّلى منهم قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لا بدلى منهم قال فلا تعاملهم فان معاملتهم خسران ووحشة قلت أنا بين أظهرهم لا بدلى من معاملتهم قال فلا تسكن إليهم فان السكون إليهم هلكة . قلت هذه العلة قال ياهذا تنظر إلى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عز وجل هيهات هذا لا يكون أبدا . و بالعزلة أيضا ينكف بصره عن النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها و ينصرف خاطره عن الاستحسان إلى ما ذمه الله تعالى من زخرفها فتمتنع بذلك النفس عن التطلع اليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها فيها قال الله تعالى ــ ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ــ الآية ولا ينبغى لأحد أن يستحقر هذا فانه يؤدى إلى أمراض عظيمة فى القلب ومن اعتزل الناس سلم باذن الله تعالى منها قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات قال وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضات اه وقال محمد بن سيرين رضى الله عنه إياك وفضول النظر فانه يؤدى إلى فضول الشهوة وقال بعض الأدباء من كثرت لحظاته دامت حسراته وقال إن العين سبب الحين . ومن أرسل طرفه اقتنص حتفه و إن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلب وقد أنشدوا فى هذا المعنى .

و إنك إن أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

و بذلك ينقطع طمعه عن الناس و يحصل له منهم الاياس وذلك من أعظم فوائد العزلة عند العقلاء الأكياس . ولا تتمّ له منفعة العزلة إلا باشتغال القلب بالفكرة وهى المقصودة ههنا وكانت العزلة مقدّمة لها ومعينة عليها وذلك بعد تقديم ما يحتاج إليه من علوم الشرع الظاهرة والقيام بمراعاة آدابه الباطنة وقد ذكر منها الشيخ أبو حامد الغزالى جملة شافية فى كتاب العزلة من الاحياء فلينظر هناك وقد جاء فى الخبر تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة وكذا هو والله أعلم وكان عيسى ابن مريم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول « طوبى لمن كان قوله ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرا إن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » وقال كعب من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر وقيل لأم الدرداء ما كان أفضل عمل أبى الدرداء قالت التفكر وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء وتبين الحق من الباطل والنافع من الضارّ و يطلع به أيضا على خفايا آفات النفس ومكايد العدوّ وغرور الدنيا و يتعرّف به وجوه الحيل فى التحرّز عنها والطهارة منها قال الحسن البصرى رضى الله عنه الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك و يطلع أيضا بها على عظمة الله

(كيف يشرق قلب صور الأكوان) أى المكوّنات من الآدميين وغيرهم (منطبعة فى مرآته) باعتقاده أنها تضر وتنفع وتطلعه لها فى حصول أمر ما من الأمور وتعلقه بها (أم كيف يرحل) أى يسير (إلى الله وهو مكبل) أى مقيد (بشهواته) النفسية والمقيد لا يمكنه السير (أم كيف يطمع أن يدخل) ذلك القلب (حضرة الله) بأن يشاهده (وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته) أى من غفلاته الشبيهة بالجنابة فكما يمنع الجنب من دخوله المسجد كذلك يمنع من استولت عليه الغفلة من دخوله حضرة الرب

تعالى وجلاله إذا تفكر فى آياته ومصنوعاته و يطلع بها أيضا على آلائه الجلية والخفية فيستفيد بذلك أحوالا سنية يزول بها مرض قلبه و يستقيم بسببها على طاعة ربه . قلت والعزلة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى تتضمن وجود الخلوة وهى أحد الأركان الأربعة التى هى أساس المريدين و يلزم عنها من الثلاثة الباقية الصمت إذ لا يتأتى من أكثر الناس إلا بالخلوة والعزلة فان أضاف إليها المريد الركنين الباقيين وهما الجوع والسهر فقد حصل على كلية الهواء والتحق بزمرة الأولياء والبدلاء . قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه اجتمع الخير كله فى هذه الأربع خصال و بها صار الأبدال أبدالا : خماص البطون والصمت والخلوة والسهر . وقال الشاعر وجمعها فى نظمه :

يامن يروم منازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن فيها فلست من أهلها ... إن لم تزاحمهم على الأحوال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالى

(كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته) الجمع بين الضدين محال كاجتماع الحركة والسكون والنور والظلمة وهذه الأشياء التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى أضداد لا تجتمع فان إشراق القلب بنور الايمان واليقين مضاد للظلمة التى استولت عليه من ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها والسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضادّ للاعتقال فى حبس الهوى والشهوات ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة غفلاته التى مقتضاها الاقصاء والابعاد وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضادّ للاصرار على المعاصى والهفوات وإليه الاشارة بقوله عز من قائل ــ واتقو الله ويعلمكم الله ــ و بما روى فى بعض الأخبار «من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم» قال يحيى بن معين رحمه الله تعالى التقى أحمد بن حنبل وأحمد بن أبى الحوارى فقال ابن حنبل لابن أبى الحوارى يا أحمد حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبى سليمان فقال يا أحمد قل سبحان الله بلا عجب فقال ابن حنبل سبحان الله وطولها بلا عجب فقال ابن أبى الحوارى سمعت أبا سليمان يقول إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت فى الملكوت وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالم علما قال فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وجلس ثلاثا وقال ما سمعت فى الاسلام بحكاية أعجب إلىّ من هذه ثم ذكر الحديث الذى ذكرناه «من عمل بما يعمل ورثه الله علم مالم يعلم» . ثم قال لأحمد بن أبى الحوارى صدقت يا أحمد وصدق شيخك ولأجل كون هذه الأشياء أضدادا عجب المؤلف رحمه الله تعالى ممن يعتقد صحة اجتماعها وممن طمع فى نيل

(أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار) وهى العلوم الدقيقة التى ترد على قلوب العارفين (وهو لم يتب من هفواته) وهى ما يصدر منه من المعاصى لا عن قصد وإنما تعجب المصنف من ذلك لما فيه من الجمع بين الأضداد وهو محال وهذه الأشياء المذكورة متضادّة فان إشراق القلب بنور الايمان واليقين مضادّ للظلمة التى استولت عليه بالركون إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها والسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضاد للاعتقال فى حبس الهوى والشهوات ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة القلب ونزاهته مضاد لما هو عليه من جنابة الغفلات التى مقتضاها الابعاد وفهم دقائق الأسرار المستفادة من التقوى مضاد للاصرار على المعاصى والهفوات وإليه الاشارة بقوله تعالى ــ واتقوا الله ويعلمكم الله ــ و بما روى فى بعض الأخبار «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم» وكل واحد من هذه الأربعة سبب فيما بعده فانطباع صور الأكوان فى مرآة القلب سبب فى تكبله بالشهوات والتكبل بها سبب فى الغفلة وهى السبب فى كلّ هفوة والهفوة سبب فى عمى القلب . ثم شرع رحمه الله يتكلم على شىء من المعارف لينشط المريد حتى يدرك ذلك ذوقا فتكلم على وحدة الوجود التى أفردت بالتأليف فقال :

(الـكون) أى الـكوّنات أى الموجودات بأسرها (كله ظلمة) أى عدم محض لاوجود له فى نظر أرباب الشهود (و إنما أناره) أى أوجده (ظهور الحق) أى الله (فيه) كظهور الشمس فى الـكوّة ذات الزجاج فليس هناك إلا وجود واحد وهو وجود الحقّ و بظهوره فى الأشياء وجدت على حسب ماتقتضيه طبائعها وليس لها وجود فى ذاتها و إذا كان كذلك (فمن رأى الـكون) أى شيئامنه (ولم يشهده فيه أوعنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه) أى فاته (وجود الأنوار) الالهية التى يدرك بها مشاهدة الله على أى وجه من الوجوه المذكورة (١٨) (وحجبت عنه شموس المعارف) أى المعارف التى كالشموس (بسحب الآثار) أى بالآثار وهى الأكوان التى كالسحب جمع سحاب بجامع أن كلا يحجب ماوراءه وأشار المصنف رحمه الله بذلك إلى اختلاف أحوال أرباب المشاهدة فى شهودهم فمنهم من يشاهد الـكون قبل الأكوان فاذا وقع بصره على شئ كحيوان شاهد قيام الحقّ به وظهوره فيه وأنه المحرك والمسكن له قبل أن يخطر له كونه آدميا أو شاة طويلا أو قصيرا إلى غيرذلك ومنهم من يشاهد ذلك بعد كونه حيوانا ومنهم من يشاهده معه ومنهم من يشاهده فيه وهو ظرف متسع وهذا تقريب للأفهام و إلا فهذا أمر لا يدرك إلا بالذوق وما كان كذلك تقصرعنه العبارة (مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه) خطاب لعامة الناس (بما ليس بموجود معه) اتفقت مقالات العارفين و إشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكر من أنّ ماسوى الله عدم محض من حيث ذاته لايوصف بوجود مع الله تعالى . قال بعض العارفين : أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية و إحاطة الديمومية اه . ومع كون ماذكر عدما فهوحجاب عن الله تعالى فانّ الناس لايشهدون عندنظرهم للأكوان إلا هى ولايشاهدون مكوّنها مع أنها لاوجود لها والوجود إنما هوله سبحانه فهذا مما يقضى منه العجب. ثم ذكر أدلة تدل على أنه لاينبغى أن يحتجب بتلك الأكوان وأن

مراتب الرجال مع كونه على أقبح الخلال (الـكون كله ظلمة و إنما أناره ظهور الحق فيه فمن رأى الـكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار) العدم ظلمة والوجود نور فالـكون بالنظر إلى ذاته عدم مظلم و باعتبار تجلى نور الحقّ عليه وظهوره فيه وجود مستنير ثم اختلف أحوال الناس ههنا فمنهم من لم يشاهد إلا الأكوان وحجب بذلك عن رؤية المكوّن فهذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب آثار الكائنات ومنهم من لم يحجب بالأكوان عن المكون ثم هم فى مشاهدتهم إياه فرق فمنهم من شاهد المكون قبل الأكوان وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار ومنهم من شاهده بعد الأكوان وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر ومنهم من شاهد مع الأكوان والمعية ههنا إمامعية اتصال وهو شهوده فى الأكوان و إما معية انفصال وهو شهوده عند الأكوان وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولامكانية لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان والاتصال والانفصال المذكوران ليسا على ما يفهم من معانيهما فانهما أيضا من جملة الأكوان ومعرفة تفصيل هذه الأمور والتفرقة بين هذه الحقائق على ماهى عليه موكول إلى أربابه فلنقتصر على ماذكرناه فههنا زلت أقدام كثير من الناس فتكلموا بكلمات موهمة وعبروا بعبارات منكرة فى الشرع فكفروا بذلك و بدعوا فاعتقد كمال التنزيه و بطلان التشبيه وتمسك بقوله عزّ وجلّ ـ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ـ سبحانه لاإله غيره (مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه) اتفقت مقالات العارفين والمحققين و إشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكرناه قبيل هذا من أنّ ماسوى الله تعالى عدم محض من حيث ذاته لا يوصف بوجود مع الله سبحانه وتعالى إذ لو وصف به لـكان ذلك شركة واثنينية وهو مناقض لاخلاص التوحيد قال الله تعالى ـ كلّ شئ هالك إلا وجهه ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر :

ألا كلّ شئ ماخلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل

قال بعض العارفين أبى المحققون أن يشهدوا غيرالله لما حققهم به من شهود القيومية و إحاطة الديمومية وقال سيدى أبوالحسن الشاذلى رضى الله عنه إننا لننظر إلى الله ببصر الايمان والايقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان ونستدل به على الخلق هل فى الوجود شئ سوى الواحد الحق فلانراهم و إن كان ولابد فنراهم كالهباء فى الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئا وقال أيضا رضى الله عنه قوى علىّ الشهود مرة فسألته أن يستر ذلك عنى فقيل لى لوسألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد صفيه صلوات الله عليهم أجمعين لم يفعل ولـكن سله أن يقوّيك فسألته فقوّانى . قال ابن عطاء فى التنوير فماسوى الله تعالى عند أهل المعرفة لايوصف بوجود ولافقد إذ لايوجد معه غيره لثبوت أحديته ولافقد لغيره لأنه لا

الاحتجاب بها إنما هو للعوام فقال: (كيف يتصوّر أن يحجبه شيء وهو الذى أظهر كل شيء) بما أشرق عليه من نور الوجود وقد كان فى ظلمة العدم كما تقدم فبظهوره فى الأشياء ظهرت و إذا كان ظهور الأشياء متوقفا عليه (١٩) فيستحيل أن تحجبه حتى يكون خفيا غير ظاهر فان الاظهار إنما يفيد ظهور المظهر لا خفاءه (كيف يتصوّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء) حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء كما قال تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ وذلك لأن الأثر يدل على المؤثر ويعرف به فهذا مقام المستدلين الضعفاء (كيف يتصوّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء) بذاته كما يقوله أهل الشهود أو بمحاسن صفاته وأسمائه كما يقوله أهل الحجاب فالأشياء كلها مجالى ومظاهر لظهور معانى أسمائه التى هى تفاصيل معانى صفاته فيظهر فى أهل العزة كونه معزا وفى أهل الذلة كونه مذلا وفى الأحياء معنى اسمه المحيي وعند سلب الأرواح معنى اسمه المميت وعند العطاء معنى اسمه المعطى وعند المنع معنى اسمه المانع وعند إفاضة الفضل معنى اسمه الكريم وعند إجابة الدعاء معنى اسمه المجيب وعند تسليطه المضار وجلب المنافع معنى اسمه الضار النافع إلى غير ذلك (كيف يتصوّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شيء) أى تجلى لكل شيء حتى عرفه ولذا كان ساجدا له ومسبحا بحمده ولكن لا نفقه ذلك فكل شيء عارف به على قدر تجليه له و إن كان فى الأشياء من لا يقدر الله حق قدره

لا يفقد إلا ما وجد ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ولأشرق نور الايقان فغطى وجود الأكوان وهذا الكلام هو بسط ماذكره فى الكتاب ، وقال بعضهم لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فانه لاغير معه حتى أشهده معه ، وقال الشاعر :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا ... وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمعت ماخشيت افتراقا ... وأنا اليوم واصل مجموع

وقال آخر:

الله قل وذر الوجود وماحوى ... إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والاجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا بأن لم يشهدوا ... شيئا سوى المتكبر المتعالى
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ... فى الحال والماضى والاستقبال

وقد صنفوا فى بيان هذا الأمر تصانيف وتفننوا فى الكلام فى هذا المعنى نظما ونثرا وكل عبر على حسب شربه وذوقه جزاهم الله عنا خيرا . فاذا تقرر هذا ووجدنا أكثر الناس قد حجبوا عن الله تعالى بشهواتهم الدنيوية ودرجاتهم الأخروية ومقاماتهم العلوية فكل ذلك من الأغيار العدمية والوجودات الوهمية علمنا بذلك وجود قهره إذ من أسمائه تعالى القهار ولو ارتفع الحجاب عنهم لفنوا عن أنفسهم و إرادتهم و بقوا بربهم وكانوا عباد الله حقا. وقد سئل أبو سعيد بن الأعرابى رضى الله عنه عن الفناء فقال الفناء أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق فى التعظيم عقله اهـ قالوا والفناء على ثلاثة أوجه : فناء فى الأفعال ومنه قولهم لا فاعل إلا الله . وفناء فى الصفات أى لا حى ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله . وفناء فى الذات أى لا موجود على الاطلاق إلا الله تعالى ، وأنشدوا فى ذلك :

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى ... فكان فناؤه عين البقاء

وقال سيدى محيي الدين من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز ومن عهدهم عين العدم فقد وصل ، وأنشدوا فى هذا المعنى :

من أبصر الخلق كالسراب ... فقد ترقى عن الحجاب ... إلى وجود يراه رتقا
بلا ابتعاد ولا اقتراب ... ولم يشاهد به سواه ... هناك يهدى إلى الصواب
فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب

(كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى أظهر كل شيء) بما أشرف عليه من نور الوجود وقد كان فى ظلمة العدم كما تقدم (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء) حتى استدل عليه المستدلون بالأشياء كما قال تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء) إذ هو المتجلى فيها بمحاسن صفاته وأسمائه (كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شيء) فى طور ذلك الشيء ولذلك كان ساجدا له ومسبحا بحمده ولكن لا نفقه ذلك

لنقص معرفته وقصورها لا لانتفاء أصلها (كيف يتصوّر أن يحجبه شئ وهو الظاهر قبل وجود كل شئ) لتحقق هذا الاسم له أزلا وأبدا فظهوره تعالى ذاتى له غير مكتسب ولامستفاد ولامعلول وظهور الأكوان ناشئ من تجليه عليها بصفة الظهور فكيف تكون حاجبة له (كيف يتصوّر أن يحجبه شئ وهو أظهر من كل شئ) لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال ولأن الظهور الذاتى أقوى من العرضى والظهور المطلق أقوى من المقيد والدائم أقوى من المنصرم وإنما لم يدرك للعقول مع شدة ظهوره لأن شدة الظهور لا يطيقها الضعفاء كالخفاش يبصر بالليل دون النهار لا لخفاء النهار واستنارته بل لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فيكون شدة ظهور النهار مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره فكذلك العقول ضعيفة وجمال الحضرة الالهية فى غاية الاشراق والاستنارة فصارت شدة ظهوره سببا لخفائه (كيف يتصوّر أن يحجبه شئ وهو الواحد الذى ليس معه شئ) إذ كل شئ سواه عدم لا وجود له على التحقيق فليس ثم شئ يحجبه إذ الوجود الحقيقى كله له ولا شئ منه لغيره (كيف يتصوّر أن يحجبه شئ وهو أقرب إليك من كل شئ) لثبوت إحاطته بك وقيوميته عليك قال تعالى: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. فهو قريب لنا بذاته عند أهل الشهود وأما أهل الحجاب فيقولون هو قريب بعلمه وقدرته وإرادته إلى غير ذلك (كيف يتصوّر أن يحجبه شئ ولولاه ما كان وجود كل شئ) حتى استدل به الشاهدون على الأشياء قال تعالى — أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد — ومقتضى ولو أسقط لفظ كل لكان أظهر فى إفادة العموم والقصد بهذا الكلام المبالغة فى نفى الحجاب فلا يضر كون هذا الوجه بمعنى الوجه الأول وبعضهم أثبت التغاير بينهما بما فيه كلفة (ياعجبا كيف يظهر الوجود فى العدم) لأن العدم ظلمة والوجود نور وهما ضدان لا يجتمعان (أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم) لأن الحادث باطل والله تعالى حق والباطل لا يثبت مع ظهور الحق قال تعالى — وقل جاء الحق وزهق الباطل — إن الباطل كان زهوقا . فالظاهر والثابت هو الحق تعالى لا الكون وما بدا إلا وجه الحق فهو المظهر والظاهر والموجود دون كل المظاهر والتعجب المذكور ناشئ من غلبة الشهود فانه إذا قوى على العبد اضمحلت الأكوان فى نظره وفنى عنها بالمرة (ماترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه)

(كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الظاهر قبل وجود كل شئ) لتحقق هذا الاسم له أزلا وأبدا (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أظهر من كل شئ) لأن الوجود أظهر من العدم على كل حال (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو الواحد الذى ليس معه شئ) إذ كل ماسواه عدم لا وجود له على التحقيق (كيف يتصور أن يحجبه شئ وهو أقرب إليك من كل شئ) لثبوت إحاطته بك ووجود قيوميته عليك (كيف يتصور أن يحجبه شئ ولولاه ما كان وجود كل شئ) حتى استدل به الشاهدون على الأشياء كما قال الله تعالى — أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد — (ياعجبا كيف يظهر الوجود فى العدم) لأن العدم ظلمة والوجود نور وهما ضدان لا يجتمعان (أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم) لأن الباطل لا يثبت مع ظهور الحق كما قال الله تعالى — وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — وقال عز من قائل — بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق — . قلت وهذا الفصل من قوله الكون كله ظلمة إلى هنا أبدع فيه المؤلف غاية الابداع وأتى فيه بما تقر به الأعين وتلذ به الأسماع فانه رضى الله عنه ذكر جميع متعلقات الظهور وأبطل حجابية كل ظلام ونور وأراك فيه الحق رؤية عيان وبرهان ورفعك من مقام الايمان إلى أعلى مراتب الاحسان كل ذلك فى أوجز لفظ وأفصح عبارة وأتم تصريح وألطف إشارة فلو لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافيا شافيا فجزاه الله عنا خيرا ثم قال رضى الله عنه (ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه) إذا أقام الله تعالى العبد فى حال من الأحوال التى لا يذمها الشرع فليلتزم حسن الأدب فى اختيار بقائه عليها ورضاه بها وليراقب الله تعالى فى مراعاة آدابها وليوافق مراد الله تعالى فى ذلك حتى يكون هو الذى ينقله عنها قال أبو عثمان رضى الله تعالى عنه منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ولا نقلنى إلى غيره فسخطته وقد تقدم حكاية المؤلف رحمه الله تعالى مع شيخه أبى العباس المرسى حين عزم على التجرد وترك ما كان عليه من الاشتغال بالعلم الظاهر وما أجابه به الشيخ رضى الله تعالى عنه وهذا من نتائج العلم بالله تعالى ومعرفة ربوبيته فان سخط تلك الحال وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسه وأراد أن يحدث غير ما أظهره الله تعالى فقد بلغ غاية الجهل بربه وأساء الأدب فى حضرة مولاه عز وجل وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير إليه الصوفية وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة فالواجب على العبد الاستسلام لحكم الله تعالى فى ذلك الوقت فهو أدب العبودية

فاذا كان المريد فى حال بدنى أوقلبى لايذمه الشرع لزمه حسن الأدب فى اختيار بقائه عليه ورضاه به حتى ينقله الله عنه فاذا كان متجردا وتعلق قلبه بالتكسب أوكان فى صنعة وأراد الانتقال عنها لغيرها كان قليل الأدب مع مولاه جاهلا بما يناسب حضرته وكذا إن كان فى حال قبض وأراد الانتقال عنه إلى البسط قال بعضهم لى منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا نقلنى إلى غيره فسخطته وهذا من نتائج العلم بالله ومعرفة ربوبيته فان سخط تلك الحال وتشوّف إلى الانتقال عنها بنفسه وأراد أن يحدث غير ما أظهر الله تعالى فقد بلغ غاية الجهل بربه وإساءة الأدب فى

حضرته وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير إليه الصوفية وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس) فاذا كان المريد مشتغلا بحال من أحوال دنياه وكان ذلك يمنعه من الأعمال التى يتوصل بها إلى حضرة مولاه وأحال ذلك على فراغه من تلك الأشغال فقال إذا تفرغت عملت كان ذلك دليلا على رعونة نفسه والرعونة ضرب من الحماقة وذلك لتسويفه العمل إلى فراغ أوانه وقد لايجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أويزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض ولو فرض أنه تفرغ منها فقد يتبدل عزمه وتضعف نيته فالواجب عليه النهوض إلى مايوصله إلى مولاه قبل الفوات ولذا قيل الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك (لاتطلب منه أن يخرجك من حالة) دنيوية كصناعة أودينية كطلب علم (ليستعملك فيما سواها) لتوهمك أن ما أنت فيه عائق عن نهوضك لحضرته (فلو أرادك) أى أحبك وكنت من أهل الارادة (لاستعملك) استعمالا محبوبا عنده بأن يوفقك للأفعال الصالحة ويشغل قلبك به (من غير إخراج) أى مع بقائك على حالتك التى أنت عليها فاذا كان المريد على حالة لاتوافق غرضه وكانت مباحة فى الشرع لاينبغى له أن يروم الخروج منها بنفسه ويعارض حكم الوقت كما مرّ فى قوله ما ترك من الجهل شيئا الخ وكذا لاينبغى له أن يعارض حكم الوقت ويطلب من مولاه أن يخرجه

ومقتضى العلم بالله تعالى وهذا هو أحد معانى لفظ الوقت فى اصطلاحهم قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه وقد يريدون بالوقت مايصادمهم من تصريف الحق لهم دون مايختارون لأنفسهم ويقولون فلان بحكم الوقت أى أنه مستسلم لما يبدو من الغيب من اختيار وهذا فيما ليس لله عز وجلّ عليهم فيه أمر أواقتضاء بحق شرع إذ التضييع لما أمرت به وإحالة الأمر فيه على التقدير وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين . ومن كلامهم الوقت سيف أى كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقتضيه الحق ويجريه غالب وقيل السيف لين مسه قاطع حدّه فمن لاينه سلم ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى وأنشدوا :

وكالسيف إن لاينته لان مسه   وحدّه إن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت هذا كلام الامام أبى القاسم وهو موافق لما ذكره صاحب الكتاب والله الموفق (إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس) إذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال وقال إذا تفرغت عملت فذلك من رعونة نفسه والرعونة ضرب من الحماقة وحماقته من وجوه: الأوّل إيثار الدنيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ماطلب منه قال الله تعالى ـ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ـ والثانى تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه وقد لايجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أويزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض كما قيل :

فما قضى أحد منها لبانته   ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

والثالث أن يفرغ منها إلى الذى لايرضيه من تبدّل عزمه وضعف نيته ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوّة فى جميع الأحوال مايستحقر فى جنبه جميع هذا بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أى حال كان وأن ينتهز فرصة الامكان قبل مفاجأة الموت وحلول الفوت وأن يتوكل على الله تعالى فى تيسرها عليه وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه وما أحسن قول ابن الفارض فى هذا المعنى :

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدا   وشمر عن الساق اجتهادا بنهضة
وكن صارما كالوقت فالمقت فى عسى   وإياك مهلا فهى أخطر علة
وسر زمنا وانهض كسيرا فحظك الـ   ـبطالة ما أخرت عزما لصحة
وجد بسيف العزم سوف فان تجد   تجد نفسا فالنفس إن جدت جدت

(لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج) كما أنه إذا كان المرء على حالة لاتوافق غرضه كانت متعلقة بالدين أو بالدنيا لاينبغى له أن يروم الخروج منها

منها و يستعمله فيما سواها لأن هذا من التخيير على الله ولاخيرة له فى ذلك بل ينبغى أن يطلب حسن الأدب معه و إيثار مراده على اختياره فاذا علم منه مولاه ذلك استعمله استعمالا محبوبا عنده مع بقائه على ما هو عليه فيكون إذ ذاك بمراد الله له لا بمراده لنفسه وهو خير له مما اختاره ولو قال لحصل لك المطلوب من غير إخراج لكان أولى أما لو كان على حالة لا توافق الشرع فيجب عليه المسارعة إلى الانتقال والطلب من مولاه أن ينقله إلى ما يرضيه (ما أرادت همة سالك) أى سائر إلى الله تعالى (أن تقف عند ما كشف لها) فى أثناء السلوك من المعارف والأسرار والأنوار بأن يرى أن ما وصل إليه من المعرفة وذوق الأحوال ومنازلة المقامات هو الغاية القصوى والنهاية فتقف همته عنده و يتعشقه و يحبه أو يرى أن ما فوقه أعظم منه لكنه يقنع بذلك ويرى أن فيه الكفاية فلا يرقى بهمته أو يرى قصور همته عن الرقى لما فوقه (إلا ونادته هواتف الحقيقة) أى الهواتف التى تهتف على قلبه من جهة الحقيقة الالهية ويحتمل أن المعنى إلا ناداه لسان حال الحقيقة التى كشفت له سر وجد فى السير لا تقف (فان الذى تطلبه) وهو وصولك إلى المولى وعدم ركون قلبك إلى شئ سواه (أمامك) فلا تقف عند ما كشف لك (ولا تبرجت) أى أظهرت لك محاسنها (ظواهر المكونات) كتسخير الخلق لك و إقبالهم عليك والتوسعة فى الدنيا وظهور خوارق العادات كتسخير الحيوانات والمشى على الماء والتربع فى الهواء والاطلاع على أسرار الخلائق وخواص الوجود وتكثير القليل من الطعام وطى الأرض ونحو ذلك مما تميل النفس له (إلا ونادتك حقائقها) أى بواطنها نداء معنويا و إن لم تشعر به (إنما نحن فتنة) أى ابتلاء واختبار (فلا تكفر) أى فلا تفتتن بنا ولا تقف عندنا ولا تجعل نفسك رقا لنا فتحتجب بنا عن الله لأن ذلك كفر لحق المنعم وشكر النعم بالاقبال على المنعم فالاعراض عنه بالوقوف مع النعم

بنفسه و يعارض حكم وقته فيحدث فيه غير ما أظهره الله فيه كما تقدم فى قوله ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه مع الشرط المتقدم وهو أن لا يكون فى ذلك مخالفة أمر أو ارتكاب نهى فينبغى له أيضا أن لا يعارض حكم الوقت و يطلب من مولاه أن يخرجه منها و يستعمله فيما سواها لأن هذا من التخيير على الله تعالى ولا خيرة له فى ذلك بل ينبغى له حسن الأدب معه و إيثار مراده به على اختياره هو وحينئذ يتحقق بحال يتعرف فيها محبة الله تعالى و إرادته له فيستعمله استعمالا محبوبا عنده مع بقائه على حالته التى هو عليها فيكون إذ ذاك بمراد الله تعالى لا بمراده لنفسه وهو خير مما اختاره قال فى التنوير يحكى عن بعضهم أنه كان يقول وددت لو أننى تركت كل الأسباب وأعطيت كل يوم رغيفين يريد بذلك أن يستريح من تعب الأسباب قال فسجنت ثم كنت فى السجن يؤتى إلى كل يوم برغيفين فطال ذلك على حتى ضجرت ففكرت يوما فى أمرى فقيل لى إنك طلبت منا كل يوم رغيفين ولم تطلب منا العافية فأعطيناك ما طلبت فاستغفرت من ذلك ورجعت إلى الله تعالى فاذا بباب السجن يقرع فتخلصت وخرجت قال فيه فتأدب بهذا أيها المؤمن ولا تطلب أن يخرجك من أمر ويدخلك فيما سواه إذا كان ما أنت فيه مما يوافق لسان العلم فان ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه فرب تارك شيئا وداخل فى غيره ليجد الثروة والراحة فيتعب وقو بل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار اهـ كلامه فى التنوير وهو كالتفسير لما ذكره ههنا فلذلك أوردته (ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة الذى تطلب أمامك ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادتك حقائقها إنما نحن فتنة فلا تكفر) السائر إلى الله تعالى يتجلى له فى أثناء سلوكه أنوار وتبدو له أسرار فان أرادت همته أن تقف عند ما كشف لها من ذلك لاعتقاده أنه وصل إلى الغاية القصوى والنهاية من المعرفة نادته هواتف الحقيقة المطلوب الذى تطلب أمامك فجد فى السير ولا تقف فان تبرجت له ظواهر المكونات بزينتها فمال إلى حسنها وجمالها نادته حقائقها الباطنة إنما نحن فتنة فلا تكفر وغمض عينيك عن ذلك ولا تلتفت إليه ودم على سلوكك وسيرك . واعلم أنه مادامت لك همة و إرادة فأنت بعد فى الطريق لم تصل فلو فنيت عنهما لوصلت وما أحسن قول الشيخ أبى الحسن التسترى فى هذا المعنى :

ولا تلتفت فى السير غيرا فكل ما … سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه إنه … حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلى … عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب … فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

وقد رأيت لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه كلاما حسنا مناسبا لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى

عكس المطلوب (طلبك منه اتهام له) يعنى أن المريد ينبغى له أن يشتغل فى حال سلوكه بما يقربه من مولاه من الأعمال الصالحة ولا يشغل قلبه بالطلب لشىء من الأشياء لأن ذلك مذموم قاطع عن الله فان طلبك منه أن يرزقك بالقوت الذى يعينك على سيرك وأن يوسع عليك الرزق تهمة منك له بأنه لا يرزقك إذ لو وثقت به فى إيصال منافعه إليك من غير سؤال وتيقنت أنه عالم بحاجتك قادر على إيصالها لك لما طلبت منه شيئا (وطلبك له) بأن تطلب قربك منه وزوال الحجاب عنك حتى تشاهده بعين قلبك (غيبة منه عنك) إذ الحاضر لا يطلب (وطلبك لغيره) من الأعراض الدنيوية وزخارفها ومناصبها

ومن المكاشفات والكرامات والأحوال والمقامات (لقلة حيائك منه) إذ لو حصل لك حياء منه لما التفت إلى غيره وطلبت شيئا سواه (وطلبك من غيره) بأن توجهت إلى بعض الناس لتطلب منه شيئا من أعراض الدنيا غافلا فى حال الطلب عن مولاك (لوجود بعدك عنه) إذ لو كنت قريبا منه لكان غيره بعيدا عنك ولو كنت مشاهدا لقربه منك لاكتفيت به عن سائر خلقه لكن وجود البعد قضى عليك بالشعور بالغير حتى توجهت إليه وطلبت منه فالطلب كله من المريدين معلول سواء كان متعلقا بالحق أو الخلق إلا ما كان على وجه التعبد والتأدب واتباع الأمر وإظهار الفاقة أما العارفون فلا يرون غير الله تعالى فطلبهم ليس من المخلوق فى الحقيقة وإن كان منه بحسب الظاهر (ما من نفس) بفتح الفاء هو جزء من الهواء يخرج من باطن البدن فى جزء من الزمن أى أنفاسك (تبديه) أى تظهره بقدرة الله تعالى لا تبديه (إلا وله) تعالى (فيك قدر) أى والمعنى أن فى كل نفس أمرا مقدرا عليك من طاعة أو معصية أو نعمة أو بلية (يمضيه) أى يبرزه بقدرته فى ذلك النفس فكل نفس يبدو منك ظرف لقدر من أقدار الحق ينفذ فيك كائنا ما كان فينبغى لك الأدب معه ومراقبة فى كل نفس من أنفاسك فتكون فى كل نفس سالكا طريقا إلى الحق سبحانه وتعالى وهو معنى قولهم الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق

تعالى هنا من الترقى فى الأحوال وظهور النقص فى رؤية الكمال فرأيت أن أذكره ههنا بنصه لما فيه من سنى الفوائد وشريف المقاصد. قال رضى الله عنه اعلم أنك إذا أردت أن يكون لك نصيب مما للأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلك على الله تعالى باشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئا على ذلك بل كن فى ذلك عبد الله أمرك أن ترفض عدوه فان أتيت بهاتين الخصلتين الاعراض عن الناس والزهد فى الدنيا فأقم مع الله بالمراقبة والتزام التوبة بالرعاية والاستغفار والانابة والخضوع للأحكام بالاستقامة. وتفسير هذه الوجوه الأربعة أن تقوم عبدا لله فيما تأتى وما تذر وتراقب قلبك أن لا يرى قلبك فى المملكة شيئا لغيره فان أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العز إنك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة وأنت تسمع قوله ـ وكان الله على كل شىء رقيبا ـ فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا يشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه فان صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق تعالى التوبة منه بدت والانابة منه تبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك فهناك تظهر أوصافك فتستعيذ بالله منها وتأخذ فى الاستغفار والانابة، والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه فان كنت بهذه الصفة أعنى الاستغفار والانابة ناداك عن قريب اخضع لأحكامى ودع عنك منازعتى واستقم مع إرادتى برفض إرادتك وإنما هى ربوبية تولت عبودية وكن عبدا مملوكا لا تقدر على شىء فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شىء عليم فان صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هنالك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين (طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة عنك منه وطلبك لغيره لقلة حيائك منه وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه) الطلب الذى يتصور من العبد على أربعة أوجه وكلها مدخولة معلولة طلبه من الله وطلبه له وطلبه لغيره وطلبه من غيره فطلبه من الله تهمة له إذ لو وثق به فى إيصال منافعه إليه من غير سؤال لما طلب منه شيئا وطلبه له غيبة عنه إذ الحاضر لا يطلب وطلبه لغيره قلة حياء منه إذ لو استحيا منه انقبض عما يكرهه له من طلبه لغيره ومن حق الحياء منه أن لا يذكر معه غيره ولا يؤثر عليه سواه وطلبه من غيره لوجود بعده عنه إذ لو كان قريبا منه لكان غيره بعيدا عنه فلا يطلب منه فالطلب كله عند الموحدين العارفين معلول سواء كان الطلب متعلقا بالحق أو بالخلق إلا ما كان من الطلب على وجه التأدب والتعبد واتباع الأمر وإظهار الفاقة والفقر فحينئذ تزول العلة عنه (ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه) الأنفاس أزمنة دقيقة تتعاقب على العبد مادام حيا فكل نفس يبدو منه ظرف لقدر من أقدار الحق تعالى ينفذ فيه كائنا ما كان فاذا كانت جزئيات العبد ودقائقه قد استغرقتها أحكام الله تعالى وأقداره

(لاتترقب) أيها المريد (فروغ الأغيار) الواردة على قلبك وهى ظلمات تحدث فيه تحول بينه وبين شهود المولى والحضور معه (فانّ ذلك يقطعك عن وجود المراقبة

له فيما هو مقيمك فيه) من الأعمال التى تتوصل بها إليه فالمطلوب منك المواظبة على ما أنت فيه ومراقبة المولى فى ذلك ولا تشتغل بما يورده على قلبك من ظلمة أو نور ولو قال فانّ ذلك يقطعك عما هو مقيمك فيه لكان أولى ووجه كونه قاطعا أن نفسك تسوّل لك وتقول لو كنت من أهل الارادة لما وردت هذه الأغيار عليك مع كثرة عبادتك فيشتغل قلبك بهذه الوساوس وربما سوّلت لك الرجوع عما أنت قاصده وترك الأعمال الصالحة . وسبب هذه الأغيار غالبا مايرد عليك من أكدار الدنيا وذلك أمر لا بد منه ولذا قال (لاتستغرب وقوع الأكدار) الموجبة للأغيار بل الأغيار فى ذاتها أكدار (مادمت فى هذه الدار فانها ما أبرزت إلا ماهو مستحق وصفها وواجب نعتها) أى وصفها المستحق ونعتها الواجب أى اللازم فمن ضروريتها وجود المكاره والمشاق فيها وسيأتى التنبيه على حكمة ذلك بقوله و إنما جعلها محلا للأغيار ومعدنا لوقوع الأكدار تزهيدا لك فيها ومن كلام جعفر الصادق رضى الله عنه من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق قيل له وماذاك قال الراحة فى الدنيا فينبغى للمريد الصادق أن لا يلتفت لذلك و يجدّ فى السير حتى تطلع عليه شمس المعرفة فينمحى عنه وجود الأغيار وتزول عنه الأكدار بمشاهدة العزيز الغفار ثم قال : وليس

وكان جميع ذلك يقتضى منه حقوقا لازمة من حقوق الله تعالى يقوم بها وهو مطالب بذلك ومسئول عنه وعن أنفاسه التى هى أمانة للحق عنده لم يبق له إذ ذاك مجال لتدبير أمور دنياه ولا محل لمتابعة شهوته وهواه (لاتترقب فروغ الأغيار فانّ ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه) إذا أقام الله تعالى عبدا فى سبب من الأسباب فالواجب عليه أن يوفيه حقه و يلزم فيه الأدب ولا يترقب وقتا ثانيا يكون فيه فارغا منه فانّ تأميله للوقت الثانى يمنعه من القيام بحق الوقت الأوّل فيما أقيم فيه وتوفيته بما يجب له وهو خلاف الأمر المطلوب منه فليجتنب ذلك المريد . قال أبوحفص رضى الله تعالى عنه الفقير الصادق هو الذى يكون فى كل وقت بحكمه فاذا ورد عليه وارد يشغله على حكم وقته يستوحش منه و يتقيه وقال سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه إذا جنك الليل فلا تؤمل النهار حتى تسلم ليلتك تلك وتؤدّى حق الله فيها وتنصح فيها لنفسك و إذا أصبحت فكذلك وسئل سهل رضى الله تعالى عنه متى يستريح الفقير فقال إذا لم ير وقتا غير الوقت الذى هو فيه قال البغوى فى تفسيره عند قوله تعالى ـ ونبلوكم بالشرّ والخير ـ الشدّة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون لننظر شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون (لاتستغرب وقوع الأكدار مادمت فى هذه الدار فانها ما أبرزت إلا ماهو مستحق وصفها وواجب نعتها) جعل الله تعالى الدنيا دار فتنة وابتلاء ليعمل كل أحد فيها على مقتضى ماسبق له و يوفى جزاءه فى الدار الآخرة قال الله تعالى ـ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة ـ وعمل كل واحد فيها إنما هو مخالفة شهوات نفسه أوموافقتها وذلك لامحالة يستدعى وجود محبوب أومكروه بفعل أو بترك فمن ضروريات الدنيا وجدان المكاره والمشاق فيها فتقع الأكدار بسبب ذلك أيضا فحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس إليها وهى لا تفى بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها وتفلتها فتجاذبوها بينهم فتكدّر عيشهم ولم يحصلوا على كلية أغراضهم كما قيل فى المعنى :

أرى أشقياء الناس لايسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوّع
أراها و إن كانت تحب كأنها ... سحابة صيف عن قريب تقشع

فلا يستغرب وقوع أمثال هذا فانه ماظهر منها إلا ماهو مستحق وصفها وواجب نعتها من وجدان المكاره التى هى ذاتية لها . قال بعض الحكماء لولا أنّ الدنيا مبنية على المكاره لجعلت منفعة الاهليلج فى اللوزينج وسيأتى التنبيه على الحكمة فى هذا عند قوله إنما جعلها محلا للأغيار ومعدنا لوجود الأكدار تزهيدا لك فيها وفى بعض الحكايات المنقولة عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أنه قال من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل له وما ذاك قال الراحة فى الدنيا وفى معناه أنشدوا :

تطلب الراحة فى دار العنا ... خاب من يطلب شيئا لا يكون

وقال بعض البلغاء ملتمس السلامة فى دار التالف والمعاطب كالمتمرّغ على مزاحف الحيات ومدابّ العقارب وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه الدنيا كلها غموم فما كان منها فى سرور فهو ربح . وقال الامام الجنيد رضى الله تعالى عنه لست أستبشع مايرد علىّ من العالم لأنى قد أصلت أصلا وهو أنّ الدنيا دار همّ وغمّ و بلاء وفتنة وأنّ العالم كله شرّ ومن حكمه أن يتلقانى بكل ما أكره فان تلقانى بكل ما أحبّ فهو فضل و إلا فالأصل هو الأوّل. وقال أبو تراب رضى الله تعالى عنه يا أيها الناس أنتم تحبون ثلاثة أشياء

وليس هى لكم تحبون النفس وهى لهواها وتحبون الروح والروح لله وتحبون المال والمال للورثة وتطلبون اثنين ولاتجدونهما الراحة والفرح وهما فى الجنة فالواجب على العبد أن لايوطن على الراحة فى الدنيا نفسا ولايركن فيها إلى مايقتضى فرحا وأنسا وأن يعمل على قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه «الدنيا سجن المؤمن» فتوطين العبد على المحن فى دنياه يهوّن عليه مايلقاه ويجد السلوان عند فقدان مايهواه كما قيل فى المعنى :

يمثل ذو اللب فى لبه   شدائد قبل أن تنزلا
فان نزلت بغتة لم ترعه   لما كان فى نفسه مثلا
رأى الأمر يفضى إلى آخر   فصير آخره أوّلا ٭
وذوا الجهل يأمن أيامه   وينسى مصارع من قد خلا
فان دهمته صروف الزمان   ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم فى نفسه   لعلمه الصبر عند البلا

فليتلق المريد ما يرد عليه من ذلك بالصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضا فعن قريب إن شاء الله ينجلى الأمر ويستوجب من الله تعالى جزيل الأجر والله تعالى ولىّ التوفيق قال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله تعالى عنه قال لى أبوسليمان الدارانى جوع قليل وعرى قليل وذل قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا . واعلم أن ماذكرناه من الصبر هو جماع كل فضيلة وملاك كل فائدة جزيلة ومكرمة نبيلة قال الله تعالى — وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا — وقال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا — وقال عز من قائل — إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب — وفى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنهما «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل وإن لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا» . واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرجل إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا وإن جزعت قضى أمر الله وكنت مأزورا وقال على رضى الله عنه الصبر مطية لاتكبو وسيف لاينبو وقال ابن عباس رضى الله عنهما أفضل العدة الصبر عند الشدة وفى بعض الأخبار انتظار الفرج بالصبر عبادة وقد قال الشاعر :

إن الأمور إذا انسدت مسالكها   فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لاتيأسن وإن طالت مطالبة   إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته   ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فمن جعل الصبر معتمده فى نوازله واعتده من أعظم عدده ووسائله فهو مصيب فى رأيه منجح فى سعيه ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرا ويكسبه وزرا ويفوته أجرا وناهيك به خسرا كما قيل :

وإذا تصبك مصيبة فاصبر لها   عظمت مصيبة مبتلى لايصبر

وكما قيل أيضا :

وعوّضت أجرا من فقيد فلا تكن   فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

(ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه وتوكل فى أمره كله عليه كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد ويسر عليه كل عسير ومن سكن إلى علمه وعقله واعتمد على قوّته وحوله وكله الله إلى نفسه وخذله وحرمه توفيقه وأهمله فلم تنجح

(ماتوقف) أى تعسر (مطلب) من مطالب الدنيا والآخرة (أنت طالبه بربك) أى ملاحظا فى حال طلبه ربك حاضر القلب معه معتمدا عليه فى تيسير ذلك المطلب (ولاتيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) بأن كنت غافلا عنه معتمدا على حولك وقوّتك فمن أنزل حوائجه بالله والتجأ إليه وتوكل فى أمره كله عليه كفاه كل مؤنة وقرب عليه كل بعيد ويسر له كل عسير ومن سكن إلى علمه وعقله واعتمد على حوله وقوّته وكله الله تعالى إلى نفسه وخذله فلم تنجح مطالبه ولم تتيسر مآربه . ولما كان من أشرف المطالب وأقربها للقواطع والمعاطب أخذ المريد حال سلوكه ونهايته فى سلوك الطريق خصه بالاعتناء به فقال:

(من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات) بداية المريد من العموم لزيادة حال وصوله فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله والتوكل عليه والاستعانة به أن يوصله إليه لا على أعماله المعلولة نجح فى نهايته أى حصل له الوصول وأمن عليه من الرجوع من الطريق ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه انقطع ورجع من حيث جاء قال بعض العارفين من ظن أنه يصل (٣٦)

إلى الله بغير الله قطع به ومن استعان على عبادة الله بنفسه وكل إلى نفسه ثم قال: (من أشرقت بدايته) بأن عمر أوقاته بأنواع الطاعات والأوراد وثابر على ذلك كل المثابرة (أشرقت نهايته) باضافة الأنوار والمعارف عليه وزوال كدروات النفس الحائلة بينه و بين مولاه على وجه أتم وعكسه بعكسه فمن كان قليل الاجتهاد فى بدايته لم يحصل له إشراق فى نهايته ولو فرض أنه فتح عليه كان على وجه أضعف من غيره و يحتمل أن المعنى من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والالتجاء إليه أشرقت نهايته بحصول الوصول إليه فتكون هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ماقبلها وماقلناه أولا أولى وأظهر (ما استودع فى غيب السرائر) أى فى القلوب الغائبة أى غير المشاهدة بالأبصار من المعارف والأنوار الالهية

مطالبه ولم تتيسر ما آربه وهذا معلوم على القطع من نصوص الشريعة وأنواع التجارب. قلت وكلام المؤلف رحمه الله تعالى فى هذه المسئلة عام يتناول كل مطلب من المطالب الدينية والدنيوية التى مآل أمرها إلى الدين وأشرف تلك المطالب وأكثرها قواطع ومعاطب أخذ المريد فى سلوك سبيل التوحيد ففيه التعلق بالله تعالى أحق وأصوب وفى جميع جزئياته الرجوع إلى الله تعالى أولى وأوجب فلاجرم كان من الرأى السديد والأمر الأكيد أن يخصصه من ذلك العام وأن يفرده عقيب هذه المسئلة بمزيد من الكلام فلذلك قال (من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله تعالى فى البدايات) للمريد بداية ونهاية فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله فمن صحح بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والتوكل عليه والاستعانة به كما ذكرنا أفلح وأنجح فى نهايته وكان وصوله إلى الله تعالى فأمن عليه من الرجوع والانقطاع قال بعض المشايخ مارجع من رجع إلا من الطريق ولو وصلوا مارجعوا ومن لم يصحح ذلك بما ذكرناه من تعلقه بالحق وفراره إليه من نفسه والخلق انقطع ورجع من حيث جاء قال بعض العلماء من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل إلى نفسه فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ماهو بسبيله ولايرى حول نفسه ولاقوتها فى كثير من عمله ولاقليله فهذا هو أساس السلوك الذى ينبنى عليه قواعده (من أشرقت بدايته أشرقت نهايته) هذه عبارة أخرى موافقة لمعنى ماتقدم فاشراق بداية المريد برجوعه إلى الله تعالى فى مهماته وثقته به فى ملماته و إشراق نهايته الوصول إلى قربته والحصول فى حضرته (مااستودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر) هذا بيان علامة يعرف بها حال المريد السالك وماتعمر به باطنه من المزيد المتدارك لأن الظاهر مرآة الباطن كما قيل الأسرة تدل على السريرة ومااخامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره فما استودعه الله القلوب والأسرار من المعارف والأنوار لابد وأن تظهر آثار ذلك على الجوارح فيستدل بشاهد العبد على غائبه من أراد صحبته والوصلة به وما أشبه هذا من الأغراض والمقاصد قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن فان النبى صلى الله عليه وسلم قال «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه» وقيل لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون بأمره لايخطىء أحد منهم فقال يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك فقال لا يا أبا القاسم ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان أدب الباطن. قلت وآكد من ذلك أن يعرف المريد نفسه و يكون من أمرها على بصيرة ولاينخدع بما يتوهمه من صلاح سريرته دون علانيته فمن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبته ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك وآثاره من اللهج بذكره والمسارعة إلى اتباع أمره والاغتباط بوجوده والاستبشار عند يقين شهوده والفرار من القواطع الشاغلة عنه والاضراب عن الوسائط المبعدة منه فهو كذاب فى دعواه متخذ إلهه هواه فان كان موصوفا بأضداد هذه الخصال منحرفا بظاهره عن جادة الاعتدال فهو فى دعواه أكذب وحاله للنفاق والشرك أقرب. قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه قد جعل الله تعالى وصف الكافرين أنهم إذا ذكر الله وحده فى شىء انقبضت قلوبهم وإذ ذكر غيره فى شىء فرحوا وجعل من نعوتهم أنهم إذا ذكر

(ظهر فى شهادة الظواهر) أى فى الظواهر الشاهدة أى الحاضرة فما استودعه الله تعالى فى القلوب والسرائر من المعارف والأنوار لابد أن يظهر أثره على الوجه والجوارح وهذه علامة يعرف بها حال المريد السالك لأن الظاهر مرآة الباطن فيستدل بذلك من أراد صحبته والاجتماع به لينتفع به

(شتان)أى بعد ما(بين من يستدل به) على الأشياء وهم المرادون المجذوبون إليه الذين هم من أهل الشهود إما ابتداء و إما بعد السلوك وهم العارفون فانهم لايشهدون غير مولاهم و يستدلون به على الأشياء (أو) بمعنى الواو (يستدل عليه) وهم المريدون السالكون إلى الله تعالى فأهل الله تعالى على قسمين مرادين ومريدين وان شئت قلت مجذوبين وهم أهل الشهود سالكين فالمريدون السالكون فى حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار والأكوان ظاهرة لهم موجودة لديهم والحق غيب عنهم فلم يروه فهم يستدلون بها عليه فى حال ترقيهم والمرادون وهم المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم وتعرّف اليهم فعرفوه وانحجبت عنهم الأغيار فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم إن جذبوا ابتداء أو بعد سلوكهم ان كانوا من أهله وهم العارفون فانهم من أهل الجذب أيضا لكن لشدة تمكنهم فى أحوالهم لايظهر عليهم ولذا قيل

(٣٧)

نهاية السالك بداية المجذوب. وورد أعظم الناس جذبا الأنبياء والمرسلون فهذا هو حال الفريقين وشتان ما بينهما أى بعد ما بينهما وذلك أنّ (المستدل به) على غيره (عرف الحق) وهو الوجود الواجب (لأهله) وهو الله تعالى أى لم يثبت الوجود إلا له سبحانه وتعالى وأما الحوادث فهم عدم محض (فأثبت الأمر) وهم الحوادث العدمية (من وجود أصله) وهو الله تعالى أى جعل وجودهم مستفادا من وجود الله تعالى الذى قابلهم وظهر فيهم فوجدوا و إلا فهم عدم محض فى نظر أرباب

ذكر الله تعالى بتوحيده و إفراده بشىء غمطوا ذلك وكرهوه و إذا أشرك غيره فى ذلك صدّقوا به فقال تعالى ـ و إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة و إذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون وقال أيضا ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم و إن يشرك به تؤمنوا ـ والكفر التغطية والشرك الخلط أى أنه يخلط بذكره ذكر سواه ثم قال ـ فالحكم لله العلى الكبير ـ يعنى لايشركه خلق فى حكمه لأنه العلىّ فى عظمته الكبير فى سلطانه لاشريك له فى ملكه وعطائه ولا نظير له من عباده ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أن المؤمنين إذا ذكر الله بالتوحيد والافراد فى شىء انشرحت صدورهم واتسعت قلوبهم واستبشروا بذكره وتوحيده و إذا ذكرت الوسائط والأسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم وهذه علامة صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب أو وجود خفى الشرك فى السرّ إن كنت عارفا اه . قلت وهذه المسئلة التى تضمنها كلام الشيخ أبى طالب رضى الله عنه من أعظم المسائل على صدق الصادق وكذب الكاذب ومن أوضح الدلائل . ولما كان قصدنا فى هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد العجيبة والحرص على رسم المقاصد الغريبة لغربة الدين فى هذا الزمان الرذل واستيلاء الغرة والجهل على المنسوبين إلى العلم والفضل حسن منا إيراد هذه الكلمات على جهة ضرب المثل والاكتفاء بالنهل عن العلل ليعمل بمقتضى ذلك مريد سالك وليبتهج من مناصحة ربه فى دينه وقلبه أوضح المسالك واحمل على هذا الأسلوب كل كلام لم تظهر لك مطابقته ولم يتم فى نظرك مناسبته لتسلم بذلك من الاعتراض وتعلو همتك عما تولع به أصحاب القلوب المراض عافانا الله من ذلك بمنه وفضله (شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه و إلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه) بنو آدم فى أوّل نشأتهم ومبدإ خلقتهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم قال الله تعالى ـ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ـ ثم إن الله تعالى اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختارهم من أهله لولايته وماذاك إلا لحصول العلم الذى تضمنه قوله تعالى ـ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ـ الذى يحقق لهم النسبة و يوجب لهم الزلفى والقربة المشار إلى ذلك بقوله تعالى ـ لعلكم تشكرون ـ وجعلهم على قسمين مرادين ومريدين وان شئت قلت مجذوبين

الشهود (والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه) فالمستدل بغيره عليه على العكس مما ذكر لأنه استدل بالمجهول على المعلوم و بالعدم على الوجود و بالأمر الخفى على الظاهر الجلى وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب (و إلا) نقل إنه من عدم الوصول (فمتى غاب) أى فلا يصح لأنه متى غاب (حتى يستدل عليه) بالأشياء الحاضرة (ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه) أى يستدل بها عليه لأنها لاوجود لها معه عند أهل الشهود حتى توصل إليه أما المحجوبون فلا يرون إلا الأكوان و يستدلون بها عليه وهم قسمان عامة وسالكون لم يصلوا إلى مقام الشهود والمراد باستدلال المجذوب الذى حصلت له إفاقة أنه حينئذ يلاحظ الغير فيثبت وجوده بوجوده سبحانه وثبوته بإثباته وليس المراد أنه يستدل حينئذ بالدليل العقلى والنظر الفكرى

(لينفق ذو سعة من سعته الواصلون إليه) أى إشارة إلى حال الواصلين إليه تعالى فانهم لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد وكال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم وأفيض عليهم علوم وأسرار إلهية فصاروا يمدّون الغير

ويتصرفون فى عوالمهم الباطنية كيف شاءوا (ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه) أى إشارة إلى حال السائرين إليه فهم مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم ينفقون مما آتاهم الله من فضله من الرزق المقدّر الضيق على غيرهم ويتصرفون فى عوالمهم على قدر ما أعطاهم الله عزوجل (اهتدى الراحلون) أى السائرون (إليه بأنوار التوجه) أى الأنوار الحاصلة من العبادات والرياضات التى توجهوا بها إلى حضرة الرب فانّ المجاهدة بحسب العادة يحصل منها أنوار فى القلوب يهتدون بها إلى الله تعالى حتى يصلوا إليه (والواصلون لهم أنوار المواجهة) أى الأنوار التى واجهتهم من حضرة الرب أى أفيضت عليهم حتى عرفوه سبحانه وتعالى (فالأوّلون للأنوار) أى عبيد لها ومحتاجون

وسالكين وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق قال الله تعالى ـ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ـ فالمريدون السالكون إلى الله تعالى فى حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار والآثار والأكوان ظاهرة لهم وموجودة لديهم والحق تعالى غيب عنهم فلم يروه فهم يستدلون بها عليه فى حال ترقيهم والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهه الكريم الأكرم وتعرف إليهم فعرفوه به فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم فلم يروها فهم يستدلون به عليها فى حال تدليهم فهذا هو حال الفريقين وشتان ما بينهما أى بعد ما بينهما وذلك أنّ المستدل به على غيره عرف الحق الذى هو الوجود الواجب لأهله وهو المختص بوصف القدم وأثبت الأمر المشار به إلى الآثار العدمية من وجود أصله المشار به إلى المؤثر المتحقق وجوده والمستدل بغيره عليه على عكس ماذكرناه لأنه استدلّ بالمجهول على المعلوم وبالمعدوم على الموجود وبالأمر الخفىّ على الظاهر الجلىّ وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب وعدم احتظائه بالوصول والإقراب وإلا فمتى غاب حتى يستدلّ عليه بالأشياء الحاضرة ومتى بعد حتى تكون الآثار القريبة هى التى توصل إليه أو فقد حتى تكون الآثار الموجودة هى التى تدلّ عليه وأنشد :

عجبت لمن يبغى عليك شهادة ‏ ‏ ‏ وأنت الذى أشهدته كل مشهد

قال فى لطائف المنن: واعلم أن الأدلة إنما تنصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده لأنّ الشاهد غنىّ بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود إلى نهايتها ضرورية وإذا كان من الكائنات ماهو غنىّ بوضوحه عن إقامة دليل فالمكوّن أولى بغناه عن الدليل منها ثم قال ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه أوهل لها من الوضوح ماليس له حتى تكون هى المظهرة له وإن كانت الكائنات موصلة إليه فليس لها ذلك من حيث ذاتها لكن هو الذى ولاها رتبة التوصيل فوصلت فما وصل إليه غير إلهيته ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهى لمن وقف عندها ولم تنفذ قدرته عين الحجاب (لينفق ذو سعة من سعته الواصلون إليه ومن قدر عليه رزقه السائرون إليه) هذه إشارة مليحة إلى حال الفريقين فالواصلون إلى الله تعالى لما خرجوا من سجن رؤية الأغيار إلى فضاء التوحيد وكال الاستبصار اتسعت مسافة نظرهم فأنفقوا من سعتهم وتصرّفوا فى عوالمهم كيف شاءوا والسالكون إليه مقدور عليهم فى أرزاق العلوم والفهوم محبوسون فى مضيق الخيالات والرسوم ينفقون مما آتاهم الله من الرزق العلوم المقدّر المضيق (اهتدى الراحلون إليه بأنوار التوجه والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأوّلون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم لأنهم لله لا لشىء دونه قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أنوار التوجه هو ماصدر منهم إلى الله تعالى من عبادات ومعاملات ومكابدات ومجاهدات وأنوار المواجهة هو ماصدر من الله لهم من تعرّف وتقرّب وتودّد وتحبب فالأوّلون عبيد الأنوار لوجود حاجتهم إليها فى الوصول إلى مقصودهم والآخرون الأنوار لهم لوجود غناهم عنها بربهم فهم لله لالشىء دونه وسيأتى هذا المعنى عند قوله أنت مع الأكوان مالم تشهد المكوّن فاذا شهدته كانت الأكوان معك قال الله تعالى ـ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ـ إفراد التوحيد بعدم ملاحظة الأغيار هو حق اليقين ورؤية ماسوى الله خوض ولعب وهما من صفات

إليها للتوسل بها إلى مطلوبهم (وهؤلاء) أى الواصلون (الأنوار لهم) أى ثابتة لهم من غير معاناة ومشقة مع فنائهم عنها بربهم (لأنه لله لا لشىء دونه) قال الله تعالى (قل الله) أى توجه إليه ولا تمل إلى أنوار ولا غيرها (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) فافراد التوحيد بعد فناء الأغيار هو حق اليقين ورؤية ماسوى الله خوض ولعب وذلك من صفات المحجوبين

(تشوّفك) أيها المريد (إلى ما بطن فيك من العيوب) النفسانية كالرياء وسوء الخلق والمداهنة وحبّ الرياسة والجاه أي توجه همتك إلى زوال ذلك بالرياضة والمجاهدة وطلب التخلص منه ولا يكون في الغالب إلا على يد شيخ كامل ناصح (خير من تشوّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب) من خفايا القدر ولطائف العبر والأسرار الالهية والمعارف اللدنية والكرامات الكونية

صفات الكاذبين والمنافقين قال الله عزّ وجلّ إخبارا عنهم – وكنا نخوض مع الخائضين – وقال الله تعالى – بل هم في شك يلعبون – وقال رضي الله تعالى عنه (تشوّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب) حكم المريد أن يتشوّف إلى معرفة ما غاب عنه من معايب نفسه ويتطلبها ويبحث عنها فانّ ذلك هو حق الحق تعالى منه فينبغي أن يحرص عليه ويصرف فيها عنان اعتنائه إليه ليحصل له صفاء أعماله من الآفات ونقاء أحواله من الكدورات وينتفي عنه الجهل والغرور وتنقطع من باطنه موادّ الشرور وقد ذكر الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه في كتابه رياضة النفس فصلا في الطريق الذي به يتعرّف الانسان عيوب نفسه فلينظر فيه المريد وقد جعل حاصله أربعة أوجه : أحدها أن يجلس بين يدي شيخ بصير بالعيوب والآفات فيحكمه في نفسه ويتبع إشارته فيما يشير به عليه . والثاني مصاحبة صديق صدوق يجعله رقيبا على أحواله وأعماله لينبهه على ما يخفى عليه من مذام خلاله . والثالث أن يستفيد معرفة عيوبه من أعدائه إذ لابد من جريان ذلك على ألسنتهم عند تلبسهم وغيبتهم . والرابع أن يستفيد ذلك من مخالطة الناس إذ يطلع بذلك على مساويهم فاذا اطلع عليها منهم علم أنه لا ينفك هو عن شيء منها لأنّ الطباع البشرية في ذلك متقاربة وقد يظهر له في نفسه ما هو أعظم مما يراه في غيره فيطالب نفسه حينئذ بالتطهر منها والتنزه عنها فهذا تلخيص ما ذكره ثم قال وهذه كلها حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشغولا بتهذيب عباد الله ناصحا لهم فمن وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده اه وأما طلبه للغيوب المحجوبة عنه من خفايا القدر ولطائف العبر فانه حظ نفسه لاحق عليه فيه للحق تعالى فليطب عنها نفسا ولا يشغل بها عقلا ولا حسا وما ظهر له منها لا يسكن إليه ولا يعوّل عليه فانّ ذلك من المعايب القادحة في عبوديته ولهذا قالوا كن طالبا للاستقامة ولا تكن طالبا للكرامة فانّ نفسك تتحرّك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك. ومن الحكايات في المعنى الذي ذكرناه ما روى في الاسرائيليات عن وهب ابن منبه رضي الله تعالى عنه أن رجلا من بني اسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سنة ستة أيام فسأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف تقوى الشياطين على الناس فلما طال ذلك عليه ولم يجب قال لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته فأرسل الله إليه ملكا فقال له إنّ الله تعالى أرسلني إليك وهو يقول لك إنّ كلامك هذا الذي تكلمت به أحبّ إليّ مما مضى من عبادتك وقد فتح الله بصرك فانظر فاذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذباب فقال أي ربّ من ينجو من هذا قال الورع اللين وسيأتي بيان أنّ الكرامات غير مطلوبة التحصيل ولا مغتبط بوجودها لدى كل عالم نبيل عند قوله ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه (الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر وكل حاصر لشيء فهو له قاهر

لأنّ ذلك حظ نفسك وليس لمولاك شيء معه فلا تقصدها بأعمالك ولا تشغل قلبك بها ولا تركن إلى ما ظهر لك منها فانّ ذلك يقدح في عبوديتك ولذا قالوا كن طالب الاستقامة ولا تكن طالب الكرامة فانّ نفسك تتحرّك وتطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالاستقامة ولأن تكون بحق مولاك أولى بك من أن تكون بحظ نفسك. ثم قال (الحق) تعالى (ليس بمحجوب) أي ليس الحجاب وصفا له سبحانه (وإنما المحجوب) أي المتصف بالحجاب (أنت) بصفاتك النفسانية (عن النظر إليه) فان أردت الوصول إليه والدخول في حضرته فابحث عن عيوب نفسك وعالجها تصل إليه وتشاهده ببصيرتك ثم استدل على نفي الحجاب عن الربّ بقوله (إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه) ودفع بذلك ما يتوهم من عدم استحالة الحجاب في حقه تعالى لأنّ الحجاب إنما يتخذه العظماء والرؤساء فهو ينبئ عن الرفعة ويشعر بالعظمة فمن أين جاءه النقص . وحاصل الدفع أنه لو حجبه شيء كما هو شأن العظماء لستره (ولو كان له ساتر لكان لوجوده) أي ذاته (حاصر) لاستلزام الستر انحصار المستور فيه (وكل حاصر لشيء فهو له قاهر) لأنه يمنعه عما وراءه ويقصره على محله ويجعله في أسر قبضته وتحت حكمه وذلك لا يصح في حقه تعالى لقوله في كتابه :

(وهو القاهر فوق عباده) فوقية مكانة وجلالة لامكان . إن قلت كيف جعل الحجب ملزوما والستر لازما مع أن الحجب هو الستر . قلت معنى الحجب إنما يشعر فى العرف بما تقدم من الرفعة والعظمة ولايشعر بحصر المحجوب ومعنى الستر على العكس فهو الذى يلزمه مع انحصار المحجوب فجعل لازما فى الشرطية الأولى ليجعل ملزوما فى الثانية والمعنى أنا لو نظرنا ماتقتضيه عظمته سبحانه من ثبوت الحجاب لكان له ساتر فتغاير المقدم والتالى بهذا التأويل (أخرج) بالرياضة والمجاهدة (من أوصاف

بشريتك) المذمومة سواء كانت تلك الأوصاف ظاهرة وهى القائمة بالجوارح كغيبة ونميمة وقتل وسلب أو باطنة وهى القائمة بالقلب ككبر وعجب ورياء وسمعة وحقد وحسد وحب جاه ومال إلى غير ذلك . ولما كانت أوصاف البشرية شاملة للأوصاف المحمودة كالطاعة والإيمان وهى غير مرادة أبدل منها قوله (عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا) لأنك إذا خرجت عن تلك الأوصاف المذمومة اتصفت بمحاسن الصفات كالتواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لأمره والحفظ لحدوده والخوف منه والاخلاص فى عبوديته فحينئذ يناديك نداء معنويا باسم العبد فيقول لك ياعبدى فتجيبه بقولك لبيك يارب وتكون صادقا فى إجابتك لفقد الصفات منك التى تنافى العبودية وتقتضى الربوبية (و) تكون أيضا (من حضرته قريبا) فتحفظ من الأوزار وتتيسر لك الأعمال وتتلذذ بها والفرق بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لايلم بذنب ألبتة والمحفوظ قد تحصل له زلات ولكن لا يكون منه إصرار بل يتوب من قريب . واعلم أن التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل هو حقيقة السلوك عندهم ولايتم ذلك إلا لمن وفقه الله لمعرفة نفسه وماركبت عليه من مذام الصفات لأن من عرف ذلك منها لايزال متهما لها مسيئا ظنه بها آخذا حذره منها وإلا وقع فيما يسخط مولاه من حيث لا يشعر ولذا قال

وهو القاهر فوق عبادة) الحجاب على الحق تعالى محال واستدل المؤلف على ذلك بما ذكره هنا وهو بين لا إشكال فيه والحجاب على العبد واجب من حيث ذاته إذ هو عدم كما تقدم ولا نسبة بين العدم والوجود فان أراد الله تعالى رفع هذا الحجاب عمن شاء كيف شاء متى شاء رأى من ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وهذا مما يجب اعتقاده (أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا) أوصاف البشرية المتعلقة بأمر الدين نوعان أحدهما مايتعلق بظاهر العبد وجوارحه وهى الأعمال والثانى مايتعلق بباطنه وقلبه وهى العقود فأما مايتعلق بظاهره وجوارحه فينقسم قسمين أحدهما ماوافق الأمر ويسمى طاعة والثانى ماخالفه ويسمى معصية وأما مايتعلق بباطنه وقلبه فينقسم أيضا إلى قسمين أحدهما ماوافق الحقيقة ويسمى إيمانا وعلما والثانى ماخالفها ويسمى نفاقا وجهلا والنظر فيما يتعلق بظاهر العبد يسمى فى الاصطلاح تفقها والنظر فيما يتعلق بباطنه يسمى فى الاصطلاح تصوفا فهذان الأمران هما كلية العبد وظاهره تبع لباطنه بالضرورة لأن القلب هو الملك والجوارح جنوده ورعيته ومن شأن الرعية طاعة الملك فيما يأمر به وينهى عنه وقد نبه على هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب وصلاح القلب إنما يكون بطهارته عن الصفات المذمومة كلها دقيقها وجليلها وهذه هى الصفات المناقضة للعبودية من أوصاف البشرية التى أشار إليها المؤلف رحمه الله تعالى وهى التى تسم صاحبها بسمة النفاق والفسوق وهى كثيرة مثل الكبر والعجب والرياء والسمعة والحقد والحسد وحب الجاه والمال ويتفرع عن هذه الأصول فروع خبيثة من العداوة والبغضاء والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وترك الثقة بمجىء الرزق وخوف سقوط المنزلة من قلوب الخلق والشح والبخل وطول الأمل والأشر والبطر والغل والغش والمباهاة والتصنع والمداهنة والقسوة والفظاظة والغلظة والغفلة والجفاء والطيش والعجلة والحدة والحمية وضيق الصدر وقلة الرحمة وقلة الحياء وترك القناعة وحب الرياسة وطلب العلو والانتصار للنفس إذا نالها الذل وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله إلى غير ذلك من النعوت الذميمة والأخلاق اللئيمة وأصل فروعها وعنصر ينابيعها إنما هو رؤية النفس والرضا عنها وتعظيم قدرها وترفيع أمرها فبهذه الأمور كفر من كفر ونافق من نافق وعصى من عصى وبها خلع من عنقه ربقة العبودية لربه عز وجل من خلع حسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بأثر هذا وشأن الصوفى إنما هو النظر فيما يطهرها ويزكيها من أنواع الرياضات والمجاهدات وقد بينوا طرق ذلك فى كتبهم . قال الشيخ أبو طالب رضى الله تعالى عنه فلا يكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية وأخلاق الشياطين بأوصاف المؤمنين وطبائع البهائم بأوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم فعندها يكون بدلا مقربا قال والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيمسكها تسخر له ويسلط عليها

فان

فان أردت أن تملك نفسك فلا تماسكها وضيق عليها ولا توسع لها فان ملكتها ملكتك و إن لم تضيق عليها اتسعت عليك و إذا أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحبسها عن معتاد ملائمها فان لم تمسكها انطلقت بك و إن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسبابها وحبس موادّها و إلا قويت عليك فصرعتك اه فاذا قام بذلك المريد على الوجه الذى رسموه له والتزم الوظائف التى أمروه بها طهر قلبه وتزكت نفسه واتصفت بمحاسن الصفات التى تزينه بين العباد و ينال بها من قرب ربه غاية المراد فيظهر حينئذ عليه آثار حميدة من التواضع لله والخشوع بين يديه والتعظيم لأمره والحفظ لحدوده والهيبة له والخوف منه والتذلل لربوبيته والاخلاص فى عبوديته والرضا بقضائه ورؤية المنة له عليه فى منعه و إعطائه و يتصف فيما بين خلقه بالرأفة والرحمة واللين والرفق وسعة الصدر والحلم والاحتمال والصيانة والنزاهة والأمانة والثقة والعطف والتأنى والوقار والسخاء والجود والحياء والبشاشة والنصيحة وسلامة الصدر إلى غير ذلك من أخلاق الايمان التى ينال بها العبد غاية السعادة والحسنى والزيادة . قلت وهذان العنيان هما اللذان يعبر عنهما أئمة الصوفية رضى الله تعالى عنهم بالتحلى والتخلى أى التخلى عن الصفات المذمومة والتحلى بالصفات المحمودة و يعبرون عنهما أيضا بالتزكية والتحلية وهما حقيقة السلوك الذى يعبرون عنه أيضا وستأتى الاشارة إلى كيفية ذلك عند قوله لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين فاذا صح للمريد هذا السفر وانقلب منه إلى أفضل مستقر تحققت عبوديته لربه عز وجل فلم يملكه غيره ولم يسترقه سواه وارتقى فى القرب من ربه إلى أشرف محل فيكون هناك منزله ومثواه فيكون حينئذ كما قال المؤلف رحمه الله تعالى لنداء الحق مجيبا لأنه إذ ذاك مناديه باسم العبد فيقول له ياعبدى فيجيب حينئذ مولاه باسم الرب فيقول له لبيك يارب فيكون صادقا فى إجابته متحققا فى نسبته ويكون أيضا من حضرته قريبا لوجود بعده عن نفسه التى من شأنها النفور عنها والفرار منها فاذا أقامه الحق تعالى مقام العبودية وحاز مرتبة القرب من حضرة الربوبية كان محفوظا من اقتحام الأوزار ميسرا عليه أعمال الأخيار متحليا فى الظاهر والباطن بأشرف الحلى محتظيا بفضيلة التشبه بالملأ الأعلى قال الله عز وجل ـ ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون ـ وقد قال الله تعالى ـ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته و يسبحونه وله يسجدون ـ وقال عز من قائل لايعصون الله ما أمرهم و يفعلون مايؤمرون فمرتبة العبودية أنالتهم هذه الخصوصية وكذلك من تشبه بهم فى محاسن صفاتهم من الصفوة الصوفية إلا أن هؤلاء محفوظون لامعصومون على ما اصطلحوا عليه من الفرق بين الحفظ والعصمة والفرق بينهما هو ماقاله الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه إن المعصوم لايلم بذنب ألبتة والمحفوظ قد تحصل منه همات وقد يكون له فى الندرة زلات ولكن لا يكون له إصرار أولئك الذين يتوبون إلى الله من قريب وقد وصف الله تعالى عباده ذوى التخصيص أولى التطهير والتمحيص فى آيات كريمة بصفات جليلة عظيمة وأعدّلهم على ذلك خيرات جسيمة فقال تعالى ـ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ـ إلى قوله خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما وعليك النظر فيما قاله فيها أهل التفسير وما استنبطه منها أرباب الاشارات والتذكير وأما من عدا هؤلاء فهم عبيد نفوسهم الشهوانية ومسترقو حظوظهم الدنيوية قال الله تعالى ـ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ـ وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم الحديث وهؤلاء هم من عبيد العدد المعنيين بقوله عز وجل ـ إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدّهم عدّا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ـ . واعلم أنه لايتهيأ هذا السلوك إلى حضرة ملك

(أصل كل معصية) أى مخالفة لما أمر الله به ونهى عنه (وغفلة) القلب عن حضرة الرب (وشهوة) نفسانية وهى التعلق بما يشغل عن الله تعالى (الرضا عن النفس) باجماع العارفين وأرباب القلوب لأن الرضا عنها يوجب تغطية عيوبها ومساويها ويصير قبيحها حسنا فمن رضى عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها ومن استحسن كل حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة عن الله وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره فتثور عليه حينئذ دواعى الشهوات وتغلبه إذ ليس عنده من المراقبة ما يدفعها ومن غلبته شهوته وقع فى المعاصى لامحالة (وأصل كل طاعة) أى موافقة للأمر والنهى (ويقظة) أى دخول فى حضرة الرب وتنبه لما يرضيه (وعفة) أى علوّ الهمة عن الشهوات (عدم الرضا منك عنها) فان من لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن إليها ومن كان بهذا الوصف كان متنبها متيقظا للطوارق والعوارض وبالتيقظ يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوّة فيتصف حينئذ بالعفة وإذا اتصف بذلك كان متجنبا لكل مانهى الله عنه محافظا على جميع ما أمر الله به وذلك معنى طاعة الله سبحانه . ولما كان الرضا عن النفس شأن من يتعاطى العلوم الظاهرية التى لاتدل على عيوب النفس والنظر

الملوك إلا لمن وفقه الله تعالى لمعرفة نفسه وما ركبت عليه من مذام الصفات ومن عرف ذلك من نفسه لايزال متهما لها مسيئا ظنه بها آخذا حذره منها وإلا وقع فى المعاصى والذنوب من حيث لايشعر وقد نبه المؤلف رحمه الله تعالى على هذا بقوله (أصل كلّ معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها) الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها ويصير قبيحها حسنا كما قيل :

* وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة * وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا لأنّ العبد إذ ذاك يتهم نفسه ويتطلب عيوبها ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد كما قيل فى الشطر الأخير :

* كما أنّ عين السخط تبدى المساويا * فمن رضى عن نفسه استحسن حالها وسكن إليها ومن استحسن حال نفسه وسكن إليها استولت عليه الغفلة وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره فتثور حينئذ دواعى الشهوة على العبد وليس عنده من المراقبة والتذكير مايدفعها به ويقهرها فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك ومن غلبته شهوته وقع فى المعاصى لامحالة وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها ولم يسكن إليها ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا متنبها للطوارق والعوارض وبالتيقظ والتنبه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها وعند ذلك تخمد نيران الشهوة فلا يكون لها عليه غلبة ولا قوّة فيتصف العبد حينئذ بصفة العفة فاذا صار عفيفا كان مجتنبا لكل مانهاه الله عنه محافظا على جميع ماأمره به وهذا هو معنى الطاعة لله عز وجل وأصل هذا كله عدم رضاه عن نفسه فاذن لاشىء أوجب على العبد من المعرفة بنفسه ويلزم من ذلك عدم الرضا عنها وبقدر تحقق العبد فى معرفة نفسه يصلح له حاله ويعلو مقامه . وقد ورد عن الكبار والأئمة الأخيار من الكلمات المتضمنة لعيبهم لنفوسهم والتهمة منهم لها وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى ولذلك قال أبو حفص رضى الله تعالى عنه من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها فى جميع الأحوال ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه كان مغرورا ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها وكيف يصحّ لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم يقول ــ وما أبرّىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ــ وقال أيضا أبو حفص رضى الله تعالى عنه منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أنّ الله ينظر إلىّ نظر السخط وأعمالى تدلّ على ذلك وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه لاتسكن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك فى طاعة ربك وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه مارضيت عن نفسى طرفة عين ويحكى عن سرىّ السقطى رضى الله تعالى عنه أنه قال إنى لأنظر إلى وجهى فى اليوم كذا كذا مرة مخافة أن يكون قد اسودّ لما أخافه من العقوبة وقال أيضا رضى الله تعالى عنه من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر ولا أحسبنى إلا منهم إلى غير هذا من العبارات الصادرة من المشايخ رضى الله تعالى عنهم فى هذا المعنى وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله تعالى عنه جزءا صغير الجرم عظيم الفوائد فى عيوب النفس وكيفية مداواتها فلينظر فيه المريد وكذلك ألف قبله الامام أبو عبد الله الحرث المحاسبى كتابا سماه النصائح جمع فيه من معايب النفس وخدعها وغرورها وشرورها جملة شافية ونبه فيه على سنن دارسة عافية مما كان عليه سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم من التفتيش والتفقد

نهى المصنف عن صحبتهم ومخالطتهم فقال (ولأن) أى والله لأن (تصحب) أيها المريد (جاهلا) بالعلوم الظاهرية (لا يرضى عن نفسه) بأن يسخط عليها ويعتقد نقصها (خير لك من أن تصحب عالما) بذلك (يرضى عن نفسه) لأن صحبة من يرضى عن نفسه وإن كان عالما شر محض لك لأن الصحبة تؤثر فتكتسب منه هذا الوصف الخبيث فصار علمه غير نافع لك فى تهذيب نفسك وجهله الذى أوجب رضاءه عن نفسه ضار لك غاية الاضرار وكأنه إن فاته العلم بعيوب نفسه حتى لا يرضى عنها لا علم عنده فلذا قال (فأى علم لعالم يرضى عن نفسه) وصحبة من لم يرض عن نفسه و إن كان جاهلا خير محض وفيها كل الفائدة لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله فصار جهله غير ضار لك وعلمه الذى أوجب عدم رضائه عن نفسه نافعا لك غاية النفع وكأنه إذ علم بعيوب نفسه حتى لم يرض عنها لا جهل عنده ولذا قال (وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه) لأنه إذا حصل له هذا العلم صار لا جهل عنـــده حتى يتضرر به مخالطه فتكون صحبته خيرا محضا فالتنوين فى قوله علم وجهل للتنويع أى فأى علم نافع وأى جهل ضار . ثم قال (شعاع البصيرة) ويعبر عنه بنور العقل وبعلم اليقين (يشهدك قربه منك وعين البصيرة) ويعبر عنـــه بنور العلم و بعين اليقين (يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة) ويعبر عنه بنور الحق و بحق اليقين (يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك) . والحاصل أن السالك يهتف على قلبه أنوار إلهية يعبر عنها بهذه العبارات ويترتب على كل واحد ثمرات وفوائد. قال بعضهم ولا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها و بين المصنف أن الذى ينكشف بالنور الأول قرب الله منك وثمرة ذلك ونتيجته مراقبته تعالى والاستحياء منه حتى لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك والذى ينكشف بالثانى عدمية كل موجود فى وجود الحق تعالى فيشهد الأكوان عدما فلا يعبأ بها ولا يلتفت إليها إذ وجودها عارية

والنظر فيما تصلح به أعمالهم وأحوالهم وأنفسهم والمحافظة على تطهير الأسرار والقلوب والمبالغـة فى الحذر من محقرات الذنوب وقد نقل الامام أبو حامد الغزالى قدس الله روحه منـه فصلا فى كتابه واعتمد فيه ذكره بلفظه ونص خطابه بعد أن أثنى على مؤلفه بمـا هو أهله فبان للجاهل به علمه وفضله فقال فى حقه والمحاسبى رحمه الله تعالى حبر الأمة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال و إغوار العبادات وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه ثم ذكره وقد كان أوحد زمانه علما وعبادة ونخبة أوانه ورعا وزهادة سيدى الحاج أبو العباس بن عاشر رحمة الله تعالى عليـه ورضوانه يكثر من التحريض على مطالعة ذلك الـكتاب والعمل بمـا تضمنه من حق وصواب وأظننى سمعته ذات يوم يقول لا يعمل بمـا فيه إلا ولى" أو كلاما هذا معناه فليتخذ المريد مطالعته وردا وليحرص على العمل بمـا تضمنه مستعينا بالله تعالى وسائلا منه توفيقا ورشدا لينصح لمولاه فى مراعاة إصـلاح باطنه والقيام على قدم الصدق فى مواطنه وليجعل هجيراه مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتألف والتعرف فبذلك تتقوى أنوار إيمـانه و يقينه وتنتفى عنه الغرة فى عمله بوظائف دينه ولا يقدم على ذلك إلا فرض العين ومايستجم به نفسه من مكابدة التعب والأين ولا يشغل نفسه بعلم يعبر على وجه مقصوده و يوجب له انتكاث مواثيقه وعهوده وما أكب الناس عليه اليوم وحادوا به عن سنن القوم حتى أكسبهم ذلك من رذائل الصفات وعظائم الآفات ما صار بهم إلى الهلاك والشقاء وأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم اللقاء وسجل عليهم بالـكذب فى دعواهم أنهم قاصدون بعلمهم رضا مولاهم فإياك و إياهم وأنشد :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولـكن لا حياة لمن تنادى

ولذلك قال المؤلف (ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى" علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه) فائدة الصحبة إنمـا هى الزيادة فى الحال وعدم النقصان فيها حسبما يأتى الكلام عليه عند قوله ولا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فصحبة من يرضى عن نفسه و إن كان عالما شر محض ولا فائدة فيها لأن علمه غير نافع له وجهله الذى أوجب رضاه عن نفسه صار غاية الضرر وكأنه إذ فاته هذا العلم الذى يريه عيبه حتى لا يرضى عن نفسه لا علم عنده وصحبة من لا يرضى عن نفسه و إن كان جاهلا خير محض وفيه كل الفائدة لأن جهله غير ضار" وعلمه الذى أوجب له عدم رضاه عن نفسه نافع له غاية النفع وكأنه إذا حصل له هذا العلم لا جهل عنده (شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك) شعاع البصيرة نور العقل وعين البصيرة نور العلم وحق

والوجود الحقيقى له سبحانه وتعالى وثمرة ذلك أن لايبقى فى نظرك ماتستند إليه ولاماتستأنس به فيتم لك التوكل والتفويض والرضا والاستسلام والذى ينكشف بالثالث الذات المقدسة وثمرة ذلك الفناء الكامل الذى هو دهليز البقاء فيفنى عن فنائه وعدمه استهلاكا فى وجود سيده وناهيك بما يحصل له حينئذ من المواهب والأسرار الالهية فاذا ترقى عن ذلك حل فى مقام البقاء . قال صاحب العوارف والباقى فى مقام لايحجبه الحق عن الخلق ولاالخلق عن الحق والفانى محجوب بالحق عن الخلق اه (كان الله ولا شئ معه) يعنى أن هذا حال من هو متحقق بمقام الفناء وهو عدم رؤيته غير مولاه (وهو الآن على ماعليه كان) أى إن الأمر الذى حصل لذلك المشاهد وهو أن الوجود الحقيقى له سبحانه وتعالى وغيره لاوجود له هو الوصف المتحقق له سبحانه فى الواقع وعدم إدراك ذلك له قبل ذلك إنما هو لوجود الحجاب فقوله وهو الآن أى عند مشاهدة هذا السالك له على هذا الوصف على ما عليه كان أى هو متصف به فى الواقع وقبل إدراك هذا المشاهد له لكن عدم إدراكه ذلك إنما هو للحجاب القائم به . ثم قال (لا تتعدد نية همتك) أيها السالك (إلى غيره) بأن تتوجه إلى غيره لتحصيل حاجتك بل اطلب حوائجك منه (فالكريم لا تتخطاه الآمال) فالهمة العلية تأنف من رفع حوائجك إلى غير كريم ولا كريم على الحقيقة إلا الله إذ الكريم هو الذى إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى وإذا جفى عاتب وماأستقصى ولا يضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعا وهذه الصفات لايستحقها حقيقة إلا الله سبحانه وتعالى فينبغى أن لاتتخطاه آمال المؤملين إلى غيره . واعلم أن الطلب من الخلق المنافى للعبودية هو الطلب منهم على وجه الاعتماد عليهم والاستناد إليهم والغفلة فى حال الطلب عن الله تعالى أما الطلب منهم من حيث كونهم أسبابا ووسائط مع الاعتماد فى نيل المطلوب على الله ورؤية أنه المعطى فليس منافيا للعبودية. ثم قال (لا ترفعنّ) أيها المريد (إلى غيره حاجة) أى فاقة أو نازلة نزلت بك أى لاتتوجه فى زوالها إلى غيره وتطلب منه أن يرفعها عنك فانّ تلك الفاقة أوالنازلة (هو موردها عليك) أى منزلها بك (فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا) إذ هو الغالب الذى لايغلبه شئ وأيضا (من لايستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه) إذا نزلت به (فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا) أى فيستحيل ذلك لثبوت عجزه وضعفه . وحاصله أنّ المرفوع إليه حوائج لم يتوصلوا إليها ولو كان ملكا ولاشك أنّ نفسه أحبّ إليه من غيره فلو كان له قدرة على نفع غيره لنفع نفسه فلزم عجزه عن نفع غيره إذ ما بعد العجز عن نفع النفس عجز فيكون من قلة العقل تعلقك فى حاجتك بمن هو محتاج مثلك

البصيرة نور الحق فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريبا منهم أى بالعلم والاحاطة والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسهم عدما فى وجود ربهم والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه (كان الله ولا شئ معه وهو الآن على ماعليه كان) الأزمنة ههنا أمور وهمية لاوجود لها على التحقيق والمقصود أن الله تعالى لاشئ معه لثبوت أحديته :

فلم يبق إلاالحق لم يبق كائن ... فما ثم موصول وما ثم بائن

بذاجاء برهان العيان فما أرى ... بعينى إلا عينه إذ أعاين

وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله تعالى الأكوان ثابتة باثباته ممحوة بأحدية ذاته وقال قدّس الله سره (لاتتعدى نية همتك إلى غيره فالكريم لاتتخطاه الآمال) الهمة العلية تأنف من رفع حوائجها إلى غير الكريم ولا كريم على الحقيقة سوى الله تعالى . قال الجنيد رضى الله تعالى عنه الكريم الذى لايحوجك إلى مسئلة وقال الحرث المحاسبى رضى الله تعالى عنه الكريم الذى لايبالى من أعطى وقيل الكريم الذى لايخيب رجاء المؤملين وأجمع العبارات فى معنى وصف الكريم ماقيل الكريم الذى إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى وإن رفعت حاجة إلى غيره لايرضى وإذا جفى عاتب وما استقصى ولايضيع من لاذ به والتجا ويغنيه عن الوسائل والشفعاء فاذا كانت هذه الصفات لايستحقها أحد سوى الله تعالى فينبغى إذن أن لاتتخطاه آمال المؤملين إلى غيره كما قال بعضهم :

حرام على من وحد الله ربه ... وأفرده أن يجتدى أحدا رفدا

وياصاحبى قف بى مع الحق وقفة ... أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا

وقل للملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

(لاترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا من لايستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا) إذا أورد الله تعالى عليك حاجة أو

أوأنزل بك نازلة فاعلم أنه لا رافع لها سواه إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هوله واضعا لثبوت توحيده فى أن لا فاعل سواه و إذا هو غالب على أمره لا يغالبه أحد و يستحيل أيضا أن يرفعه عنك من لا يستطيع أن يرفعها عن نفسه لو نزلت به لثبوت عجزه وضعفه ومن المحال تعلقك فى حاجتك بمن هو محتاج مثلك قال بعضهم من اعتمد على غير الله فهو فى غرور مما لا يدوم ولا يدوم شئ سواه وهو الدائم القديم الذى لم يزل ولا يزال وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء فى كل نفس وحين وأوان وزمان قال عطاء الخراسانى رضى الله تعالى عنه لقيت وهب بن منبه فى الطريق فقلت حدّثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى وأوجز قال أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ياداود أما وعزتى وجلالى لا يستنصر بى عبد من عبادى دون خلقى أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهنّ والأرضون السبع ومن فيهنّ إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا يستعصم عبد من عبادى بمخلوق دونى أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات السبع من دونه وأسخت الأرض من تحته ولا أبالى فى أى واد هلك . قال محمد بن الحسين بن حمدان كنت فى مجلس يزيد بن هرون وكان إلى جانبى رجل قلت له ما اسمك فقال سعيد فقلت ما كنيتك قال أبو عثمان فسألته عن قصته وخبره فقال نفدت نفقتى فقلت ومن تؤمل لما قد نزل بك فقال يزيد فقلت إذن لا يسعفك بحاجتك ولا ينجح طلبك ولا يبلغك أملك فقال وما علمك بهذا رحمك الله قلت إنى قرأت فى بعض الكتب إنّ الله عز وجل يقول وعزتى وجلالى وجودى وكرمى وارتفاعى فوق عرشى فى علوّ مكانى لأقطعن أمل كل مؤمل لغيرى بالاياس ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ولأنحينه من قربى ولأقطعنه من وصلى أيؤمل غيرى فى النوائب والشدائد بيدى وأنا أحى و يرجى غيرى وتطرق الفكر أبواب غيرى و بيدى مفاتيح الأبواب وهى مغلقة و بابى مفتوح لمن دعانى من ذا الذى أملنى لنائبة فقطعت به دونها ومن ذا الذى رجانى لعظيم جرمه فقطعت رجاءه منى أم من ذا الذى قرع بابى فلم أفتحه له جعلت آمال خلقى بينى و بينهم متصلة فتعلقت بغيرى وجعلت رجاءهم مدّخرا لهم عندى فلم يرضوا بحفظى وملأت سمواتى ممن لا يملون تسبيحى من ملائكتى وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى فلم يثقوا بقولى ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها أحد غيرى فمالى أراه بآماله معرضا عنى ومالى أراه لاهيا بسواى أعطيته بجودى مالم يسألنى ثم انتزعته منه فلم يسألنى ردّه وسأله غيرى أفترانى أبدأ بالعطية قبل المسئلة ثم أسأل فلا أجيب سائلى أبخيل أنا فيبخلنى عبدى أليس الدنيا والآخرة لى أوليس الرحمة والفضل بيدى أوليس الجود والكرم لى أوليس أنا محل الآمال فمن ذا الذى يقطعها دونى وما عسى أن يؤمل المؤملون لو قلت لأهل سمواتى وأهل أرضى أملونى ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر ما أعطيت الجميع ما نقص ذلك من ملكى عضو ذرة كيف ينقص ملك كامل أنا قيمه فيابؤس القانطين من رحمتى ويابؤس من عصانى ولم يراقبنى وثبت على محارمى ولم يستحى منى قال رحمك الله أمل هذا الحديث علىّ فكتبه ثم قال والله لا أكتب حديثا بعده قلت والأصل الذى ينبنى عليه هذا المعنى هو تحقق العبد فى مقام حسن الظن بالله تعالى ولذلك أخذ المؤلف رحمه الله تعالى فى ذكره بأثره فقال (إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه فحسن ظنك به لوجود معاملته معك فهل عوّدك إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا مننا) حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين والناس فيه على قسمين خاصة وعامة فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم والتفاوت بين القامين ظاهر ولذلك لا يخاف من التغير والانقلاب فى أحدهما ما يخاف فى الآخر لأنّ أرباب المقام عليه وحسن الظن به لوجود معاملته معك ينتج لك شكر نعمته والتشوف لورود فضله ورحمته

(إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه) أى لأجل ما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية فان من كان متصفا بأسنى الصفات لا يصدر منه إلا الجميل سيما لمن ظن به الجميل (فحسن ظنك به لوجود معاملته معك) من إسباغ النعم وشمول الفضل والكرم (فهل عوّدك إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا مننا) أى نعما أشار بذلك إلى أن الناس فى حسن الظن على قسمين خاصة وعامة فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم والتفاوت بين المقامين ظاهر فكأنه قال ينبغى لك أيها المريد أن تحسن ظنك به مطلقا فى إيصال النافع ودفع الضار وعدم الالتفات لغيره فان لم تقدر على حسن الظن الذى هو مقام الخاصة فتلبس بمقام العامة وحسن الظن به لوصفه ينتج لك محبته وصحة الاعتماد والتوكل

الأوّل لما تحققوا فى المعرفة بالله تعالى واحتظوا بأنوار اليقين به اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ولا مجال لسوء ظنّ وأرباب المقام الثانى لم يرتقوا عن نظرهم إلى الأفعال وهى متلونة عليهم فى كل حال وعند وقوع بعض مالا يلائمهم منها بهم ربما تضعف عن تحمل مكارهها قوى قلوبهم فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن بالله وتحدّث النفس بما يقتضى وجود هلع وجزع فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله عز وجل ـ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ـ وما أشبهه وليقس النادر على الغالب . قال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله تعالى عنه: حسن الظن عبارة عن قطع الوهم أن يكون أولا يكون لأنّ الوهم قاتل وهو لوقت ٧ ثان فمتى أعطيت أذنك للوهم هلكت وحدك وكذلك الاصغاء بالأذن إلى الشيطان والنفس جنس واحد اه . قلت وحسن الظن يطلب من العبد فى أمر دنياه وفى أمر آخرته أما أمر دنياه فأن يكون واثقا بالله تعالى فى إيصال المنافع والمرافق إليه من غير كدّ ولا سعى فيها أو سعى خفيف مأذون فيه ومأجور عليه بحيث لا يفوّته ذلك شيئا من نفل ولا فرض فيوجب له ذلك سكونا وراحة فى قلبه و بدنه فلا يستفزه طاب ولا يزعجه سبب وأما أمر آخرته فأن يكون قوىّ الرجاء فى قبول أعماله الصالحة وتوفية أجوره عليها فى دار الثواب والجزاء فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأمر والتكثير من أعمال البرّ بوجود حلاوة واغتباط ولذاذة ونشاط وقد قال يحيى بن معاذ أوثق الرجاء رجاء العبد لربه وأصدق الظنون حسن الظن بالله تعالى ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التى لا ينبغى للعبد أن يفارقه فيها أوقات الشدائد والمحن وحلول المصائب فى الأهل والمال والبدن لئلا يقع بسبب عدم ذلك فى الجزع والسخط وسيأتى هذا المعنى فى كلام المؤلف رحمه الله وهو قوله من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره ومن أعظم مواطن حسن الظن بالله تعالى حالة الموت وقد جاء فى الخبر «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى» وفى حديث جابر «من استطاع منكم أن لا يموت إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى فليفعل ثم تلا هذه الآية ـ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ـ» ولأنه تعالى قال فيما يروى عنه «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء» . قال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه وكان ابن مسعود يحلف بالله ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى إلا أعطاه الله عز وجل ذلك لأنّ الخير كله بيده فاذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه لأن الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له اه . وقد روى عن أبى النصر بن حيان قال خرجت عائدا ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته قال فدخلنا عليه وهو فى فراشه فلما رأى واثلة بسط يده وطفق يشير إليه فأقبل واثلة حتى جلس على الفراش وأخذ يزيد بن الأسود بكفى واثلة حتى جعلهما على وجهه فقال له واثلة أسألك عن شىء تخبرنيه قال لا تسألنى عن شىء أعلمه إلا أخبرتك به قال له واثلة كيف ظنك بالله عز وجل قال ظنى والله بالله حسن قال فأبشر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قال الله تبارك وتعالى أنا عند ظن عبدى بى إن ظن خيرا و إن ظن شرا» وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال «عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مريضا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف ظنك بربك؟ قال يا رسول الله حسن الظن قال فظن به ما شئت فان الله تبارك وتعالى عند ظن المؤمن به» وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال «إن حسن الظن بالله من حسن عبادة الله» قلت والأخبار والآثار فى الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته أكثر من أن تحصى ومطالعتها مما يزيد المريد قوّة فى هذا المقام فمن أراد الشفاء فى ذلك عليه بمطالعة كتاب الرجاء من قوت القلوب وكتاب الاحياء قال بعضهم :

وما زلت أرجو الله حتى كأننى ... أرى بجميل الصنع ما هو صانع

(العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه) وهو الله تعالى بأن لا يفعل ما يقرّبه إليه (و يطلب ما لا بقاء له معه) وهو الدنيا وكل شىء سوى المولى بأن يقبل على شهواته و يتبع هواه (فانها لا تعمى الأبصار الآية) أى إنّ ذلك ناشىء من عمى قلبه ووجود جهله بر به لأنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وآثر الفانى الذى لا بقاء له على الباقى الذى لا انفكاك له عنه ولو كانت له بصيرة لعكس الأمر. ثم قال (لا ترحل من كون إلى كون) يعنى أن العمل المصاحب للرياء ونحوه مذموم غير معتد به شرعا فاذا جاهد المريد نفسه حتى خلص من ذلك ولكن قصد به الجزاء والدرجات أونيل الرتب العلية والمقامات لم يزل مذموما أيضا عند العارفين والمحمود أن يقصد به وجه الله تعالى ثم شبه المصنف الرحيل من كون إلى كون بقوله (فتكون كحمار الرحى) أى الطاحون (يسير والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه) وكذلك العمل لطلب الجزاء فيه رحيل من كون وهو الرياء ونحوه إلى كون وهو ماذكر من طلب الجزاء وسببه بقايا النفوس فتطلب بعملها رتبة عند الله وكل ذلك من الأكوان والأكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا (ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن) بأن تخلص عملك لمولاك وحده دون حظ عاجل أو آجل فمن عمل لأجل الدرجات أو المقامات فهو عبد لها ومن عمل لله فهو عبد لله وهو راحل من الأكوان إلى المكوّن (وأنّ إلى ربك المنتهى) أى فقد انتهى سيره إلى الله وصار متحققا بمعنى هذه الآية بخلاف المرتحل من كون إلى كون فانه غير منته له ولا واصل إليه (وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله) أى بالقصد والنية (فهجرته إلى الله ورسوله) فى الواقع ونفس الأمر فهى محمودة معتدّ بها (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ماهاجر إليه» فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم) يعنى أن فى هذا الحديث تنبيها على المعنى المذكور وموضع الاعتبار والتأمّل هو الشق الثانى أعنى فهجرته إلى ماهاجر إليه فان معناه أنه لا نصيب له من الوصول والقرب الذى حظى به من هاجر إلى الله ورسوله وكأنه صلى الله عليه وسلم نبه بالدنيا والمرأة على حظوظ النفس بالوقوف معها كائنة ما كانت فقوله فهجرته إلى الله ورسوله هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكوّن الذى هو مطلوب من العبد وهو مصرّح به وقوله فهجرته إلى ماهاجر إليه هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها وهو مشار به غير مصرّح. ولما كان حاصل ما تقدم طلب رفع الهمة عن الخلق وتعلقها بالملك الحق وأبلغ ما يوصل إلى هذه المرتبة صحبة العارفين بالله تعالى أمر بها فى ضمن قوله

ثم بين رحمه الله تعالى الحالة التى بمنازلتها يتحقق العبد فى مقام حسن الظنّ بالله تعالى وهو عكوف العبد بباب الله وتعلق قلبه بوحدانيته وأشار إلى أنّ ذلك هو غاية النعيم ومنتهى الأمانى لاماتتوهمه النفس وتطلبه من النعيم المعقول والأمنيات التى تفنى وتزول وحكم بأنّ خلاف هذا من عمى القلب ومما يستحق أن يتعجب منه كل ذى لبّ فقال (العجب كل العجب ممن يهرب ممن لا انفكاك له عنه ويطلب ما لا بقاء له معه فانها لا تعمى الأبصار الآية) هرب العبد من مولاه باقباله على شهواته ومتابعته هواه وذلك نتيجة عمى قلبه وجهله بربه لأنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير وآثر الفانى الذى لا بقاء له على الباقى الذى لا انفكاك له عنه ولو كانت له بصيرة لآثر الباقى على الفانى ولفعل مافعله سحرة فرعون لما آمنوا بربهم إذ لم يحفلوا بما وعدهم به فرعون من الاحسان والانعام والتقريب والاكرام ولم يكترثوا بما توعدهم به من العذاب والقتل والصلب على جذوع النخل بل قالوا ـ لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا ـ الآية ثم قالوا ـ والله خير وأبقى ـ فهؤلاء استنارت قلوبهم وشهدوا محبوبهم فكان منهم ما كان (لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن وأنّ إلى ربك المنتهى) العمل على طلب الجزاء والدرجات أونيل الرتب العلية والمقامات نقصان فى الحال وشوب فى إخلاص الأعمال وهو معنى الرحيل من كون إلى كون وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس فى أن تحصل لها رتبة أوتنال بسعيها موهبة وهذه كلها من الأكوان والأكوان كلها متساوية فى كونها أغيارا وإن كان بعضها أنوارا وتمثيله بحمار الرحى مبالغة فى تقبيح حال العاملين على رؤية الأغيار وتلطف فى دعائهم إلى حسن الأدب بين يدى الواحد القهار حتى يتحققوا بمعنى قوله تعالى ـ وأنّ إلى ربك المنتهى ـ فيكون انتهاء سيرهم إليه وعكوف قلوبهم عليه وتكون أعمالهم إذ ذاك وفاء بمقتضى العبودية وقياما بحقوق الربوبية فقط من غير التفات إلى النفس على أى حالة تكون فهذا هو تحقيق الاخلاص الكائن عن مشاهدة التوحيد الخاص جعلنا الله من أهله بمنه وفضله إنه على كل شىء قدير (وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ماهاجر إليه» فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم) فى هذا الحديث النبوى تنبيه على المعنى الذى ذكره وموضع

و إن كان من العباد والزهاد فصحبته للمريد منهى عنها بخلاف صحبة من ينهضك حاله و يدلك على الله مقاله بأن تكون همتـه متعلقة بالله مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى ولايتوكل في أموره إلا عليه سبحانه وتعالى قد سقط الناس من عينه فلايرى منهم ضرا ولا نفعا وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولايقضى لها حظا و يكون في جميع أعماله جاريا عـلى مقتضى الشرع من غير إفراط ولاتفريط وهذه صفات العارفـين بالله تعالى فصحبة من هذه حاله وإن قلت عبادته ونوافله مأمور بها للمريد لأنها جالبة لكل فائدة دينية ودنيـوية إذ الطبع يسرق من الطبـع بخلاف من لم يكن على هـذا الوصف وكان شأنه المعاملة الظاهرة لاغـير فلا فائدة في صحبته ثم لايخلو إما أن يكون مثلك فلا يحصل لك من صحبته ضرر وإما أن يكون دونك وهو ما أشار إليه بقوله

الاعتبار والتأمل هو والله أعلم قوله في القسم الثاني فهجرته إلى ماهاجر إليه أي ولانصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به من هاجر إلى الله ورسوله وهو قوله فهجرته إلى الله ورسوله وهذا من باب حصر المبتدإ في الخبر كما تقول زيد صديقي أي لاصديق له غيري وكأنه صلى الله عليه وسلم نبه في القسم الثاني بالدنيا التي يريد أن يصيبها والمرأة التي يريد أن يتزوجها على حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنة ما كانت و إن كان ظاهرها طلب الحظ العاجل فقوله فهجرته إلى الله ورسوله هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون وهو المطلوب من العبد وهو مصرح به غاية التصريح وقوله فهجرته إلى ماهاجر إليه هو البقاء مع الأكوان والتنقل فيها وهو الذي نهى عنه وهو مشار به غير مصرح فليكن المريد عالي الهمة والنية حتى لا يكون له التفات إلى غـير ولا كون ألبتة ولقد أحسن الشاعر في قوله :

وكل ماقد خلق الله ومالم يخلق   محتقر في همتي   كشعرة في مفرق

قال رجل لأبي يزيد رضي الله تعالى عنه أوصني فقال له إن أعطاك من العرش إلى الفرش فقل له لا، أنت أريد وقال أبوسليمان الداراني رضي الله تعالى عنه لوخيرت بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت ركعتين لأني في الفردوس بحظي وفي الركعتين بربي وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه احذر مكره ولو في قوله ـ كلوا واشربوا ـ يريد لاتستغرق في الحظ ولتكن في كل شيء به لا بنفسك فقوله تعالى ـ كلوا واشربوا ـ و إن كان ظاهره إكراما و إنعاما فإن في باطنه ابتلاء واختبارا حتى ينظر من هو معه ومن هو مع الحظ . قال رضي الله تعالى عنه (لاتصحب من لاينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله) تكلم ههنا في الصحبة وهي أصل كبير من أصول القوم وفيها منافع وفوائد ولذلك استمر عليها شأنهم قديما وحديثا وقد نبه المؤلف رحمه الله على فائدتها في قوله لاتصحب من لاينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فإنهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة ومعنى الحال المنهضة ههنا هو أن تكون همته متعلقة بالله تعالى مرتفعة عن المخلوقين لايلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى ولايتوكل في أموره إلا على الله قد سقط اعتبار الناس من عينه فلايرى منهم ضرا ولانفعا وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقتضى لها حظا و يكون في أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط وهذه صفة العارفين الموحدين فصحبة من هذه حاله و إن قلت عباداته ونوافله مأمونة الغائلة محمودة العاقبة جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله ولا يشترط في المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام فإن ذلك متعذر و إنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون أعلى منه حالا وأصوب منه مقالا ومن لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة بالظاهر لاغير فليس له فائدة في صحبته بل ربما زادته شرا لأن خلطته تدعوه إلى التصنع له والتزين و يؤديه ذلك إلى كبائر معاصي القلوب وهي أشد عليه من معاصي الجوارح بكثير . قال يوسف بن الحسين الرازي رضي الله تعالى عنه لأن ألقى الله بجميع المعاصي أحب إلي من أن ألقاه بذرة من التصنع فيدخل بذلك عليه النقص في حاله من حيث رجاء الزيادة فيها . قال بعض الصوفية لاتعاشر من الناس إلا من لاتزيد عنده ببر ولاتنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء وقال بعضهم كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت وقيل لبعض الصالحين إن فلانا يحبك و يكثر ذكرك فقال إنه حبيب إلى وأجله وأعرف قدره ولكن يهون علي أن ألقى الشيطان ألف مرة ولاألقاه مرة واحدة قيل له وكيف ذلك قال أخشى أن أتزين له و يتزين لي.

قال الشيخ أبوطالب المكى رضى الله تعالى عنه : وكانت هذه الطائفة من الصوفية لايصطحبون إلاعلى استواء أربعة معان لايترجح بعضها على بعض ولا يكون فيها اعتراض من بعض على بعض إن أكل صاحبه الدهر كله لم يقل له صاحبه صم وإن صام الدهر كله لم يقل له صاحبه أفطر وإن نام الليل كله لم يقل له صاحبه قم فصل وإن صلى الليل كله لم يقل له صاحبه نم بعضه وتستوى أحواله عنده فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه ، قالوا وإذا كان يزيد عنده بالعمل وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين وأبعد من المراآة من قبل أن النفس مجبولة على حب المدح وكراهة الذم ومبتلاة بأن يرى حالها التى عرفت به وأن تظهر أحسن مايحسن عند الناس منها وأن تجتلب مايوجب المدح منهم وتجتنب مايوقع الذم عندهم فاذاصحب من يعمى معه هذافليس ذلك طريق الصادقين ولا بغية المخلصين فمجانبة هؤلاء الناس أصلح للقلوب وأسلم للدين وفى معاشرة أمثالهم فساد القلب ونقصان الايمان وضعف اليقين لأن هذه أسباب الرياء وفى الرياء حبط الأعمال وخسران رأس المال والسقوط من عين ذى الجلال ، وكان الثورى رضى الله تعالى عنه يقول : من عاشر الناس داراهم ومن داراهم راآهم ومن راآهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا ، وكان بعض الحكماء يقول : لاتؤاخ من الناس من يتغير عليك فى أربع عند غضبه ورضاه وعند طمعه وهواه لأن هذه المعانى تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس وفقد الانتفاع ، وقال فى موضع آخر من كان ناظرا فى أخوة أخيه أوفى صحبته لكثرة أعماله أو واقفا مع أكمل أحواله دل على جهله بهذه الطريق التى تنفذ إلى التحقيق لأنها تحول وإنما العمل على حقائق القلوب لأنها ثابتة فى الوصول فان اقترن إلى جهله نقص معرفة الأخوة دخل عليه التزين والتصنع عنده لتعلو منزلته ويحسن عنده أثره فيدخله ذلك فى الشرك ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد فتزل قدم بعد ثبوتها ويسقط من عين مولاه فلا يتولاه لأن النفس مبتلاة بحب الثناء والمدح وإثبات المنزلة باظهار الوصف فيكون هذا الصاحب حينئذ من أشأم الناس عليه وأضرهم له ويصير أحدهما بلاء على صاحبه فليفارقه حينئذ لأنه جاهل فلا يصحبه لأنه يجد النقصان بصحبته وتدخل عليه الآفات بمقاربته ولينفرد بنفسه ويصدق فى حالة عالية كانت أو دنيئة وضيعة كانت أو رفيعة من غير مقاربة أحد ولامباينته فهو خيرله وأحمد عاقبة اه ويدل على إرادة صاحب الكتاب لهذا المعنى الذى ذكرناه فى التنبيه على قوله لاتصحب من لاينهضك حاله ما أعقبه به من قوله ولا يدلك على الله مقاله ، فيكون الحال والمقال متناسبين فى كون كل واحد منهما متعلقا بالله تعالى عبودية ودلالة . قال سهل بن عبد الله رضى الله تعالى عنه : احذر صحبة ثلاثة أصناف من الناس :الجبابرة الغافلين والقراء الداهنين والمتصوفة الجاهلين . وقال يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله تعالى : قلت لذى النون المصرى رضى الله تعالى عنه من أصحب ؟ فقال من لاتكتمه شيئا مما يعلمه الله منك ، وقال حمدون القصار رضى الله تعالى عنه : اصحب الصوفية فان للقبيح عندهم وجوها من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به إشارة إلى أن العجب بالعمل المنفى عندهم فى صحبتهم ، وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه إذا أراد الله بالمريد خيرا أرفقه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء ، وقال على رضى الله تعالى عنه شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة وألجأك إلى الاعتذار ، وقال مرة : شر الأصدقاء من يتكلف له وأنشدوا ليوسف بن الحسين الرازى رضى الله تعالى عنه :

أحب من الاخوان كل موآتى ... وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أحبه ... ويحفظنى حيا وبعد مماتى

(ربما كنت مسيئا فأراك الاحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالا منك) يعنى أن صحبة من هو دونك ضرر محض لأنها تغطى عنك عيوبك وتبين لك كمالك فتوجب لك حسن الظن بنفسك فتعجب بأعمالك وتقنع بأحوالك والرضا عن النفس ورؤية إحسانها أصل كل شر فان أردت ولابد أن تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله فاصحب مثلك

حتى تكون فى صحبته لالك ولا عليك . ثم اعلم أن صحبة العارفين على قسمين صحبة إرادة وصحبة تبرك فصحبة الارادة هى التى يشترط لها الشروط المعروفة التى حاصلها أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدى الغاسل وصحبة التبرك هى التى تكون القصد بها الدخول مع القوم والتزيى بزيهم والانتظام فى سلك عقدهم وهذا لا يلزم بشروط الصحبة وإنما يؤمر بلزوم حدود الشرع ولعله بمخالطة الطائفة تعود عليه بركتهم ويصل إلى ما وصلوا إليه (ماقل عمل برز من قلب زاهد) أى غير متعلق بالدنيا بل هو وإن كان قليلا فى الحس كثير فى المعنى لسلامته من الآفات القادحة فى قبول الأعمال من الرياء والتصنع للناس وطلب الأعراض الدنيوية وعدم حضور

فمن لى بهذا ليتنى قد وجدته فقاسمته مالى من الحسنات

والحاصل من هذا أن صحبة الصوفية التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها غيرهم وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب ، فقد قيل من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة ، هذا فى الحضور والمجالسة فما ظنك فى الصحبة والمؤانسة وقد وصفهم بعض العلماء فقال الصوفى من لا يعرف فى الدارين أحدا غير الله ولا يشهد مع الله سوى الله قد سخرله كل شئ ولم يسخرهو لشئ وسلط على كل شئ ولم يسلط عليه شئ يأخذ النصيب من كل شئ ولا يأخذ النصيب منه شيئا يصفو به كدر كل شئ ولا يكدر صفوه شئ قد شغله واحد عن كل شئ وكفاه واحد من كل شئ فانظر رحمك الله هذه الصفات ما أعظمها وأجلها وما أشرف حال من اتصف بها وما أعزه فى هذا الوجود نفعنا الله بهم ورزقنا من بركاتهم وفى صحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد مالا يحصل له بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات حتى يبلغوا من ذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل ولا يحيط به علم عالم ناقل . قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه ماذا أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواما يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رمانا للوقت فمن صحب مثل هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء وقال أيضا رضى الله تعالى عنه والله ماسار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف إلا حتى يلقوا واحدا مثلنا فاذا لقوه كان بغيتهم وقال أيضا رضى الله تعالى عنه الولى إذا أراد أغنى وقال أيضا رضى الله تعالى عنه والله مابينى و بين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته وقال فيه شيخه أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه أبو العباس هو الرجل الكامل والله إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه المساء إلا وقد أوصله إلى الله وسيأتى طرف من ذكر حال المؤلف رحمه الله تعالى فى صحبته وما أوصله إليه ببركة رؤيته عند قوله كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز (ربما كنت مسيئا فأراك الاحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالا منك) هذه أعظم آفة تدخل على من خالف ماذكره وصحب من هو دونه فى الحال وهى استحسانه لما هو عليه فيؤديه ذلك إلى رضاه عن نفسه ورؤيته لاحسانها وهو أصل كل شر كما تقدم (ماقل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب) مقادير الأعمال على حسب قلوب العمال فما صدر عن الزاهدين فى الدنيا من عمل طاعة وإن كان قليلا فى الحس فهو كثير على التحقيق وماصدر عن الراغبين فيها من عمل بر وإن كان كثيرا فى الحس فهو قليل على التحقيق وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى إخلاص أعمالهم من مراآة الناس والتصنع لهم وطلب الأعواض الدنيوية عليها منهم لأنهم زهدوا فيها فيتحصل لهم قبول أعمالهم فيتوفر لهم قليلها بحسب ذلك ويكثر والراغبون تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم القادحة فى إخلاصهم بسبب رغبتهم فى الدنيا فلا تقبل منهم فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل فانه لا يقل عمل مع التقوى وكيف يقل عمل يتقبل وقد وصف الله تعالى ذكر المؤمنين بالكثرة لما تضمنه من وجود الاخلاص وعدم رياء الناس فقيل فى قوله تعالى

القلب مع المولى فى حال فعله لقلة الوساوس الشيطانية الناشئة من حب الدنيا (ولا كثر عمل برز من قلب راغب) فى الدنيا بل هو وإن كان كثيرا فى الحس قليل فى المعنى لعدم سلامته مما ذكر وقد روى عن ابن مسعود أنه قال: ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا

(حسن الأعمال) بخلوّها عما يعوقها عن القبول من الرياء وغيره وحضور القلب مع الله فى حال فعلها وعدم اشتغاله بغيره من الوساوس الشيطانية (نتائج حسن الأحوال) القائمة بالقلوب من الزهد فى الدنيا والاخلاص لله بأن يقصد بعمله عبودية لله تعالى لالطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل (وحسن الأحوال) ناشئ (من التحقق) أى التمكن (فى مقامات الانزال) أى فى المقامات التى تنزل فى قلوب العارفين وهى معارف إلهية يوردها الله تعالى على القلوب تكون سببا فى ترك الدعوى وعدم الالتفات إلى جنة أو هرب من نار فإن المريد إذا حصل له ذلك راقب مولاه بقلبه فلا يقصد بعمله غيره و إذا حصل ذلك تخلص العمل مما يعوقه عن القبول وهذه الحكمة كالدليل لما قبلها . ولما كانت الخصال المحمودة لاتنشأ غالبا

(٤١)

إلا من كثرة الذكر والمداومة عليه ذكره بقوله (لاتترك) أيها المريد (الذكر) بل لازمه وداوم عليه فانه أقرب الطرق إلى الله تعالى وعلامة على وجود ولايته فمن وفق للذكر فقد أعطى منشور الولاية فلا تتركه (لعدم حضورك) أى حضور قلبك (مع الله فيه) بأن كان مشتغلا بالوساوس الشيطانية والأغراض الدنيوية (لأن غفلتك عن وجود ذكره) بأن تتركه (أشد من غفلتك) الحاصلة (فى وجود ذكره) لأن ترك الذكر فيه بعد عن الله تعالى بالقلب واللسان بخلاف الذكر فانك إن بعدت عنه بقلبك فأنت قريب بلسانك فعليك أن تذكر الله به و إن كان قلبك غافلا حال الذكر (فعسى أن يرفعك) أى يرقيك (من ذكر مع وجود غفلة) عن المولى (إلى ذكر مع وجود يقظة) أى تيقظ لما يناسب حضرته سبحانه من الأدب وعدم الاشتغال عنه بغيره (ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور) بأن يدخل القلب حضرة الرب فيراقبه حال ذكره ولا يغفل عنه (ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور) وهو الله بأن يفنى حتى عن الذكر فيصير يخرج منه الذكر من غير قصد وحينئذ يكون الحق لسانه الذى ينطق به فان بطش هذا الذاكر كان يده التى يبطش بها و إن سمع كان سمعه الذى يسمع به ، وهذه العالم والمراقى لا يعرف حقيقتها إلا السالكون وجدانا والعلماء إيمانا وتصديقا ، فاياك والتكذيب بشئ من ذلك فتهلك مع الهالكين . ولما كان المريد ربما يستبعد الوصول إلى ذلك نهاه بقوله

تعالى - يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا - قيل يعنى خالصا فسمى الخالص كثيرا وهو ما أخلصت فيه النية لوجه الله العظيم ووصف ذكر المنافقين بالقلة لما اشتمل عليه من عدم الاخلاص ووجود رياء الناس فقال تعالى - يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا - يعنى غير خالص وروى عن عبدالله بن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال: ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة التعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا ، وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد منكم فى الدنيا ، وعن بعض الصحابة أيضا قال تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد فى الدنيا ، وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه سألت معروفا الكرخى رضى الله تعالى عنه عن الطائعين لله بأى شئ قدروا على الطاعة ؟ فقال باخراج الدنيا من قلوبهم ولو كان شئ منها فى قلوبهم ماصحت لهم سجدة وقال الشيخ أبو عبدالله القرشى رضى الله تعالى عنه: شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البرّ ولا يجد حلاوة فى قلبه فقال لأن عندك بنت إبليس وهى الدنيا ولابدّ للأب أن يزور ابنته فى بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله إلا فسادا وكان أبو محمد بن سهل رضى الله تعالى عنه يقول يعطى الزاهد ثواب العلماء والعباد ثم يقسم على المؤمنين ثواب أعماله قال ولا يرى فى القيامة أحد أفضل من ذى زهد عالم ورع (حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال وحسن الأحوال من التحقق فى مقامات الانزال) حسن الأعمال توفيتها بما يجب لها من شروط وآداب عبودية لله تعالى لالطلب حظ عاجل ولا ثواب آجل وحسن الأحوال أن تكون سالمة من العلل والدعاوى موسومة بسمة الصدق والتحقق فى مقامات الانزال هو ارتواء القلب بما ينزله الحق تعالى فيه من مقامات العلوم والمعارف بحيث ينتفى عنه كل شك وريب ، وهذه الثلاثة المذكورة مرتب بعضها على بعض وهو معنى مايقوله الامام أبو حامد رضى الله تعالى عنه لابد فى كل مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل فالعلم ينتج الحال والحال ينتج العمل ، وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله تعالى نوع استدلال على ماقاله فى الزاهد والراغب (لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور

وما ذلك على الله بعزيز) الذكر أقرب الطرق إلى الله تعالى وهو علم على وجود ولايته كما قيل الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل قال الشاعر :

والذكر أعظم باب أنت داخله لله فاجعل له الأنفاس حراسا

قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه : الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الارادة وعلامة صحة البداية ودلالة صفاء النهاية فليس وراء الذكر شىء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ومنشؤها عن الذكر ، وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى فى كتابه العزيز ـ فاذكرونى أذكركم ـ وقوله عز وجل فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه وإن تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » لكان فى ذلك اكتفاء وغنية وهذا الحديث متفق على صحته . قالوا ومن خصائصه أنه غير مؤقت بوقت فما من وقت إلا والعبد مطلوب به إما وجوبا وإما ندبا بخلاف غيره من الطاعات . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على عقله وأمرهم بذكره فى الأحوال كلها فقال عز من قائل ـ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ـ وقال تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ـ أى بالليل والنهار وفى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر وفى الصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال . وقال مجاهد رضى الله تعالى عنه الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون» فينبغى للعبد أن يستكثر منه فى كل حالاته ويستغرق فيه جميع أوقاته ولا يغفل عنه وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه فان تركه له وغفلته عنه أشد من غفلته فيه فعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه وإن كان غافلا فيه فلعل ذكره مع وجود الغفلة يرفعه إلى الذكر مع وجود اليقظة وهذا نعت العقلاء ولعل ذكره مع وجود اليقظة يرفعه إلى الذكر مع وجود الحضور وهذه صفة العلماء ولعل ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور وهى مرتبة العارفين المحققين من الأولياء قال الله تعالى ـ واذكر ربك إذا نسيت ـ أى إذا نسيت ما دون الله عند ذلك تكون ذاكرا لله ، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محوا فى وجود العيان ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

ما إن ذكرتك إلا هم يقلقنى سرى وقلبى وروحى عند ذكراك

حتى كأن رقيبا منك يهتف بى إياك ويحك والتذكار إياك

أما ترى الحق قد لاحت شواهده وواصل الكل من معناه معناك

وقال الواسطى مشيرا إلى هذا المقام الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه ، وقال أبو العباس بن البناء فى كلام ذكره على مقدمة كتاب أبى العز تقى الدين بن المظفر الشافعى وهو كتاب الأسرار العقلية فى الكلمات النبوية ، ورأيت هذا الكلام بخطه رحمه الله ومن أحسن الذكر ما هاج عن خاطر وارد من المذكور جل ذكره ، وهذا هو الذكر الخفى عند المتصوفة على الاستمرار والتمكن فى الأسرار وأما قولهم حتى يتمكن الذاكر إلى حالة يستغرق بها عن الذكر فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم . وبيان ذلك أن يكون القلب عند الذكر فى الذكر فارغا من الكل فلا يبقى فيه غير الله جل ذكره فيصير القلب بيت الحق ويمتلئ منه فيخرج

(وما ذلك على الله بعزيز) لأنه قادر على كل شىء فعلى المريد القيام بالأسباب ومن الله الوصول ورفع الحجاب

الذكر من غير قصد ولا تدبير وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذى ينطق به فان بطش هذا الذاكر كان يده التى يبطش بها و إن سمع كان سمعه الذى يسمع به قد استولى المذكور العلى على الفؤاد فامتلكه وعلى الجوارح فصرفها فيما يرضيه وعلى الصفات من هذا العبد فقلبها كيف شاء فى مرضاته فلذلك يخرج الذكر من غير تكلف وتنبعث الأعمال بالطاعات نشاطا ولذة من غير كلال ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ـ وقد وصف الله قلب أم موسى عليه السلام بمعنى ذلك فى قوله الحق ـ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ـ أى فارغا من كل شىء إلا من ذكر موسى فكادت أن تبدى به من غير قصد منها لذكره ولا تدبير بل كان تركها للتصريح بذكره صبرا بما ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين بما أوحى إليها من قبل فى شأن موسى و بأنه من المرسلين و بذلك يندفع الاشكال الذى ذكره أبو العز ووصفه بالعظم وهو اجتماع الضدين فى بادىء الرأى وهما الذكر والغفلة عن الذكر وهذه المعالم والمراقى لا يعرف حقائقها إلا السالكون وجدانا والعلماء إيمانا وتصديقا فاياك والتكذيب بآيات الله فتكون من الصم البكم فى الظلمات ولما كان المذكور لا يجوز عليه وصف الفقد والعدم ولا يمنعه حجاب ولا يحويه مكان ولا يشتمل عليه زمان ولا يجوز عليه الغيبة بوجه ولا يتصف بحوادث المحدثين ولا يجرى عليه صفات المخلوقين فهو حاضر عينا ومعنى وشاهد سرا ونجوى إذ هو القريب من كل شىء وأقرب إلى الذاكر له من نفسه من حيث الايجاد له والعلم به والمشيئة فيه والقدرة والتدبير له والقيام عليه خلق الخليقة فلا تلحقه أوصافها وأوجد الأعداد فلا تحصره معانيها سبحانه هو العلى الكبير انتهى كلام الشيخ أبى العباس رحمه الله فى معنى المقام الثالث من مقامات الذكر وهو فى غاية الحسن والتحقيق مشيرا إلى توحيد الخواص من أهل هذا الطريق فلا ينبغى أن يستبعد العبد الوصول إلى هذا المقام الكريم فليس ذلك بعزيز على الفتاح العليم فعلى العبد القيام بحق الأسباب ومن الله تعالى رفع الحجاب . وقال رضى الله عنه (من علامات موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات وترك الندم على مافعلته من وجود الزلات) القلب إذا كان حيا بالايمان حزن على مافاته من الطاعات وندم على مافعله من الزلات ومقتضى هذا وجود الفرح بما يستعمل فيه من الطاعات و يوفق له من اجتناب المعاصى والسيآت وقد جاء فى الخبر «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» فان لم يكن العبد بهذا الوصف وعدم الحزن على مافاته والندم على ما أتاه فهو ميت القلب و إنما كان ذلك من قبل أن أعمال العبد الحسنة والسيئة علامتان على وجود رضا الله تعالى عن العبد وسخطه عليه فاذا وفق الله تعالى عبده للصالحات سره ذلك لأنه علامة على رضاه عنه وغلب حينئذ رجاؤه و إذا خذله ولم يعصمه فعمل بالمعاصى ساءه ذلك وأحزنه لأنه علامة على سخطه عليه وغلب حينئذ خوفه والرجاء يبعث على الاجتهاد فى الطاعات وليس من مقتضاه تركها وعدم الحزن على مافاته منها أمنا واغترارا والخوف يبعث على المبالغة فى اجتناب المعاصى والسيآت وليس من مقتضاه فعلها وترك الندم عليها إياسا وقنوطا وفى حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه آت فلما حاذانا ورأى جماعتنا أناخ راحلته ثم مشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أوضعت راحلتى من مسيرة تسع فسيرتها إليك ستا وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وأنصبت راحلتى لأسألك عن اثنتين أسهرتانى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم من أنت قال زيد الخيل قال بل أنت زيد الخير سل فرب معضلة قد سئلت عنها قال جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال له النبى صلى الله عليه وسلم بخ بخ كيف أصبحت يازيد قال أصبحت أحب الخير وأهله وأحب أن يعمل به و إذا

(من علامات موت القلب) أى قلب المريد (عدم الحزن على مافاتك من الموافقات) أى الطاعات (وترك الندم على مافعلته من وجود الزلات) أى من الزلات التى توجد منك وعلامة حياته بالأنوار الالهية و إن لم تدركها لغلظ حجابك حزنك على مافاتك من الطاعات وندمك على مافعلت من الزلات فتفرح بصدور الأعمال منك فرحا شديدا وتغتم على صدور المخالفات وذلك دليل على أنك من أهل الارادة المحبوبين لله جد فى السير ولا تكسل

فانى حننت إليه و إذا عملت عملا قل أو كثر أيقنت بثوابه قال هى هى بعينها يا زيد ولو أرادك الله
للأخرى هيأك لها ثم لايبالى فى أى واد هلكت فقال زيد حسبى حسبى ثم ارتحل ولم يثبت (لايعظم
الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى فان من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه
ذنبه) عظمة الذنب عند مرتكبه على وجهين : أحدهما أن يعظم عنده عظمة تحمله على التوبة
منه والاقلاع عنه وصدق العزم على أن لايعود إلى مثله فهذه عظمة محمودة وهى من علامات إيمان
العبد كما قلنا قال عبدالله بن مسعود رضى الله تعالى عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل
يخاف أن يقع عليه و إن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فأطاره و يقال إن
الطاعة كلما استصغرت كبرت عندالله و إن المعصية كلما استعظمت صغرت عندالله تعالى . والثانى أن
يعظم عنده عظمة توقعه فى اليأس والقنوط وتؤديه إلى سوء الظن بالله تعالى فهذه عظمة مذمومة
قادحة فى الايمان وهى شر عليه من ذنوبه وسبب ذلك جهله بصفات مولاه المحسن الجواد الكريم
ووقوفه مع نفسه وقياسه بعقله وحدسه ولو كان عارفا بالله حق المعرفة لاستحقر ذنوبه فى جنب كرمه
وفضله فأى قدر للعبد أوقيمة حتى يقع فى ذنب لايسعه عفو ربه و يكبر عليه أن يغفره .قال فى التنوير
واعلم أنه لابد فى مملكته من عباد هم نصب الحلم ومحل ظهور الرحمة والمغفرة ووقوع الشفاعة وافهم
قوله صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون
الله تعالى فيغفر لهم» وقوله صلى الله عليه وسلم «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» وجاء رجل إلى الأستاذ
أبى الحسن قدس الله سره العزيز فقال ياسيدى كان البارحة بجوارنا من المنكرات كيت وكيت
وظهر من ذلك الرجل استغراب أن يكون هذا فقال ياهذا كأنك تريد أن لايعصى الله تعالى فى
مملكته من أحب أن لايعصى الله تعالى فى مملكته فقد أحب أن لاتظهر مغفرته وأن لاتكون شفاعة
رسول الله صلى الله عليه وسلم له وكم من مذنب كثرت إساءته ومخالفته وجبت له الرحمة من ربه فكان
له راحما و بقدر إيمانه و إن عصى عالما اه فلا ينبغى للعبد أن يستعظم ذنبه استعظاما يؤديه إلى
أن يلقى بيديه إياسا من روحه وقنوطا من رحمته وسوء ظن به بل عليه أن يتوب إلى ربه منه و يرجع
إليه عنه و يعلم حكمة الله تعالى فى تسليطه عليه وتخليته بينه و بينه . وفى الخبر عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم «لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب ماخلى الله تعالى بين مؤمن و بين ذنب أبدا» فنبهك بهذا
على أن الذنب مانع من وجود العجب الذى هو أعظم حجاب بين العبد و بين مولاه لأن صاحبه ناظر
إلى نفسه لا إلى ربه مستعظم لطاعته وعبادته ملاحظ لذلك ومساكن له بخلاف ذلك الذنب لأنه يوجب
له الخوف والحذر واللجأ إلى الله تعالى والفرار إليه من نفسه . والعجب يصرف العبد عن الله تعالى
والذنب يصرفه إليه والعجب يقبل به على نفسه والذنب يقبل به على ربه والعجب يؤديه إلى الاستغناء
والذنب يؤديه إلى الافتقار وأحب أوصاف العبد إلى الله عز وجل افتقاره إلى مولاه وأشرف أحوال
المؤمن مايرده إليه و يقبل به عليه (لاصغيرة إذا قابلك عدله ولا كبيرة إذ واجهك فضله) إذا ظهرت
الصفات العلية بطلت أعمال العاملين فاذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته بطلت حسناته
وعادت صغائره كبائر و إذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه اضمحلت سيآته ورجعت كبائره
صغائر . قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه إن وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة و إن نالهم فضله لم تبق
لهم سيئة . ومن دعائه رضى الله تعالى عنه : إلهى إن أحببتنى غفرت سيآتى و إن مقتنى لم تقبل
حسناتى

(لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله) بأن توقعك فى اليأس والقنوط فهذه عظمة مذمومة قادحة فى
الايمان وهى شر عليك من ذنوبك وسببها جهلك بصفات مولاك ووقوفك مع نفسك (فانه من عرف ربه)

معرفة حقيقية (استصغر فى جنب كرمه ذنبه) فأى ذنب لايسعه عفوه سبحانه أما عظمة الذنب التى تحمل مرتكبه على التوبة منه والاقلاع عنه وصدق العزم على أن لايعود إلى مثله فهى عظمة محمودة وهى من علامات إيمان العبد قال ابن مسعود إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل خاف أن يقع عليه و إن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فأطاره و يقال إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله و إن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله (لاصغيرة) من ذنوبك بل كلها كبائر (إذا قابلك عدله) وهو تصرفه فى ملكه من غير حجر عليه فاذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه الله تعالى ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر (ولا كبيرة إذا واجهك فضله) وهو إعطاء الشئ بغير عوض بل
جميع ذنوبك حينئذ صغائر فاذا ظهر صفة الفضل لمن أحبه اضمحلت سيآته
ورجعت كبائره صغائر ولذا قال الشاذلى قدس الله سره واجعل سيآتنا سيآت من أحببت ولاتجعل حسيناتنا حسنات من أبغضت

(لا أعمل أرجى للقبول) أى لقبول الله له (من عمل يغيب عنك شهوده) بأن تشهد أن الذى وفقك له هو الله تعالى ولولاه ماصدر منك ذلك العمل (ويحتقر عندك وجوده) بأن لا تعتمد عليه فى تحصيل أمر من الأمور كالوصول إلى الله تعالى والقرب منه ونيل الدرجات والمقامات لرؤيتك التقصير فيه وعدم سلامته من الآفات المانعة من قبوله وفى بعض

النسخ أرجى للقلوب أى لصالحها (إنما أورد عليك) أيها المريد (الوارد) يطلق الوارد على ما يتحف الله به عبده من العلوم الوهبية والأنوار العرفانية التى ينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه فيرى الحق حقا والباطل باطلا ويطلق على تجلّ إلهى يرد على القلب وإن لم يشعر به العبد لغلظ بشريته وقد يعبر عنه بالحال وهذا هو المراد هنا (لتكون به عليه واردا) أى مقبلا على الدخول فى حضرته ومعلوم أن الدخول فى تلك الحضرة لا يكون إلا لقلب خالص مما يكدره ولذا قال (أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار ويحررك من رقّ الآثار) الأغيار والآثار هى الأغراض الدنيوية وشهوات النفوس فهى غاصبة لك لحبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها فأورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك ويحررك من ملكية من استرقك فلا يكون للمخلوق فيك نصيب ولا شركة وتكون سالما لله عزّ وجلّ فتصلح للحضور معه ولذا قال (أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك) أى صفاتك القائمة بك المانعة لك من شهود مولاك كالسجن المانع للمسجون من الخروج (إلى فضاء شهودك) أى شهودك للمولى الشبيه بالفضاء لعدم وجود شئ يحولك عن الرؤية قال بعضهم سجنك نفسك إذا خرجت منها وقعت

حسناتى وما أحسن قول سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه فى دعائه ومناجاته واجعل سيآتنا سيآت من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت فالاحسان لا ينفع مع البغض منك والاساءة لا تضر مع الحب منك وسيأتى من مناجاة المؤلف رحمه الله فى مثل هذا المعنى قوله إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالنى منها فضلك (لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده) فى النسخ الموجودة بأيدينا لا عمل أرجى للقلوب ومعناه على هذا الوجه أن العمل الموصوف بهذه الصفة لا يلتفت إليه القلب ولا يعتبره وفى عدم التفاته واعتباره صلاحه وتحرره من رق رؤيته فيبقى حينئذ مع ربه لا مع عمله ويكون ذلك على حذف مضاف تقديره لا عمل أرجى لصلاح القلوب أوما فى معناه وسيأتى من كلام المؤلف ما يناسب هذا المعنى وهو قوله قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم إلى آخره . والغالب على الظن أن الذى قصده المؤلف رحمه الله وذكره إنما هو لفظ القبول فغلط الناسخ فقلب حروفه ولا يحتاج فى هذا إلى حذف وتقريره على هذا الوجه أن تقول سلامة العمل من الآفات شرط فى قبوله لأن صاحبه متق لله تعالى وقد قال عزّ من قائل - إنما يتقبل الله من المتقين - وإنما يسلم العمل من الآفات باتهام النفس فى القيام بحقه ورؤية تقصيره فيه فيغيب عنه إذ ذاك شهوده ويحتقر عنده وجوده فلا يساكنه ولا يعتمد عليه فان لم يكن على هذا الوصف بل كان ناظرا إليه ومستعظما له غائبا عن شهود منة الله تعالى عليه فى توفيقه له أوقعه ذلك فى العجب فحبط لذلك عمله وخاب سعيه . قال أبو سليمان رضى الله تعالى عنه ما استحسنت من نفسى عملا فاحتسبته وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنه كل شىء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لا يقبل منك لأن القبول مرفوع مغيب عنك وما انقطعت عنه رؤيتك فذلك دليل على القبول وقد سئل بعض العارفين ما علامة قبول العمل قال نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية بدلالة قوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه - قال فعلامة رفع الحق تعالى ذلك العمل أن لا يبقى عندك منه شىء فانه إذا بقى فى نظرك منه شىء لم يرتفع إليه لبينونة بين عنديتك وعنديته فينبغى للعبد إذا عمل عملا أن يكون عنده نسيا منسيا بما ذكرناه من اتهام النفس ورؤية التقصير حتى يحصل له قبوله (إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا) الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته لأن الحضرة منزهة عن كل قلب متكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار فاذن إنما أورده عليك لتكون به واردا (أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار) الآثار والأغيار غاصبة ومسترقة لك وذلك لوجود حبك لها وسكونك إليها واعتمادك عليها فانما أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد من غصبك وليحررك من ملكية من استرقك والإشارة إلى هذا المعنى بما ضرب الله تعالى من المثل للكافر فى قوله - ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا - فمن سلم من يد الأغيار وحرر من رق الآثار لا يكون لمخلوق فيه نصيب ولا شركة وكان سالما لله عزّ وجلّ (أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك) سجن وجوده هو

في راحة الأبد ومقتضى هذا التقدير أن الوارد واحد وثمرته واحدة وهي الدخول في حضرة الرب ويصح أن يكون المعنى أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا أي مقبلا عليه بالاشتغال بالطاعات وأنواع المجاهدات فتشتغل بذلك مع بقائك بأوصاف نفسك وشهواتها المقتضية عدم الاخلاص في العبادة فيرد عليك وارد آخر ليخلصك من ذلك ويحصل لك الاخلاص فاذا حصل لك ربما تركن إليه وتعتمد عليه في قبول أعمالك ووصولك بها إلى حضرة قربه وذلك باطل فيرد عليك وارد ثالث تغيب به عن رؤية نفسك وتشاهد به مولاك بسرك ، ثم قال (الأنوار) الإلهية التي ترد على قلب المريد من حضرة الرب وتحصل غالبا من الأذكار والرياضات (مطايا القلوب) توصلها إلى مطلوبها التي هي متوجهة له وهو دخولها حضرة الرب والقرب منه كتوصيل المطية راكبها إلى مطلوبه (والأسرار) أي ومطايا الأسرار أيضا جمع سرّ وهو باطن القلب عند الصوفية ولا التفات لمن جعله عين القلب لأنه خلاف اصطلاحهم (النور جند القلب) أي يتوصل به إلى ما يقصده ويتوجه إليه وهو حضرة الرب كما يتوصل الأمير بجنده إلى ما يقصده من غلبة عدوّه وهذا مستفاد مما قبله وإنما أتى به توطئة لقوله (كما أن الظلمة) وهي طبيعة العبد (جند النفس) تتوصل بها إلى مقصودها وهو الشهوات والأغراض العاجلة ومازال الحرب واقعا بين القلب والنفس (فاذا أراد الله أن ينصر عبده) أي يعينه على نفسه وقمع شهواتها (أمدّه) أي أمدّ قلبه (بجنود الأنوار) أي بجنود هي الأنوار أو بالأنوار الشبيهة بالجنود فانها إذا حصلت له أدرك بها قبح الشهوات (لاتفرحك

العائقة عن الوصول إلى الله تعالى (وقطع عنه مدد الظلم والأغيار) أي مددا هو الظلم والأغيار وهما بمعنى واحد وإذا أراد خذلانه فعلى العكس من ذلك فاذا مال القلب إلى عمل صالح كصوم غد ومالت النفس إلى شهوة كالفطر وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذي هو من الله تعالى ورحمته إلى نصرة القلب والظلمة إلى نصرة النفس وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد إلا الفزع إلى الله وتوكله عليه وهكذا في كل عمل صالح إلى أن يصل إلى الله تعالى فينقطع حينئذ حكم النفس وتصير مقهورة مغلوبة ثم قال (النور) الذي يفيضه الله على قلب المريد (له الكشف) أي كشف المعاني والمغيبات كحسن الطاعة وقبح المعصية (والبصيرة) التي هي ناظرة القلب (لها الحكم) أي إدراك ذلك ومشاهدته فكما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرية كسراج أو شمس لا يمكن إدراك البصيرة لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنية (والقلب له الاقبال والادبار) على ما كشف للبصيرة فاذا كشف لها عن حسن

شهوده لنفسه ومراعاته لحظه وفضاء شهوده أن يغيب عن ذلك بشهوده عظمة الله تعالى وجلاله ورؤية قيام حركاته وسكناته قال أبو القاسم النصراباذي رضي الله تعالى عنه سجنك نفسك إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد وسيأتي من كلام المؤلف في معنى قوله سجن وجودك الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته (الأنوار مطايا القلوب والأسرار) أنوار الايمان واليقين مطايا حاملة الأسرار والقلوب إلى حضرة علام الغيوب وتلك هي الواردات المذكورات (النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس فاذا أراد الله أن ينصر عبده أمدّه بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار) نور التوحيد واليقين وظلمة الشرك والشك جندان للقلب والنفس والحرب بينهما سجال فاذا أراد الله نصرة عبده أمدّ قلبه بجنوده وقطع عن نفسه مدد جنودها وإذا أراد خذلان عبده فعلى العكس فاذا مال القلب إلى العمل بأمر محمود مؤلم في الحال متلذذ به في المآل ومالت النفس إلى العمل بأمر مذموم متلذذ به في الحال مؤلم في المآل وتنازعا وتقاتلا سارع النور الذي هو من أمر الله تعالى ورحمته إلى نصرة القلب وبادرت الظلمة التي هي من وساوس الشيطان ولمته إلى نصرة النفس وقام صف القتال بينهما فان سبقت للعبد من الله تعالى سابقة السعادة اهتدى القلب بنور الله تعالى واستهان بالعاجلة ورغب في الآجلة وعمل القلب بما مال إليه وإن آلمه في الحال لما يرجوه من التنعم به في المآل وإن سبقت له من الله الشقاوة والعياذ بالله ذهل القلب عن النور وأعمته الظلمة عن منفعة الآجل واغترّ بلذة العاجل وعمل بما مالت إليه نفسه وإن آلمه في المآل لما يحصل لها من لذة الحال وعند التقاء الصفين والتحام القتال بين الجندين لا سبيل للعبد إلا الفزع إلى الله تعالى ولياذه به وكثرة ذكره وصدق توكله عليه واستعاذته من الشيطان الرجيم وهذه العبارات الخمس من قوله إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا إلى هنا تفنن فيها صاحب الكتاب وكررها بألفاظ مختلفة والمعاني فيها متقاربة وهذه عادته في مواضع كثيرة من هذا الكتاب رضي الله تعالى عنه (النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الاقبال والادبار) هذه ألفاظ مختلفة لمعان متغايرة فالنور يفيد كشف المعاني المغيبات حتى تتضح وتشاهد والبصيرة التي هي ناظر القلب تفيد الحكم وهو صحة ما شاهدته والقلب له الاقبال عملا بمقتضى ما شاهدته البصيرة وله أيضا الادبار تركا للعمل بمقتضى ما شاهدته البصيرة

الطاعة وقبح المعصية أقبل القلب على الطاعة وأحبها فتبعه الجوارح وأدبر عن المعصية فلا تتلبس بها الجوارح هذا ويحتمل أن المعنى أن النور له الكشف عن المغيبات كأسرار القدر وأنه يحصل فى العالم كذا والبصيرة لها الحكم أى إدراك ذلك ثم هذا الكشف والادراك قد لا يكونان تامين فينبغى للمكاشف أن يتثبت فى كشفه ولا يعمل بمقتضى ما كشف له فلا يخبر بشىء حتى يستفتى قلبه إما أن يقبل وإما أن يدبر ولذا تجد بعض الأولياء يخبر عن أمور لا تقع وذلك لعدم تثبته فى كشفه (لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك) أى من حيث صدورها عنك باختيارك وحولك وقوتك فهذا فرح مذموم منهى عنه محبط لها (و) لكن (افرح بها لأنها برزت من الله إليك) أى من حيث شهودها من الله نعمة منه وفضلا فهذا هو الفرح المحمود المطلوب من العبد وهو مقتضى شكرها . ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فايصال تلك الطاعة إليه وإظهارها على يده اعتناء من الله سبحانه وتعالى به فينبغى أن يفرح بها من تلك الحيثية لا من حيثية صدورها منه وفعله لها (قطع) أى حجب ومنع (السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم) الظاهرية (وشهود أحوالهم) القلبية لكن السبب فى انقطاع الطائفتين عن ذلك مختلف (أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها) وذلك لرؤيتهم نقصا بعدم حضور قلوبهم مع الله حال فعلها فهم دائما متهمون نفوسهم فى توفية أعمالهم حقها وفى صفاء أحوالهم فكان ذلك سببا فى البراءة من رؤيتها وشهودها (وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها) أى أنهم نسبوها إليه تبريا من حولهم وقوتهم فقطعهم عن ذلك شهودهم له فى حضرة قربه ومن شاهده لم يشهد معه غيره وقد أسبغ الله النعمة على الفريقين حيث عافاهم من التعلق بأعمالهم وأحوالهم إلا أنه فعل ذلك بالسالكين كرها وبالواصلين طوعا ولا شك أن هذا المقام أرقى من الأول ولهذا لما سأل الواسطى أصحاب أبى عثمان بماذا كان يأمركم شيخكم قالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها فقال لهم أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود منشئها ومجريها يريد بذلك ترقى همتهم إلى مقام العرفان لا تحقير ماهم عليه فانه من الاحسان (ما بسقت) يقال بسقت النخلة بسوقا إذا طالت أى ما طالت (أغصان ذل إلا على بذر طمع) شبه الذل

(لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ـ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) الفرح بالطاعة على وجهين فرح بها من حيث شهودها من الله تعالى نعمة منه وفضلا فهذا هو الفرح المحمود وهو الذى طلب من العبد وهذا هو مقتضى شكرها وفرح بها من حيث ظهورها من العبد باختياره وإرادته وحوله وقوته فهذا هو فرح مذموم منهى عنه وهو كفران النعمة وهو من العجب المحبط للعمل فالفرح بها على هذا الوجه فرح بلا شىء وسيأتى فى آخر الكتاب أنواع الفرح بالنعم وما يحمد منها وما يذم تامة مستوفاة (قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها) لقد أسبغ الله نعمته على الفريقين حيث فعل معهم ذلك لأنه أبقاهم معه ولم يدعهم لسواه فالواصلون فعل ذلك بهم طوعا منهم والسالكون فعل ذلك بهم كرها ـ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ـ فالواصلون قطعهم عن ذلك لشهودهم له فى حضرة قربه ومن شاهده لم يشهد معه غيره إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه والسالكون قطعهم عن ذلك عدم تحققهم بالصدق أو البراءة من الدعوى فهم أبدا متهمون لأنفسهم فى توفية أعمالهم وتصفية أحوالهم . قال النهرجورى رضى الله تعالى عنه من علامات من تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى إخلاصه والغفلة فى أذكاره والنقصان فى صدقه والفتور فى مجاهداته وقلة المراعاة فى فقره فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقرا إلى الله فى قصده وسيره حتى يفنى عن كل مادونه وقال أبو عمرو اسمعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه لا يصفو لأحد قدم فى العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء وأحواله كلها عنده دعاوى وقال أبو يزيد رضى الله تعالى عنه لو صفت لى تهليلة واحدة ما باليت بعدها بشىء . وإلى هذين المقامين تشير الحكاية التى تروى عن الواسطى رضى الله تعالى عنه وذلك أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان رضى الله تعالى عنه بماذا كان يأمركم شيخكم فقالوا كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها فقال أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشئها قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه وإنما أراد الواسطى بهذا صيانتهم عن محل الاعجاب لا تعريجا فى أوطان التقصير أو تجويزا للاخلال بأدب من الآداب وقال رضى الله تعالى عنه (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع) البسوق الطول يقال بسقت النخلة بسوقا إذا طالت قال الله تعالى ـ والنخل باسقات ـ والأغصان جمع غصن وهو ما تشعب عن سوق الشجر ويجمع

بشجرة ذات أغصان وفروع استعارة بالكناية والأغصان تخييل باق على حقيقته أومستعار لأنواع الذل و بسقت ترشيح باق
على حقيقته أو بمعنى وجدت وحصلت وشبه الطمع بالنواة التى تنشأعنها الشجرة فاضافة بذر له من إضافة المشبه به للمشبه أى
طمع شبيه بالبذر أى البذور الذى تنشأ عنه الشجرة ذات الأغصان فكأنه يقول لا تغرس بذر الطمع فى قلبك فتخرج منه
شجرة الذل وتتشعب أغصانها وفروعها ولو قال مابسقت شجرة الذل لكان أولى لأن الذى يتصف بالطول
و ينشأ عن البذر هو أصل الشجرة ووصف الأغصان بذلك بطريق التبع فالطمع من أعظم العيوب القادحة فى العبودية بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم وفى ذلك من المذلة والمهانة ما لامزيد عليه وسببه الشك فى المقدور ولذا قال بعضهم لوقيل للطمع من أبوك لقال الشك فى المقدور ولوقيل ماحرفتك قال اكتساب الذل ولوقيل ماغايتك قال الحرمان فالطامع لامحالة فاسد الدين ولذا دخل علىّ ابن أبى طالب رضى الله تعالى عنه جامع البصرة فوجد القصاص يقصون فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصرى فقال يافتى إنى سائلك عن أمر فان أجبتنى فيه أبقيتك و إلا أقمتك
كما أقمت أصحابك وكان قد رأى عليه سمتا وهديا فقال الحسن سل عما شئت قال ماملاك الدين و به
قال الورع قال فما فساد الدين قال الطمع قال اجلس فمثلك من يتكلم على الناس والورع الذى يقابل الطمع وهو ورع الخاصة
وهو صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وطمأنينة القلب به لاورع العامة وهو ترك الشبهات وعلى
هذا فيقال قياسا على ماقاله المصنف مابسقت أغصان عز إلا على بذور ورع

أيضا على غصون والبذر الحب الذى يزرع وهذه كلها استعارات مليحة والطمع من أعظم آفات النفوس
وعيوبها القادحة فى عبوديتها بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد
عليهم وعبودية لهم وفى ذلك من المذلة والمهانة مالامزيد عليه ولايحل للمؤمن أن يذل نفسه والطمع
مضاد لحقيقة الايمان الذى يقتضى وجود العزة والعزة التى اتصف بها المؤمنون إنما تكون برفع هممهم
إلى مولاهم وطمأنينة قلوبهم إليه وثقتهم به دون من سواه فهذه هى العزة التى منحها الله عبده المؤمن
قال الله تعالى ـ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ـ وكما أن العزة من صفات المؤمنين كذلك المذلة من
أخلاق الكافرين والمنافقين قال الله تعالى ـ إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ـ قال
أبو بكر الوراق الحكيم رضى الله تعالى عنه لوقيل للطمع من أبوك قال الشك فى المقدور ولوقيل له
ماحرفتك قال اكتساب الذل ولو قيل ماغايتك قال الحرمان وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى
رضى الله تعالى عنه من أشعر فى نفسه محبة شىء من الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع ومن طمع فى شىء ذل
و بذله هلك وقد قيل فى ذلك مفرد .

أتطمع فى ليلى وتعلم أنما   تقطع أعناق الرجال المطامع

فالطامع لامحالة فاسد الدين مفلس من أنوار اليقين قال فى التنوير وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر
مما تتفقد ماسواه وتطهر من الطمع فى الخلق فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ماطهره إلا اليأس منهم
ورفع الهمة عنهم . قال وقدم على بن أبى طالب رضى الله عنه البصرة فدخل جامعها فوجد القصاص
يقصون فأقامهم حتى جاء إلى الحسن البصرى رضى الله عنه فقال يافتى إنى سائلك عن أمر فان أجبتنى
عنه أبقيتك و إلا أقمتك كما أقمت أصحابك وكان قد رأى عليه سمتا وهديا فقال الحسن سل عما شئت
قال ماملاك الدين قال الورع قال فما فساد الدين قال الطمع قال اجلس فمثلك من يتكلم على الناس
قال وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول كنت فى ابتداء أمرى بثغر الاسكندرية جئت إلى بعض من
يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ثم قلت فى نفسى لعله لايأخذه منى فهتف بى هاتف السلامة
فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين قال وسمعته يقول صاحب الطمع لايشبع أبدا ألاترى أن حروفه كلها
مجوّفة الطاء والميم والعين ثم قال بعد هذا فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولاتذل لهم فقد سبقت
قسمتك وجودك وتقدم ثبوته ظهورك واسمع ماقاله بعض المشايخ أيها الرجل ماقدر لماضغيك أن يمضغاه
فلابد أن يمضغاه فكله و يحك بعزّ ولا تأكله بذل . قلت تقدم الآن من كلامه فى التنوير ذكر الورع فى
مقابلة الطمع وكذلك فى جواب الحسن لعلى رضى الله عنهما لماسأله مستخبراله عن صلاح الدين وفساده
فى الكلام الذى حكاه عنهما ولا شك أن الورع الظاهر لعامة الناس وهو ترك الشبهات والتحرج
من اقتحام المشكلات لايقابل الطمع كل المقابلة وقد ذكرنا الطمع ماهو و إنما يقابله ورع الخاصة وهو
عندهم صحة اليقين وكمال التعلق برب العالمين ووجود السكون إليه وعكوف الهمم عليه وطمأنينة القلب
به ولا يكون له ركون إلى غيره والانتساب إلى خلق ولا كون فهذا هو الورع الذى يقابل الطمع المفسد

وبه يصلح كل عمل مقرب وحال مسعد كما نبه عليه الحسن رضى الله عنه فى جوابه المذكور . قال يحيى ابن معاذ رضى الله عنه الورع على وجهين ورع فى الظاهر أن لا يتحرك إلا لله وورع فى الباطن وهو أن لا يدخل فى قلبك إلا الله ذكر أن بعضهم كان حريصا على أن يرى أحدا من هذه صفته فجعل يجتهد فى طلبه ويحتال إلى التوصل إليه بأن يأخذ الشىء بعد الشىء من ماله ويقصد به الفقراء والمساكين ويقول لمن يعطيه منهم حين المناولة خذ لالك فكانوا يأخذون ولا يسمع من أحد منهم جوابا مطابقا لما أراده بكلامه إلى أن ظفر ذات يوم ببغيته وحصل على مقصوده ومنيته وذلك أنه قال لأحدهم خذ لالك فقال له آخذه لا منك فان كان للعبد استشراف إلى خلق أو سبقية نظر إليهم قبل مجىء الرزق أو بعده فمقتضى هذا الورع والواجب فى حق الأدب أن لا ينيل نفسه شيئا مما يأتيه على هذه الحال عقوبة لنفسه فى نظره إلى أبناء جنسه كقصة أيوب الحمال مع أحمد بن حنبل رضى الله عنهما وهى معروفة وكما روى عن الشيخ أبى مدين رضى الله عنه أتاه حمال بقمح فنازعته نفسه وقالت له يا ترى من أين هذا فقال لها أنا أعرف من أين هو يا عدوة الله وأمر بعض أصحابه أن يدفعه لبعض الفقراء عقوبة لها لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى . وقد قيل أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال وقد صرح بهذا المعنى الذى ذكرناه وأوضح الغرض الذى قصدناه شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة من المتأخرين أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه فانه قال اعلم أن الورع أن لا يكون بينك وبين الخلق نسبة فى أخذ أو عطاء أو قبول أو رد وأن يكون السبق لله تعالى وهو أن يأتى إليه طاهرا من جميع الأشياء والعلم والعمل كما قال ــ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ــ وقال أيضا الورع أن لا يخطر الرزق بالبال ولا يكون بينه وبينه نسبة لا فى التحصيل ولا عند المباشرة لأنه لا يدرى أيأكل أم لا وقال أيضا الورع أن لا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله فى الحركة والسكون فإذا رأى الله ذهبت الحركة والسكون وبقى مع الله فالحركة ظرف لما فيها كما قال بعضهم ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه فاذا رأى الله ذهبت الأشياء وقال أيضا أجمع العلماء على أن الحلال المطلق ما أخذ من يد الله بسقوط الوسائط وهذا مقام التوكل ولهذا قال بعضهم الحلال هو الذى لا ينسى الله فيه إلى غير هذا من العبارات التى عبر بها فى هذا المعنى وقال بعض هذه الطائفة العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم ثم يفترقون فى المشاهدات فمنهم من يأكل رزقه بذل ومنهم من يأكل رزقه بامتهان ومنهم من يأكل رزقه بانتظار ومنهم من يأكل رزقه بعز بلا مهنة ولا انتظار ولا ذلة فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذل فالسؤال يشهدون أيدى الخلق فيذلون لهم وأما الذين يأكلون أرزاقهم بامتهان فالصناع يأكل أحدهم رزقه بمهنة وكد وأما الذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجار ينتظر أحدهم نفاق سلعته فهو متعذب القلب معذب بانتظاره وأما الذين يأكلون أرزاقهم بعز من غير مهنة ولا انتظار ولا ذل فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قسمتهم من يده بعزة قال سهل بن عبدالله رضى الله عنه ليس مع الايمان أسباب إنما الأسباب فى الاسلام قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه معناه ليس فى حقيقة الايمان رؤية الأسباب والسكون إليها إنما رؤيتها والطمع فى الخلق يوجد فى مقام الاسلام وقد عقد المؤلف رحمه الله تعالى فى لطائف المنن فصلا فى هذا المعنى وجعله لجميع وظائف الآداب الدينية أصلا ومبنى فرأينا نقله فى هذا الموضع من صواب العمل المتكفل إن شاء الله بنجاح الأمل . قال رضى الله عنه اعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل فان من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم فى غير فضله وخيره ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب وخلع الأنداد والأرباب ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات والاعتماد على الطاعات والسكون إلى

أنوار التجليات ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أوترفعهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء . قال الشيخ عثمان بن عاشوراء خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا أنا بالدنيا قد عرضت علىّ بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها فأعرضت عنها فعرضت علىّ الجنة بحورها وقصورها وأنهارها وأثمارها فلم أشتغل بها فقيل لى ياعثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنا فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك. وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى وكان مقيما بشرقى الاسكندرية حججت سنة من السنين فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الاسكندرية فاذا العلى يقول لى إنك فى العام القابل عندنا فقلت فى نفسى إذا كنت فى العام القابل ههنا فلا أعود إلى الاسكندرية فخطر لى الذهاب إلى اليمن فأتيت إلى عدن فأنا يوما على ساحلها وإذا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم ثم نظرت فاذا رجل فرش سجادته على البحر ومشى على الماء فقلت فى نفسى لم أصلح للدنيا ولا للآخرة فاذا العلىّ يقول لى من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله تعالى عنه الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لايدبرون ولايختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولاينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولايمشون ولايتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع لايتفرقون فيما هو أعلى ولا فيما هو أدنى وأما أدنى الأدنى فالله يوزعهم عنه ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ومن لم يكن لعلمه وعمله ميزان فهو محجوب بدنيا أومصروف بدعوى وميراثه التعزز لخلقه والاستكبار على مثله والدلة على الله بعمله فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه ومن لم يزدد بعلمه وعمله احتقارا لنفسه وافتقارا إلى ربه وتواضعا لخلقه فهوهالك فسبحان من قطع كثيرا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع كثيرا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم ـ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ـ قال فانظر فهمك الله سبيل أوليائه ومنّ عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذى ذكره الشيخ رضى الله عنه هل كان يصل فهمك إلى مثل هذا النوع من الورع ألا ترى قوله قد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة فهذا هو ورع الأبدال والصدّيقين لاورع المنقطعين الذى نشأ عن سوء الظنّ وغلبة الوهم انتهى وإنما أوردنا هذه المعانى ههنا تتميما للفائدة المتعلقة بكلام صاحب التنوير من كون الورع مقابلا للطمع وسيأتى مزيد بيان فيها فى موضع أنسب من هذا عند قوله لا تمدّن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلى آخره فانظره فيه (ماقادك شئ مثل الوهم) الوهم أمر عدمى وهو ضدّ الحقيقة الوجودية والنفس الناقصة انقيادها إلى الأمور الوهمية الباطلة أشد من انقيادها إلى الحقائق الثابتة لوجود المناسبة بينهما والطمع فى الناس انقياد إلى الأوهام الباطلة لأن الطمع تصديق الظنّ الكاذب والطمع فيهم طمع من غير مطمع وأرباب الحقائق بمعزل عن هذا فلا يتعلق هممهم إلابالله ولايتوكلون إلاعليه ولا يتقون إلابه قد سقط اعتبار الأوهام والخيالات التى هى متعلقة بالأغيار عن قلوبهم فزال عنهم الطمع فاتصفوا بصفة القناعة والورع فكانت لهم الحياة الطيبة والعيشة الراضية والقناعة مقام عظيم من مقامات اليقين وهى من بدايات أحوال الراضين . قال بعض العارفين لايكون العبد قانعا حتى لوجاء إلى باب منزله جميع

(ماقادك شئ مثل الوهم) يعنى أن الوهم هو السبب فى الطمع فى الناس وذلك كاف فى قبحه لأن الوهم الذى هو أصله أمر عدمى إذ هو عبارة عن التخيل والحسبان التقديرى لكن النفوس منقادة له أتمّ من انقيادها إلى العقل ألا ترى أن الطبع ينفر من الحية لتوهمه الضرر فيها بل من الحبل المبرقش لكونه على صورتها ولو انقادت للعقل لم تنفر لأن ماقدّر يكون ومالم يقدّر لم يكن فلا يسلم من الطمع فى الخلق والرغبة فيما بأيديهم إلا أهل الورع الخاص وهم أهل القناعة والتوكل الذين سقطت من قلوبهم علاقات الخلق فلا يهتمون للرزق

مايرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة فعرض عليه لم ينظر إلى ذلك ولم يفتح بابه قناعة منه بحاله . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى معنى قوله تعالى ـ فلنحيينه حياة طيبة ـ قال هى القناعة (أنت حرّ مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع) الطمع فى الشئ دليل على الحب له وفرط الاحتياج إلى نيله وذلك عبودية له كما أنّ اليأس من الشئ دليل على فراغ القلب منه وغناه عنه وذلك حرّية منه فالطامع عبد واليائس حرّ ولهذا قيل :

العبد حرّ ماقنع والحرّ عبد ماطمع
فاقنع ولا تطمع فما شئ يشين سوى الطمع

وقيل لولا الأطماع الكاذبة لما استعبد الأحرار بكل شئ لاخطر له وقيل إنّ العقاب يطير فى فضاء عزه بحيث لايرتقى طرف إلى مطاره ولا تسمو همة إلى الوصول إليه فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه فيصيده صبي يلعب به . وقيل إن فتحا الموصلى رضى الله عنه كان قاعدا فسئل عمن تابع الشهوات كيف صفته وكان بقربه صبيان مع أحدهما خبز بلا أدم ومع الآخر خبز مع كامخ فقال الذى لم يكن معه كامخ لصاحبه أطعمنى من الكامخ فقال له بشرط أن تكون كلبي فقال نعم فجعل فى رقبته خيطا وجعل يجرّه كما يقاد الكلب فقال فتح للسائل أما إنه لورضى بخبزه ولم يطمع فى كامخ صاحبه لم يصر كلبا لصاحبه . وحكى عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدّم التلميذ إليه خبزا قفارا ولم يكن له أدم فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له أدم يقدّمه إلى أستاذه فقام الأستاذ وقال تعال معى فحمله إلى باب السجن فرأى الناس يضرب واحد و يقطع آخر و يعذب كل واحد بأنواع العذاب فقال الأستاذ للتلميذ ترى هؤلاء هم الذين لم يصبروا على الخبز القفار وقيل إن رجلا أخرج من السجن وفى رجله قيد يسأل الناس فقال لانسان أعطنى كسرة فقال لوقنعت بالكسرة لما وضع القيد فى رجلك ورأى رجل رجلا من الحكماء يأكل ماتساقط من البقل على رأس الماء فقال لوخدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا فقال الحكيم وأنت لوقنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان وقد أردت أن أذكر هنا حكاية مناسبة لما نحن فيه لتعرف بها كيف تكون الهمة السنية والآداب المرضية فى أخذ البلاغ من الدنيا والقناعة باليسير من الأشياء ورؤية منة الله تعالى فى تيسير القليل والشكر له على ذلك قال بعضهم خرجنا من المدينة حجاجا فلما كنا بالزاوية نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة وله منظر وهيبة وصورة حسنة ومروءة فقال من يبغى خادما من يبغى ساقيا فقلت دونك هذه القربة فأخذها وانطلق فلم يلبث إلا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أثوابه طينا وأثرت القربة فى كتفيه فوضعها وهو كالمسرور الضاحك ثم قال ألكم غيرها قلنا لا وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله سبحانه وشكره كثيرا ثم اعتزل وقعد يأكل أكل جائع فأدركتنى عليه الشفقة فقمت إليه بطعام طيب كان معنا وأكثرت له منه فقلت قد علمت أنه لم يقع منك القرص بموقع فدونك هذا الطعام فنظر فى وجهى وتبسم وقال ياعبدالله إنما هى فورة جوع فلا أبالى بأىّ شئ رددتها عنى فرجعت عنه فقال لى رجل إلى جنبي أتعرفه ؟ قلت لا قال إنه رجل من بنى هاشم من ولد العباس بن عبد المطلب هذا من ولد سليمان بن أبى جعفر المنصور كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها ففقد فما عرف له أثر فأعجبنى قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له يافتى أنا رجل من إخوانك وقد بلغنى موضعك فأحببت الاتصال بك فهل لك أن تعادلنى فان معى فضلا من راحتى فجزانى خيرا وقال لوأردت هذا لكان لى معدّا ثم أنس إلىّ وجعل يحدّثنى فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وتجبر و بذخ و إنى أمرت خادما لى

(أنت حرّ مما أنت عنه آيس) أى من كل ما أنت آيس منه (وعبد لما أنت له طامع) أى لكل ماأنت طامع فيه فعن بمعنى من ولام له بمعنى فى وهذا دليل آخر لقبح الطمع ومدح الاياس من الخلق والقناعة بالرزق المقسوم . و بيانه أن الطمع فى الشئ عبودية له كما أن اليأس من الشئ حرّية منه لأنه يدلّ على فراغ القلب منه وغناه عنه فالطامع عبد واليائس حرّ ولذلك قيل :
العبد حرّ ماقنع
والحرّ عبد ماطمع
والقناعة هى السكون عند عدم المألوفات وهى أوّل الزهد

(من لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان) أى بملاطفاته إياه بأنواع الاحسان (قيد إليه بسلاسل الامتحان) أى بالامتحانات والمصائب الشبيهة بالسلاسل يعنى أنّ المقتضى لإقبال المريد وغيره على الربّ بأنواع الطاعات والتضرّع إليه

أن يحشو لى فراشا من حرير ومخدّة بوردتثير فبينما أنا نائم إذا بقمع ورد قد غفلت عنه الخادمة فقمت إليها فأوجعتها ضربا ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدّة فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال لى أفق من غشيتك وأبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول :

ياخد إنك إن توسد لينا ... وسدت بعد الموت صم الجندل

فامهد لنفسك صالحا تسعد به ... فلتندمنّ غدا إذا لم تفعل

قال فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتى إلى ربى هاربا فهذا خبرى قال الراوى فلما قضى حديثه هذا انخنس عنى ومضى (من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان) النفوس الكريمة تقبل على الله تعالى بملاطفات إحسانه وموالاة فضله وامتنانه والنفوس اللئيمة لا تنقاد إلا بسلاسل الامتحان ووقوع المصائب فى الأموال والأبدان والقود بالسلاسل استعارة حسنة . قال سيدى أبومدين رضى الله عنه سنة الله عزوجل استدعاء العباد لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته فان لم يفعلوا ابتلاهم بالسرّاء والضرّاء لعلهم يرجعون لأنّ مراده عز وجلّ رجوع العبد إليه طوعا أوكرها (من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها) شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها وانفصالها قال الله تعالى ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ وقال الله تعالى ـ إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ أى إذا غيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهى شكر النعم غير الله تعالى ما منه إليهم من الاحسان والكرم . واجتمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود وكان يقال النعم إذاروعيت بالشكر فهى أطواق و إذا روعيت بالكفر فهى أغلال والشكر على ثلاثة أوجه : شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بسائر الجوارح فشكر القلب أن يعلم أنّ النعم كلها من الله تعالى قال الله تعالى ـ وما بكم من نعمة فمن الله ـ وشكراللسان الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له و يدخل فيه التحدث بالنعم و إظهارها ونشرها قال الله تعالى ـ وأمّابنعمة ربك فحدّث ـ وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تذكروا النعم فانّ تذكرها شكر ومن شكر اللسان أيضا شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم . وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله» . وعن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أشكر الناس لله أشكرهم للناس» وسيأتى الكلام على هذا المعنى فى آخر الكتاب إن شاءالله تعالى عند كلام المؤلف عليه وشكر سائرالجوارح أن يعمل بها العمل الصالح قال الله تعالى ـ اعملوا آل داود شكرا ـ فجعل العمل شكرا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى انتفخت قدماه فقيل له يارسول الله أتفعل هذا وقد غفرالله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا . وسأل رجل أباحازم رضى الله عنه فقال له ماشكر العينين قال إذارأيت بهما خيرا أعلنته و إذا رأيت بهما شرّا سترته قال فماشكر الأذنين قال إذا سمعت بهما خيرا وعيته و إذا سمعت بهما شرّا دفنته قال فما شكر اليدين قال لا تأخذ بهما ماليس لك ولاتمنع حقا هو لله فيهما قال فما شكر البطن قال أن يكون أسفله صبرا وأعلاه علما قال فما شكر الفرج قال كما قال الله تعالى ـ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ـ قال

وجمعية القلب عليه أمران : الأوّل إيراد النعم عليه فيشكر الله عليها و يقبل على خدمته. والثانى إنزال المصائب فى بدنه أوماله فيرجع إلى الربّ و يتضرّع إليه برفعها وربما كان ذلك سببا فى ترك الاشتغال بالدنيا والتعلق به سبحانه ومرادالربّ من العبد رجوعه إليه طوعا أوكرها (من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقدقيدها بعقالها) يعنى أن شكر النعم موجب لبقائها والزيادة منها قال تعالى ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ وكفرانها وعدم شكرها موجب لزوالها قال الله تعالى ـ إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ أى إذاغيروا ما بأنفسهم من الطاعات وهى شكر النعم غيرالله مامنه من الاحسان والكرم والشكر إما بالقلب بأن تعلم أنّ النعم كلها من الله تعالى قال تعالى ـ وما بكم من نعمة فمن الله ـ و إما باللسان بأن تتحدّث بنعمة الله قال تعالى ـ وأما بنعمة ربك فحدّث ـ و إما بالجوارح بأن تصرفها فى طاعة الله وتكفها عما لايرضيه

(خف من وجود إحسانه إليك ودوام) أى مع دوام (إساءتك معه) أى مخالفتك له (أن يكون ذلك استدراجا) أى تدريجا لك شيئا فشيئا حتى يأخذك بغتة وهذا جواب سؤال ناشىء مما قبله . حاصله أنا نرى كثيرا من الناس لا يشكر النعم ولا تزول عنه . فأجاب بأن ذلك ربما كان استدراجا ومكرا من الله به قال تعالى (سنستدرجهم) أى ندرّجهم فى ذلك شيئا فشيئا حتى نأخذهم بغتة (من حيث لا يعلمون) أنه استدراج ومكر أى لا يشعرون بذلك لأنه يأخذهم بغتة وقيل نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فاذا ركنوا إلى النعم وحجبوا عن المنعم أخذوا . وقيل كلما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة . ومن أنواع الاستدراج ما ذكره بقوله (من جهل المريد أن يسىء الأدب) إما مع الله تعالى كالاعتراض عليه وتعاطى التدبير معه والتضرر بأحكامه المؤلمة له فى نفسه أو غيره وتصريح لسانه بالشكوى إلى الخلق أو مع المشايخ كالاعتراض عليهم وعدم قبول إشاراتهم فيما يشيرون به عليه فقد قالوا عقوق الاستاذين لا توبة له وقالوا أيضا من قال لأستاذه لم فانه لا يفلح وقال القشيرى من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة وإن بقى من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته فان الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين اه وإما مع بعض الناس بالاعتراض عليهم كما وقع للجنيد أنه رأى فقيرا يسأل الناس فقال فى نفسه لو عمل هذا عملا يصون به نفسه لكان أجمل به فثقلت عليه أوراده فى تلك الليلة ورأى جماعة أتوا له بذلك الفقير على خوان وقالوا له كل من لحمه فقد اغتبته فأصبح يفتش عليه حتى وجده فسلم عليه فقال له تعود يا أبا القاسم فقال لا فقال غفر الله لك وإما مع نفسه كأن يتعاطى شهواتها المباحة ولا ينهض إلى ما يقربها من مولاها (فتؤخر العقوبة عنه) بأن لا يعاقب فى ظاهره بالبلايا والأسقام ولا فى باطنه بحسب زعمه (فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد) الوارد علىّ من حضرة الحق سبحانه (وأوجب الابعاد) أى بعدى عنه بعدم حضورى معه وهذا لازم لما قبله (فقد) أى إنما كان ذلك من الجهل لأنه قد (يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن) من قطع المدد عنه (إلا منع المزيد) أى الزيادة من المدد لكان ذلك كافيا فى قطع الامداد وقطعه مبدأ الحجاب فاذا ابتدىء به المريد ولم تتداركه رحمة الله تعالى فى الحال كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الأنس بالوحشة (وقد يقام مقامه) أى فى مقام (البعد وهو لا يدرى ولو لم يكن) من إقامته مقام البعد (إلا أن يخليك وما تريد) بأن يسلط نفسك عليك ويمنع نصرتك عليها لكان ذلك كافيا فى البعد

قال فما شكر الرجلين قال إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما فيه وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله تعالى فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذه بطرفه ولم يلبسه فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر وأجمع العبارات للشكر قول من قال الشكر معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالأركان والقدر اللازم من شكر النعم ماقاله الجنيد رضى الله عنه حين سأله السرى رضى الله عنه قال الجنيد رضى الله عنه كنت بين يدى السرى رضى الله عنه وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى ياغلام ما الشكر فقلت أن لا يعصى الله بنعمه فقال يوشك أن يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكى على هذه الكلمة (خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا لك ـ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) الخوف من الاستدراج بالنعم من صفات المؤمنين وعدم الخوف منه مع الدوام على الاساءة من صفات الكافرين يقال من أمارات الاستدراج ركوب السيئة والاغترار بزمن المهلة وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة وهذا من المكر الخفى قال الله تعالى ـ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ـ أى لا يشعرون بذلك وهو أن يلقى فى أوهامهم أنهم على شىء وليسوا كذلك يستدرجهم فى ذلك شيئا فشيئا حتى يأخذهم بغتة كما قال تعالى ـ فلما نسوا ماذكروا به ـ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم ـ فتحنا عليهم أبواب كل شىء ـ أى فتحنا عليهم أسباب العافية وأبواب الرفاهية ـ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ـ من الحظوظ الدنيوية ولم يشكروا عليها برجوعهم عنها إلينا ـ أخذناهم بغتة ـ أى فجأة ـ فاذا هم مبلسون ـ أى آيسون قانطون من الرحمة قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه فى قوله تعالى ـ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ـ نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فاذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا وقال ابن عطاء الله كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة (من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد وأوجب الابعاد فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لم يكن إلا منع المزيد وقد يقام مقام البعد وهو لا يدرى ولو لم يكن إلا أن يخليك وما تريد) هذا

نوع من الاستدراج الذى تقدم ذكره وسوء أدب المريد موجب لعقوبته ولكن العقوبات مختلفة فمنها معجلة ومنها مؤجلة ومنها جلية ومنها خفية فالعقوبة الجلية العقوبة بالعذاب والعقوبة الخفية العقوبة بوجود الحجاب فالعقوبة بالعذاب لأهل الخطايا والذنوب والعقوبة بالحجاب لأهل إساءة الأدب بين يدى علام الغيوب وقد تكون العقوبة الخفية والمؤجلة أشد على المريد من العقوبة الجلية والمعجلة ومثال تلك العقوبة الخفية ماذكره من قطع المدد عنه و إقامته مقام البعد منه وهذا هو مبدأ وقوع الحجاب التى ذكرناه فاذا ابتلى به المريد ولم تتداركه رحمة من الله تعالى فى الحال العتيد كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله ووقوع الحجاب على قلبه وتبدل الأنس بالوحشة وانتساخ الضياء بالظلمة ولم يمكنه بعد ذلك معاودة الحال الأولى لأنه إذ ذاك تنقطع عنه الامدادات المتصلة والواردات المتحصلة فتنكسف عنه حينئذ شمس العرفان وتستتر عنه الكشوفات والبيان وهذه جنود الله تعالى فى قلب العبد فاذا فقد النصرة من الله تعالى بذلك وقع فى الخذلان واستحوذ عليه الشيطان فأنساه الذكر وحاق به سيء المكر ورجع إلى متابعة هوى نفسه الأمارة وخرج من دائرة الصفوة المختارة فنعوذ بالله من سوء المقدور وعدم التوفيق إلى مراعاة أوائل الأمور وما احتج به المريد لنفسه من الكلام الذى ذكره المؤلف رحمه الله يقتضى توجه هذه العقوبة إليه ضربة لازب لأن قوله لو كان هذا سوء أدب إلى آخره دليل على رضاه بحاله واستحسانه لأعماله وهذا هو الموجب له عدم المزيد الذى اقتضاه قطع المدد عنه ولو كان متواصلا إليه لازداد عند مايقع منه سوء الأدب تواضعا لربه وافتقارا إليه وخوفا من مكره ولم يستحسن حال نفسه ولم يرضها قال سيدى أبو العباس رضى الله عنه كل سوء أدب يثمر لك أدبا مع الله تعالى فهو أدب وهو الذى أوجب له أيضا التخلية بينه و بين مايريد الذى اقتضى له إقامته مقام البعد إذ لو كان مقاما فى القرب لبعد عن رؤية نفسه وكان متهما لها فى إرادتها وكان واقفا مع مراد الله به فان أقدم على أمر بارادته وشهوته تداركه الله تعالى بالعصمة وعوّق عليه ماأراده وسدّ عليه مسالكه ولم يخله وماأراد من ذلك ويقال من علامة التوفيق ثلاث دخول أعمال البرّ عليك من غير قصد منك إليها وصرف المعاصى عنك مع السعى فيها وفتح باب اللجا والافتقار إلى الله تعالى فى كل الأحوال ومن علامة الخذلان ثلاث تعسر الطاعات عليك مع السعى فيها ودخول المعاصى عليك مع الهرب منها وغلق باب اللجا إلى الله تعالى وترك الدعاء فى الأحوال والأدب له موقع عظيم فى التصوّف ولذلك قال أبو حفص رضى الله عنه التصوّف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن القبول وقال أبو عبد الله بن خفيف قال لى رويم يابنىّ اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا وقال بعضهم الزم الأدب ظاهرا و باطنا فما أساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا . وقال ذوالنون المصرى رضى الله عنه إذا خرج المريد عن حد الأدب فانه يرجع من حيث جاء وقال الثورى رضى الله عنه من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ابن المبارك رضى الله عنه نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم وقيل لبعضهم ياسيء الأدب فقال لست بسيء الأدب فقيل له ومن أدبك فقال الصوفية والآداب اللازمة للمريد عامة فى ظاهره و باطنه وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الأخلاق كلها وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أدّبنى ربى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال ــ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ــ ولا يحصل لك ذلك بعد توفيق الله تعالى وتأييده إلا بالرياضة والمجاهدة قال ابن عطاء رضى الله عنه النفس مجبولة على سوء

فان ذلك مبدأ الحجاب ومانع للقلب عن الدخول فى حضرة الرب سبحانه ومن إساءة الأدب مع بعض الناس ماذكره بقوله

الأدب

الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة فمن أطلق عنانها فهو شريكها فى فسادها ويختلف ما ذكرناه من المجاهدة والرياضة باختلاف الأشخاص فرب شخص زكى الفطرة كريم السجية سهل القادة لايحتاج فى ذلك إلى كثير معاناة ولاتعب ورب شخص يكون حاله على عكس هذا فلاجرم يحتاج إلى زيادة تعب وقوة ممارسة وشدة مجاهدة لرداءة فطرته ونقصان غريزته وبين هذين درجات لاتحصى ولهذا كله يحتاج المريد إلى صحبة المشايخ والتأدب بآدابهم واتباع أوامرهم ونواهيهم لأنه إن لم تجر أفعاله على مراد غيره لايصح له الانتقال عن الهوى ولو بلغ فى الرياضة والمجاهدة كل مبلغ وذلك لكثافة حجاب نفسه وقد سئل الدقاق رضى الله عنه بماذا يقوّم الرجل اعوجاجه فقال بالتأدب بامام فان من لم يتأدب بامام بقى بطالا فاذا دام العبد على ذلك تزكت نفسه وطهر قلبه وتهذبت أخلاقه وظهر على ظاهره أنوار ذلك فتكون حركات ظاهره وباطنه مزمومة بزمام الأدب حتى تنتهى به إلى المحافظة على اجتناب أمور غير مستنكرة فى ظاهر العلم ويكون ترك محافظته عليها ذنبا من مثله وقد يعاتب عليه وقد يعاقب من أجله قال السرى رضى الله عنه صليت العشاء واشتغلت بوردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب فنوديت ياسرى هكذا تجالس الملوك فضممت رجلى ثم قلت وعزتك وجلالك لامددت رجلى أبدا قال الجنيد رضى الله عنه فبقى ستين سنة مامدّ رجله ليلا ولانهارا وقال أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه كان الأستاذ أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه لايستند إلى شىء فكان يوما فى مجمع فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيته غير مستند فتنحى على الوسادة قليلا فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة ولاسجادة فقال لاأريد الاستناد فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لايستند إلى شىء أبدا وقال أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه كنت جالسا فى مسجد الشونيزية أنتظر جنازة أصلى عليها وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة فرأيت فقيرا عليه أثر النسك يسأل الناس فقلت فى نفسى لو عمل هذا عملا يصون به نفسه كان أجمل به فلما انصرفت إلى منزلى وكان لى شىء من الورد بالليل من البكاء والصلاة وغير ذلك ثقل علىّ جميع أورادى فسهرت وأناقاعد فغلبتنى عينى فرأيت ذلك الفقير جاءوا به على خوان ممدود وقالوا لى كل لحمه فقد اغتبته وكشف لى عن الحال فقلت مااغتبته وإنما قلت فى نفسى شيئا فقيل لى ماأنت ممن يرضى منك بمثله اذهب واستحله فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته فى موضع يلتقط من الماء عند تردداد الماء أوراقا من البقل مما تساقط من غسل البقل فسلمت عليه فقال أتعود يا أبا القاسم فقلت لا فقال غفر الله لنا ولك إلى غير ذلك من آدابهم رضى الله عنهم أجمعين . والظاهر أن مراد المؤلف رحمه الله باساءة الأدب ما كان فيه نوع من الرعونة وإظهار الدعوى واتصاف العبد بصفة المولى وانبساطه وإدلاله فى موقف الهيبة والحياء وما أشبه ذلك مما يخاف على صاحبه وقوع الاستدراج والمكر به ولكن ينبغى للمريد أن لايتهاون بشىء من الآداب ولا يستحقرها فان التهاون بذلك والاستحقار له من مخامرة الجهل وعدم المعرفة بالله تعالى وهذا أقبح أنواع سوء الأدب فان وقعت منه إساءة أدب فليكن خائفا من ذلك مستعظما للأمر فيه وليبادر إلى التوبة والاعتذار والتنصل منها خشية أن توجه إليه العقوبة من حيث لايشعر وآكد ماينبغى أن يجتنبه المريد من مقتضيات هذه الجملة التى ظهر لنا أنها مراد المؤلف رحمه الله تعالى من أنواع سوء الأدب أن يوطن خاطره على شىء من الاعتراض على الله تعالى وتعاطى التدبير معه والتبرّم بأحكامه المؤلمة فى نفسه أو غيره وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق والعيب لما يوافق هواه أو نقص فى نظره مما يراه من الحق فان خطر بباله أوجرى على لسانه شىء من ذلك فليبادر إلى الاستغفار منه والتفصى عنه وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم

الحسنات وأفضل القربات وذلك يدخله في مقامات الرضا ويوصله إلى غاية النعيم والعطاء كما أن توطينه عليه وتهاونه به من أعظم خطاياه وأكبر ذنوبه ويؤديه ذلك إلى تسخط الأقدار والوقوع في دركات النار نعوذ بالله من ذلك . ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فلم يعرف له خبرا ثلاثة أيام فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي وقال بعض السادة أذنبت ذنبا فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما ذلك الذنب قال قلت مرة لشيء ليته كان وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض كان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه ليته لم يقضه وقال بعضهم مرض الجنيد رضي الله عنه فقال اللهم عافني فسمع هاتفا يقول مالك والدخول بيني وبين ملكي ومن مقتضياتها أيضا أن يعلق بقلبه شيء من الاعتراض على المشايخ والأولياء وأن يترك تعظيمهم واحترامهم وأن لا يقبل إشارتهم فيما يشيرون به عليه فقد قالوا عقوق الأستاذين لا توبة له وقالوا أيضا من قال لأستاذه لم لا يفلح وقال أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه من صحب شيخا من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة وان بقي من أهل السلوك قاصد لم يصل إلى مقصوده فليعلم أن موجب حجبه اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته فان الشيوخ بمنزلة السفراء للمريدين قال وفي الخبر: إن الشيخ في أهله كالنبي في أمته وكذلك من سوء أدبه تصدره للتعليم والهداية وتصديه للأمر والولاية ومحبته للاستتباع والرياسة وتربيته للجاه والحشمة والقبول بين الناس واستدعاؤه بسره أن يكرم ويعظم ويتبرك به وتقبل يده ويسارع في قضاء حوائجه وذلك من أضر الأشياء به وهو نتيجة استحسانه لما هو عليه وعدم تفقده لعيوبه واتهام نفسه في كل حال من أحواله وذلك مذموم منه وقال أبو عثمان رضي الله عنه لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال وقال أبو عبد الله السجزي رضي الله عنه من استحسن شيئا من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع إلى ابتدائه ويروض نفسه ثانيا وقال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه سمعت جدي يقول آفة العبد رضاه من نفسه بما هو فيه فان استشعر المريد من نفسه شيئا مما ذكرناه فليبادر إلى قطع مواده واستئصال عروقه من قبل أن يستحكم ذلك فيه ويرسخ فيه فبدايات الأمور هي التي ينبغي أن تراعى كثيرا . ومن أنواع سوء أدب المريد المفضي إلى عطبه نزوله عن مقتضيات الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد عدوا هذا من الجنايات العظيمة الموجبة لانحطاط الرتبة والبعد عن محل القرب ولهذا قالوا إذا رأيت المريد انحط عن رتبة الحقيقة إلى رخص الشريعة فاعلم أنه قد نقض عهده مع الله وفسخ عقده بينه وبين الله وقال ابن خفيف رضي الله عنه الارادة استدامة الكد وترك الراحة وليس شيء أضر على المريدين من مسامحة النفس في قبول الرخص والتأويلات وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء وقال أبو اسحق إبراهيم بن شيبان من أراد أن يتعطل ويتبطل فليلزم الرخص ويعني بالرخصة ههنا ما كان مضادا لحال المريد من تناول الشهوات واللذات والميل إلى المألوفات والمعتادات والركون إلى الدعة والراحات وارتكاب الشبهات والتأويلات فان حال المريد يقتضي مباينته لهذا كله وان كان بعض ذلك مباحا في رخص الشرع لعامة الناس وكان إبراهيم الخواص رضي الله عنه يقول ألا إن هذه الشهوات التي أظلمت قلوب المتعبدين بعد صفاء نورها وفترت أبدانهم بعد اجتهادها وحجبت قلوبهم بعد قربها وأطالت آمالهم بعد قصرها وأنسوا بالمخلوقين بعد الهرب منهم وتوطئوا الفرش بعد الترك فسقتهم الدنيا بكأس سمها فنظروا إلى ظاهرها بعد باطنها فناموا بعد السهر وشبعوا بعد الجوع واكتسوا

بعد

بعد العرى وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام إنى إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقى فإياك أن تعلق قلبك منها بشىء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبى من قلبك وفى أخبار داود عليه السلام ياداود تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لاتؤتين منها فأحجب محبتى عنك اقطع شهوتك إلىّ فانى إنما أبحت الشهوات لضعفة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتى فانى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها ياداود لاتجعل بينى و بينك عالما سكران بحبها يحجبك بسكره عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم ياداود تحبب إلىّ بمعاداة نفسك وامنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة وقال إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقابات أولاها أن يغلق باب العز و يفتح باب الذل والثانية أن يغلق باب النعمة و يفتح باب الشدة والثالثة أن يغلق باب الراحة و يفتح باب الجهد والرابعة أن يغلق باب النوم و يفتح باب السهر والخامسة أن يغلق باب الغنى و يفتح باب الفقر والسادسة أن يغلق باب الأمل و يفتح باب الاستعداد للموت وقال إبراهيم الخواص رضى الله عنه كنت فى جبل لبنان فرأيت رمانا فاشتهيته فدنوت منه فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمعت عليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام ياإبراهيم فقلت كيف عرفتنى فقال من عرف الله تعالى لم يخف عليه شىء فقلت أرى لك حالا مع الله فلو سألته أن يحميك و يقيك من هذه الزنابير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك و يقيك من شهوة الرمان فان لدغ الرمان يجد الانسان ألمه فى الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا وقال السرى رضى الله عنه إن نفسى تطالبنى منذ ثلاثين سنة أوأربعين سنة أن أغمس جزرة فى دبس فما أطعمتها فلما كان ترك الشهوات والتنعمات من شأن المريد ومن مقتضى حاله لزمه الوفاء به وكان عمله على خلافه نقضا وفسخا كما تقدم قال جعفر بن نصير رضى الله عنه دفع إلىّ الجنيد درهما وقال اشتر به التين الوزيرى فاشتريته فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها فى فيه ثم ألقاها و بكى وقال احمله فقلت له فى ذلك فقال هتف بى هاتف أما تستحى شهوة تركتها من أجلى ثم تعود إليها وعن شقيق بن إبراهيم قال لقيت إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه بمكة فى سوق الليل عند مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ناحية من الطريق يبكى فعدلت إليه وجلست عنده وقلت له أى شىء هذا البكاء يا أبا إسحق فقال خير وعافية فعاودته مرة واثنتين وثلاثا فلما أكثرت عليه قال ياشقيق استر علىّ فقلت ياأخى قل ماشئت قال لى اشتهت نفسى سكباجا فمنعتها جهدى فلما كان البارحة كنت جالسا وقد غلبنى النعاس فاذا أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت همتى عليه فقرب منى وقال ياإبراهيم كل فقلت ما آكل شيئا قد تركته لله تعالى فقال لى فاذا أطعمك الله تأكل فما كان لى جواب إلا أن بكيت فقال لى يرحمك الله كل قال إبراهيم فقلت له قد أمرنا أن لانطرح فى وعائنا إلا من حيث نعلم فقال لى كل يرحمك الله فانما أعطيته وقد قيل لى ياخضر اذهب بهذا وأطعم نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على مايحملها من منعها اعلم يا إبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط فقلت فان كان كذلك فهاأنا بين يديك لاأحل العقد مع الله عزوجل ثم التفت فاذا أنا بفتى آخر ناوله شيئا وقال له ياخضر لقمه أنت فلم يزل يلقمنى حتى شبعت فانتبهت وحلاوته فى فمى قال شقيق رضى الله عنه فقلت أرنى كفك فأخذت كفه بكفى فقبلتها وقلت يامن يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع يامن يقدح فى الضمير اليقين يامن سقى قلوبهم من محبة أترى لشقيق عندك حالا ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء فقلت إلهى

بقدر هذه الكف و بقدر صاحبها و بالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير بفضلك و إحسانك ورحمتك و إن لم يستحق ذلك قال فقام إبراهيم رضى الله عنه ومشى حتى دخل المسجد الحرام وقال عتبة الغلام لعبد الواحد بن زيد رضى الله عنهما إن فلانا يصف من قلبه منزلة ما أعرفها قال لأنك تأكل مع خبزك تمرا وهو لايزيد على الخبز شيئا فقلت إن تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فأخذ يبكى فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينيك أعلى التمر تبكى فقال عبدالواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك هو إذا ترك شيئا لم يعاود فيه أبدا وقال أحمد بن أبى الحوارى اشتهى أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه رغيفا حارا بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرح الرغيف وقال عجلت لى شهوتى بعد إطالة جهدى وشقوتى قد عزمت على التوبة فاقبلنى قال أحمد فما لقيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى ، وقال أبو بكر بن الجلاء رضى الله عنه أعرف إنسانا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها فيقول لها لا أريد أن أطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة ، وقال أبو سليمان رضى الله عنه وترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها ، وقال أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه : وقد اشتد خوف السلف رضى الله عنهم من تناول لذائذ الأطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا أن منع الله منه غاية السعادة حتى روى أن وهب بن منبه رضى الله عنه قال :التقى ماسكان فى السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين فقال أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودى وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتهاه فلان العابد ، وقال وهذا تنبيه على أن تيسير الشهوات ليس من علامات الخير قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسباب ذلك و يكون ذلك من الله ابتلاء واختبارا فينبغى أن يصبر و يستمر فانه إن عوّد نفسه كسر العزم ألفت ذلك وفسدت و إذا اتفق منه كسر عزم فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه فى معاقبة النفس من كتاب المراقبة فاذا لم تخوّف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة وتفسد الرياضة عليه بالكلية هذا كلام أبى حامد وهو حسن ومعناه صحيح مجرّب فلتعتمد عليه أيها المريد ، وقد يعجل الله تعالى لبعض هؤلاء العقوبة رحمة له ومنة عليه ، قال أبو تراب النخشبى رضى الله عنه : ما تمنت نفسى شهوة من الشهوات إلا مرة واحدة تمنيت خبزا و بيضا وأنا فى سفر فعدلت إلى قرية فقام واحد وتعلق بى وقال هذا كان مع اللصوص فضربونى سبعين درة ثم عرفنى رجل منهم فقال هذا أبو تراب النخشبى فاعتذروا إلىّ فحملنى رجل منهم إلى منزله وقدم لى خبزا و بيضا فقلت فى نفسى كلى بعد سبعين درة وقال بعضهم اشتهى أبو الخير العسقلانى رضى الله عنه السمك سنين ثم ظهر له ذلك من موضع حلال فلما مدّ يده إليه ليأكل دخلت شوكة من عظامه أصبعه فذهبت فى ذلك يده فقال يارب هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى حلال فكيف بمن مدّ يده بشهوة إلى حرام وقال إبراهيم الخواص رضى الله عنه كنت جائعا فى الطريق فوافيت الرىّ فخطر ببالى أن لى بها معارف فاذا دخلتها أضافونى وأطعمونى فلما دخلت البلد رأيت فيه منكرا احتجت أن آمر فيه بالمعروف فأخذونى وضربونى فقلت فى نفسى من أين أصابنى هذا الضرب على جوعى فنوديت فى سرى إنما أصابك ذلك لأنك سكنت إلى معارفك بقلبك وقلت إنهم يطعمونى إذا دخلت البلد . وحكى عن إبراهيم بن سفيان رضى الله عنه أنه قال: كنت بحلب واشتهيت شبعة من الخبز والعدس فاتفق ذلك فأكلت حتى شبعت فرأيت على باب المسجد قوارير معلقة شبه نموذجات فتوهمتها خلا فقال لى قائل أما تنظر إليها إنها خمر فقلت لزمنى فرض فدخلت الحانوت فلم أزل أصب دنا دنا حتى أتيت على الجميع

فأخذونى

فأخذونى وضربونى مائتى خشبة وطرحونى فى السجن أربعة أشهر حتى دخل أستاذى أبو عبد الله المغربى البلد فسمع بحالى فشفع لى فلما وقع بصره علىّ قال ماشأنك قلت شبعة خبز وعدس وضربت مائتى خشبة وسجنت أربعة أشهر فقال لى نجوت مجانا: أى وردت عقوبة هذه الأكلة على ظاهرك ولم تقدح فيما كنت فيه من سرائرك فكان ذلك رفقا من الله بك . قال الامام أبو القاسم القشيرى وماأصدق ماقال فان من أدب فى دنياه فيما يتعاطاه من متابعة هواه فقد خفف عنه فى عقباه بل ظهر بالتأدب جوهره ومعناه ، وحكاية خير النساج رضى الله عنه المشهورة من معنى ماذكرناه فانظرها ففيها عبرة للمعتبرين . قال الحافظ أبو نعيم رضى الله عنه حدثنى جعفر بن محمد بن نصير فى كتابه قال سألت خيرا النساج أكان النسج حرفتك ؟ قال لا. قلت فمن أين سميت به ؟ قال عاهدت الله واعتقدت أنى لا آكل الرطب أبدا فغلبتنى نفسى يوما فأخذت نصف رطل فلما أكلت واحدة إذا برجل نظر إلىّ وقال ياخير أين هربت منى وكان له غلام اسمه خير فوقع علىّ شبهه وصورته فخنقنى واجتمع الناس فقالوا والله هذا غلامك خير فبقيت متحيرا وعلمت بماذا أخذت وعرفت جنايتى فحملنى إلى حانوته الذى كان ينسج فيه صناعه فقالوا ياعبد السوء تهرب من مولاك ادخل واعمل عملك الذى كنت تعمل وأمرنى بعمل الكرباس فدليت رجلى على أن أعمل فأخذت بيدى آلته فكأنى كنت أعمل من سنين فبقيت معه شهرا أنسج له فقمت ليلة فنسجت وقمت إلى صلاة الغداة فسجدت وقلت فى سجودى إلهى لاأعود إلى مافعلت فأصبحت فاذا الشبه قد ذهب عنى وعدت إلى صورتى التى كنت عليها فأطلقت فثبت على هذا الاسم فكان سبب النسج اتباعى شهوة عاهدت الله تعالى أن لا آكلها فعاقبنى بما سمعت . وفى بعض الأخبار عن الله تعالى « إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى » وستأتى إن شاء الله تعالى كيفية مجاهدة النفس عند قوله لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين ، ولهذا المعنى كرهوا له التزويج من غير ضرورة محققة لأنه إنما يقصد بذلك قضاء شهوته و بلوغ نهمته وذلك فى الضرر به بمنزلة السم القاتل وقد قالوا من وافق شهوته عدم صفوته ، وقال بعضهم من همّ بشئ مما أباحه العلم تلذذا عوقب بتضييع العمر وقسوة القلب وتعب الهم بالدنيا ، وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : ثلاث من طلبهنّ فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوّج امرأة أو كتب الحديث وقال مارأيت أحدا من أصحابنا تزوّج فثبت على مرتبته ، وكان إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول : من تعود أفخاذ النساء لايفلح ، وقيل لبعضهم لم لاتتزوج ؟ فقال المرأة لاتصلح إلا للرجال وأنا مابلغت مبلغ الرجال ثم فيه من مكابدة أمر غيره ، ومن مراعاة توفيه حقوقه ومعاناة أخلاقه واتباع مرضاته مايشوش على المريد حاله ويكدّر عليه وقته وقد كان له فى معاناة أمر نفسه أعظم شاغل من أن تنضاف إلى نفسه نفس أخرى مع مايتسلط على باطنه من خوف الفقر ومحبة الجمع والمنع ومايرتكبه بسبب ذلك من التأويلات والرخص وذلك كله مضادّ لحال المريد وقد قالوا إذا تزوّج الصوفى فقد ركب السفينة فاذا ولد له فقد غرقت السفينة ، وكان بشر الحافى رضى الله عنه يقول : لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلوازا على الجسر ، وفى الخبر فى فتن آخر الزمان قال وفى ذلك الوقت حلت العزبة فقيل وكيف قال يعيرونه بالفقر فيتكلف ما لايطيق فيورده مورد الهلكة ، وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ ، قيل يارسول الله وماخفيف الحاذ ؟ قال الذى لا أهل له ولاولد » وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : إياكم والاستماع الى النساء والميل اليهنّ فان النساء مبعدات من الحكمة قريبات من الشيطان وهنّ مصايده وحظه من بنى آدم فمن عطف اليهنّ

(إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى) أى جعله قائما (بوجود الأوراد) بأن أظهرها منه (وأدامه عليها) أى جعله مداوما عليها (مع طول الامداد) أى المعونة والتيسير وصرف الشواغل التى تشغله عن القيام بها والمراد بطول ذلك تواليه عليه مع طول الزمان فطوله بطول الزمان الذى يحصل فيه وهذه صفة العباد والزهاد (فلا تستحقرن

مامنحه) أى أعطاه (مولاه) وعلل الاستحقار بقوله (لأنك) أى لكونك (لم ترعليه سيما العارفين) أى علامتهم من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والارادات ودوام الحضور بين يدى الله (ولا بهجة المحبين) وهى مايعلوهم من شواهد المحبة وآثارها فان محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح كدوام ذكره والمسارعة لامتثال أمره والعمى عن غيره فيجتهد فى خدمته و يتلذذ بمناجاته و يؤثره على كل ماسواه . ثم علل عدم الاستحقار بقوله (فلولا وارد) إلهى أورده الله على قلبه أى تجل إلهى (ما كان ورد) وهو ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات كصلاة وصيام وذكر إلى غير ذلك أى

بكليته فقدعطف على حظ الشيطان ومن حاد عنهن يئس منه وما مال الشيطان إلى أحد كميله إلى من استرق بالنساء و إن الشر معهن حيث كن فاذا رأيتم فى وقتكم من قد ركن إليهن فايأسوا منه قيل له فحديث النبى صلى الله عليه وسلم: حبب إلىّ من دنياكم ثلاث فذكر النساء فقال النبى صلى الله عليه وسلم معصوم وقد بلغكم ما كان فيه معهن هى عدوة الرجل ظاهرا و باطنا إن أظهرت له المحبة أهلكته و إن أضمرتها له أغوته و إن الله عز وجل جعلهن فتنة فنعوذ بالله من فتنتهن انتهى كلام سهل رضى الله عنه . وقال حذيفة المرعشى رضى الله عنه كان ينبغى للرجل لو خير بين أن يضرب عنقه و بين أن يتزوج امرأة فى الفتنة لاختار ضرب العنق على تزويج المرأة فى الفتنة و إنما قال ذلك لما يئول إليه أمر المتزوج من اكتساب الحرام وارتكاب الآثام فى زمان الفتنة وضرب العنق أحسن حالا وأحمد عاقبة من التعرض لارتكاب شىء من معاصى الله عز وجل فان قارب شيئا من ذلك المريد فهو داء عضال فى حقه فقد قالوا زلة بعد الارادة أقبح من سبعين زلة قبل الارادة وفى المثل من عرف بالخيانة لا يعتمد عليه فى الأمانة وقال بعض الأنبياء فى مناجاته لربه لو عفوت عن فلان ذنوبه بعد عظيم نعمك فأوحى الله إليه ليس الذنب فى القرب كالذنب فى البعد . وسئل بعضهم هل يجد العاصى حلاوة الطاعة فقال لا ولا من هم بالمعصية ومن عظيم سوء أدب المريد أن يميل إلى أهل الدنيا وأن يتقرب منهم أو أن يصاحبهم قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا فان صحبتهم سم مجرب لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم قال الله تعالى - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا - وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله لا تصحب من لا ينهضك حاله ومن ذلك أيضا معاشرته للأحداث والشبان وقبول إرفاق النسوان فان تعرض لاستجلاب ذلك منهن فهو أشد قال يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنه رأيت آفات الصوفية فى صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد ورفق النسوان . قال الامام أبو القاسم ومن أصعب الآفات فى هذه الطريق صحبة الأحداث ومن ابتلاه الله بشىء من ذلك فباجماع من الشيوخ أن ذلك عبد أهانه الله عز وجل وخذله بل عن نفسه شغله ولو بألف ألف كرامة أهله ثم قال بعد كلام كثير فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم فان اليسير منه فتح باب الخذلان و بدء حال الهجران ونعوذ بالله من قضاء السوء. وآداب المريد كثيرة و إنما نبهنا ههنا على بعض مايعظم فيه الخطر والضرر مما حذر منه أئمتنا رضى الله عنهم وبالغوا فى التوصية به والنهى عنه وجميع ذلك محتمل لأن يكون مراد المؤلف رحمه الله تعالى فى قوله من جهل المريد أن يسىء الأدب فرأينا أن لا يخلو هذا الموضع من هذا التنبيه لأن ذلك يقع للمريدين كثيرا والله ولى التوفيق (إذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الإمداد فلا تستحقرن مامنحه مولاه لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين فلولا وارد ما كان ورد) عباد الله المخصوصون ينقسمون إلى قسمين مقربين وأبرار فالمقربون هم الذين أخذوا عن حظوظهم و إراداتهم واستعملوا فى القيام بحقوق ربهم عبودية له وطلبا لمرضاته وهؤلاء هم العارفون والمحبون والأبرار هم الذين بقوا مع حظوظهم و إراداتهم وأقيموا فى الأعمال والطاعات ليجزوا عليها برفيع الدرجات فى الجنات وهؤلاء هم الزاهدون والعابدون

فيكون استحقارك له قلة الأدب معه . والحاصل أن عباد الله المخصوصين ينقسمون قسمين مقربين وأبرارا فالمقربون هم الذين أخذوا عن حظوظهم و إراداتهم وقاموا بحقوق ربهم عبودية له وطلبا لمرضاته وهؤلاء هم العارفون والمحبون والأبرار هم الباقون مع حظوظهم و إراداتهم وقاموا بعبادة ربهم طمعا فى جنته وهربا من ناره وكل واحد منهم ممدود فى مقامه الذى هو فيه بمدد إلهى اقتضى منه القيام بحقوق ذلك المقام و إلى ذلك أشار بقوله :

(قوم أقامهم الحق) أى اختارهم (لخدمته) بطاعته الظاهرية حتى صلحوا لجنته وهم الزاهدون والعابدون كما مر (وقوم اختصهم بمحبته) حتى صلحوا لقربه والدخول فى حضرته وهم المحبون والعارفون والكل مشتركون فى الانتساب إليه وخدمته لكن خدمة الأولين أكثرها بالجوارح والآخرين أكثرها بالقلب (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى ممنوعا فاذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الاقامة والتخصيص منعه ذلك عما ذكر من الاحتقار قال أبو يزيد اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة (قلما تكون الواردات الالهية) أى قل حصولها (إلا بغتة) أى غير بغتة والمراد بها العلوم الوهبية والأسرار العرفانية

التى يتحف الله بها عباده ولا تكون فى الغالب إلا بغتة أى فجأة من غير استعداد لها بعبادة من صلاة وصيام وغيرها (لئلا يدعيها العباد) أى يرون أنهم أهل لها (بوجود الاستعداد) لها بالاجتهاد فى الأوراد والعبادات تمسكا بنحو قوله صلى الله عليه وسلم عن ربه «ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه» وغفلوا عن كون همتهم متعلقة بالدار الآخرة لا به فلا تحصل لهم معرفته الخاصة ولا واردات إلهية . وحاصله أن الواردات هدايا من الله تعالى ومنح منه فلا تحصل عقب الصادقة و بفورها بل تحصل بعد ذلك بغتة وحصولها عقب العبادات نادر قليل (من رأيته) من المريدين أو العارفين (مجيبا عن كل ماسئل) أى سئل عنه من العلوم التى يفيضها الله على قلوب السالكين والمواهب اللدنية التى يخص بها العارفين (ومعبرا عن كل ماشهد) أى شهده وذاقه بباطنه وهى تلك العلوم والمواهب (وذاكرا كل ماعلم) من تلك العلوم (فاستدل بذلك على وجود جهله) لأن إجابته عن كل سؤال تقتضى إحاطته بكل المعلومات وذلك محال فى حقه قال تعالى ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ ولأنه يجب مراعاة حال السائل فقد لايكون فى بعض السائلين أهلية للمسئول عنه فتكون إجابة مثله من الجهل وتعبيره عن كل مشهود له فيه نوع من إفشاء السر الذى يجب كتمانه وقد قالوا قلوب الأحرار قبور الأسرار والسر أمانة الله تعالى عند العبد فافشاؤه بالتعبير عنه خيانة وأيضا فالأمور المشهودة لايستعمل فيها إلا الاشارة والايماء

وكل واحد منهم ممدود فى مقامه الذى هو فيه بمدد إلهى اقتضى منهم القيام بحقوق مقاماتهم على اختلافها فاذا رأيت عبدا أقامه الله تعالى فى أعمال البر الظاهرة ومواصلة الأوراد المتواترة وأمده فى ذلك بالمعونة والتيسير فذلك من اختيار الله تعالى له فلا تحتقرن ذلك لأجل أنك لم تر عليه سيما العارفين من ترك الاختيار والبراءة من الحظوظ والارادات بين يدى المريد المختار ولا بهجة المحبين من الشغف بمرضاة محبوبهم والانبساط والادلال بين يدى حبيبهم فلولا الوارد الالهى الذى أورده الله تعالى عليه ما استقام على عمله ووروده فهو لم يخرج عن دائرة عنايته وحفظه ورعايته فلا تستحقر خطير مامنحه وتستقل كثير ماربحه وهل ذلك إلا من وجود جهلك ونقصان عقلك وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله لا يستحقر الوارد إلا جهول (قوم أقامهم الحق لخدمته وقوم اختصهم بمحبته كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) الحق تعالى له الاختيار التام والمشيئة النافذة لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فطائفة أقامهم الحق تعالى لخدمته حتى صلحوا لجنته وهم الزاهدون والعابدون كما تقدم وطائفة اختصهم بمحبته حتى صلحوا لقربه والدخول إلى حضرته وهم العارفون والعلماء قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه الزاهد صيد الحق من الدنيا والعارف صيد الحق من الجنة فاذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الاقامة والتخصيص منعه ذلك مما ذكرناه من الاستحقار وسلم الأمر لمن بيده التدبير والاختيار قال أبو يزيد رضى الله عنه اطلع الله تعالى على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة وذكر الحافظ أبو نعيم فى كتابه حلية الأولياء عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال إنّ الله تعالى يطلع على أهل قرية أو بلدة فيريد أن يقسم لهم من نفسه قسما فلا يجد فى قلوب العباد ولا قلوب الزهاد موضعا لتلك القسمة من نفسه فيمنّ عليهم أن يشغلهم بالتعبد عن نفسه وقال أبو العباس الدينورى رضى الله عنه إن لله عبادا لم يستصلحهم لمعرفته فشغلهم بخدمته وله عباد لم يستصلحهم لخدمته فأهلهم لمعرفته والاشارة بالآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله بينة فى هذا المعنى . وقال رضى الله عنه (قلما تكون الواردات الالهية إلا بغتة لئلا يدّعيها العباد بوجود الاستعداد) الواردات الالهية هدايا من الله تعالى وتحف وكرامات يكرم بها عباده فلا تكون فى الغالب إلا بغتة أى فجأة لئلا يدعوها و يروا أنفسهم أهلا لها بوجود استعدادهم وتهيئهم وتحف الله تعالى وهداياه مقدسة عن أن تعلل بأمر ومنزهة عن أن تقابل بأعمال برّ بل هى محض كرم وفضل من الكريم المتفضل (من رأيته مجيبا عن كل ماسئل ومعبرا عن كل ماشهد وذاكرا كل ماعلم فاستدل بذلك على وجود جهله) الاجابة على كل سؤال والتعبير

واستعمال العبارة فيها إشهار لها وفيه ابتذالها ثم إن العبارة عنها لاتزيدها إلاغموضا وانغلاقا لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراكها بالعبارات النطقية وذكره لكل معلوم له دليل على عدم تفرقته بين المعلومات وقد يكون فيها مالايصح ذكره لما يلزم عليه من الضرر والفساد وإنكار الناس له قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم كهيئة المكنون لايعرفه إلا العلماء بالله فاذا أظهروه أنكره أهل الغرة بالله » وقال على بن الحسين بن على رضى الله عنه

يارب جوهر علم لو أبوح به * لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمى * يرون أقبح ما يأتونه حسنا

إنى لأكتم من علمى جواهره * كى لايرى الحق ذو جهل فيفتننا

وقال أبو هريرة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من العلم أما أحدهما فبثثته للناس وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم منى هذا الحلقوم ولذا قتل الحلاج بافشاء شىء من ذلك حيث قال مافى الجبة إلاالله وذلك أن أهل الله يدركون وجود الله فى الأشياء أى قيامه بها وظهوره فيها وهذه غاية مايمكن أن يعبر به عن مقصودهم وإلا فهو أمر لايدرك إلا بالذوق وقد ذقنا بحمد الله فمصدوق ماسئل وماشهد وماعلم واحد وإنما يختلف باعتبار السؤال عنه وإفشائه بالعبارة وعموم ذكره (إنما جعل) تعالى (الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لاتسع مايريد أن يعطيهم) من أنواع النعيم حسا ولامعنى أما الأول فلأنها ضيقة الأقطار ويعطى الله لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم مسيرة سبعمائة عام كما ورد فى الخبر فماظنك بخواصهم فتضيق لامحالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم وأما الثانى فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والأشياء التى يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة كما جاء فى الأخبار «إن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا ومافيها وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس» وما أشبه هذا (ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لابقاء لها) لأن كل مايفنى وإن طالت مدته كلا شىء بل أعطاهم الخلود فى النعيم والبقاء الدائم فى الملك المقيم

بكل مشهود والذكر لكل معلوم أمارات على وجود جهل من اتصف بها كما قال أما الاجابة عن كل سؤال فلاقتضائها منه الاحاطة بجميع المعلومات وذلك محال فى حقه قال الله تعالى ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ فكيف يتصور منه مع هذا الاجابة عن كل سؤال لولاوجود جهله وأيضا فانه يجب عليه أن يراعى حال السائل من وجود الأهلية لما سئل عنه فيمتنع عن إجابة من لا أهلية فيه لذلك ويفعل مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه مع السائل الذى جاء يسأله أن يعلمه من غرائب العلم فانه استفصله وقال له مافعلت فى رأس العلم وفى كذا وفى كذا فأجابه السائل فقال له النبى صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكم ماهنالك ثم تعال حتى أعلمك من غرائب العلم وكما أخذ الله تعالى على العلماء أن لا يكتموا العلم عن أهله كذلك أخذ عليهم أن يصونوه عن غير أهله فمن لايسلك هذا المسلك فهو جاهل وأما التعبير بكل مشهود فلأن فيه نوعا من إفشاء السر الذى يجب كتمه وقد قالوا قلوب الأحرار قبور الأسرار والسر المشهود أمانة الله تعالى عند العبد فافشاؤه بالتعبير عنه خيانة والله تعالى لايحب الخائنين وأيضا فان الأمور المشهودة لايستعمل فيها إلا الاشارة والإيماء واستعمال العبارة فيها إفصاح بها وإشهار لها وفى ذلك ابتذالها وإذاعتها ثم إن العبارة عنها لاتزيدها إلاغموضا وانغلاقا لأن الأمور الذوقية يستحيل إدراك حقائقها بالعبارات النطقية فيؤدى ذلك إلى الانكار والقدح فى علوم السادة الأخيار قال أبو على الروذبارى رضى الله تعالى عنه علمنا هذا إشارة فاذا صار عبارة خفى وأما الذكر لكل معلوم فلعدم تفريقه بين المعلومات وقد يكون له علم يختص به فاذا ذكره لغيره استغربه وإن كان ينتفع به هو فعدم تفريقه بين المعلومات فى ذكرها من وجود جهله (إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لاتسع مايريد أن يعطيهم ولأنه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لابقاء لها) إنما جعل ثواب المؤمنين فى دار الآخرة فيما ظهر لنا لوجهين : أحدهما أن الدنيا لاتسع مايريد أن يعطيهم من أنواع النعيم حسا ولامعنى أما الحس فلأن الدنيا متدانية المسافات ضيقة الأقطار ويعطى الله تعالى لآحاد المؤمنين فى الدار الآخرة فى ملك واحد منهم كما ورد فى الخبر مسيرة خمسمائة عام فما ظنك بخواصهم فتضيق لامحالة مسافة الدنيا عن كلية جزائهم وأما المعنى فلأن الدنيا موسومة بالدناءة والنقص والخساسة والحقارة والأشياء التى يتنعم بها أهل الجنة أمور شريفة رفيعة كما جاء فى الأخبار: إن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا ومافيها وإن نور سوار حوراء يطمس نور الشمس وما أشبه هذا ويكفى فى ذلك قوله عز من قائل ـ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين ـ وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزوجل «أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر» والثانى أن الله تعالى أجل أقدار عباده المؤمنين فلم يجعل لهم الجزاء على طاعتهم فى دار فانية منقضية متصرمة لأن كل مايفنى وإن طالت مدته كلا شىء بل أعطاهم الخلود

فى النعيم والبقاء الدائم فى الملك المقيم وناهيك به شرفا تسميته إياهم باسمه الكريم وهو الحى الذى لايموت جاء فى تفسير قوله تعالى ـ وملكا كبيرا ـ أنه يرسل الله تعالى الملك إلى وليه و يقول له استأذن على عبدى فان أذن لك فادخل و إلا فارجع فيستأذن عليه من سبعين حجابا ثم يدخل عليه ومعه كتاب من الله عزوجل عنوانه من الحى الذى لايموت إلى الحى الذى لايموت فاذا فتح الكتاب وجد مكتوبا فيه عبدى اشتقت إليك فزرنى فيقول هل جئت بالبراق فيقول نعم فيركب البراق فيغلب الشوق على قلبه فيحمله شوقه و يبقى البراق إلى أن يصل إلى بساط اللقاء (من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول آجلا) ثمرة العمل وجدان الحلاوة فيه والنعيم به و يتصوّر ذلك فى أكثر الأعمال بالمواظبة عليه على حال تكره واستثقال له هذا هو غالب الأمر قال بعض العارفين ليس شىء من البر إلا ودونه عقبة يحتاج إلى الصبر فيها فمن صبر على شدتها أفضى إلى الراحة والسهولة و إنما هى مجاهدة النفس ثم مخالفة الهوى ثم مكابدة فى ترك الدنيا ثم اللذة والتنعم وقال عتبة الغلام رضى الله تعالى عنه كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال ثابت البنانى رضى الله تعالى عنه كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة وقال بعض العلماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه رضى الله عنهم ثم رفعت إلى مقام فوقه وكنت أتلوه وكأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تصدق الله تعالى بمنزلة أخرى فأنا الآن كأنى أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه وما ذكرناه من الحلاوة والنعيم إنما هو ثمرة الأعمال الصحيحة المستقيمة السالمة من الرياء والدعوى قال أبو تراب رضى الله تعالى عنه إذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله و إذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله تعالى. ورد فى الخبر «لايقبل الله تعالى من مسمع ولا مراء» دليل خطابه أن العمل السالم من الرياء والسمعة مقبول من قوله عز من قائل ـ إنما يتقبل الله من المتقين ـ وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل كما يقول المؤلف بعد هذا وذلك علامة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة حسبما يأتى فى قوله وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه كل عمل ليس له ثواب فى الدنيا ليس له جزاء فى الآخرة فحصل من هذا أن وجدان الحلاوة علامة على وجود القبول المقتضى لوجود الرضا والجزاء ولذلك قال الحسن رضى الله تعالى عنه تفقدون الحلاوة فى ثلاث فان وجدتموها فأبشروا وامضوا لقصدكم و إن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق عند تلاوة القرآن وعند الذكر وعند السجود وزاد غيره وعند الصدقة و بالأسحار وقيل فى قوله تعالى ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ قال جنة معجلة وهى حلاوة الطاعات ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات وجنة مؤجلة هى فنون المثوبات وعلوّ الدرجات . قلت وهذه الحلاوة المذكورة لاتكون إلا فى مقام المعرفة الخاصة وهى التى تنافيها المعصية . قيل لبعضهم هل تعرف الله فغضب على السائل وقال أترانى أعبد من لا أعرفه فقال له أوتعصى من تعرفه وقيل لبعضهم بم تعرف أنك عرفته فقال لم أقصد مخالفته إلا ورد على قلبى استحياء منه وقال اسماعيل بن نجيد رضى الله تعالى عنه التهاون بالأمر من قلة المعرفة بالآمر فان العصيان فى حال العرفان بعيد فان وقعت منه زلة أوهفوة بحكم وكان أمر الله قدرا مقدورا وجد لامحالة لذلك مرارة وألما فى قلبه فوجد أن هذه المرارة والألم فى المعصية علامة على صحة ماوجد من الحلاوة والنعيم فى الطاعة فهذه هى الحلاوة التى هى الميزان للأعمال المقبولة وغير المقبولة كما ذكرناه وأما الحلاوة التى يجدها من دون أهل هذا المقام فى بعض

(من وجد) من المريدين (ثمرة عمله) أى من الحلاوة فيه والنعيم به (عاجلا) أى فى الدنيا (فهو دليل على وجود القبول آجلا) أى قبول الله له قال أبو تراب إذا صدق العبد فى العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله و إذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت مباشرة العمل والأعمال الموصوفة بهذه الصفات مقبولة بفضل الله وقبول الله تعالى لعمل العبد ورضاه به هو ثوابه المعجل وذلك علامة على وجود الجزاء عليه فى الدار الآخرة كما سيأتى و إذا وجد تلك الحلاوة لاينبغى أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها وكذا لاينبغى أن يقصد بعمله حصولها لما فيها من اللذة والحظ فان ذلك مما يقدح فى إخلاص عبادته وصدق إرادته وليكن اعتناؤه بها لتكون ميزانا لأعماله وتصحيحا لأحواله فقط

(إذا أردت أن تعرف قدرك عنده) هل أنت من المقبولين السعداء أو من المردودين الأشقياء (فانظر فيماذا يقيمك) من طاعة أو ضدها فمن كان من أهل السعادة والقبول استعمله مولاه فيما يرضيه عنه من أنواع الطاعات ومن كان من أهل الشقاوة استعمله فيما يسخطه عليه من أنواع المخالفات وهذا يناسب العامة وأما الخاصة فيقال فيه إن أردت أن تعرف قدرك أى منزلتك عنده هل أنت من المقربين أولا فانظر فيماذا يقيمك أى يورده على قلبك من إدراك جلالته وعظمته قال عليه الصلاة والسلام «من أراد أن يعلم منزلته عند الله فليعلم منزلة الله من قلبه» (متى رزقك الطاعة) أى امتثال الأوامر واجتناب النواهى فى ظاهرك (والغنى به عنها) بأن لا تركن إليها فى نيل مطلوبك بل تعلق قلبك بمولاك وتغيب عن كل شىء سواه (فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة) وهى تلك الطاعة (وباطنة) وهى معرفتك التى أوجبت لك الغيبة عنها وعدم رؤيتها (خير ما تطلبه منه) أى أفضل الأشياء التى تطلبها منه (ما هو طالبه منك) من الاستقامة على سبيل العبودية له فهذا خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك دنيوية كانت أو أخروية فان فى ذلك حظا لنفسك

العبادات فمدخولة معلولة إلا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة والحلاوة على الاطلاق إذا وجدها العامل فى العمل لا ينبغى له أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها وكذلك أيضا لا ينبغى له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما له فيها من اللذة والحظ فان ذلك مما يقدح فى إخلاص عبادته وصدق إرادته وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزانا لأعماله ومحكا لأحواله فقط . قال الواسطى رضى الله تعالى عنه استحلاء الطاعات سموم قاتلة قال فى لطائف المنن وصدق الواسطى فأقل ما فى ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها فيفوتك صدق الاخلاص فى نهوضك لها وتحب دوامها إلا قياما بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمتعة فتكون فى الظاهر قائما لله وفى الباطن إنما قمت لحظ نفسك ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاء لك (إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا يقيمك) هذا ميزان صحيح وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه فان الله عز وجل ينزل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه» وهذا الانزال المذكور المنسوب إلى العبد هو معنى الاقامة المذكورة إذ العبد لا فعل له على التحقيق قال الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه إنما يطيع العبد ربه على قدر منزلته منه وقال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه فاذا كان العبد لنظر مولاه مكرما ولحرماته معظما وإلى محبوبه ومرضاته مسارعا كان الله عز وجل له فى الآخرة لوجهه مكرما ولشأنه معظما وإلى مسرته من النعيم المقيم مسارعا وإذا كان العبد بحق مولاه متهاونا وبأمره مستخفا ولشعائره مستصغرا كان الله عز وجل له مهينا وبشأنه متهاونا وإلى ما يكره من العذاب الأليم له مسارعا والعياذ بالله من ذلك وقال وهب ابن منبه رضى الله تعالى عنه قرأت فى بعض الكتب يا ابن آدم أطعنى فيما أمرتك ولا تعلمنى بما يصلحك إنى عالم بخلقى إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى لست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر عبدى فى حقى (متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة) المطلوب من العبد شيئان إقامة الأمر فى الظاهر والتعلق بالله فى الباطن وهو الاستغناء به عن غيره فاذا رزق الله تعالى العبد هذين الأمرين فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة وأوصله إلى غاية الأمل فى الدنيا والآخرة سبحانه جل وعلا . وقال رضى الله تعالى عنه (خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك) إن كان لابد من الطلب منه فاطلب ما هو طالبه منك من الاستقامة على سبيل العبودية له فذلك خير لك من طلبك لحظوظك ومراداتك لأنك حينئذ تكون به وله ويسعفك بمطلوبك عاجلا من غير تأخير وأما إن طلبت منه حظ نفسك ونيل مرادك فقد يحصل فى ذلك تأخير ومنع مع ما يفوتك حينئذ من حسن الأدب فى الطلب . يحكى عن أبى الحسين الديلمى رضى الله تعالى عنه أنه قال وصف لى بأنطاكية إنسان أسود يتكلم على القلوب قال فقصدته فلما رأيته رأيت معه شيئا من المباحات يريد أن يبيعه فساومته وقلت له بكم تبيع هذا فنظر إلى ثم قال اقعد فانك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئا قال فمضيت إلى غيره وتغافلت كأنى لم أسمع ما قال وساومت غيره ما كان بين يديه ثم رجعت إليه وقلت له بكم تبيع هذا فنظر إلى وقال اقعد فانك جائع منذ يومين حتى إذا بعنا هذا نعطيك من ثمنه شيئا قال فوقع فى قلبى منه هيبة فلما باع ذلك أعطانى شيئا ومضى قال فمضيت خلفه لعلى أستفيد منه شيئا قال فالتفت إلى وقال إذا عرضت لك حاجة

فأنزلها

(الحزن على فقدان الطاعة) بضم الفاء وكسرها أى عدم وجودها فى الحال (مع عدم النهوض إليها) فى المستقبل (من علامات الاغترار) أى التعويل على ما لاحقيقة له وهذا هو الحزن الكاذب الذى يكون معه البكاء الكاذب كما قيل: كم من عين جارية وقلب قاس وهو آمن مكر الله الخفى حيث منعه ماينفعه وأعطاه مايغترّ به من الحزن والبكاء فانه قد يستحسن بذلك حاله و يعدّ نفسه شيئا. أما الحزن الصادق وهو الذى يبعث على الطاعات و يكون معه البكاء الصادق فهو من مقامات السالكين قال أبو على الدقاق صاحب الحزن يقطع من طريق الله فى شهر مالايقطعه من فقد حزنه فى سنين (ما العارف من إذا أشار) إلى شئ من أسرار الحق سبحانه (وجد الحق أقرب إليه من إشارته) بأن كان حاضرا معه لم يغب عنه بل هو ملاحظه فى حال إشارته وأقرب إليه منها فهذا ليس بعارف حقيقة لبقائه مع نفسه لأنه حينئذ ملاحظ أنّ هناك مشيرا

ومشارا إليه ومشارا به ومادام

فأنزلها بالله إلا أن يكون لك فيها حظ فتحتجب بها عن الله تعالى . ومن دعاء أبى القاسم الجنيد رضى الله تعالى عنه : اللهمّ وكلّ سؤال سألتك فعن أمرك لى بالسؤال فاجعل سؤالى إليك سؤال محابك ولاتجعلنى ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ بل يسأل القيام بواجب حقك ومن دعائه أيضا اللهم إنى أسألك منك ماهو لك وأستعيذك من كل أمر يسخطك اللهم ولاتشغلنى بشغل من يشغله عنك ما أراده منك إلا أن يكون لك اللهم اجعلنى ممن يذكرك ذكر من لايريد بذكره منك إلا ماهو لك اللهم اجعل غاية قصدى إليك ما هو لك ولا تجعل قصدى إليك ما أطلبه منك (الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار) هذا هو الحزن الكاذب الذى يكون معه البكاء الذى كما قالوا كم من عين جارية وقلب قاس وهو آمن مكر الله تعالى الخفىّ حيث منعه ماينفعه وأعطاه مايغترّ به من الحزن والبكاء . سمعت رابعة رضى الله تعالى عنها رجلا يقول واحزناه فقالت قل واقلة حزناه لوكنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس. وأما الحزن الصادق فبخلاف هذا وهو مقام من مقامات السالكين وهو يبعث على الانكماش فى الأعمال والنهوض إلى الطاعات على كلّ حال قال الشيخ أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه صاحب الحزن يقطع من طريق الله عز وجل فى شهر مالايقطعه من فقد حزنه فى سنين وفى الخبر «إن الله يحب كل قلب حزين» وفى التوراة إنّ الله إذا أحبّ عبدا نصب فى قلبه نائحة و إذا أبغض عبدا نصب فى قلبه مزمارا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكر وقيل الحزن إذا فقد من القلب خرب ومن لم يذق طعم الحزن لم يذق لذّة العبادة فاذن الحزن الذى يجده العبد من نفسه إن لم يبعثه على النهوض والانكماش والاجتهاد فذلك من علامات الاغترار وليس بمقام السالكين الأبرار (ما العارف من إذا أشار وجد الحقّ أقرب إليه من إشارته بل العارف من لاإشارة له لفنائه فى وجوده وانطوائه فى شهوده) الاشارة ألطف من العبارة وهى كناية وتلويح و إيماء لاتصريح وهى التى يستعملها أهل هذه الطريقة فيما بينهم عند ذكرهم لأسرار التوحيد كما تقدم عند قوله من رأيته مجيبا عن كل ماسئل ومعبرا عن كل ماشهد فالمشير إلى الله تعالى الملاحظ لاشارته و إن وجد الله تعالى أقرب إليه من إشارته غير عارف على التحقيق لأنه بوصف التفرقة بشهوده للأغيار بل العارف الفانى فى

يتعقل أنه مشير والحق مشار إليه وذلك الكلام الذى صدر منه إشارة فهو إلى الآن لم يفن عن نفسه ولم يخرج عن دائرة حسه والاشارة ألطف من العبارة لأنها إيماء فقط وتلويح لاتصريح وهى التى يستعملها أهل الطريق رضى الله تعالى عنهم فيما بينهم عند ذكرهم لما يفتح الله به عليهم من الأسرار التوحيدية والعلوم اللدنية والمواجيد والأذواق فالمشير إلى شئ من ذلك الملاحظ لاشارته وان وجد الله تعالى أقرب إليه منها بأن لم يغب عنه فى حال الاشارة غيره عارف على التحقيق لأنه

بوصف التفرقة بشهوده للأغيار (بل العارف) حقيقة (من لا إشارة له) أى من لايشهد أن له إشارة و إن وقعت منه (لفنائه فى وجود وانطوائه فى شهوده) الضمير لذلك العارف وفى بمعنى عن أى لفنائه عن وجود نفسه وانطوائه عن شهودها و يحتمل عوده للحق سبحانه وتعالى أى إن العارف حقيقة هو الذى غاب عن الاشارة والمشير والمشار به فاذا وقعت منه إشارة لايشهدها ولايشعر بها لكون المشير والمشار إليه حينئذ هو الله تعالى لأن العارف حينئذ فى مقام الجمع ومن كان كذلك فهو غائب عن رؤية نفسه. قال الشيخ يوسف العجمى قدّس الله سره من تكلم فى مقام الجمع فليس بمتكلم و إنما المتكلم الحقّ سبحانه على لسان عبده وهو قوله فى الخبر القدسى «فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق» اه وسئل بعضهم عن الفناء فقال هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والأحوال والمقامات والأذكار وتفنيه عن كل شئ وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء فيغرق فى التعظيم اه

(الرجاء) أي الحقيقي (ما قارنه عمل) أي ما كان باعثا على الاجتهاد في الأعمال كما مر في الحزن لأنّ من رجا شيئا طلبه ومن خاف من شيء هرب منه (و إلا) بأن لم يقارنه عمل بل كان يفتر صاحبه عن العمل و يجرّئه على المعاصي والذنوب (فهو أمنية) أي فليس برجاء حقيقة عند العلماء (٦٦) بل هو أمنية واغترار بالله تعالى و يقال له أيضا رجاء كاذب قال تعالى ـ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى و يقولون سيغفر لنا ـ والخلف الرديء من الناس وقال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» (مطالب العارفين من الله تعالى) أعلى من مطالب غيرهم سواء كان عابدا أو زاهدا أو عالما لأن مطالبهم إنما هو (الصدق في العبودية) وهو التزام آدابها والتخلق بأخلاقها والقيام بحقوق الله فيها كالشكر على ما أولاه والصبر على ما ابتلاه ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه وترك الاختيار عليه والتدبير معه ودوام المراقبة له والوقوف ببابه لابسا ثوب التواضع والذلة باسطا يد الفقر ماسكا حبل الرجاء مرتديا برداء الخشية إلى غير ذلك من أوصاف العبودية وأخلاقها فمن صدق في ذلك كان طالبه موفيا بما عاهد الله عليه (والقيام بحقوق الربوبية) في ظاهرهم بالطاعة وفي باطنهم بالمراقبة له ودوام الحضور معه أي إنهم لا يطلبون منه إلا هذين الأمرين من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس بخلاف من عداهم فانه لم يفارق الحظوظ والأغراض في مطلبه فلذا كان مطلبهم أعلى المطالب قال أبو مدين قدس الله سره شتان بين من همته الحور والقصور و بين من همته رفع الستور ودوام الحضور.

وجوده المنطوي في شهوده الذي غاب عن الاشارة والمشير والمشار به . سئل الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه عن المريد فقال حقيقة المريد أن يشير إلى الله تعالى فيجد الله مع نفس الاشارة قيل له فالذي يستوعب حاله قال هو الذي يجد الله باسقاط الاشارة . وسئل أبو علي الروذباري رضي الله تعالى عنه عن الاشارة فقال الاشارة الابانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه لا غير وفي الحقيقة إنّ الاشارة تصحبها العلل والعلل بعيدة من عين الحقائق وقال الشبلي رضي الله تعالى عنه وكل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم حتى يشيروا إلى الحق بالحق وليس لهم إلى ذلك طريق وقال أبو يزيد رضي الله تعالى عنه أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه (الرجاء ما قارنه عمل و إلا فهو أمنية) الرجاء مقام شريف من مقامات اليقين وهو يبعث على الاجتهاد في الأعمال كما ذكرناه في الحزن لأنّ من رجا شيئا طلبه ومن خاف من شيء هرب منه وأما الرجاء الكاذب الذي يفتر صاحبه عن العمل و يجرئه على المعاصي والذنوب فليس هذا برجاء عند العلماء ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى وقد ذمّ الله قوما ظنوا مثل هذا وأصرّوا على حبّ الدنيا والرضا بها وتمنوا المغفرة على ذلك فسماهم خلفا والخلف الرديء من الناس فقال عز من قائل ـ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى و يقولون سيغفر لنا ـ قال معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق وقال معروف الكرخي أيضا رضي الله عنه رجاؤك الرحمة ممن لا تطيعه خذلان وحمق . واعلم أنه ليس في أفعال الحق سبحانه ما يوجب أن يؤمن عقابه إنما في أفعاله ما يمنع اليأس من رحمته وكما لا يحسن أن لا يظهر من لطفه في خلقه لا يحسن الطمع في جانبه و يؤمن أخذه وانتقامه فانّ من قطع أشرف عضو بربع الدينار لا يؤمن أن يكون عذابه غدا هكذا وقد قالوا من زعم أنّ الرجاء مع الاصرار صحيح فليزعم أن طلب الربح في القبر وقدح النار في البحر صحيح وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى الأماني» وقال الحسن رضي الله تعالى عنه إنّ قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة يقول أحدهم أحسن الظنّ بربي وهو يكذب لو أحسن الظنّ بربه لأحسن العمل وتلا قول الله عز وجل ـ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ـ وكان يقول رضي الله تعالى عنه عباد الله اتقوا هذه الأماني فانها أودية الهلكة تحلون فيها والله ما آتى الله عبدا بأمانيه خيرا في الدنيا ولا في الآخرة . وكتب أبو عمير المنصوري إلى بعض إخوانه: أما بعد فانك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك و إنما تضرب حديدا باردا (مطالب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية) مطالب العارفين من ربهم أعلى من مطالب غيرهم سواء كانوا عبادا أو زهادا أو علماء لأنّ مطالب العارفين من ربهم إنما هو الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية فقط من غير مراعاة حظّ ولا بقاء مع نفس وكلّ من عداهم لم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم وقد تقدّم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى خير ما تطلبه منه ما هو

(بسطك) أيها العارف (كى لايبقيك مع القبض) الذى فيه قهر لنفسك و إن كان فيه نفع لك كما سيأتى (وقبضك كى لايتركك مع البسط) الذى فيه حظ لها (وأخرجك عنهما) بفنائك عن نفسك و بقائك به (كى لاتكون لشىء دونه) فلاتكون باقيا مع شىء من أوصافك المؤلمة ولا المؤنسة فان ذلك حجاب لك عن ربك و يسمى حالك حينئذ اعتدالا لاقبضا ولا بسطا والمعنى لوّن عليك الأحوال لتتمكن وتفنى عنها فالقبض لأهل البدايات من العارفين ولولاه لما انجمعت حقائقهم وانكفت عن المؤالف والشهوات والبسط لأهل الاشراق على مبادى الفتح كى تسترسل قواهم وتستعين عوالمهم بما ترتاح إليه من نسمات الحق وشواهد رضاه والاعتدال لأهل النهايات كى تستقيم أحوالهم وتصفو أعمالهم و يدوموا بين يدى مولاهم بلا علة و يؤخذ من ذلك أن القبض والبسط وصفان ناقصان بالنسبة إلى مافوقهما لأنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده لكنهما يتوصل بهما إلى التمكن فمن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه و بقائه بربه فهما من أحوال المبتدئين من العارفين يتلونون فيهما كما يتلونون المبتدئون من المريدين فى الرجاء والخوف و يفترقان بأن الرجاء والخوف مصحوبان بتوقع أمر يحصل فى المستقبل فما معه توقع أمر محذور مخوف أو محبوب فرجاء ومالا توقع معه فقبض فى الأوّل و بسط فى الثانى وسببهما الواردات التى ترد على باطن العارف وقوّتهما وضعفهما بحسب قوّة الوارد وضعفه فاذا تجلى للقلب وارد الجلال حصل فيه القبض و إذا تجلى فيه وارد الجمال حصل فيه البسط فالقبض بوارد حاصل فى الوقت وكذلك البسط لأن العارف لايهتم لنفسه حتى يراعى مستقبلات الأمور (العارفون إذا بسطوا أخوف منهم) أى أكثر خوفا من أنفسهم (إذا قبضوا) وذلك لملاءمة البسط لهوى أنفسهم فيخافون حينئذ من الوقوع فيما تدعو إليه من التحدث بالأحوال والكرامات وغيرها وربما كان فى ذلك الطرد والبعد وأيضا قد يصدر منه فى ذلك الوقت كلام لا يليق بحضرة الرب جل جلاله وحينئذ يتأكد عليهم فى ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار وذلك أمر عسير فى هذا الحال ولذا قال (ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل) قال فى لطائف المنن البسط مزلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد إذ هو فى أسر قبضة الله و إحاطة الحق محيطة به ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه والبسط خروج عن حكم وقته والقبض هو اللائق بهذه الدار إذ هى وطن التكليف و إبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى اه.

طالبه منك قال سيدى أبومدين رضى الله تعالى عنه شتان بين من همته الحور والقصور و بين من همته رفع الستور ودوام الحضور (بسطك كى لا يبقيك مع القبض وقبضك كى لايتركك مع البسط وأخرجك عنهما كى لا تكون لشىء دونه) القبض والبسط من الحالات التى يتلوّن بها العارفون وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين وسببهما الواردات التى ترد على باطن العبد وقوّتهما وضعفهما بحسب قوّة الواردات وضعفها والمقصود ههنا أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى مافوقهما فانهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده فمن لطف الله بعبده تكوينه فيهما ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه و بقائه بربه . قال فارس رضى الله تعالى عنه القبض أوّلا ثم البسط ثم لاقبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان فى الوجود وأما مع الفناء والبقاء فلا وكان الجنيد رضى الله تعالى عنه يقول الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى والحقيقة تجمعنى والحق يفرقنى إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى و إذا بسطنى بالرجاء ردنى علىّ و إذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى و إذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فغطانى عنه فهو فى ذلك كله محركى غير مسكنى وموحشى غير مؤنسى فحضورى لذوق طعم وجودى فليته أفنانى عنى فمتعنى أو غيبنى عنى فروّحنى وقد تكلم صاحب كتاب عوارف المعارف فى القبض والبسط بكلام بديع طويل تركت نقله ههنا اختصارا فمن أراده فلينظره هناك (العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل) إنما اشتد خوف العارفين فى البسط مالم يشتد فى القبض من قبل ملاءمته لهوى أنفسهم بخلاف القبض كما سيقوله المؤلف الآن فيخافون حينئذ من رجوعهم إليه وذوقهم لطعم نفوسهم وفى ذلك الطرد والبعد وقد كتب يوسف بن الحسين الرازى إلى الجنيد رضى الله تعالى عنهما لاأذاقك الله طعم نفسك فانك إن ذقتها لاتذوق بعدها خيرا أبدا ومن ثم يتأكد عليهم فى ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار وذلك أمر عسير فى هذا الحال ولذلك لايقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل كما قال المؤلف رحمه الله تعالى وقد قيل قف على البساط و إياك والانبساط وقال رجل لأبى محمد الجريرى رضى الله تعالى عنه كنت على بساط الأنس وفتح علىّ طريق البسط فزلت زلة فحجبت عن مقامى فكيف السبيل إليه دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه

(البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظ للنفس فيه) في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط من الأمر العسير فلذا كان لا يقف عند حدود الأدب فيه إلا القليل بخلاف القبض فكأنه يقول إنما كان كذلك لأن النفس تأخذ منه حظها ومن شأن النفس إذا وجدت حظها الغفلة ونسيان الحقوق والدعوى باظهار ماعندها من العلوم والفهوم والأحوال والأسرار والتحدث بالخصوصية والتلذذ بنسبة الخوارق والاشارة إلى الكرامات وإدراك المقامات كل على حسب حاله وكل ذلك مناف للعبودية بخلاف القبض فانه لاحظ للنفس فيه فلا تمالك أن تظهر شيئا من ذلك فهو أقرب للسلامة ووجود القدرة على الوفاء بآداب العبودية ولذا آثره العارفون على البسط

فبكى أبو محمد وقال يا أخي الكل في قهر هذه الحيطة لكني أنشدت أبياتا لبعضهم وأنشأ يقول :

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بربعها مستخبرا ... عن أهلها أو سائلا أو مشفقا

فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقت من تهوى فعز الملتقى

وسئل بعض المشايخ عن هذه الزلة فقال انبساط مع الحق بغير أدب . قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه ومن هذا خشي الأكابر والسادة . قال في لطائف المنن البسط مزلة أقدام الرجال فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه والبسط خروج عن حكم وقته والقبض هو اللائق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى قال وأخبرني بعض الصوفية قال رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوضا فقال له يا أستاذ مالك مقبوضا فقال له يابني القبض والبسط مقامان من لم يوفهما في الدنيا وفاهما في الآخرة قال وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط انتهى (البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظ للنفس فيه) في هذا إشارة لما تقدم من أن مراعاة الأدب في البسط أمر عسير وذلك أن في البسط وجود حظ النفس فيستولي عليها الفرح بذلك فلا تمالك حتى يقع في سوء الأدب والقبض ليس فيه حظ للنفس فلذلك كان أسلم وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله تعالى عنه يقول القبض حق الحق منك والبسط حق العبد منه ولأن يكون بحقه منك أتم من أن يكون بحظك منه . وأما آداب القبض والبسط فلا أعلم الآن من استوفى الكلام فيهما من علماء الصوفية ومصنفيهم وإنما وجدنا لهم من ذلك إشارات إلى أمور جملية كقول الامام أبي القاسم القشيري رضي الله تعالى عنه بعد أن تكلم على لفظي القبض والبسط وتبيين معانيهما إلى أن قال وقد يكون قبض يشكل على صاحبه سببه يجد في قلبه قبضا لايدري ماموجبه وسببه وسبيل صاحب هذا القبض التسليم حتى يمضي ذلك الوقت لأنه لو تكلف نفيه أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره زاد في قبضه ولعله يفيد ذلك منه سوء أدب وإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض فان الحق سبحانه قال ـ والله يقبض ويبسط ـ وقد يكون بسط يرد بغتة ويصادف صاحبه فلتة لايعرف له سببا يهز صاحبه ويستفزه فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب فان في هذا الوقت له خطر عظيم فليحذر صاحبه مكرا خفيا كما قال بعضهم فتح علي باب من البسط فزللت زلة فحجبت عن مقامي اهـ كلام الامام أبي القاسم . وقد رأيت كلاما مبسوطا مستوفى في آداب القبض والبسط لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه فأحببت أن أذكره ههنا لتتم به الفائدة التي تعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وإن كان كلام الشيخ أبي الحسن في ذلك أعم مما هو عند غيره من أئمة الصوفية . قال رضي الله تعالى عنه القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار والحق سبحانه يرتضي منك العبودية فيهما فمن كان وقته القبض فلا يخلو من أن يعلم سببه أولا يعلم وأسباب القبض ثلاثة ذنب أحدثته أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت لك أو ظالم يؤذيك في نفسك أو في عرضك أو ينسبك لغير دين أو غير ذلك فاذا ورد عليك القبض من أحد هذه الأسباب فالعبودية تقتضي أن ترجع إلى العلم مستعملا له كما أمرك الله تعالى أما في الذنب فبالتوبة والانابة وطلب الاقالة وأما فيما ذهب عنك من الدنيا أو نقص فبالتسليم والرضا والاحتساب وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والاحتمال . واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان ظلم غيرك لك وظلمك لنفسك فان فعلت ما التزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو

(ربما أعطاك) شيئا من الدنيا ولذاتها (فمنعك) التوفيق لطاعته والاقبال عليه والفهم عنه (وربما منعك) من الأول (فأعطاك) الثاني فمنع الله لك من نيل شهواتك ولذاتك والسكون مع شيء عاداتك عطاء جزيل منه لأنه أبقاك معه واقتطعك

وتصفح وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعوله فتجاب فيه دعوتك وما أحسن ذلك إذا رحم الله بك من ظلمك فتلك درجات الصديقين الرحماء وتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين. وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببا فالوقت وقتان ليل ونهار فالقبض أشبه شيء بالليل والبسط أشبه شيء بالنهار فاذا ورد القبض بغير سبب تعلمه فالواجب عليك السكون والسكون على ثلاثة أشياء عن الأقوال والحركات والارادات فان فعلت ذلك فعن قريب يذهب عنك الليل بطلوع شمس نهارك أو يبدو نجم تهتدي به أو قمر تستضيء به أو شمس تتبصر بها والنجوم نجوم العلم والقمر قمر التوحيد والشمس شمس المعرفة وإن تحركت في ظلمة ليلك فقلما تسلم من الهلاك واعتبر بقوله تعالى ـ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ـ فهذا حكم العبودية في القبضتين جميعا وأما من كان وقته البسط فلا يخلو من أن يعلم له سببا أولا والأسباب ثلاثة الأول زيادة في الطاعة أو نوال في المطاع كالعلم والمعرفة والسبب الثاني زيادة من دنيا بكسب أو كرامة أو هبة أو صلة والسبب الثالث بالمدح والثناء من الناس وإقبالهم عليك بطلب الدعاء منك وتقبيل يديك فاذا ورد عليك البسط من أحد هذه الأسباب فالعبودية تقتضي أن ترى أثر النعمة والمنة من الله عليك واحذر أن ترى شيئا من ذلك لنفسك وحصنها أن لا يلازمها خوف السلب مما به أنعم عليك فتكون ممقوتا هذا في جانب الطاعة والنوال إلى الله تعالى وأما الزيادة من الدنيا فهي نعمة أيضا كالأولى وخف مما بطن من آفاتها. وأما مدح الناس لك وثناؤهم عليك فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستره عليك وخف من الله تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك فيمقتك أقرب الناس إليك فهذه آداب القبض والبسط في العبودية وأما البسط الذي لا تعلم له سببا فحق العبودية فيه ترك السؤل والادلال والصولة على النساء والرجال اللهم إلا أن تقول سلم سلم إلى الممات فهذه آداب القبض والبسط في العبودية جميعا إن عقلت والسلام انتهى ماذكره الشيخ أبو الحسن وكلامه في ذلك حسن والحمد لله الذي بيده سوابغ المنن (ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك) منع الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته والسكون مع شيء من عاداته عطاء جزيل منه لأنه أبقاه معه واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجرده منها وعكس هذا هو المنع على التحقيق وإن كان عطاء في الظاهر. قال الشيخ محيي الدين بن العربي إذا منعت فذلك عطاؤه وإذا أعطيت فذلك منعه فاختر الترك على الأخذ فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك فلن يعدم منه خيرا (متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء) سيأتي بيان هذا من كلام المؤلف رحمه الله في قوله متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره إلى آخره (الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها) الأكوان ههنا كل ما يمكن أن يكون للنفس فيه حظ من متاع الدنيا وزهرتها وهي رائقة الظاهر قبيحة الباطن كما قيل.

على وجه مي مسحة من ملاحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهي من حيث ظاهرها محبوبة حلوة خضرة وبالنظر إلى باطنها جيفة قذرة فالنفس تنظر إلى زينتها الظاهرة فتغتر بها فتهلك صاحبها والقلب ينظر إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها فيسلم من شرها وقد روي في الكتب السالفة أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام ياروح الله صف لنا أولياء الله تعالى

عن حظوظك وأغراضك وعكس ذلك هو المنع على التحقيق وإن كان عطاء في الظاهر فلا تنظر لظاهر العطاء والمنع بل لحقيقة الأمر وحينئذ فيجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمولاه (متى فتح لك باب الفهم في المنع) بأن فهمت أن ذلك المنع رحمة منه بك ولولا أنه يعلم أنه خير لك من العطاء ما أنزله بك (عاد المنع) أي صار (عين العطاء) ومن الفهم في المنع ما سيأتي في قوله ومتى منعك أشهدك قهره الخ (الأكوان) أي المكونات التي للنفس فيها حظ من متاع الدنيا وزهرتها (ظاهرها غرة) بكسر الغين أي سبب في الاغترار بها لحسنها وبهجتها (وباطنها عبرة) بكسر العين أي سبب في الاعتبار بها والانكفاف عنها لقبحها وخستها والنظر إلى عاقبتها وهي الفناء فهي حسنة الظاهر قبيحة الباطن فمن نظر إلى ظاهرها وجدها حلوة نضرة فيغتر بها ويميل إليها ومن نظر إلى باطنها وجدها جيفة قذرة فيعتبر بها وينكف عنها (فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها) أي زينتها الظاهرة فتغتر بها وتهلك صاحبها (والقلب ينظر إلى باطن عبرتها) أي إلى قبائحها الباطنة فيعتبر بها ويسلم من شرها.

(إن أردت أن يكون لك عز لايفنى) بأن تستغنى عن جميع الأسباب بوجود مسببها لأنه باق فيكون تعلقك به عزا لايفنى (فلا تستعزنّ بعز يفنى) بأن تستغنى بهامع الغيبة عن مسببها لأنها فانية فيكون تعلقك بها عزا لايبقى بل يزول بزوالها فان اعتززت بالله دام عزك ولم يقدر أحد أن يذلك و إن اعتززت بغيره من مال أوجاه أو نحوهما بأن ركنت إليه وجعلته معتمدك وغفلت عن مولاك فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز ولذا سمع بعض العارفين شخصا يبكى فقال له ماشأنك فقال مات أستاذى فقال له العارف ولم جعلت أستاذك من يموت (الطى الحقيقى أن تطوى) أيها المريد (مسافة الدنيا عنك) بأن لا تشتغل بلذاتها وشهواتها ولا تركن إليها بل تغيب عنها (حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك) أى تكون نصب عينيك ليست غائبة عن قلبك فهذا هو الطى الحقيقى الذى يكرم الله به أولياءه و به تتحقق عبوديتهم لربهم لاطىّ مسافة الأرض بأن تكون من أهل الخطوة لأنه ربما كان استدراجا ومكرا ولا طى الليالى والأيام بالقيام والصيام لأنه ربما قارنه رياء أو عجب فتكون عاقبته الخسران ولا يمكن أن تطوى عن العبد مسافة الدنيا إلا إذا أشرق نور اليقين فى قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا فى نظره ويرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده ومن كانت هذه مشاهدته لا يتصوّر منه حب الفانى وهو الدنيا واستبداله بالباقى وهو الآخرة أما إذا لم يشرق نور اليقين فى قلبه كان راغبا فى الدنيا مؤثرا لها على الآخرة راكنا إليها وغائبا عن مولاه لضعف يقينه وتقواه

الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فقال عليه السلام هم الذين بهم نطق الكتاب و به نطقوا و بهم علم الكتاب و به علموا و بهم قام الكتاب و به قاموا نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها وعاينوا آجل الدنيا حين عاين الناس عاجلها فأماتوا منها ماخشوا أن يميتهم و تركوا منها ماعلموا أن سيتركهم فصار ذكرهم فيها قوتا وفرحهم فيها حزنا ماعارضهم منها رفضوه وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه خلقت الدنيا عندهم فلم يجددوها وخربت فيما بينهم فلم يعمروها وماتت فى صدورهم فلم يحيوها بعد موتها و بنوا بها آخرتهم أحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة يحبون الله و يحبون ذكره و يستضيئون بنوره و يضيئون به لهم الخبر العجيب وعندهم الخبر العجيب وكان بعض الأولياء يقول ماسطع لى زينة من زخرف الدنيا إلا كشف لى باطنه فظهر لى غرور عنها . قال أبو طالب المكى فهذه عناية من الله تعالى لمن وليه من أوليائه المقربين منه فمن شهد الدنيا بأول وصفها لم يغتر بآخره ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها ومن كشف له بعاقبتها لم يستهوه زخرفها . وكان عيسى عليه السلام يقول و يلكم علماء السوء مثلكم مثل قناة حش ظاهرها جص و باطنها نتن (إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى) العز الذى لايفنى هو الغنى عن الأسباب كلها بوجود مسببها لأنه باق لا يفنى فالتعلق به عز لا يفنى والعز الذى يفنى هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها لأنها فانية فالتعلق بها عز فان لايبقى والتعلق بالله عز لايفنى وليس لك إلا أحدهما لأنهما ضدان لا يجتمعان فان اخترت العز الباقى بالله تعالى لم يقدر أحد أن يذلك . يحكى أن رجلا أمر بالمعروف لهرون الرشيد فحرد عليه هرون الرشيد وكانت له بغلة سيئة الخلق فقال اربطوه معها تقتله برمحها ففعلوا ذلك فلم تضره فقال اطرحوه فى بيت وطينوا عليه الباب ففعلوا ذلك فرؤى فى بستان و باب البيت مسدود فأخبر هرون الرشيد بذلك فأتى بالرجل فقال من أخرجك من البيت فقال الذى أدخلنى البستان فقال ومن أدخلك البستان فقال الذى أخرجنى من البيت فقال أركبوه دابة وطوفوا به فى البلد وليقل قائل ألا إن هرون قد أراد أن يذل عبدا أعزه الله فلم يقدر . و إن أردت العز بالأسباب خذلتك وأسلمتك أحوج ماتكون إليها وكنت فى غاية الذل والهوان . حكى عن بعضهم أنه قال رأيت رجلا فى الطواف و بين يديه شاكرية يطردون الناس فبعد ذلك بمدة رأيت إنسانا يتكفف الناس على الجسر و يسأل شيئا قال فنظرت إليه وشبهته بذلك الرجل فقال لأى شىء تنظر فقلت أشبهك برجل رأيته فى الطواف من شأنه كذا وكذا فقال أنا ذلك الرجل تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله فى موضع يترفع فيه الناس قال فى التنوير فان اعتززت بالله دام عزك و إن اعتززت بغيره فلا بقاء لعزك إذ لا بقاء لمن أنت به معتز قال وأنشدنا بعض الفضلاء لنفسه :

اجعل بربك شأن عز ك يستقر و يثبت ... فان اعتززت بمن يمو ت فان عزك ميت

قال ودخل إنسان على بعض العارفين وهو يبكى فقال ماشأنك قال مات أستاذى فقال له ذلك العارف ولم جعلت أستاذك من يموت و يقال لك إذا اعتززت بغير الله تعالى ففقدته واستندت إلى غيره فعدمته - وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما - (الطى الحقيقى أن تطوى مسافة الدنيا عنك حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك)

طى

(العطاء من الخلق) أى إذا أعطوك شيئا فأخذته غافلا عن مولاك فهو و إن كان إعطاء ظاهرا (حرمان) باطنا أى فى الحقيقة ونفس الأمر لما فيه من رؤ يتك لغير الله تعالى ووقوفك مع حظوظك (والمنع من الله) أى منع الله لك وعدم إعطائك (إحسان) حيث لم يغب قلبك عنه فهو و إن كان منعا ظاهرا عطاء باطنا لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه و إن شئت قلت العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك وتقلد منتهم فى أخذ عطيتهم والمنع من الله إحسان لأنه حبيبك وكل ما يفعله الحبيب محبوب . وفى وصية علىّ كرّم الله وجهه لا تجعل بينك و بين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما اه وهو يناسب المعنى الأوّل (جلّ ر بنا أن يعامله العبد نقدا) أى حالا بأنواع الطاعات (فيجاز يه نسيئة) بأن لا يعطيه شيئا من جزاء عمله فى الحال فانّ ذلك ليس شأن الكريم القادر فجزاء العمل لا يختص بالدار الآخرة بل ربما أظهر الله تعالى منه لبعض أوليائه شيئا فى الدنيا يحملهم على الاجتهاد فى الأعمال و يتحققون بقبولها . ثم بين ذلك الجزاء المعجل بقوله (كفى من جزائه) أى مجازاته إياك (على الطاعة أن رضيك لها أهلا) أى توفيقك لها و إقدارك عليها و إلا فصفتك الذاتية التكاسل عن الطاعة وعدم الاعتناء بها فاذا وفقك مولاك للقيام بها كان ذلك جزاء معجلا لك فى الدنيا لما يترتب عليه من مزيد الزلفى وأيضا فأنت عبد حقير لا تستحق خدمة ملك الملوك فكونه قرّبك لخدمته ورضيك أهلا لها نعمة عظيمة منه عليك ثم ذكر جزاء آخر معجلا بقوله (كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته) أى فى حال طاعته من المواهب الإلهيــة والالهامات اللدنية وحلاوة التملق بين يدى ملك الملوك قال بعضهم ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة وهذه الحلاوة هى التى يعبر عنها أهل الطريق بالأحوال والمواجيــد والأذواق (وما هو مورده عليهم) أى على قلوبهم (من وجود مؤانسته) أى الأنس به بعد حصول العمل وانتفائه قال بعضهم الأنس هو سرور القلب بشهود جمال الحبيب وهو حالة توجب انتعاش المحبّ وصفاء وقته و يخاف فيه غوائل الادلال

طىّ مسافة الدنيا إنما يتصوّر من العبد إذا أشرق نور اليقين فى قلبه فحينئذ تنعدم الدنيا فى نظره وتنطوى فى اعتباره و يرى الآخرة حاضرة لديه موجودة عنده بل يراها أقرب إليه منه إذ ذاته فانية منطوية بهذا الاعتبار فمن كانت هذه مشاهدته لا يتصوّر منه حب الغائب الفانى وهو الدنيا واستبداله بالحاضر الباقى وهو الآخرة ولذلك كان أصل الرغبة فى الدنيا و إيثارها على الآخرة ضعف اليقين فمن لم يشرق فى قلبه نور اليقين لم يشاهد الملك الكبير ومن لم يشاهده أحب الدنيا وهى لا شىء فلم تكن قيمته عند الله تعالى شيئا فهذا هو الطىّ الحقيقى لمسافة الدنيا الذى يكرم الحق به أولياءه و به تتحقق عبوديتهم لربهم عزوجل لا طىّ مسافة الأرض الذى ربما يكون استدراجا ومكرا ولا طىّ الليالى والأيام بالوصال للصيام وترك الشراب والطعام إذا لم يتمحض طاعة و برًّا وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله تعالى لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها (العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله إحسان) عطية الخلق لك حرمان على التحقيق لما فيه من رؤ يتك لغير الله ووقوفك مع حظوظك وشهواتك ومنع الله لك إحسان لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه و إن شئت قلت العطاء من الخلق حرمان لما فيه من وجود محبتك لهم على ذلك وتقلد منتهم فى أخذ عطيتهم والمنع من الله إحسان لأنه حبيبك وكل ما يفعل الحبيب محبوب ولله درّ من قال :

فلا ألبس النعمى وغيرك ملبسى ولا أقبــل الدنيا وغــيرك واهبى

وفى وصية علىّ رضى الله عنه لا تجعل بينك و بين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما وقال بعض الحكماء حمل المنن أثقل من الصبر على العدم وقال آخر عزّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة . وقال رضى الله عنه (جلّ ر بنا أن يعامله العبد نقدا فيجاز يه نسيئة) جزاء المعاملة لا يختصّ بالدار الآخرة بل ربما أظهر الحق تعالى منه لبعض أوليائه فى الدنيا أنموذجا يحملهم على الاجتهاد فى الأعمال و يتحققون به وجود قبولها فى كل الأحوال وذلك لعظيم كرمه وعميم فضله جلّ وعلا (كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا) هذا بيان جزائهم المعجل وهو أنه عرّفهم من عظمته وجلاله وكبريائه ما استحقروا معــه أنفسهم أن يكونوا أهلا لأن يكلفهم القيام بطاعته و يعدّهم فيها بتيسيره ومعونته فسباهم حينئذ حبــه واستولى عليهم قربه فانخنست إذ ذاك نفوسهم واضمحلّ وجودهم وذهب بهم الحياء كل مذهب وهذا هو غاية الجزاء ونهاية العطاء عند العلماء العارفين الذين يمنعهم وجدانه عن التطلع إلى غــيره من الحظوظ الآجــلة (كفى العاملين جزاء ما هو فاتحــه على قلوبهم فى طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانســته) هــذا بيان آخر لما يكرمهم به من الجزاء المعجل وهو

أنّ العاملين لربهم يفتح لهم من المعارف ويورد على قلوبهم من أنواع اللطائف ما يتنسمون منه روح الأنس ويتنعمون به فى حضرة القدس وهذا من علامات وجود الرضوان الأكبر الذى يتلاشى دونه كل جزاء ويستحقر . كان بعضهم يقول التملق للحبيب والمناجاة للقريب فى الدنيا ليس من الدنيا هو من الجنة ظهر لأهل الله تعالى فى الدنيا لا يعرفه إلا هم ولا يجده سواهم روحا لقلوبهم . وقال بعض العلماء ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه دخلت على أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه يوما وهو يبكى فقلت له وما يبكيك فقال يا أحمد ولم لا أبكى إنه إذا جنّ الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت فى محاريبهم أشرف الجليل سبحانه فنادى يا جبريل بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم فلم لا تنادى فيهم يا جبريل ما هذا البكاء هل رأيتم حبيبا يعذب أحبابه أم كيف يجمل بى أن آخذ قوما إذا جنهم الليل تملقوا إلىّ فبى حلفت إذا وردوا على القيامة لأكشفنّ لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم (من عبده لشئ يرجوه منه أوليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه) عمل العاملين لأجل حصول الجزاء أو فرارا من عقوبة المولى مدخول معلول ليس من شأن الحاذقين المحققين لأنّ قيام العبد بحق أوصاف مولاه يقتضى أن لا يعمل لأجل حظه من جلب ثواب أو دفع عقاب لأنه عبد يستحق عليه مولاه كل شئ ولا يستحق هو عليه شيئا وهذا من أعلى المحبة لله تعالى لأنّ المحبّ مجتمع الهمّ بأمر محبوبه لا مراد له إلا ما أراد فعلى العبد أن يعمل لربه عز وجل لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التى لا يشاركه فيها فان خالف هذا أو عمل على طلب حظه لم يقم بحق صفات مولاه وكان ذلك نتيجة جهله وغفلته وعدم حبه لربه ومعرفته قال سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض إلا وهم جهال بالله تعالى إلا من يؤثر الله تعالى على نفسه وروحه ودنياه وآخرته . وفى أخبار داود عليه السلام إنّ الله تعالى أوحى إليه أنّ أودّ الأوداء إلىّ من عبدنى لغير نوال لكن يعطى الربوبية حقها وفيما نقل وهب بن منبه من الزبور ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو لنار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا لأن أطاع أو كما قال عز وجل. وفى أخبار عيسى عليه السلام إذا رأيت التقىّ مشغوفا فى طلب الربّ فقد ألهاه ذلك عما سواه . ومرّ عيسى عليه الصلاة والسلام على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية فقال من أنتم فقالوا نحن عباد الله تعالى فقال ولأى شئ تعبدتم قالوا خوّفنا الله من ناره فخفنا منها فقال حق على الله أن يؤمنكم مما خفتم منه ثم جاوزهم فمرّ بآخرين أشدّ عبادة منهم فقال لأى شئ تعبدتم قالوا شوّقنا الله إلى الجنان وما أعدّ فيها لأوليائه فنحن نرجوها فقال حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم ثم جاوزهم ومرّ بآخرين يتعبدون فقال ما أنتم قالوا المحبون لله عز وجل لم نعبده خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته ولكن حبا له وتعظيما لجلاله فقال أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم فأقام بين أظهرهم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين مخلوقا خفتم ومخلوقا أحببتم وقال للآخرين أنتم المقرّبون . قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه وممن روى عنه هذا القول وأقيم فى هذا المقام جماعة من التابعين باحسان منهم أبو حازم المدنى كان يقول إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفا من العذاب فأكون مثل عبد السوء إن لم يخف لم يعمل وأستحى أن أعبده لأجل الثواب فأكون كالأجير السوء إن لم يعط أجر عمله لم يعمل ولكن أعبده محبة له . قال الشيخ أبو طالب المكى وقد روينا معنى هذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجر لم يعمل» وقال

(من عبده) تعالى (لشئ يرجوه منه) وهو الثواب (أوليدفع بطاعته ورود العقوبة) أى حصولها له فى الدار الآخرة وقوله (عنه) متعلق بيدفع (فما قام بحق أوصافه) بل هو قائم بحظ نفسه من جلب الثواب أو دفع العقاب بخلاف ما إذا عبده لأجل جلاله وعظمته وما هو عليه من محامد صفاته التى لا يشاركه فيها إذ من كان كذلك يستحق أن يخدم بالعبادة فانه حينئذ يكون قائما بحق أوصافه أى موفيا لها حقها فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أن أودّ الأوداء إلىّ من عبدنى لغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها وفى الحديث «لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجرة لم يعمل»

بعض إخوان معروف رضى الله عنه له أخبرنى عنك يا أبا محفوظ أى شىء أهاجك على العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت فقلت ذكرت الموت فقال وأى شىء الموت قلت فذكرت القبر قال وأى شىء القبر فقلت خوف النار ورجاء الجنة فقال وأى شىء هذان من ملك هـذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع هذا و إن كان بينك و بينه معرفة كفاك جميع هذا قال أبو طالب وحدثونا عن على بن الموفق قال رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه قوم فيدخل بعضهم الجنة ويرد آخرين قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت فى سرادقات العرش رجلا قد أشخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال هو معروف الكرخى عبد الله تعالى لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما قال أبو طالب المكى وروينا عن رابعة العدوية وكانت إحدى المحبين وكان سفيان الثورى يجلس بين يديها و يقول علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة وكانت تقول له نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا وكان يعترف لها و يسلم قولها وكان عالما زاهدا إلا أنه كان يؤثر كتب الحديث والاقبال على الناس وهى أبواب الدنيا وقال لها الثورى يوما لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك فقالت ما عبدت الله خوفا من النار فأكون كالعبد السوء إن خاف عمل ولا حبا للجنة فأكون كالأجير السوء إن أعطى عمل ولكن عبدته حبا له وشوقا إليه والآثار والحكايات فى هذا المعنى كثيرة لا تنحصر فاذا عمل المريد على ما ذكرناه كان عبدا لله حقا فان طلب منه الثواب أو استعاذ به من العقاب فانما يطلبه أو يستعيذ به انتجازا لوعد ربه وفرارا من دعوى رؤية حظه واتباعا لما أحبه منه وأذن له فيه من طلبه لفضله و إحسانه وكرمه وامتنانه وهذا وما أشبهه هو المعنى بالحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ما تقول فى الصلاة قال أتشهد ثم أقول اللهم إنى أسأل الجنة وأعوذ بك من النار أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولها ندندن لا أن يكون رجاؤه لحصول ذلك وخوفه من فقده باعثا له على القيام بطاعته وملازمة عبادته فيكون عمله إذ ذاك مدخولا معلولا هذا هو مذهب العارفين والمحققين وعليه تنبنى قواعد التصوّف كلها (متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو فى كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك) المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى ولا سبيل لهم إلى معرفته إلا بتعرّفه لهم وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزل بهم من النوازل و يورده عليهم من الأحكام ثم هو على قسمين ما وافق الهوى والطبع و يسمى ذلك عطاء ومنحا وما خالفهما و يسمى منعا فبوجود العطاء تشهد صفاته البرية من الجود والكرم والاحسان واللطف والعطف وغير ذلك و بوجود المنع تشهد صفاته القهرية من الجبر والكبرياء والعزة والاستغناء فينبغى لك أيها العبد أن لا تفرق بينهما إن أردت معرفة ربك ولم يستغرقك حب حظك إذن فمنعه لك عطاء على التحقيق فهو فى كلتا الحالتين منعم عليك ومقبل بوجود لطفه إليك وهذا هو بيان ما تقدم من قوله متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع هو عين العطاء والله أعلم . قال سفيان الثورى رضى الله عنه أتيت أبا حبيب البدرى أسلم عليه ولم أكن رأيته فقال لى أنت سفيان الثورى الذى يقال قال فقلت نعم فنسأل الله عزوجل بركة ما يقال قال فقال لى يا سفيان ما رأينا خيرا قط إلا من ربنا قلت أجل قال فما لنا نكره لقاء من لم نر خيرا قط إلا منه

(متى أعطاك) أيها العارف المتيقظ (أشهدك بره) أى صفات برّه من الجود والكرم والاحسان واللطف والعطف وغير ذلك (ومتى منعك أشهدك قهره) أى صفاته القهرية أى التى تقتضى القهر والغلبة من الجبرية والكبرياء والعزة والاستغناء (فهو فى كل ذلك) أى فى كلتا الحالتين (متعرّف إليك) أى مقبل عليك ومريد منك أن تعرفه فانّ الواحد منا إذا أراد أن يعرفه غيره فاما أن ينعم عليه و إما أن يعاقبه فكل منهما سبب فى معرفة ذلك الغير له (ومقبل بوجود لطفه عليك) لأنّ مشاهدتك لصفات برّه وقهره لطف عظيم منه سبحانه ونعمة منه عليك فينبغى لك أن تشكره عليها . والحاصل أنّ المطلوب من العباد أن يعرفوا مولاهم بما هو عليه من الصفات العلية والأسماء الحسنى ولا سبيل لهم إلى معرفته إلا بتعرّفه لهم وتعرفه لهم إنما يكون بما ينزله بهم من النوازل و يورده عليهم من الأحكام سواء كان الحكم موافقا لطبعهم وهو الاعطاء أو مخالفا له وهو المنع فمن كان عارفا بربه ولم يستغرقه حظ نفسه لم يفرق بين العطاء والمنع لأنّ كلا منهما له طريق توصله إلى معرفة صفات البرية من الجود ونحوه والقهرية . وهذا من جملة فتح باب الفهم فى المنع كما

(إنمـا يؤلمك المنع) أيها المريد (لعدم فهمك عن الله فيه) أى فى حال المنع إذ لو فتح لك باب الفهم حينئذ لتلذذت به فمن جملة الفهم فى المنع أن تفهم أنه يريد بذلك المنع أن يوقفك ببابه ويعلقك به ويصيرك من جملة أحبابه فانه إذا أحب عبدا حماه الدنيا ومن جملته أن تفهم أنه سالك بك مسالك المقربين كما ورد عن الفضيل أنه كان يقول إلهى أجعتنى وأجعت عيالى وأعريتنى وأعريت عيالى وإنما تفعل هذا بخواص عبادك فبأىّ سبب أستوجب منك هذا أى من أعمال البرّ والخير ومن جملته أن تفهم أن الدنيا فانية ولذاتها منقضية فتفرح بما ادخر لك فى الآخرة إلى غير ذلك مما يفتح الله به على قلب المريد الصادق فاذا فتح عليه ذلك تلذذ بالمنع فعاد المنع عين العطاء (ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول) الاضافة فيهما بيانية أو من إضافة المشبه به للمشبه (وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول) وذلك أن الطاعة قد تقارنها آفات قادحة فى الاخلاص فيها كالاعجاب بها والاعتماد عليها واحتقار من لم يفعلها وذلك مانع من قبولها والذنب قد يقارنه الالتجاء الى الله والاعتذار إليه واحتقار نفسه وتعظيم من لم يفعله فيكون ذلك سببا فى مغفرة الله له ووصوله إليه فينبغى أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء بل إلى حقائقها فيخاف إن كان مطيعا ويرجو إن كان عاصيا

ثم قال ياسفيان منع الله إياك عطاء منه لك وذلك أنه لم يمنعك من بخل ولا عدم وإنما منعه نظر منه واختبار ياسفيان إن فيك لأنسا ومعك شغلا قال ثم أقبل على غنيمته وتركنى (إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه) إذا كان منع الله سبحانه وتعالى وعطاؤه نعمتين عظيمتين كما ذكرناه الآن فينبغى أن يكون فى كلتيهما قرّة عين المريد فان تألم بأحدهما وهو المنع وتلذذ بالآخر وهو العطاء فذلك لعدم فهمه وقصور علمه وإنما الأكمل والأفضل له أن يألم بالعطاء ويلذ بالمنع كما قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : لايصح الفقر للفقير حتى يكون فيه خصلتان : إحداهما الثقة بالله تعالى والأخرى الشكر لله فيما زوى عنه مما ابتلى به غيره من الدنيا ولا يكمل الفقير حتى يكون نظر الله له فى المنع أفضل من نظره له فى العطاء وعلامة صدقه فى ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة مالا يجد للعطاء لايعرفه غير باريه الذى خصه بمعرفته وأياديه فهو لايرى سوى مليكه ولايملك إلا ما كان من تمليكه وكلّ شئ له تابع وكلّ له خاضع اهـ (ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول) ينبغى أن لاينظر العبد إلى صور الأشياء ولينظر إلى حقائقها، فصور الطاعات لاتقتضى وجود القبول لها لما قد تضمنته من الآفات القادحة فى الاخلاص فيها وذلك مانع من وجود القبول لها ووجود صورة الذنب لاتقتضى الابعاد والطرد بل ربما يكون ذلك سببا فى وصوله إلى ربه وحصوله فى حضرة قربه كما قيل ربّ ذنب أدخل صاحبه الجنة، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنهَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » وذلك أنه يصحبه عند عمله بالطاعة أن يعجب بها ويعتمد عليها ويتكبر بفعلها ويستصغر من لم يفعلها ويصحبه عند وقوعه فى الذنب اللجأ إلى الله تعالى والاعتذار إليه منه واستصغار نفسه وتعظيم من لم يفعله قال أبو حازم رضى الله عنه إن العبد ليعمل الحسنة تسرّه حين يعملها وماخلق الله له من سيئة أضرّ له منها وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها وماخلق الله له من حسنة أنفع له منها وذلك أن العبد حين يعمل الحسنة تسره فيمتن بها ويرى أن له فضلا على غيره ولعل الله أن يحبطها ويحبط معها عملا كثيرا وإن العبد ليعمل السيئة تسوؤه حين يعملها ولعل الله أن يحدث له بها وجلا حتى يلقى الله تعالى وإن خوفها فى جوفه لباق . ثم بين المؤلف رحمه الله هذا المعنى بقوله (معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا) الذلّ والافتقار من صفات العبودية والعز والاستكبار مناقضان لها لأنهما من صفات الربوبية ولا خير فى الطاعة إذا لزم عنها شئ مما يناقض صفات العبودية لأنها تحبطها وتبطلها كما لامبالاة بالمعصية إذا لزمتها صفات العبودية لأنها أيضا تمحوها وتزيلها . قال سيدى أبو مدين رضى الله عنه : انكسار العاصى خير من صولة المطيع ، وكان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة ، وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى حتى إنه ربما دخل عليه مطيع فلايعبأ به وربما دخل عليه عاص فأكرمه

ثم أوضح المصنف معنى هذه الحكمة بقوله (معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا) ولاشكّ أن الذل والافتقار من أوصاف العبودية فالتحقق بهما مقتض للوصول الى حضرة الرب والعزّ والاستكبار من أوصاف الربوبية فالتحقق بهما مقتض للخذلان وعدم القبول . قال أبو مدين قدّس سره انكسار العاصى خير من صولة المطيع

فأكرمه لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصى دخل عليه بكثرة معاصيه وذلة مخالفته ، وقد تقدم مثل هذا عند قوله لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فمن هذا المعنى ماروى عن أبان بن عياش أنه قال خرجت يوما من عند أنس بن مالك رضى الله عنه بالبصرة فرأيت جنازة يحملها أربعة من الزنج ولم يكن معهم رجل آخر فقلت سبحان الله بسوق البصرة وجنازة مسلم لايشيعها أحد فلأكونن خامسهم فمضيت معهم ، فلما وضعوها بالمصلى قالوا لى تقدم ، فقلت أنتم أولى به فقالوا كلنا سواء فتقدمت فصليت عليه وقلت لهم ما القصة فقالوا اكترتنا تلك المرأة قال فقعدت حتى دفنوه ، فلما كان بعد ساعة انصرفت تلك المرأة وهى تضحك فدخل قلبى شىء فقلت لاينجيك إلا الصدق أخبرينى إيش القصة ، فقالت إن هذا ابنى ما ترك شيئا من المعاصى إلا فعله فمرض منذ ثلاثة أيام فقال يا أماه إذامت فلاتخبرى بوفاتى جيرانى فانهم لايحضرون جنازتى ويشمتون بموتى واكتبى على خاتمى هذا لااله إلا الله محمد رسول الله واجعليه على كفنى فلعل الله تعالى يرحمنى به وضعى رجلك على خدى وقولى هذا جزاء من عصى الله فاذادفنتينى فارفعى يديك إلى الله تعالى وقولى إنى رضيت عنه فارض عنه فلمامات فعلت جميع ما أوصى به فلمارفعت يدى إلى السماء سمعت صوته بلسان فصيح انصرفى يا أماه فقد قدمت على رب كريم رحيم غير غضبان على فانما ضحكت من هذا . ومن المعنى الآخر ماروى أن رجلا من بنى إسرائيل أتى عابدا من بنى إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال له العابد ارفع فوالله لايغفر الله لك فأوحى الله عزوجل أيها المتألى على بل أنت لايغفر الله لك . قال الحرث المحاسبى رضى الله عنه لأنه إنما تألى على الله عزوجل أن لايغفر الله له لعظم قدر نفسه عنده وأن الاساءة إليه عند الله عزوجل عظيمة لايغفرها الله تعالى لموضع عبادته وسجوده لأنه عد نفسه عظيم القدر عند الله عزوجل فجمع بين عجب وكبر واغترار بالله عزوجل ، ومن المعنيين جميعا ماروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام خرج ومعه صالح من صالحى بنى إسرائيل فتبعهما رجل خاطىء مشهور بالفسق فيهم فقعد منتبذا عنهما منكسرا فدعا الله سبحانه وتعالى وقال اللهم اغفرلى ودعا هذا الصالح وقال اللهم لا تجمع بينى وبين هذا العاصى فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام إنى قد استجبت دعاءهما جميعا رددت ذلك الصالح وغفرت لذلك المجرم ، وروى عن الشعبى أيضا عن الخليل بن أيوب أن رجلا كان فى بنى إسرائيل يقال له خليع بنى إسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر من بنى إسرائيل يقال له عابد بنى إسرائيل وعلى رأس العابد غمامة تظله فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى إسرائيل وهذا عابد بنى إسرائيل فلوجلست إليه لعل الله عزوجل أن يرحمنى به فجلس إليه فقال العابد فى نفسه أنا عابد بنى إسرائيل وهذا خليع بنى إسرائيل يجلس إلى فأنف منه وقال قم عنى فأوحى الله عزوجل الى نبى ذلك الزمن مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد ، وفى حديث آخر فتحولت الغمامة على رأس الخليع قال الحرث المحاسبى وإنما أراد الله عزوجل من عباده قلوبهم لتكون جوارحهم تبعا لقلوبهم فاذا تكبر العالم أو العابد وأنف وتواضع الجاهل أو العاصى وذل هيبة لله عزوجل وفرقا منه فهو أطوع لله عزوجل من العابد أو العالم بقلبه (نعمتان ما خرج موجود عنهما ولابد لكل مكون منهما نعمة الايجاد ونعمة الامداد) نعمة الايجاد ونعمة الامداد نعمتان لازمتان لكل مكون موجود لأنه فى ذاته معدوم متلاش ، فنعمة الايجاد أزالت العدم السابق ولولاذلك لم يزل معدوما ، ونعمة الامداد أزالت العدم اللاحق ولولاذلك لتلاشى وفنى . قال سيدى أبو مدين الحق تعالى مستبد والوجود مستمد والمادة من عين الوجود فلوانقطعت المادة انهدم الوجود وهذا توطئة لما يريد بيانه من الفقر الذاتى للعبد

(نعمتان ما خرج موجود عنهما) أى هما عامتان لكل موجود (ولابد لكل مكون) أى موجود (منهما) أى هما لازمتان لكل موجود لاينفك عنهما موجود من الموجودات (نعمة الايجاد ونعمة الامداد) الاضافة للبيان فيهما فكل موجود فى ذاته معدوم متلاش فنعمة الايجاد أزالت عنه العدم السابق فصار موجودا ولولا ذلك لم يزل معدوما والمعدوم ليس بشىء ولما كان دوام وجوده يحتاج الى إمداد إلهى له يقتضى بقاء صورته وهيكله أمده بجلب المنافع له ودفع المضار عنه فنعمة الايجاد أزالت العدم السابق ونعمة الامداد أزالت العدم اللاحق وأبدلته باستمرار الوجود فلولا نعمة الايجاد لم يخرج شىء من العدم الى الوجود ولم يزل معدوما ولولا نعمة الامداد لم يتم وجود لموجود ولم يصح بقاء موجود بل يختل فى أقرب مدة ويضمحل ولافرق فى هذا بين المكونات العلوية والسفلية . ثم ذكر جزئيا من جزئيات تلك الكلية فقال

(أنعم عليك) أيها الانسان (أولا بالايجاد وثانيا بتوالى الامداد) فاذا علم العبد أنّ ابتداء وجوده من الله ودوام وجوده كذلك علم أن فاقته ذاتية وأنه لاغنى له عن مولاه لافتقاره بعد وجوده فى كل وقت إلى الامدادات ثم هذه الامدادات المتوالية عليه منها ما يكون قوتا لشبحه تقوم به بنيته كالأقوات ومنها ما يكون قوتا لمعناه وروحه كالايمان والعلوم والمعارف فان الانسان شيئان روح وجسد والامداد الأول عام للمؤمنين والكافرين كنعمة الايجاد والثانى خاص بالمؤمنين . ثم ذكر ماهو كالنتيجة لما تقدّم بقوله (فاقتك لك ذاتية) (٧٦) أى إذا ثبت أن نعمتى الايجاد والامداد لازمتان لك وأنك فى ذاتك عدم لولاهما فالفاقة إذن ذاتية لك والاضطرار لازم لوجودك لاحتياجك إلى المولى فى ابتداء وجودك وفى إدامته عليك لكن هذا الاضطرار يخفى على غالب الناس ويغفلون عنه إذا دامت عليهم صحة أبدانهم وكثرة أموالهم فيغيبون حينئذ عن صفتهم الذاتية وعن مولاهم فيورد عليهم أسباب الاضطرار ليذكرهم ذلك كما قال (وورود الأسباب) أى أسباب الاضطرار وهى الأمور القهرية من مرض وجوع وعطش وحر وبرد وغير ذلك (مذكرات لك بما) الباء زائدة أو بمعنى اللام (خفى عليك منها) أى الفاقة والاضطرار فاذا كنت فى غفلة عن اضطرارك الذاتى والفاقة وأورد عليك مرضا أو فقرا اضطررت إليه وظهرت لك صفتك الذاتية بعد أن كانت مغطاة عنك بالصحة والجدة فتقوم حينئذ بحقّ العبودية وتدعوه سبحانه برفع ذلك عنك قال بعضهم إنما حمل فرعون على قوله ــ أنا ربكم الأعلى ــ طول العافية والغنى لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولاحم جسمه ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة أو الليلة كلّ يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية وهذا فى حقّ غالب الناس وإلا فالعارفون لايفارقهم مشاهدة فقرهم الذاتى كما سيأتى فى قوله العارف لايزول اضطراره الخ فهؤلاء لايحتاجون إلى مذكر وإنما يسلط الله عليهم هذه الأسباب القهرية لتظهر عليهم علامات الصدق فى العبودية إذ لايزيدهم البلاء إلا تعلقا بربهم

(أنعم عليك أولا بالايجاد وثانيا بتوالى الامداد) هذا أحد جزئيات الكلية المتقدمة وهو وجودك ودوام وجودك ومما لاينبغى أن يتغافل عنه من أنواع هذا الجنس نعمة إيجاد الايمان ومحبة الطاعة فى قلبك وإمدادهم وكذلك كراهة الكفر والمعصية فان ذلك من النعم العظيمة التى لامدخل للعبد فيها ولا له وسيلة إليها ولولا تولى الله تعالى له بتينك النعمتين فى القسمين لتاه فى ظلمات الضلالات وغرق فى بحار الجهالات وقد نبه الله عز وجل على هذا المعنى فى كتابه الكريم فقال عز من قائل ــ ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة ــ . قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه إن من فكر فى صنوف الضلال وكثرة طرق المحال وشدّة أغاليط الناس فى البدع والأهواء وماينشعب بكل قوم مختلفى النحل والآراء ثم فكر فى ضعفه ونقصان عقله وكثرة تحيره فى الأمور وشدّة جهله وتناقض تدبيره فى أحواله وشدّة حاجته إلى الاستعانة بأشكاله فى أعماله ثم رأى خالص يقينه وقوّة استبصاره فى دينه ونقاء وجه توحيده عن غبرة الشرك وصفاء عين عرفانه عن رهج الشك علم أن ذلك ليس من طاقته ولابجهده وكدّه وسعيه وجده بل بفضل ربه وسابغ طوله قال الله تعالى ذكره ــ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ــ فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة انتهى . فعلى العبد أن يعرف قدر هذه النعمة ويتوكل على مولاه فى بقائها وحفظها عليه ولايعتمد فى ذلك على عقله وعلمه قال بعض العارفين من نظر فى توحيده إلى عقله لم ينجه توحيده من النار وعن ذى النون المصرى رضى الله عنه ماهو قريب من هذا من كان فى توحيده ناظرا إلى نفسه لم ينجه توحيده من النار حتى يكون نظره إليه فى توحيده إياه عز وجل فهذا هو شكر هذه النعمة العظيمة . قال الشيخ أبو طالب المكى بعد أن ذكر ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه ولما يغذوكم به أيضا فمن أفضل ماغذانا به نعمة الايمان به والمعرفة له وغذاؤه لنا منه دوام ذلك ومدده بروح منه وتثبيتنا عليه فى تصريف الأحوال إذ هو أصل الأعمال التى هى مكان النوال فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شئ كنا نصنع وعن أى شئ كنا نعوّل وبأى شئ كنا نطمئن ونرجو فهذا من أعظم النعم ومعرفته هو شكر نعمة الايمان والجهل بهذا غفلة عن نعمة الايمان توجب العقوبة وادّعاء الايمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوّة وحول هو كفر نعمة الايمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الايمان لأنه بدل شكر نعمة الله كفرا انتهى كلام الشيخ أبى طالب رضى الله عنه وهو حسن فى هذا المعنى (فاقتك لك ذاتية وورود الأسباب مذكرات لك بما خفى عليك منها

وطاعة له ورجوعا إليه وليكثر ثوابهم وتعظم منزلتهم عند الله تعالى بما يظهر عليهم من الرضا عن الله والتسليم إليه (والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض) وهـذا متعلق بقوله فاقتك لك ذاتية أى إن الاضطرار لازم لوجودك و إن كنت غنيا بوجود النعمتين المذكورتين فان ذلك أمر عرضى والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضية فما يحصل للعبد من الصحة والغنى والقدرة حتى تصير الأشياء كأنها طـوع يده لا يزيل الفاقة الذاتية لأنه يجوز فى حقه تعالى أن يزيل ذلك ويبدله بضـده المقتضى للافتقار والاضطرار (خـير أوقاتك) أيها المريد الصادق (وقت تشهد فيه وجود فاقتك) بأن يزوى عنـك الدنيا وشهواتها (وترد فيه إلى وجود ذلتـك) بكسر الذال أى فقرك و إنما كانت هذه خير الأوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك عنـه بخلاف الوقت الذى تشهد فيه وجود غناك وعزك فان ذلك شر أوقاتك . حكى عن عطاء السلمى أنه بقى سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام ولم يقدر على شىء فسر قلبـه بذلك وقال يارب إن لم تطعمنى ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة

والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض) إذ ثبت أن نعمتى الايجاد والامداد لازمتان لك وأنك فى ذاتك عدم لولاها فالفاقة إذن ذاتية لك والاضطرار لازم لوجودك و إن كنت غنيا بوجود النعمتين المذكورتين فان ذلك أمر عرضى والأمور الذاتية لا تزيلها الأمور العرضـية و إنما أورد عليك الأسباب التى تضاد وجودك أو بقاء وجودك ليذكرك بذلك ماخفى عليك من وجود الفاقة الذاتية لك والاضطرار لازم لوجودك فتلازم مركزك وتقوم بحق عبوديتك ولا تجاوز حـدك وطورك قال بعضهم إنما حمل فرعون على قوله ـ أنا ربكم الأعلى ـ طول العافية والغنى لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولا حم جسمه ولم يضرب عليـه عرق فادعى الربوبية ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة أو الليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية . قال فى لطائف المنن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده ومدد يمده وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبدا فالعبد مضطر إليه أبدا ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولو دخل فى الجنة فهو محتاج إلى الله تعالى فيها غير أنه غمس اضطراره فى المنة التى أفرغت عليه ملابسها وهذا هو حكم الحقائق إذ لا يختلف حكمها لا فى الغيب ولا فى الشهادة ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة فالعلم صفته الكشف أى علم كان فى أى وقت كان والارادة صفتها التخصيص أى إرادة كانت فى أى وقت كان ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره وقد عتب الله أقواما اضطروا إليـه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار فلما زالت زال اضطرارهم قال سبحانه ـ و إذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ـ الآية قال ـ و إذا مس الانسان الضر دعانا ـ وقال ـ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ـ الآيتين إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيته انتهى (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد فيه إلى وجود ذلتك) إنما كان هذا خير الأوقات لك لوجود حضورك فيها مع ربك وانقطاع نظرك عن الوسائط والأسباب الموجبة لبعدك وحجبك فهى لا محالة خير أوقاتك وهى مواسمك وأعيادك حسبما يقوله المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا . حكى عن عطاء السلمى رضى الله عنه أنه بقى سبعة أيام لم يذق شيئا من الطعام ولم يقدر على شىء فسر قلبه بذلك غاية السرور فقال يارب إن لم تطعمنى ثلاثة أيام أخر لأصلين لك ألف ركعة وقيل إن فتحا الموصلى رضى الله عنه رجع ليلة إلى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا فأخذ يحمد الله تعالى و يتضرع إليه و يقول إلهى لأى سبب وبأى وسيلة واستحقاق عاملتنى بما عاملت به أولياءك وقال بشر الحافى رضى الله عنه بلغنى أن بنتا لفتح الموصلى عريت فقيل له ألا تطلب من يكسوها فقال لا أكسوها حتى يرى الله عريها وصبرى عليها قال فـكان إذا كان ليالى الشتاء جمع عياله ومال بكسائه عليهم ثم قال اللهم أفقرتنى وأفقرت عيالى وجوعتنى وجوعت عيالى وأعريتنى وأعريت عيالى بأى وسيلة توسلت إليك و إنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك فهل أنا منهم حتى أفرح . وقيل إن الفضيل بن عياض رضى الله عنه بكى فى ليلة قرة ثم قال إلهى أجعتنى وأجعت عيالى وأعريتنى

وقيل إن فتحا الموصلى رضى الله عنه رجع ليلة إلى بيته فلم يجد عشاء ولا سراجا ولا حطبا فأخذ يحمد الله ويتضرع إليه و يقول إلهى بأى سبب و بأى وسيلة واستحقاق عاملتنى بما عاملت به أولياءك وكذا وقع للفضيل بن عياض فقال فبأى عمل أستحق هذا منك حتى أداوم عليـه إلى غير ذلك مما وقع لأهل الله تعالى ولذا قال المصنف فيما سيأتى ورود الفاقات أعياد المريدين

(متى أوحشك من خلقه) أى ماعدا الله تعالى بأن تشمئز منهم بقلبك وتنقبض عنهم بسرك ولا يكون للأشياء وقع عندك ولا تجد فيها مقنعاً عن مولاك (فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به) فاذا فتح لك ذلك الباب وآنسك بالخطاب صرت له وحده ورغبت عن غيره كما وقع لأبى يزيد قدس الله سره أنه اطلع على أنواع من العجائب وكشف له عن المكونات العلى فقيل له وهل استحسنت منها شيئا فقال لم أرشيئا أستحسنه فقيل له أنت عبد الله حقا (متى أطلق لسانك بالطلب) أى بأن

حل عنه عقدة الصمت التى أوجبها الاستغناء بالأغيار وعدم رؤية الافتقار فاذا حل عنه هـذه العقدة بأن أشهدك فقرك وفاقتك حتى دعوته كنت إذ ذاك داعيا بلسان الاضطرار (فاعلم أنه يريد أن يعطيك) أى يحصل لك مطلوبك لصدق الوعد باجابة الدعاء من المضطر والله لايخلف الميعاد ولقوله عليه الصلاة والسلام «من أعطى الدعاء لم يحرم الاجابة» أى إما بعين المطلوب أو بغيره عاجلا أو آجلا قال بعضهم هذا إذا كان الدعاء صادرا عـن اختيار وقصد أما إذا جرى على لسان من غير قصد فان الاجابة بعين المطلوب لاتكاد تتخلف (العارف لايزول اضطراره) أى احتياجه بل هو دائم مستمر لشهوده قبضة الله الشاملة المحيطة ولمعرفته بنفسه و بما عليه من الفاقة وتحققه بذلك قال

فى كل نفس بخلاف غيره فانه تارة يضطر فيدعو وتارة يدعو من غير اضطرار وذلك أن اضطرار العامة بتغيرات الأسباب لغلبة دائرة الحس على مشهدهم فاذا زالت زال اضطرارهم فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم (ولا يكون مع غير الله قراره) أى لايركن ولايستند بقلبه لغير الله تعالى لوجود وحشته من الأشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم فكأنه يقول إن ماتقدم من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب نعتان من نعوت العارفين . ثم قال

وأعريت عيالى وأقعدتنى وأقعدت عيالى فى بيت ليس فيه مصباح وقديما تفعل هذا بأوليائك وأهل طاعتك إلهى فبأى عمل أستحق هذا منك حتى أداوم لك عليه . وقيل للربيع بن خثيم رضى الله عنه قد غلا السعر فقال نحن أهون على الله من أن يجيعنا إنما يجيع أولياءه (متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به) فتح باب الأنس بالله تعالى هو الاستيحاش من الناس ولذلك قيل الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فاذا فتح لك هذا الباب استوحشت من الأغيار كلها وتحققت فى أنسك بربك ومعنى الوحشة منها أن تشمئز بقلبك منهم وتنقبض عنهم بسرك ولا يكون للأشياء وقع عندك ولا تجد فيها مقنعا لك كما جاء عن أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه حين اطلع على أنواع من العجائب ووجه بسنى الرغائب وكشف له عن الملكوت الأعلى فقيل له هل استحسنت منها شيئا فقال لم أر شيئا أستحسنه فقيل له أنت عبد الله حقا فاذا كان العبد على هذا الوصف كان ذلك علامة على تحققه بمقام الأنس ونزوله فى حضرة القدس وسيأتى هذا المعنى فى قوله فى مناجاته أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم (متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك) إطلاق اللسان بالطلب هو أن يحل عنه عقدة الصمت الذى أوجبه الاستغناء بالأغيار وعدم رؤية الفاقة والافتقار فاذا حل عنه هذه العقدة بشهود فقره وفاقته وأطلق لسانه بالطلب كان إذ ذاك داعيا بلسان الاضطرار وكان مجاب الدعوة لصدق الوعد باجابة دعوة المضطر والله لايخلف الميعاد ، وأنشدوا :

لو لم ترد نيل ما أرجوه من طلب من فيض جودك ما ألهمتنى الطلبا

وفى الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أذن له فى الدعاء منكم فتحت له أبواب الرحمة ومايسئل الله شيئا قط أحب إليه من أن يسئل العفو والعافية فى الدنيا والآخرة» وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أعطى الدعاء لم يحرم الاجابة» قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضى الله عنه وكيف لايجيبه وهو يحب صوته ولولا ذلك مافتح له باب الدعاء وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا وسحه عليه سحا فاذا دعا قالت الملائكة صوت معروف وقال جبريل يارب عبدك فلان اقض حاجته فيقول الله دعوا عبدى فانى أحب أن أسمع صوته فاذا قال يارب قال الله تعالى لبيك عبدى وسعديك لا تدعونى بشىء إلا استجبت لك ولا تسألنى شيئا إلا أعطيتك إما أن أعجل لك ماسألت و إما أن أدخرلك عندى أفضل منه و إما أن أدفع عنك به من البلاء ماهو أعظم من ذلك» (العارف لايزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره) معرفة العارفين هى معرفتهم بأنفسهم و بما هى عليه من الفاقة والافتقار إلى العزيز الجبار و بقدر مايتحققون بذلك من أنفسهم تكون معرفتهم بالله عز وجل كما جاء فى الخبر من عرف نفسه عرف ربه فلذلك كان العارف لايفارقه الاضطرار . قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى ــ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ــ الولى لايزال مضطرا .

(أنار الظواهر) أى المكونات من السموات والأرضين أى جعلها منيرة (بأنوار آثاره) أى آثار أوصافه أى بأنوار الكواكب من شمس وقمر ونجوم التى هى آثار لأوصافه من قدرة و إرادة وغيرهما فتلك الظواهر صارت مكشوفة لنا بأنوار الكواكب وحينئذ نرى المكونات ونأخذ منهامانيفع ونحترز عما يضر (وأنار السرائر) جمع سر وهو باطن القلب كما مر (بأنوار أوصافه) أى بالعلوم العرفانية الناشئة عن تجلى أوصافه على قلوب العارفين فتلك السرائر أى سرائر العارفين صارت مكشوفة لهم بأنوار العلوم والمعارف الناشئة عن أوصافه سبحانه أى تجليها على قلوبهم وحينئذ يشاهدون ما فى سرائرهم من الأوصاف

فيحترزون عما يضرهم منها و يتصفون بما ينفعهم (لأجل ذلك) أى كون الظواهر نارت بأنور آثاره والسرائر نارت بأنوار أوصافه فالأنوار الأولى ناشئة عن الحادث والثانية عن القديم (أفلت) أى غابت وذهبت (أنوار الظواهر) أى الكواكب فيذهب نور الشمس فى الليل ونور القمر والنجوم فى النهار ونسبة ذلك النور إلى الظواهر باعتبار كونه منورا لها و إلا فهو قائم بالكواكب (ولم تأفل) بضم الفاء أى تغب وتذهب (أنوار القلوب والسرائر) أى الأنوار الناشئة عن مشاهدة الصفات القديمة التى لاتزول وما ينشأ عن القديم لايزول وإنما يطرأ عليه تغطيته بالأوصاف

قال الأستاذ تاج الدين بن عطاء الله قدس الله سره معنى كلام الشيخ هذا أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب فاذا زالت زال اضطرارهم وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم و إنما لم يكن له مع غير الله قرار لوجود وحشته من الأشياء ونفوره بقلبه عنها كما تقدم وكأنه رحمه الله قصد بهذا أن يعلمك أن ماتقدم له من الاستيحاش من الخلق وانطلاق اللسان بالطلب من الحق نعتان من نعوت العارفين (أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر ولذلك قيل .

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب)

أنوار الظواهر التى بها أنارها الحق تعالى هى الادراكات والاحساسات والحركات التى اتصف بها ظاهر العبد وأنوار السرائر التى بها أنارها الحق تعالى هى المعارف والعلوم ولطائف الادراكات والفهوم التى اشتمل عليها باطنه وسره فأنوار الظواهر متعلقة بأنوار الآثار الحادثات وأنوارها معانيها ولطائفها المستكنة فيها وأنوار السرائر متعلقة بأنوار الصفات الأزليات ولأجل اختلاف التعلقين فى الحدوث والقدم والغنى والفقر والفناء والبقاء كان ماذكره المؤلف رحمه الله من أفول أنوار ماتعلق بالحادث الفانى وعدم أفول أنوار ماتعلق بالقديم الباقى ثم أنشد المؤلف البيت المذكور مستشهدا به على ماذكره ومعناه بين وقبله : طلعت شمس من أحب بليل فاستضاءت فمالها من غروب

وفى هذا تنبيه عن الأمور الباقية هى التى ينبغى أن يغتبط بها و يفرح بحصولها و يعتنى بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية الآفلة وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال ـ لا أحب الآفلين ـ و يروى أن رجلا سأل سهل بن عبدالله رضى الله عنه عن القوت فقال هو الحى الذى لايموت فقال إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم فقال إنما سألتك عن الغذاء فقال الغذاء هو الذكر فقال إنما سألتك عن طعم الجسد فقال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا إذا دخلت عليه علة فرده إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها . وفى معناه أنشدوا :

كمل حقيقتك التى لم تكمل والجسم دعه فى الحضيض الأسفل
أتكمل الفانى وتترك باقيا عملا وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة مالم تحصله بها لم تحصل *
يفنى وتبقى دائما فى غبطة أو شقوة وندامة لا تنجلى
أعطيت جسمك خادما لخدمته إن يملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت فى أحباله ما دام يمكنك الخلاص فعجل

البشرية بالنسبة للعارفين ثم تزول وذلك النور ثابت فى قلوبهم (ولذلك) أى لأجل أفول أنوار الظواهر وعدم أفول أنوار السرائر (قيل) أى قال الشاعر (إن شمس النهار تغرب بالليل) أى و إذا غربت ذهب ضوؤها (وشمس القلوب ليست تغيب) وهو بيت مدور نصفه الياء وقبله : طلعت شمس من أحب بليل * فاستضاءت فمالها من غروب وفى هذا تنبيه على أن الأمور الباقية هى التى ينبغى أن يغتبط بها و يفرح بحصولها و يعتنى بتربيتها ومراعاة حالها بخلاف الأمور الفانية الآفلة وحينئذ يكون العبد على ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال ـ لا أحب الآفلين ـ

من يستطيع بلوغ أعلى منزل   ما باله يرضى بأدنى منزل

وقيل فى هذا المعنى أيضا :

ياخادم الجسم كم تشقى لخدمته   وتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

(ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلى لك فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عوّدك حسن الاختيار) إذا علم العبد أنّ الله تعالى رحيم به ومستعطف عليه وناظر إليه فكل مايورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغى له أن لا يكترث بذلك ولايباليه فانه لم يتعوّد منه إلا خيرا له فليحسن به ظنه وليعتقد أنّ ذلك اختيار له وأنّ فى ذلك مصالح خفية لايعلمها إلا هو كما قال الله تعالى ـ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ـ قال أبو طالب المكى فى هذه الآية فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضرّ وهو خير له فى الآخرة وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شر له عند الله تعالى وأسوأ عاقبة . وفى معنى ذلك قوله تعالى ـ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ـ قيل ظاهرة العوافى وباطنة البلايا لأنها نعمة فى الآخرة فاذن كل مايصيب المؤمن فهو نعمة كائنا ما كان فله الحمد على نعمه قال فى التنوير إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره وأنشد فيه لنفسه بقوله :

وخفف عنى ما ألاقى من العنا   بأنك أنت المبتلى والمقدّر

وما لامرىء عما قضى الله معدل   وليس له منه الذى يتخير

وكان الأستاذ أبو على الدقاق رضى الله عنه يقول جربت مرة وكنت فى صورة وحشة من ذلك فدخلت الحمام ففتح على قلبى بشىء من الرضا فكنت ألثم كل واحدة من تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر . وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول فى آخر عمره وقد اشتدّت به العلة من أمارات التأييد حفظ التوحيد فى أوقات الحكم ثم قال كالمفسر لقوله مشيرا إلى ما كان فيه من حاله هو أن يقرضك بمقاريض القدرة فى إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن خامد وقال الجنيد رضى الله عنه كنت نائما عند سرى السقطى رضى الله عنه فنبهنى وقال لى ياجنيد رأيت كأنى قد وقفت بين يديه فقال لى ياسرى خلقت الخلق فكلهم ادّعوا محبتى فخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم وبقى معى العشر وخلقت الجنة فهرب منى تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر وخلقت النار فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر عشر العشر فقلت للباقين معى لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم ولا من البلاء فررتم فماذا تريدون قالوا إنك لتعلم مانريد فقلت لهم إنى أسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا تقوم به الجبال الرواسى أتصبرون قالوا إذا كنت أنت المبلى فافعل ماشئت فهؤلاء عبادى حقا (من ظنّ انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره) قصور النظر فى عدم رؤية اللطف

(ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه هو المبلى لك) أى استحضارك أنه سبحانه هو المبلى دون غيره وأنه أعلم بمصالحك من نفسك فان ذلك سبب فى تسليك وتسليمك ووجود صبرك (فالذى) أى لأن الذى (واجهتك منه الأقدار) أى الأمور المقدرة عليك من المرض وذهاب المال والولد ونحوها (هو الذى عوّدك حسن الاختيار) أى اختيار الأمر الحسن الذى يلائمك فانّ من كانت له عليك نعمة من المخلوقين وجرت عادته أنه يحب الخير لك على تقدير أنه أساء إليك فى بعض الأحيان تتحمله لأنه ربما كانت إساءته إحسانا فى الباطن وكذلك العبد إذا علم أنه سبحانه وتعالى رحيم به ومتعطف عليه وناظر له فكل مايورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغى له أن لايبالى به فانه لم يتعوّد منه إلا خيرا فيحسن ظنه به ويعتقد أنّ ذلك اختيار له وأنّ له فى ذلك مصالح خفية لايعلمها إلا هو كما قال تعالى ـ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ـ قال أبو طالب المكى فى هذه الآية فالعبد يكره العيلة والفقر والخمول والضر وهو خير له فى الآخرة وقد يحب الغنى والعافية والشهرة وهو شرّ له عند الله وأسوأ عاقبة اهـ (من ظنّ انفكاك لطفه عن قدره) أى عما قدّره الله عليه من البلايا والمحن (فذلك لقصور نظره) إذ لو كمل نظره لوجد نفسه قد حصل له فى تلك البلايا ألطاف كثيرة منها إقباله على المولى بتلك البلية فانّ البلايا التى يبتلى الله بها عباده مناقضة لاراداتهم ومنغصة لشهواتهم فى وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أنه يردّ العبد إلى الله ويلزمه بابه فيلتجىء إليه وهذا أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك فى نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية ومنها أنّ فى البلاء ضعف النفس وذهاب قوّتها وبطلان صفاتها التى توقع العبد فى الذنوب والمعاصى وتقوّى رغبته فى الدنيا ومنها أنّ العبد يحصل له عندها غالبا طاعة القلوب كالصبر والرضا والتوكل والزهد وحب لقاء الله تعالى وذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ومنها أنه يحصل بها كفارة الذنوب والخطايا إلى غير ذلك من الألطاف الالهية

فى القدر إنما هو من ضعف اليقين وقلة حسن الظن بالمقدر الحكيم ولو كمل نظر العبد وقوى بصره لرأى فى ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يحصى وما غاب عنه أكثر ولكان كما روى عن بعض الصالحين والعارفين أنه قال لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول وكان عمران بن الحصين رضى الله عنه قد استسقى بطنه فلبث ملقى على ظهره سطيحا ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له على سرير من جريد وكان تحته نقب لغائطه و بوله فدخل عليه مطرف أو أخوه العلاء بن الشخير فجعل يبكى لما رأى من حاله فقال له لم تبكى ؟ قال لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فإنى أحب ما أحبه الله تعالى إلى ثم قال أحدثك بشىء لعل الله تعالى ينفعك به واكتم على حتى أموت إن الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها . وقال بعضهم دخلنا على سويد بن شعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلى فداؤك ما نطعمك وما نسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا ما أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا فذكر أياما ثم قال ما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر فهؤلاء شاهدوا فى بلاياه عطاياه وفى محنه منته وفى عنفه لطفه فأوجب لهم ذلك من الرضا بما هم فيه والتنعم به والتلذذ ما حملهم على أن لا يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه . ووجوه الألطاف والمنن فى البلايا لا تحصى ولكنا نذكر منها ههنا ما يزداد المريد به قوة وحسن ظن بربه عز وجل ويحمله ذلك على القيام بواجبها . فنقول البلايا التى يبتلى الله بها عباده مناقضة لإراداتهم ومنغصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن ذلك راد له إلى الله تعالى وملازمة بابه بصدق اللجا والافتقار وهذا هو أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية أو أصابته رزية وفيها أيضا ضعف النفس وذهاب قوتها وبطلان صفاتها إذ بوجود ذلك يقع العبد فى الذنوب والمعاصى وتتأكد منه الرغبة فى الدنيا والحرص على اتباع الهوى وقد قيل لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة أو ذلة أو فاقة أو قلة وفى الخبر عن الله تعالى « الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس بذلك من أحببت من عبادى » وفيها أيضا تحصل له طاعات القلوب وأعمالها وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح وذلك مثل الصبر والرضا والزهد والتوكل وحب لقاء الله تعالى . قيل لعبد الواحد بن زيد رضى الله عنه ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال حبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به قال لا قال فهل أنست به قال لا قال فهل رضيت عنه قال لا قال فإنما مزيدك منه الصلاة والصيام قال نعم قال لولا أنى أستحى منك لأخبرتك أن معاملتك له خمسين سنة مدخولة . قال أبو طالب المكى رضى الله عنه أراد بذلك أنه لم يرفعك بأعمالك إلى مقامات المقربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك منه أعمال القلوب التى يستعمل بها كل محبوب مطلوب لأن القناعة به حال الموقن والأنس به مقام المحب والرضا وصف المتوكل أى إنما أنت عنده فى طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح وهذه إشارة إلى ما قلناه من أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح فمن وفقه الله تعالى إلى منازلة هذه المقامات وتوفية حقوقها فى البلايا النازلة به فقد حصل على كنوز البر . وذكر أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم التجيبى القرطبى المالكى رحمه الله فى كتاب النصائح له أن عروة بن الزبير رضى الله عنه امتحن بقرحة فى ساقه بلغت به إلى نشر عظم ساقه فى الموضع الصحيح منها فقال له الأطباء ألا نسقيك مرقدا فلا تحس بما نصنع بك فقال لا ولكن شأنكم بها فنشرت الساق ثم حسموها بالنار فما حرك عضوا ولا أنكروا منه حتى مسته النار فما زاد على أن قال حسى وأصيب حينئذ ابنه محمد وكان من أحب ولده إليه فلما رأى القدم بيد بعضهم قال أما إن الله تعالى يعلم أنى لم أمش بها إلى معصية قط ثم قال يا غلام اغسلها وكفنها وادفنها فى مقبرة المسلمين ثم جعل يقول لئن أخذت لقد أبقيت ولئن ابتليت لقد عافيت ولئن أخذت لقد

طالما أعطيت . وذكر ابن قتيبة فى عيون الأخبار له عن المدائنى قال قدم رجل من عبس ضرير محطوم الوجه على الوليد فسأله عن سبب ذهاب بصره فقال بت ليلة فى بطن واد ولا أعلم على وجه الأرض عبسيا يزيد ماله على مالى فطرقنا سيل أذهب ما كان لى من مال وأهل وولد إلا صبيا رضيعا و بعيرا صعبا فند البعير والصبى معى فوضعته واتبعت البعير لأحبسه فما جاوزت إلا ورأس الولد فى بطن الذئب قد أكله فتركته واتبعت البعير فاستدار فرمحى رمحة حطم بها وجهى وأذهب عينى فأصبحت لاذا مال ولاذا أهل ولاذا ولد ولاذا بدن فقال الوليد اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الناس من هو أعظم بلاء منه . وروى عن عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه أنه خرج مع بعض إخوانه إلى ناحية من نواحى البصرة فأواهم السير إلى كهف جبل فاذا فيه عبد متقطع بالجذام يسيل جسده قيحا وصديدا فقالوا له ياهاذا لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الذى بك فرفع طرفه إلى السماء وقال ياسيدى بأى ذنب سلطت هؤلاء على ليسخطونى عليك و يكرهونك إلى سيدى لك العتبى من ذلك الذنب وأستغفرك منه ولاأعود فيه أبدا قال ثم أعرض عنا بوجهه فانصرفنا وتركناه . وروى عن بشر بن الحرث الحافى رضى الله عنه أنه قال : رأيت بعبادان رجلا قد قطعه البلاء وقد سالت حدقتاه على خديه وهو مع ذلك كثير الذكر عظيم الشكر لله تعالى قال و إذا هو صرع من جنة به قال فوضعت رأسه فى حجرى وجعلت أسأل الله تعالى أن يكشف مابه وأدعو فأفاق فسمع دعائى فقال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى و يعترض عليه فى نعمته على ونحى رأسه من حجرى قال بشر فعاقدت الله تعالى أن لاأعترض على عبد فى نعمة أراها عليه من البلاء . وقد روى فى بعض الأخبار أن يونس وجبريل عليهما الصلاة والسلام التقيا فقال يونس لجبريل دلنى على أعبد أهل الأرض فأتى به على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه قال و إذا هو يقول متعتنى بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لى فيك الأمل يابر ياوصول فقال يونس ياجبريل إنما سألتك أن ترينى صواما قواما قال إن هذا كان قبل البلاء هكذا وقد أمرت أن أسلبه بصره فأشار إلى عينيه فسالتا فقال متعتنى بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وأبقيت لى فيك الأمل يابر ياوصول فقال جبريل هلم تدعو وندعو معك أن يرد الله عليك يديك ورجليك و بصرك فتعود إلى العبادة التى كنت فيها فقال ما أحب ذلك قال ولم قال إذا كانت محبته فى هذا فمحبته أحب إلى من ذلك قال يونس ياجبريل والله مارأيت أحدا أعبد من هذا قال جبريل يايونس إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضاه بشىء أفضل منه وفى الخبر «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه» وفيها أيضا يحصل له كفارة الذنوب والخطايا ويستوجب من الله جزيل الهبات والعطايا ولاسبيل له إلى ذلك إلا بما يرد عليه من أنواع البلايا لأن العبد قد يعجز عن القيام بوظائف الطاعات و يتكاسل عن المواظبة على نوافل الخيرات فيكون حينئذ محروما من ثوابها غير حاصل له تكفير سيآته بها و إن قدر عليها ولم يتكاسل عنها لم يأمن تخليصها من الشوائب وتسليمها من الآفات والمعايب وحينئذ يبطل عمله و يخيب من انتفاعه به أمله فليحسن العبد ظنه بمولاه وليعلم أن مااختاره له خيرله مما يختاره لنفسه بشهواته وهواه فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال للرجل الذى قال له أوصنى قال «لاتتهم الله فى شىء قضاه عليك» وذكر مسلم رحمه الله من حديث صهيب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابه شر فشكر كان خيرا له و إن أصابه ضر فصبر كان خيرا له» وذكر البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما أنهما سمعا رسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم يقول «مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من سيآته » وذكر أيضا من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله تعالى عنه به سيآته كما تحط الشجرة أوراقها » وذكر البخارى ومسلم أيضا من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا كتبت له درجة ومحيت عنه بها خطيئة» وذكر البخارى أيضا عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه » وفى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المريض إذا برئ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها » وروى البزار عن عيسى عليه السلام أنه قال «لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه» وروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة فى الحمى والعمى وغيرذلك وروى البزار من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه وعليه حمى فوجد حرها من فوق اللحاف فقال ماأشدها عليك يارسول الله قال إنا كذلك يشدد علينا البلاء ليضاعف لنا الأجر قال يارسول الله أى الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون لئن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى مايجد إلا عباءة يحوّيها وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء » وقيل فى معنى قوله تعالى ـ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ـ أى من الآثام والذنوب بالحمى والأمراض كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عنه للحمى « اذهبى إلى أهل قباء» وقد روى فى بعض الأخبار بدلا من أهل قباء الأنصار ففيه «أن النبى صلى الله عليه وسلم : رأى يوما شخصا أسود فقال من أنت فقالت أمّ ملدم آكل اللحم وأشرب الدم وحرّى من فيح جهنم صورة الحمى فقال عليه السلام اذهبى إلى الأنصار فان لهم علينا حقوقا فأصبح النبى صلى الله عليه وسلم فلم ير أحدا من الأنصار حضر الصلاة فطلبهم فقيل أخذتهم الحمى فقال قوموا بنا نعودهم وقال لهم الحمى طهارة وكفارة فقالوا يارسول الله ادع الله لنا حتى يزيدنا منها» وذكر مسلم رحمه الله من حديث جابر رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال مالك ياأم السائب أو ياأم المسيب ترفرفين قالت الحمى لابارك الله فيها فقال لا تسبى الحمى فانها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد » وذكر البخارى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله عزّ وجل قال إذا ابتليت عبدى المؤمن بحبيبتيه ثم صبر عوّضته منهما الجنة» يريد عينيه كذا قال فى آخر الحديث من قول أحد الرواة والحبيبتان هما العينان وهما الكريمتان أيضا . وروى أن أنس بن مالك وأباظلال رضى الله عنهما كانا فى بيت ثابت البنانى فقال أنس ياأبا ظلال متى فقدت بصرك قال وأنا صبى لاأعقل فقال ألاأحدثك حديثا حدثنيه حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرويه عن جبريل ويرويه جبريل عن ربه عزّ وجل «قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا قال جزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى » ومن طريق هلال بن سويد وهو أبو ظلال المذكور أنه سمع أنسا رضى الله عنه يقول «مرّ بنا ابن أم مكتوم فسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أحدثكم بما حدثنى به جبريل عليه السلام عن هذا وأضرابه الذين ذهبت أبصارهم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنى جبريل إن الله عزّ وجلّ يقول : حق على من أخذت كريمتيه

(لايخاف عليك) إذا كنت متلبسا بحال من الأحوال كطاعة أومعصية أونعمة أو بلية (أن تلتبس الطرق عليك) أى طرق العبودية التى توصلك إلى ربك عند تلبسك بحال من تلك الأحوال لأن الشريعة مبينة لذلك فان من نظر فى الكتاب والسنة وجد ما يرشده فعبوديتك

فى الطاعة أن تشهد منته بها عليك وفى المعصية الاستغفار والتوبة منها وفى النعمة الشكر عليها وفى البلية الصبر عليها (وإنما يخاف عليك) فى هذه الأحوال (من غلبة الهوى عليك) حتى يعميك عن رؤية طريق قصدك عما ذكر بأن تعجب بالطاعة وتصرّ فى المعصية وتستقل النعمة فلا تشكرها وتجزع فى البلية . ويحتمل أن المعنى لايخاف عليك أيها المريد الصادق أن تلتبس عليك الطرق أى الأعمال الموصلة إلى الله من صلاة وصيام وذكر أى يلتبس عليك الأولى منها فتصير تعمل هذا تارة وهذا أخرى وتنتقل فى أنواع العبادات لكونك لاتعرف الأولى منها من غيره إذا لم تكن تحت تربية شيخ وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصدك عن سلوك أى طريق من تلك الطرق فترجع عن التوجه إلى مولاك بل الذى يلزمك أن تستعمل طرق القربات وإن لم تعرف الأولى منها حتى يجمعك الله على شيخ ناصح يريك ذلك وتكون تحت تربيته (سبحان من ستر سر الخصوصية) أى سرا هو الخصوصية وهى العلوم والمعارف والأسرار الإلهية التى يعطيها الله لأوليائه ويفيضها على قلوبهم (بظهور البشرية) أى الأحوال التى تعرض للبشر والأمور الدنيوية التى يتعاطاها الناس فان بعض الأولياء قديكون

ليس له جزاء إلا الجنة» وفى حديث بريدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ما أصيب عبد بعد ذهاب دينه بأشد من ذهاب بصره وماذهب بصر عبد فصبر إلا لقى الله ولاحساب عليه» وذكر البخارى ومسلم رحمهما الله تعالى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما «أن امرأة سوداء أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله إنى أصرع وإنى أنكشف فادع الله لى قال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك قالت أصبر قالت فانى أنكشف فادع الله أن لا أنكشف فدعا لها» إلى غير ذلك مما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب مما لايحصى كثرة وفيها أيضا يحصل له تجديد التوبة وأداء الحقوق والتبعات والظلامات وكثرة الاستغفار وحسن التذكار وكثرة ذكر الموت إذ ذاك أبلغ مايذكر به فقد قيل الحمى بريد الموت وقد قيل فى قوله تعالى — أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون — أى يختبرون بها. وفى حديث عائشة وأنس رضى الله عنهما «قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ قال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة» وفى لفظ الحديث الآخر من يذكر ذنوبه فتحزنه وقد كان السلف رضى الله عنهم يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أومال ويقال لايخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يراع بروعة أو يصاب بنكبة وكانوا يكرهون فقد ذلك فى هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشىء وفيها أيضا يقع له خلف مايفوته من الطاعات ونوافل العبادات فيكتب له فى مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك فى صحة وذلك أبلغ له فى الوصول إلى غرضه لأنه من اختيار الله تعالى له وهو خير مما اختاره لنفسه وفى الخبر «يقول الله تعالى للملائكته اكتبوا لعبدى صالح ماكان يعمله فى صحته فانه فى وثاق إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتى» وفى الحديث الصحيح من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مرض العبد أوسافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا» إلى غير ذلك من الألطاف التى لانعلمها وإنما ذكرنا هذه المعانى ههنا لأنها لائقة بكلام المؤلف رحمه الله وكأنها مفسرة له وأيضا فان العبد محتاج إليها غاية الاحتياج لأنه فى حال نزول البلايا يتسخط ويجزع ويضطرب إيمانه ويتزلزل إيقانه فيحتاج إلى مذكر يذكره بأمثال هذه المعانى ليحصل له بذلك من الرضا وحسن الظن بالله تعالى والمحبة مايرجى له بذلك إن مات من فوره حسن الخاتمة وحب لقاء الله تعالى والأعمال بخواتيمها وهذا الغرض هو الذى أوجب لنا فى هذا الفصل الاكثار من الحكايات وإظهار نسبة أكثر الأحاديث فيه إلى رواتها الثقات لتطمئن قلوب أهل البلاء بذلك وتسلك إلى الله واضحات تلك المسالك والله ولى التوفيق (لايخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك) الطريق إلى الله تعالى واضحة لائحة لأن الحق تعالى هو الذى تولى ذلك وبه أنزل الكتب وأرسل الرسل ونصب عليه الأدلة والبراهين فلايخاف على العبد من التباسها عليه وإنما يخاف من غلبة الهوى عليه حتى يعميه ذلك عن ربه قال أحمد بن خضرويه البلخى رضى الله عنه الطريق واضح والحق لائح والداعى قد أسمع فما التحير بعد هذا إلا من العمى (سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية وظهر

حمارا أوخواصا أوحيا كا فلا يعرفه غالب الناس لستر خصوصيته بهذه الصنعة التى يتعاطاها ومخاصمته للناس فى حال معاملته معهم وقد يظهر الله آثار الخصوصيات على بعض الناس وهم الدعاة إلى الله تعالى ليتكمل بهم غيرهم (وظهر) للعباد (بعظمة الربوبية) أى بربوبيته العظيمة (فى إظهار) آثار (العبودية) عليهم وهى الأحوال التى تطرأ على العبد فتقتضى افتقارهم للرب كالمرض والفقر فان العبد إذا قام به حال من تلك الأحوال التجأ إلى الرب فى إزالته وظهر له عظمة ربوبيته أى ربوبيته العظيمة أى أن له ربا مالكا له يزيل عنه ماقام به ولولا ذلك لم يعرفه فعظمة الربوبية إنما ظهرت للعباد من وراء حجاب العبودية ولولا ذلك لكان باطنا لايظهر ولذا قال الشاذلى قدس سره العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية فسبحان اللطيف الخبير (لاتطالب ربك) أى تعترض عليه وتسىء الظن به (بـ)سبب (تأخر مطلبك) أى ماطلبته منه باطنيا كان كالخصوصيات أوظاهريا كالأغراض الدنيوية فاذا طلبت منه شيئا ولم يسرع لك الاجابة فلا تسىء به ظنك ولاتطالبه بالوفاء بذلك فانه يفعل ما يشاء لايسئل عما يفعل (ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك) أى عدم وجوده حيث طلبت منه إسراع إجابتك ولا يخفى مافى ذلك من سوء الأدب وأيضا مطالبتك له بالاجابة دليل على أنك دعوت لتجاب فى دعائك فيكون دعاؤك لغرض وهذا مما يقدح فى كمال عبوديتك وأيضا اعتقادك أنه لم يستجب لك إساءة أدب إذ ليس من شرط الاجابة أن تظهر لك بأن يجيبك بعين ماطلبت فى الحال بل له أن يخفيها عنك لما فى ذلك من المصالح فيجيبك بغير ماطلبت أو بعينه لكن يؤخر ذلك لمصلحة يعلمها . ثم أشار إلى كمال الأدب الذى إذا قام به العبد حصل له غاية مقصوده وهو المعبر عنه بالاستقامة و بالصراط المستقيم فى قوله تعالى ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ فقال (متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره) بأن وفقك للقيام بطاعته و يسرها لك (ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره) أى الرضا بما يجرى عليك من مولاك (فقد أعظم المنة عليك) حيث جمع لك بين عبودية الظاهر وعبودية الباطن فهذان الأمران هما اللذان يلزمانك فى إقامة العبودية لربك لاغير فلماذا تتشوف وما الذى تلتمس بعد حصولهما إن كنت عبدا حقيقيا وهل درجات أهل الكمال إلا التقلب فى عبودية الظاهر وعبودية الباطن

وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية) سر الخصوصية هو حقيقة المعرفة التى اختص بها أهل ولاية الله تعالى بحيث لايبقى معها وجود لغير ولا كون وذلك لما جعله فيهم من التهيؤ والقابلية فمن لطيف حكمة الله تعالى أن ستر ذلك بما أظهره من البشرية التى من لوازمها وجود الغير والكون ولولا هذا الستر لكان سر الله مبتذلا غير مصون كما قال فى لطائف المنن ولابد للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب ثم إن من حقيقة ظهور البشرية الاتصاف بصفة الافتقار والاحتياج وغير ذلك من أوصاف الحدوث وذلك هو حقيقة التعبد والتأله فظهر لنا من ذلك لزوم وجود إله معبود وهذه هى عظمة الربوبية التى ظهرت لنا من وراء حجاب العبودية ولولا ذلك لكان باطنا لايظهر كما قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه العبودية جوهرة أظهرتها الربوبية فسبحان اللطيف الخبير ومن هو على كل شىء قدير والتسبيح الذى ذكره المؤلف رحمه الله ههنا فى غاية المناسبة لما ذكره من المعنى (لاتطالب ربك بتأخر مطلبك ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك) إذا دعوت ربك وسألت منه مطلبا من المطالب ولم تظهر لك الاجابة فحسن به ظنك ولا تطالبه بالوفاء بذلك فانه يفعل ماشاء لايسئل عما يفعل ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك فانها أهل للمطالبة وسوء أدبها من وجوه : أحدها أنك دعوت لتجاب فى دعائك فيحصل لك بذلك غرض وهذا مما يقدح فى كمال عبوديتك وسيأتى هذا المعنى عند قوله لا يكن طلبك سببا إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه وليكن طلبك لاظهار العبودية وقياما بأحكام الربوبية . والثانى اعتقادك أنه لم يستجب لك إذ ظهر لك عدم الاجابة منه وليس من شرط الاجابة أن تظهر لك بل له أن يخفيها عنك لما فى ذلك من المصالح والاجابة ، إليه أمرها يجعلها ماشاء مما تعلمه أوتجهله وقد تقدم هذا المعنى عند قوله لا يكن تأخير أمد العطاء مع الالحاح فى الدعاء موجبا ليأسك إلى آخره . والثالث وهو أشد اعتراضك على ربك فى حكمه ومطالبتك له إذا تأخرت إجابته عليك . ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الحالة التى يكون عليها العبد قائما بحق الأدب وواصلا إلى غاية الأرب فقال (متى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره فقد أعظم المنة عليك) هذان الأمران هما اللذان يلزمانك فى إقامة العبودية لربك لاغير فمتى يسرهما الله تعالى لك وأقامك فى مراعاة أحكامهما ووفقك لذلك فقد أعظم المنة عليك فلماذا تتشوف وما الذى تلتمس بعدهما إن كنت عبدا حقيقيا . قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه صحبت أخا فى الله تعالى فى البادية واعتزلنا فى مغارة عسى أن نكون من أولياء الله تعالى وأن يفتح الله علينا بما فتح الله عليهم فأقمنا زمانا نقول لعل فى هذه الجمعة لعل فى هذا الشهر فلم يفتح الله علينا فنحن كذلك و إذا بشيخ على باب

المغارة يستأذن فأذنا له فدخل فسلم ووقف فقلنا له من أنت فقال عبدالملك فعلمنا أنه من أولياء الله فقلنا له كيف حالك فقال كيف حالك يرددها كالمنكر علينا ثم قال كيف حال من يقول لنفسه فى هذه الجمعة أكون وليا فى هذا الشهر أكون وليا فلا ولاية ولا فلاح ولا دنيا ولا آخرة يا نفس ألا تعبدين الله تعالى كما أمرك مخلصة لوجهه كما أمرك قال الله تعالى ـ وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون ـ ثم انصرف عنا فانتبهنا لغلطنا وتيقظنا من أين دخل علينا وعلمنا أن الله تعالى رحمنا به فرجعت على نفسى باللوم والتوبيخ وقلت لها يا نفس من أنت وما عملك وما خطرك أنت لاشىء وتبنا واستغفرنا الله تعالى قال ففتح الله علينا بجوده وفضله (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه) التخصيص ههنا هو أن يظهر الحق تعالى على بعض عباده أثرته وعنايته وتولية لطفه ورعايته فمنهم من يستمر له ذلك حتى يتحقق بالعرفان و يتخلص عن رؤية الأغيار والأكوان وهؤلاء هم خواص المقربين من أهل العلم بالله والحب له ومنهم من يوقفه عن بلوغ ذروة الكمال و يريه فى حاله بما يليق به من علوم وأعمال وهؤلاء عامة المقربين وخاصة أصحاب اليمين العباد الزهاد وأهل المجاهدة والأوراد وهؤلاء و إن شاركوا الأولين فيما يتحفهم الحق تعالى من لطائف الكرامات وفيما يمنحهم إياه من القيام بوظائف الطاعات والعبادات فلم يتخلصوا من رؤية نفوسهم ولم ينكفوا عن مراعاة حظوظهم بل هم ساكنون إلى الأسباب مرتبطون بوجود الحجاب وقد يختص الحق تعالى هؤلاء باظهار الكرامات على أيديهم وبسببهم تسكينا لنفوسهم وتثبيتا لليقين فى قلوبهم و يمنعها الأولين لأنهم لايحتاجون إليها لما هم فيه من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين كما قال صاحب كتاب عوارف المعارف وقد يكون من لا يكاشف بشىء من معانى القدر أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة فالقدرة أثر القادر ومن أهل القرب القادر لايستغرب ولايستكثر شيئا من القدرة و يرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء عالم الحكمة . وسئل الشبلى رضى الله عنه وقيل له إن أباتراب ذكر أنه جاع فى البادية فرأى البادية كلها طعاما فقال عبد رفق به ولو بلغ إلى محل التحقيق لكان كمن قال أبيت عند ربى فيطعمنى و يسقينى قال فى لطائف المنن واعلم أن الكرامات تارة تظهر للولى فى نفسه وتارة تظهر منه لغيره فان ظهرت للولى فى نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله تعالى وفرديته وأحديته وأن قدرته لاتتوقف على الأسباب وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هى حاكمة عليه و إنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته وسحب شمس أحديته فالواقف عندها مخذول والنافذ منها إليه من هو بالعناية موصول قال وقال الشيخ أبوالحسن رضى الله عنه فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والارادة والصفات الأزلية مجتمع لايفترق وأمر لاينفقد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد لايستوى من تعرّف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله ولأجل أنها تثبيت لمن ظهرت له ربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أهل النهايات فى نهاياتهم إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحقّ سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الاشهادية ولا يحتاج الجبل إلى مرساة فالكرامة رافعة لزلزلة الشك فى المنة ومعرفة تفضل الله تعالى فيمن ظهرت عليه وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى.والناس فى الكرامات على ثلاثة أقسام قوم يجعلونها غاية الأمر فان وجدوها عظموا من ظهرت عليه و إن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه وقسم قالوا وما هى الكرامات إنما هى خدع يخدع بها أهل الارادة ليقفوا بها على حدودهم حتى لايلحقوا مقاما ليس هو لهم حتى قال أبو تواب النخشبى لأبى العباس الرقى مايقول أصحابك فى هذه الأمور التى تكرّم

(ليس كلّ من ثبت تخصيصه) باظهار أمر خارق للعادة على يده كطى الأرض والطيران فى الهواء والمشى على الماء (كمل تخليصه) من آفات النفوس وغوائلها وما تدعو إليه من الشهوات والمخالفات فكأنه يقول ليس كلّ مخصص بالآيات والكرامات مخلصا من الآفات بل قد يكون بعض من خصص بالكرامة لم تثبت له الاستقامة فالكرامة الحقيقية هى الاستقامة التى تضمنها ما تقدم بخلاف الكرامات التى هى خوارق العادات فانها قد تحصل على يد من لم يكن مستقيما استقامة تامة وكثيرا ما تظهر على أيدى المبتدئين ولا تظهر على أهل التمكين والكل من أهل الله تعالى فينبغى احترامهم وتعظيمهم لكن يعظم أهل الاستقامة أكثر من أهل الكرامة

الله

الله بها على عباده فقال ما رأيت أحدا إلا وهو مؤمن بها فقال أبو تراب من لم يؤمن بها فقد كفر إنما سألتك من طريق الأحوال فقال ما أعرف لهم قولا فقال أبو تراب بل قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق وليس الأمر كذلك إنما الخدع فى حال السكون إليها فأما من لم يفرح بها ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين وكان هذا من أبى تراب رضى الله عنه بعد أن عطش القوم وهم أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء فقال إنى أريد أن أشرب به فى قدح فضرب بيده الأرض فناوله قدحا من زجاج أبيض فشرب وسقانا قال أبو العباس الرقى وما زال القدح معنا إلى مكة قال الشيخ أبو الحسن والقول الفصل فى ذلك أنه لا ينبغى أن تطلب أدبا مع الله تعالى ومن ظهرت عليه عظم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله تعالى قال والقسم الثالث وهو أن تظهر الكرامات فى الولى لغيره والمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذى شهدها بصحة طريق هذا الولى الذى ظهرت عليه الكرامة إما أن يكون جاحدا فيرجع إلى الاعتراف أو كافرا فيعود إلى الايمان أو شاكا فى خصوصية هذا العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الاحسان انتهى كلامه وقال أبو نصر السراج سألت أبا الحسن بن سالم فقلت له ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختيارا وكيف أكرموا بأن تجعل لهم الحجارة ذهبا فما وجه ذلك فقال لا يعطيهم ذلك لقدرها ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بذلك على نفوسهم عند اضطرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم فيقولون الذى يقدر على أن يصير لك الحجارة ذهبا كما هو ذا ينظر إليه قادر على أن يسوق إليك رزقك من حيث لا تحتسبين فيحتجوا بذلك على تصحيح نفوسهم عند فوت الرزق ويقطعوا بذلك حجج نفوسهم فيكون ذلك سببا لرياضة نفوسهم وتأديبا لها قال أبو نصر وقد حكى لنا بن سالم فى معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال كان رجل بالبصرة يقال له اسحق بن أحمد وكان من أبناء الدنيا فخرج من الدنيا أعنى من جميع ماله وتاب وصحب سهلا فقال يوما لسهل يا أبا محمد إن نفسى هذه ليست تترك الصياح والصراخ من خوف فوت القوت والقوام فقال له سهل خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله فقال له ومن إمامى فى ذلك حتى أفعل فقال إمامك إبراهيم عليه السلام حيث قال ــ رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ــ المعنى فى ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين لأن من جبلتها الشك فقال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى حتى تطمئن نفسى فانى مؤمن بذلك والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين قال فكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات تأديبا لنفوسهم وتهذيبا لها وزيادة لهم انتهى كلام أبى نصر وقال بعض العلماء ما رأيت هذه الكرامات إلا على أيدى البله من الصادقين وكان رجل يصحب سهل بن عبد الله رضى الله عنه فقال له يوما ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء من بين يدى قضبان ذهب وقضبان فضة فقال سهل أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة ليشتغلوا بها. وحكى جعفر الخالدى عن الجنيد رضى الله عنه قال جاءنى أبو حفص النيسابورى مرة ومعه عبد الله الرباطى وجماعة وكان فيهم رجل أصلع قليل الكلام فقال يوما لأبى حفص قد كان فيمن مضى لهم الآيات الظاهرة يعنى بها الكرامات وليس لك شئ من ذلك فقال له أبو حفص رضى الله عنه تعال فجاء به إلى سوق الحدادين إلى كير عظيم فأحمى فيه حديدة عظيمة فأدخل يده فى الكير فأخذ الحديدة المحماة فأخرجها فبردت فى يده فقال له يجزيك هذا فسئل بعضهم عن معنى إظهار ذلك من نفسه فقال كان مشرفا على حاله فخشى على حاله أن يتغير عليه إن لم يظهر له ذلك فخصه بذلك شفقة عليه وصيانة لحاله وزيادة لايمانه بل ربما ينفر عنها العارفون ويخاف منها المحققون . قال بعض السلف ألطف ما يخادع به الأولياء الكرامات والمعونات وذكر عن أبى حفص أو غيره أنه كان جالسا

(لايستحقر الورد) وهو الأعمال الصالحة التي تعمر بها الأوقات وتنكف بها الجوارح عن الوقوع في المكروهات بأن لايعتنى
به ولا يواظب عليه (إلا جهول) لما فيه من العبودية لله تعالى والحضور بين يديه والتنعم بذكره ولأنه يورث
تصفية الباطن وجلب الأنوار وهي الواردات فالتشوف لها مع عدم الاعتناء بما يجلبها من الجهل والحمق. ثم ذكر أن له مزية على الوارد من وجهين أشار إلى الأول بقوله (الوارد) وهو مايرد على باطن العبد من المعارف الربانية واللطائف الروحانية وهي الأنوار التي ينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه وسره (يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه الدار) أي يفنى بفنائها (وأولى مايعتنى به مالايخاف وجوده) أي فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها إذ لم يمكنه خلف مافات منها وإلى الثاني بقوله (الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه وأين ماهو طالبه منك مما هو مطلبك منه) يعني أن الورد هو حق الله منك والوارد هو حقك منه وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلبك حظوظك
ووقوفك معها وأتى المصنف بذلك إرشادا للمريدين الذين يتشوفون إلى الواردات ويتركون
الأوراد ويستحقرونها وذلك من الجهل بثمراتها ، ولذا لم يترك العارفون أورادهم مع تمكنهم في أحوالهم أكثر من المريدين

وحوله أصحابه قال فنزل ظبي من الجبل فبرك عندهم قال فبكى أبو حفص فسئل عن بكائه فقال كنتم حولي فوقع في قلبي أن لو كان لي شاة لذبحت لكم فلما برك هذا الظبي عندنا شبهت نفسي بفرعون حين سأل الله تعالى أن يجري معه النيل فأجراه معه فبكيت وسألته الاقالة مما تمنيت وأطلقت الظبي. ويحكى أن بعض الأبدال قال لتلميذ من تلامذة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه مابالنا لايعتاص علينا شيء وهو يعتاص عليه أقل الأمور مع أنا نتمنى مقامه وهو لايتمنى مقامنا فبلغ ذلك الشيخ أبامدين فقال قل له تركنا مرادنا لمراده . وعن بعضهم أنه كان يسير في البادية فانتهى إلى بئر فاذا الماء ارتفع إلى رأس البئر فقال أنا أعلم أنك قادر على هذا ولكن لا أطيقه فلو قيضت لي بعض الأعراب ليصفعني صفعات ويسقيني شربة ماء كان أسلم لي ثم إني لا أعلم أن ذلك الرفق ليس من جهته . قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه : إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال وإذا رأيته يشير إلى الآلات والنعمات (١) فطريقه طريق المحبة وهو أعلى من الذي قبله وإذا رأيته يشير إلى الذكر ويكون قلبه معلقا بالذكر الذي ذكر فطريقه طريق العارفين وهو أعلى درجة من جميع الأحوال وقال أبو يزيد رضي الله عنه : كنت في بدايتي يريني الحق تعالى الآيات والكرامات فلم ألتفت إليها فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلا (لايستحقر الورد إلا جهول ، الوارد يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه الدار وأولى مايعتنى به مالايخاف وجوده ، الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه وأين ماهو طالبه منك مما هو مطلبك منه) الورد عبارة عما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة والوارد هو الذي يرد على باطن العبد من لطائف وأنوار فينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه وسره فالورد ما من العبد للحق تعالى من معاملة وعبودية والوارد ما من الحق سبحانه للعبد من لطف وكرامة والورد أحق مايعتنى به العبد ويراعيه من الوارد لوجهين: أحدهما أن الورد مختص بهذه الدار لايقع إلا فيها فهو منقطع بانقطاعها وفان بفنائها فينبغي للعبد أن يستكثر من الأوراد قبل فواتها إذ لا يمكنه خلف مافات منها. والثاني أن الورد هو حق للحق منك والوارد هو حظك منه وقيامك بحقوقه عليك أولى وأليق بالعبودية من طلب حظوظك ووقوفك معها فاذا ثبتت مزية الورد على الوارد باعتبار العبد كان استحقاره من نهاية الجهل وكان مستحقره جهولا كما قال في لطائف المنن واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فان من فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيئا من الطاعات ولاتستغنوا عن الأوراد بالواردات ولاترضوا لأنفسكم بما رضي به المدعون من جري الحقائق على ألسنتهم وفقد أنوارها من قلوبهم لأن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرعة لباب الغيب فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب والتطهر من العيب يفتح لك باب الغيب ولاتكن ممن يطلب الله لنفسه ولايطالب نفسه لله فذلك حال الجاهلين الذين لم يفهموا عن الله ولا واجههم المدد من الله والمؤمن ليس كذلك بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولايطالب ربه لنفسه فان توقف عليه الوقت استبطأ أدبه ولايستبطئ مطلبه ثم ذكر كلاما كثيرا وفي كلامه رحمه الله تعالى تنبيه على تأكد أمر الأوراد وعظم موقعها من الدين وأن مراعاتها من أحسن سمات العارفين ، وقد رؤي الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة فقيل له أنت مع شرفك تأخذ بيدك

(١) قوله :الآلات والنعمات في نسخة الآلاء والنعماء .

سبحة

سبحة فقال نعم سبب وصلنا به إلى ماوصلنا لانتركه أبدا وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ويصلى أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته ورؤى بعد وفاته فى النام فقيل له مافعل الله بك فقال طاحت تلك الاشارات وفنيت تلك العبارات وأبيدت تلك الرسوم وغابت تلك العلوم ومانفعنا إلا ركيعات كنا نركعها فى السحر. وحكى أبو محمد الجريرى رضى الله عنه قال: كنت عند الجنيد رضى الله عنه فى حال نزعه وكان يوم جمعة ويوم نيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت فى هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن أولى منى بذلك وحينئذ تطوى صحيفتى. وقال أبو الحسن الدراج رضى الله عنه ذكر عند الجنيد أهل المعرفة بالله تعالى ومايراعونه من الأوراد والعبادات بعد مالاطفهم الله به من الكرامات فقال الجنيد رضى الله عنه العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رءوس الملوك . وقال أبو بكر العطار : حضرت الجنيد عند الموت فى جماعة من أصحابنا فرأيناه قاعدا يصلى ويثنى رجله إذا أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه فثقلت عليه حركتهما فمدّ رجليه فرآه بعض أصدقائه ممن حضر ذلك الوقت وكانت رجلاه قد تورمتا فقال ماهذا يا أبا القاسم فقال هذه نعم الله الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريرى رضى الله عنه يا أبا القاسم لواضطجعت فقال يا أبا محمد هذا وقت وجود منة الله الله أكبر فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمة الله عليه ورضوانه . وقال الحصرى رضى الله عنه الناس يقولون الحصرى لايقول بالنوافل وعلىّ أوراد من حال الشباب لوتركت منها ركعة لعوتبت . وقال محمد بن ثابت البنانى رضى الله عنهما : لما حضرت أبى الوفاة جعلت ألقنه الشهادة فقال لى يا بنىّ دعنى فانى فى وردى السابع . قال أبو طالب المكى رضى الله عنه : ومداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين وطريق العابدين وهى مزيد الإيمان وعلامة الايقان ، وفى خبر إن عائشة رضى الله عنها سئلت عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان عمله ديمة ، وفى لفظ آخر : كان إذا عمل عملا أتقنه وأثبته ، وفى الخبر المشهور «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وان قلّ» وجاء فى الأثر كلام تارة يروى عن الحسن بن على وتارة يروى عن الحسن البصرى ومرة عن عائشة رضى الله عنهم أجمعين ، وبعضهم يحكيه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام : من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرّا من أمسه فهو محروم ومن لم يكن فى مزيد فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له ، وقد يكون استحقار الورد من المكر والاستدراج للعبد ويكون مبدأ ذلك أن تلوح له خيالات وتظهر له صور كرامات توجب له استحسان حالته واختيار بطالته وفى ذلك رفض العبودية بالكلية وهو أمارة لوجود الطرد والبعد والعياذ بالله ، وصاحب هذا عظيم الجهالة شديد العماية والضلالة . وقد قال الجنيد رضى الله عنه لرجل ذكر المعرفة ، فقال الرجل أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله تعالى ، فقال الجنيد إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال وهذه عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه راجعون فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرّ ذرّة إلا أن يحال بى دونها وإنه لأوكد لى فى معرفتى وأقوى فى حالى . قال السهروردى رضى الله عنه فى كتاب عوارف المعارف فأما من تعوق بخيال أوقنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالاخلاص فيدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور فيرفض العبادات ويستحقرها ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة ويذهب عن قلبه هيبة الشريعة ويفتضح فى الدنيا والآخرة فيعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرّب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات وكفّ الجوارح عن المكروهات فيصلح لقوم من أرباب الخلوة مداومة الأوراد وتوزيعها على الأوقات ويصلح لقوم

(ورود الامداد) من الله تعالى على عبده (بحسب الاستعداد) أى بحسب استعداد العبد بتطهير قلبه وملازمته لورده ولذا قيل طهر قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار فالوارد تابع للورد كيفا وكما ودواما فان كان الورد كاملا بأن برز من قلب صاف كان الوارد مثله أو ناقصا كان مثله و إن كان كثيرا كان الوارد كثيرا و إلا فبحسبه و يعتبر ذلك بمجموع العمر ولذا كان أحب العمل إلى الله أدومه و إن قلّ و إن كان دائما كان الامداد دائما فالمواظبة على الورد من أهمّ المهمّ وهذا يصلح أن يكون وجها ثالثا لمزية الورد على الوارد (و) قوله (شروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار) تعليل لما قبله و إيضاح له أى شروق أنوار اليقين والعرفان وهى الامدادات المذكورة على حسب صفاء الأسرار من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار ولا يكون صفاؤها غالبا إلا بملازمة الأوراد (الغافل) عن التوحيد وأنّ كل شئ بقضاء الله وقدره (إذا أصبح ينظر ماذا يفعل) أى ينسب أفعاله إلى نفسه فيقول ماذا أفعل فى هذا اليوم مثلا (والعاقل) أى المستيقظ الذى لا يغفل عن التوحيد ولا يغيب عنه أنّ كل شئ بقضاء الله وقدره (ينظر ماذا يفعل الله به) أى ينسب أفعاله كلها إلى الله تعالى فيقول إذا أصبح ماذا يفعل الله بى هذا اليوم مثلا فنظر الغافل لنفسه فربما وكله الله إليها فلا تنجح مطالبه ونظر العاقل لربه فيكفيه ما أهمه و ييسر له مطالبه فهذا ميزان يعرف به المريد حال نفسه فأوّل خاطر يرد عليه هو ميزان توحيده فلينظر إذا استقبله شغل فان عاد قلبه فى أوّل وهلة إلى حوله وقوّته فهو منقطع عن الله و إن عاد إلى الله سبحانه فهو واصل إليه ويصح أن يكون معنى نظره إلى مايفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الاشارة من قبله تعالى فيكون إقدامه و إحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره

دواء المراقبة و يصلح لقوم ملازمة ذكر واحد و يصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر انتهى مايتعلق بغرضنا من كلام السهروردى رضى الله عنه وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وليس من هذا المعنى ماروى عن أبى سليمان الدارانى وأحمد ابن عاصم الأنطاكى رضى الله عنهما أنهما قالا إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح و إن كان ظاهره موهما له فانّ أبا نصر السراج رضى الله عنه فسره بعد أن حكاه عن أبى سليمان الدارانى فقال وهذا الذى قاله أبو سليمان يحتمل معنيين أحدهما أنه أراد بذلك استراحة الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سرّه من الخواطر والعوائق المذمومة التى تشغل عن ذكر الله تعالى قلبه و يحتمل أيضا أنه أراد بذلك أن يتمكن من المجاهدات والأعمال والعبادات وتصير وطنه و يستلذ بها بقلبه و يجد حلاوتها و يسقط عنه التعب ووجود الآلام التى كان يجدها قبل ذلك انتهى كلام أبى نصر ومعناه صحيح والله أعلم و به التوفيق (ورود الامداد بحسب الاستعداد وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار) ورود الوارد الامدادية من الله تعالى على قلب عبده بحسب القوّة الاستعدادية المجبولة فيه وشروق الأنوار اليقينية على حسب صفاء سرّه من كدر التعلق بالآثار والركون إلى الأغيار (الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به) أوّل خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده فالغافل إذا أصبح أوّل خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى نفسه فيقول ماذا أفعل اليوم فهو مشتغل بتدبير نفسه مصروف عن النظر إلى مولاه وذلك لوجود غفلته عنه فهو حقيق بأن يكله الله تعالى إلى نفسه فيتشتت عليه عقله و ينغص عليه مراده والعاقل أوّل خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى الله تعالى فيقول ماذا يفعل الله بى فهو ناظر إلى الله تعالى و إلى مايرد عليه منه وذلك لوجود عقله ودوام يقظته فلا جرم أن يكفيه الله تعالى تعلقات الآمال و يفرغه من جميع الأشغال و يرضيه و يقرّ عينه بما يقيمه فيه من أعمال أو يورده عليه من أحوال وهذه سعادة عظيمة ومنة من الله تعالى لمن وليه من عباده جسيمة قال عمر بن عبد العزيز أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر وقال أبو عثمان رضى الله تعالى عنه منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ولا نقلنى إلى غيره فسخطته . ومن أملح ما رأيت فى هذا المعنى الذى ذكره المؤلف رحمه الله وما يجب أن يحذو على مثاله كل عالم متصوّف ماذكره الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلى رضى الله تعالى عنه فى كتابه صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء مسنده إلى أيوب بن بشر الطالقانى قال حدّثنا رجل من أصحابنا قال رأيت رجلا فى مرج الديباج ليس معه شئ فدنوت منه فسلمت عليه فردّ على السلام فقلت يرحمك الله أين تريد قال ما أدرى قلت هل رأيت أحدا يريد مكانا لا يدرى أين يذهب فقال نعم أنا واحد فقلت فأين تنوى قال إلى مكة قلت تنوى مكة ولا تدرى أين تذهب قال نعم وذلك أنى كم مرة أردت أن أذهب إلى مكة فيردّنى إلى طرسوس وكم مرة أردت طرسوس فيردّنى إلى عبادان فنبقى إلى مكة

ولا

ولا أدرى قلت فمن أين المعاش قال لا أدرى قلت أخبرنى بأسباب ذلك قال من حيث يريد يجيعنى مرة ويشبعنى مرة ويكرمنى مرة ويهيننى مرة ومرة يقول لى ما على وجه الأرض أزهد منك ومرة يقول لى أنت لص ومرة ينوّمنى على الفراش ويطعمنى الطيب ويدهن رأسى ويكحل عينى ومرة يطردنى الطرد العنيف ولا ينوّمنى إلا عند النواويس قلت يرحمك الله من يفعل ذلك بك قال الله عزّوجل قال فألقانى فى بحر قلت فسر لى يرحمك الله كيف هذا قال أنا رجل أسير نهارى فأينما جنّ بى الليل بتّ فربما يأوينى الليل إلى قرية فاذا نظر إلىّ أهلها قال بعضهم لبعض هذا لص لا تدعوا هذا يأوى الليلة فى هذه القرية فاذا صليت العشاء الآخرة يدخل المسجد رجل فيقول يا نائم فأقول لبيك فيقول لى بالعنف قم من ههنا ليس لك ههنا موضع فأقول له حبا وكرامة فأين أبيت الليلة فيقول خارج القرية عند النواويس فأقول نعم وكرامة لا يكون لى مأوى إلا عند النواويس تلك الليلة فاذا أصبحت سرت فيأوينى الليل إلى قرية فاذا رآنى أهلها قال بعضهم لبعض قد ورد عليكم الليلة رجل زاهد خير فاضل فيقول هذا عندى يبيت ويقول هذا عندى يبيت فاذا صليت العشاء الآخرة فيقول رجل منهم قم بنا إلى البيت فأقول نعم حبا وكرامة فأمضى معه إلى المنزل فيأتينى بالطعام الطيب ويدهن رأسى ويكحل عينى ويأتينى بالفراش اللين فينوّمنى عليه ولا يدع شيئا من البرّ إلا فعله بى حتى أصبح فهذا حالى مع سيدى فقلت رحمك الله متى قدّر لك أن تدخل بغداد فانّ منزلى فى موضع كذا وكذا قال فأنا يوما قاعد وإذا بانسان يدقّ الباب فخرجت فاذا أنا بصاحبى فسلمت عليه وأدخلته البيت فقلت له أىّ شىء صنع بك مولاك قال آخر ما فعل بى ضربنى ضربا شديدا وقال لى يا لصّ ثم أرانى ظهره فاذا أثر الضرب عليه فقلت إيش القصة قال كان أجاعنى جوعا شديدا فلما بلغت الأبيار جئت إلى مقثأة قد نبذ منها المدوّد والمرّ فقعدت مقعدا آكل منه فنظرنى صاحب المقثأة فأقبل إلىّ بعصا فجعل يضرب ظهرى ويقول يا لصّ ما أخرب مقثأتى غيرك مذ كم أرصدك حتى وقعت عليك وإذا أنا بفارس قد أقبل مسرعا إليه فضربه بالسوط فى رأسه وقال تعمد إلى رجل زاهد فتضربه أو يقال لمثل هذا يا لصّ قال فما كان بأسرع من أن كنت عنده لصا فصرت زاهدا كما حدّثتك قال فأخذ بيدى صاحب المقثأة فذهب بى إلى منزله فما أبقى من الكرامة شيئا واستحلنى فخرجت من عنده وجئت إليك ، وقد يكون فى معنى نظره إلى ما يفعل الله به أن ينظر ما يرد على قلبه من الاشارات من قبله فيكون إقدامه وإحجامه بوجود بصيرة وحسن توفيق وهذا ميزان شريف اقتضاه دوام التجائه وصدق افتقاره . قال سيدى أبو مدين رضى الله تعالى عنه احرص من أن تصبح وتمسى إلا مفوّضا مستسلما لعله أن ينظر إليك فيرحمك وقال بعضهم من اهتدى إلى الحق لم يهتد إلى نفسه ومن اهتدى إلى نفسه لم يهتد إلى الله فانظر إذا استقبلك شغل فان عاد قلبك فى أوّل وهلة إلى حولك وقوّتك فأنت المنقطع عنه وإن عاد قلبك إلى الله فأنت الواصل إلى الله وكل العالم فى قبضته وتخصيص أهل الوصلة بأنهم فى كنف إيوائه ولا يكلهم إلى غيره واعتبر هذا المعنى بعمرة الحديبية وذلك أنّ النبى صلى الله عليه وسلم لما صدّه المشركون فيها عن مكة ومنعوه من أن يتم بين أظهرهم نسكه رجع فى الحال عن تلك العمرة ولم يتعرّض لهم بما يحصل له به فى الظاهر عزة أو نصرة بعد ما كان دعا إليه من بيعة الرضوان تحت الشجرة وما عزم عليه من مناجزة من حادّه من الكفرة وعمل فى ذلك على ما أظهره الله له من آياته العظام عند بروك ناقته لما أراد توجيهها إلى البيت الحرام وقال حينئذ مظهرا لما قصده ومقررا لما اعتمده إنما حبسها حابس الفيل لا يدعونى اليوم قريش إلى خصلة فيها صلة الرحم إلا أجبتهم إليها فكان كما قال صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم صالحهم على وضع الحرب فيما بينهم عشر سنين ليتقلبوا فى الأرض آمنين

(إنما يستوحش العباد) وهم المتوجهون إلى الله بطريق العمل (والزهاد) وهم المتوجهون له بطريق التوكل (من كل شئ) فكل من الطائفتين يفرّ من الخلق لكونهم قاطعين عن الله وذلك (لغيبتهم عن الله فى كل شئ) أى أنهم محجوبون عن ربهم برؤية نفوسهم ومراعاة حظوظهم فيفرون من الأشياء ويستوحشون منها لأنها موجودة فى نظرهم فيخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم مقاصدهم لميلهم إليها وافتتانهم بها (فلو شهدوه فى كل شئ) كما شهده العارفون والمحبون (لم يستوحشوا من شئ) أى من أى شئ من الأشياء لرؤيتهم له حينئذ ظاهرا فى الأشياء كلها فيشغلهم ذلك عن رؤيتهم

لنفوسهم فلا يكون لهم من الأشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة لأنها متلاشية فانية بهذا الاعتبار (أمرك) أيها العارف (فى هذه الدار بالنظر فى مكوّناته) لتراه ظاهرا فيها بعين بصيرتك قال تعالى ـ قل انظروا ماذا فى السموات ـ إلى غير ذلك من الآيات (وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته) لتراه بعين بصرك فرؤية العباد لربهم عزّ وجلّ على حسب تجليه لهم ففى هذه الدار يرونه ظاهرا فى المكوّنات بأنوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابهم وهو تلك المكوّنات ولذا أمرهم بالنظر فيها وفى الدار الآخرة يرونه عيانا بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع وهذا غاية الظهور والكشف والرؤية فى الدنيا على الوجه المذكور خاصة بالعارفين وفى الآخرة عامة لجميع المؤمنين (علم منك أنك لا تصبر عنه) أى عن مشاهدتك له كما هو شأن المحب فانه لا يصبر عن رؤية محبوبه لكن رؤيتك له فى هذه الدار من غير حجاب متعذرة (فأشهدك ما برز منه) من الآثار والأكوان أى أشهدك إياها لتراه فيها بعين بصيرتك وإن كانت تلك الأكوان حاجبة لك عن رؤيتك له بعين بصرك فقد رأيته ولو من وراء حجاب وذلك كرامة من الله لك وعناية منه بك حيث لم يحجبك عنه فى الدنيا أيضا (لما علم الحق منك) أيها المريد (وجود الملل) أى السآمة من ثقل العمل المؤدية إلى تركه (لون) أى نوّع (لك الطاعات) رحمة بك وتسهيلا عليك لأنك إذا سئمت

فلما استتب بينهم الصلح وأنزل الله تعالى سورة الفتح ظهرت الفوائد التى تضمنها ذلك التدبير الحسن وقرّت أعين الصحابة رضى الله تعالى عنهم بما أبرزه الله إليهم من ألطاف ومنن وقد صح بالمعنى جميع ما قلناه فى الخبر ونقله إلينا علماء الحديث والسير. وليكن من دعاء صاحب هذا المقام ومناجاته ليوافق عقده قوله فى جميع تصرفاته اللهم إنى أصبحت لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقيتنى اللهم وفقنى لما تحبه وترضاه من القول والعمل فى طاعتك إنك ذو الفضل العظيم. وليقل أيضا ما رأيته لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه اللهم إن الأمر عندك وهو محجوب عنى ولا أعلم أمرا أختاره لنفسى فكن أنت المختار لى واحملنى فى أجمل الأمور عندك وأحمدها عاقبة فى الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شئ قدير (إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شئ لغيبتهم عن الله فى كل شئ فلو شهدوه فى كل شئ لم يستوحشوا من شئ) العباد والزهاد فى حجبهم عن ربهم لنظرهم لنفوسهم ومراعاة حظوظهم فهم يفرون من الأشياء ويستوحشون منها لأنها موجودة فى نظرهم والزهد فى المزهود شاهد له بالوجود كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله تعالى عنه والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها فهم يخافون منها أن تعوق عليهم أغراضهم وتفوتهم عن مقاصدهم بميلهم إليها وافتتانهم بها ولو كانوا من أهل العلم بالله والمحبة لله لرأوه ظاهرا فى الأشياء كلها ولكان لهم فى ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لنفوسهم فلا يكون لهم من الأشياء وحشة ولا يخشون منها فتنة لأنها فانية متلاشية بهذا الاعتبار (أمرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوّناته وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته) رؤية العباد لربهم عزّ وجلّ على حسب تجليه لهم ففى هذه الدار يرونه ظاهرا فى المكوّنات بأنوار بصائرهم لما تجلى لهم من وراء حجابها ولذلك أمرهم بالنظر فيها وفى الدار الآخرة يرونه معاينة بأنوار أبصارهم من غير حجاب ولا مانع وهذا غاية الظهور والكشف (علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه) عدم الصبر عن الله تعالى من وجود الاحتظاء بمعرفته وهو حال شريف يقتضى دوام وجود المعية الاختصاصية والمعية الاختصاصية تقتضى دوام المشاهدة والحضور والمشاهدة الحقيقية غير متصورة فى هذه الدار لما هى عليه من الدناءة والنقص والفناء والذهاب فأكرم الله تعالى عبده لعلمه بعدم صبره عنه بأن أشهده ما برز عنه من الآثار والأكوان تسلية له بالأثر عن النظر فحصلت له حينئذ المعية الاختصاصية اللائقة بحاله حتى إذا أقعده فى مقعد الصدق وحصلت له عندية الحق خلع عليه خلع التقريب والتكريم وواجهه بوجهه الكريم فحصلت له حينئذ المعية الحقيقية والمشاهدة السرمدية وما ذلك على الله بعزيز (لما علم الحق منك وجود الملل لوّن لك الطاعات

وعلم

من نوع منها انتقلت إلى غيره ولو كانت من نوع واحد لسئمته النفس وتركته استثقالا له بخلاف الأنواع المتعددة فانها تستخفها وتستحليها لتنقلها من نوع إلى نوع آخر وشأن النفس أن لا تدوم على حال واحد بل تنظر فى الأحوال ألا ترى أن الانسان إذا داوم على طعام واحد تسأمه نفسه كما وقع لبنى اسرائيل (وعلم مافيك من وجود الشره) أى مجاوزة الحدّ فى التسارع إلى العمل والحرص عليه نيؤديك إلى أن لا تأتى به على وجه الكمال (فجرها) بالتخفيف أى منعها (عليك فى بعض الأوقات) فان الفرائض يمتنع فعلها فى غير أوقاتها المحدودة والنوافل يمتنع فعلها فى وقت الكراهة وفى بعض النسخ فجرها عليك فى الأوقات بالتشديد أى جعل لكل طاعة وقتا مخصوصا ولم يجعلها دائمة فى جميع الأوقات لئلا يحصل منك

شره فيجرك إلى الترك .

والحاصل أن تلوين الطاعات لوجود الملل وتحجيرها فى الأوقات لوجود الشره نعمتان أنعم الله بهما على عبده فان الملل والشره آفتان عظيمتان قاطعتان للعمل والموجب للملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها فاذا لوّنت عليها استحلتها واستخفتها والموجب للشره صلاحية الأوقات كلها لايقاع العبادات مع شدة الحرص عليها وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير بأن يقرأ القرآن مثلا ولا يتدبر فى معانيه ولا يحضر قلبه مع مولاه فى حال قراءته فلذلك عين لها أوقاتا تقع فيها وذلك هو معنى تحجيرها فى الأوقات

وعلم مافيك من وجود الشره فجرها عليك فى بعض الأوقات ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصلّ مقيم) تلون الطاعات لوجود الملل وتحجرها فى الأوقات لوجود الشره نعمتان عظيمتان أنعم الله بهما على عبده فان الملل والشره فتنتان عظيمتان قاطعتان على العبد سبيل عبوديته والملل تكرّه يعرض للانسان من عمل يلحقه فيه مشقة فيصبر عليه و يتحمل التعب فيه حتى يضجر ويسأم فيترك ذلك العمل و يرفضه استثقالا له وهو شىء يتعرض الطبع بعد إيثاره للشىء ومحبته له والشره مجاوزة الحد فى التسارع إلى العمل والحرص عليه والذى يوجب وجود الملل المداومة على نمط واحد من العبادات فتسأمها النفس وتستثقلها فاذا لوّنت عليها استحلتها واستخفتها وقد قال بعض الشعراء :

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة   إلا التنقل من حال إلى حال

والموجب لوجود الشره صلاحية الأوقات كلها لايقاع العبادات فيها مع شدة الحرص عليها وعند وجود الشره يقع النقص والتقصير فيها فلذلك عين لها أوقاتا توقع فيها وأوقاتا لا توقع فيها وذلك هو معنى تحجيرها فى الأوقات فان كان الملل والشره واقعين فى الصلاة لم يكن الآتى بها مقيما لها لوقوع التقصير منه فيها ولم يؤمر إلا باقامة الصلاة لا بوجود صورة الصلاة قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه كل موضع ذكر فيه المصلون فى معرض المدح فانه إنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الاقامة أو بمعنى يرجع إليها قال الله سبحانه وتعالى ـ الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ـ وقال الله تعالى ـ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذرّيتى ـ وقال الله عزّ وجلّ ـ أقم الصلاة، و إقام الصلاة ، والمقيمى الصلاة ـ ولما ذكر المصلين بالغفلة قال ـ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ـ ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة فالاقامة أنه إذا صلى المؤمن صلاة فقبلت منه خلق الله من صلاته صورة فى ملكوته راكعة ساجدة إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة و إقامة الصلاة حفظ حدودها ظاهرا و باطنا قال ابن عطاء الله رضى الله تعالى عنه إقامة الصلاة حفظ حدوها ظاهرا و باطنا مع حفظ السر مع الله عزّ وجلّ لا يختلج بسرك سواه وقال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله تعالى عنه هو القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلى له فتحفظ عليه أحكام الأمر فيما يجرى عليه منه وهو عن ملاحظتها محو فنفوسهم منهم مستقبلة إلى القبلة وقلوبهم مستقرة فى حقائق الوصلة وتمثيل المؤلف رحمه الله تعالى بالصلاة دون سائر العبادات حسن لأن ذلك أكثر مايقع فيها وقد يكون ذلك استطرادا للكلام على الصلاة حسبما يقوله باثر هذا (الصلاة طهرة للقلوب

وقوله (ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصلّ مقيم) بنصب يكون بعد لام كى على أنه تعليل لما قبله أى إنما لوّن لك الطاعات حتى لا تملّ وحجرها عليك فى الأوقات حتى لا تشره لأجل أن يكون همك الخ فانهما إذا انتفيا أمكن توجيه الاهتمام إلى حضور إقامة الصلاة لا إلى مطلق وجودها وحصول صورتها بخلاف ما إذا وجدا فانه لا يكون معهما إتقان وفى بعض النسخ ليكن بالجزم فيكون كلاما مستأنفا و إقامة الصلاة المرادة هنا حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله عزّ وجلّ فلا يختلج فيه سواه وقيل هى القيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها لرؤية من يصلى له فتكون مستقبلا إلى القبلة وقلبك مستقر فى حقائق الوصلة وخص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات لأن ذلك أكثر مايقع فيها . ثم أشار إلى فوائد صلاة المقيم لا مطلق الصلاة بقوله (الصلاة) الحقيقية (طهرة للقلوب) من تكدرها بالآثار وتلوثها بأقذار الأغيار

ومن الأوصاف المبعدة لها عن مشاهدة العزيز الجبار وفى بعض النسخ (من أدناس الذنوب) من إضافة المشبه به للمشبه والذنوب مختلفة باختلاف المقيمين لها (واستفتاح) أى فتح أوطلب فتح (لباب الغيوب) أى ماغاب عنك من المعارف والأسرار شبهها بكنزله باب مغلق عليه والباب تخييل وهذا مرتب على ما قبله لأن القلوب إذا طهرت رفع عنها الأستار فرأت ماغاب عنها من الأسرار (الصلاة محل المناجاة) أى مناجاة العبد لربه باظهار صفاته الجميلة من رحمته للعباد وتربيته للعالمين وملكه يوم الدين إلى غير ذلك من الصفات ومناجاة الربّ له بما يلقيه فى سرّه من العلوم الوهبية والأسرار العرفانية (ومعدن المصافاة) أى التودّد أى مصافاة العبد لربه بتوجهه إليه بكليته وإقباله عليه بعوالمه الظاهرة والباطنة حتى لايختلج فى سره غيره ومصافاة الربّ لعبده بأن يمنحه شهوده ويفيض عليه فضله وجوده وهذه أعلى المصافاة ودونها مراتب وعلى قدر إقبال العبد يكون إقبال الرب جل جلاله (تتسع فيها ميادين الأسرار) أى تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين للفرسان أى تنشرح بتوارد الأسرار أى العلوم والمعارف عليها وتسابقها فيها كتسابق الفرسان (وتشرق) أى تطلع (فيها شوارق الأنوار) أى الأنوار الشبيهة بالكواكب الشارقة وهومن عطف السبب على المسبب فانّ الأنوار إذا أشرقت فى القلوب انشرحت لما يرد عليها من العلوم والمعارف وذلك من ثمرات المناجاة والمصافاة وجميع ماذكر كالدليل لما قبله من أن

من أدناس الذنوب) كما روى فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله «إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب يمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك أيبقى من درنه شيئا» (واستفتاح لباب الغيوب) لأن القلوب إذا طهرت وتزكت رفع عنها الحجب والأستار فرأت ما غاب عنها من الأسرار (الصلاة محل المناجاة) لأن فيها يكون محل الثناء والدعاء والمناجاة مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار (ومعدن المصافاة) وهى زوال الأكدار الكونية بينك وبين ربك حتى يصفو قلبك وسرك فيصفولك حينئذ شهوده ويمحو ذاتك وجوده (تتسع فيها ميادين الأسرار) حتى تتكاثر عليك فى الظهور (وتشرق فيها شوارق الأنوار) فيكون قلبك نورا على نور وهذه العبارات الست معانيها متقاربة. ولما كانت هذه الأحوال التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى من فوائد الصلاة وأن المقصود منها إنما هو تحصيلها كان ذكر المؤلف لها كالدليل على ما قاله من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لاوجود الصلاة فانّ الصلاة المعتبرة إنما هى صلاة الخاشعين لاصلاة الغافلين التى لاتنتهض لبلوغ هذه المقاصد السنية ولذلك كانت الصلاة أم العبادات وأساس الخيرات قال الله تعالى ـ أقم الصلاة لذكرى ـ فأخبر أن المراد من الصلاة الذكر وقد روى معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إنما فرضت الصلاة وأمر بالحجّ والطواف وأشعرت المناسك لاقامة ذكرالله» ولذلك كانت قرة عين حبيب الله صلى الله عليه وسلم على ماسيأتى الكلام عليه حيث تعرض المؤلف له. وفى بعض الأخبار «إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وإن المصلى لينشر عليه البرّ من عنان السماء إلى مفرق رأسه ويناديه مناد لويعلم المناجى من يناجى ما انفتل وإن أبواب السماء تفتح للمصلى وإن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين» وفى التوراة ياابن آدم لاتعجز أن تقوم بين يدىّ مصليا باكيا فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى وكانوا يرون أن تلك الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنوّ الرب من القلب. وقال محمد بن على الترمذى رضى الله تعالى عنه دعا الله تعالى الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كلّ فعل وقول شيئا من عطاياه فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة وهى عرس الموحدين هيأها رب العالمين لأهل رحمته فى كلّ يوم خمس مرّات حتى لايبقى عليهم دنس ولا غبار. وقال أبو طالب المكى رضى الله تعالى عنه حدثت أنّ المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فاذا كبر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه وواجهه الجبار بوجهه الكريم فاذا قال الله أكبر اطلع الملك على قلبه فاذا كان ليس فى قلبه أكبر من الله فيقول الملك صدقت الله أكبر فى قلبك كما تقول قال فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش فيكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات قال وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب نقطة العسل فاذا كبر اطلع الملك على قلبه فاذا كلّ شئ فى قلبه أكبر من الله عنده فيقول

المطلوب إقامة الصلاة لاوجودها (علم وجود الضعف منك) أيها المريد لأنّ الطاقة البشرية لاتقدر على دوام التجلي الالهى (فقلل أعدادها) بجعل الخمسين خمسة (وعلم احتياجك إلى فضله) باقباله عليك ومواجهته لك بما تحبه (فكثر أمدادها) بالفتح جمع مدد وهى الأسرار والعلوم والمعارف التى ترد على قلب المصلى فجعل أمداد الخمسين فى الخمس هذا بالنسبة للمريد ويقال بالنسبة لغيره علم وجود الضعف منك بتكاسلك عنها وكثرة اشتغالك وعلم احتياجك إلى فضله أى كرمه فكثر أمدادها أى ثوابها بأن جعل للخمسة ثواب الخمسين (متى طلبت) أيها المريد من ربك (عوضا على عمل) صلاة كان أو غيرها بأن عملت ذلك لأجل ثواب آجل وهو الجزاء عليه فى الدار الآخرة أوعاجل كالامدادات التى ترد عليك من قبل الحق سبحانه (طولبت) أى طالبك الحق تعالى (بوجود الصدق فيه) أى قال لك إنك لم تصدق فى كونك عملت العمل لأجلى بل عملت لحظ نفسك والصدق مطابقة الباطن للظاهر وهو مفقود فى هذا العامل لأنّ ظاهره أنه يعمل العمل لله قياما بحق ألوهيته وباطنه أنه لم يعمل إلا لحظ نفسه فيكفيه حينئذ سلامته من العقاب عليه كما قال (ويكفى المريب) أى المرتاب فى كون مولاه يحصل له الثواب العاجل والآجل وإن لم يقصده بعمله إذ لو كان جازما بذلك متيقنا له لسعة جوده سبحانه وتعالى لم يخطر بباله ذلك فى حال عمله بل كان يخلص فيه لله تعالى فيكفيه حينئذ (وجدان السلامة) من العقاب على ذلك العمل المدخول أى فيقول له الرب هذا العمل الذى عملته لاتستحق عليه منى جزاء بل يكفيك من الجزاء عليه سلامتك وعدم عقابك وهذا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل وبيان أن النهل العذب الصافى أن يعبد العبد ربه لما هو عليه من عظمة الألوهية ونعوت الربوبية لا لما يعود عليه فى دنياه أو أخراه وقد ذكر المصنف هذا المعنى فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب وأشار إلى موضع منها أيضا بقوله (لاتطلب عوضا على عمل لست له فاعلا) بل هو الفاعل له حقيقة وانما أنت محل لظهوره وإذا كان الفاعل هو الله فكيف تطلب أنت الجزاء عليه أو يقال إنّ المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله وليس للعبد إلا مجرد الكسب فكيف يطلب الجزاء على عمل ليس منسوبا إليه إلا بطريق الكسب (يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا) أى قبوله له والمراد به عدم مؤاخذتك عليه مع كونه مدخولا بقصدك به طلب الثواب (إذا أراد أن يظهر فضله عليك) أى تفضله عليك وإحسانه لك (خلق) أى العمل فيك (ونسب إليك) أى نسبه إليك بأن قال فيك عند ملائكته إنك مطيع ومتق ومجتهد وعامل أو نسبه إليك على ألسنة العباد بأن يطلق ألسنتهم بأنك مطيع ومتق الخ

فيقول الملك كذبت ليس الله أكبر فى قلبك كما تقول قال فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت قال فيردّ ذلك الحجاب صلاته وتلتقم الشياطين قلبه فلاتزال تنفخ فيه وتنفث وتوسوس إليه وتزين له حتى ينصرف من صلاته لايعقل ما كان فيه ومعانى هذه الأخبار والآثار موافقة لمعنى ماذكره المؤلف رحمه الله تعالى دالة عليه فلذلك أوردتها ههنا والله ولى التوفيق برحمته (علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها) فهذا من فضل الله تعالى الذى عوّده عبده فتقليل أعدادها بأن جعل الخمسين خمسا وذلك تخفيف منه لما علم من وجود ضعفه وتكثير أمدادها بأن جعل للخمس ثواب الخمسين وذلك فضل منه عليه إذ كان محتاجا إليه فله الحمد والشكر على ذلك وهذه المعانى مذكورة فى حديث الاسراء (متى طلبت عوضا على عمل طولبت بوجود الصدق فيه ويكفى المريب وجدان السلامة) تقدّم أنّ العمل لأجل حصول الجزاء مدخول معلول وحكينا هنالك من الآثار والحكايات عن العارفين وأرباب القلوب مافيه مقنع وقد كرر المؤلف رحمه الله تعالى هذا المعنى فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب وماذكره ههنا تقبيح لحال طالب الجزاء على العمل . ومعنى ماذكره أنّ العمل على هذا الوجه معرض للبطلان لأنه إذا طالب ربه بالجزاء على عمله طالبه ربه بوجود الصدق فيه والصدق فيه الوفاء بحقه فى العمل وأنى له توفية ذلك مع كونه طالبا للحظ من ربه فهو لامحالة مريب فيكفيه وجدان السلامة من غير مزيد عليها . وقال الواسطى رضى الله تعالى عنه العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الاعواض عليها وقريب من هذا قول النصراباذى العبادات إلى طلب العفو والصفح عن تقصيرها أقرب منها إلى طلب الاعواض والجزاء عليها وقال خير النساج رضى الله تعالى عنه ميزان أعمالك مايليق بأفعالك فاطلب ميزان فضله فانه أتم وأحسن قال الله تعالى ـ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ـ (لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا) المنفرد بخلق أفعال العباد واختراعها هو الله عزّ وجلّ فكيف يطلب العبد الجزاء على عمل لامدخل له فيه على الحقيقة ومعنى كون القبول جزاء قد تقدّم (إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك) فضل الله تعالى عظيم فاذا أراد أن

فاذاشهد العبدهذا الفضل العظيم واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم لم ينسب لنفسه شيئامن محامدالصفات ومحاسن الأعمال لاحقيقة ولاأدبا إذ لاأهلية فيه لذلك وأمامذامّ الصفات والأعمال ومساويها فمقتضى الأدب أنه يضيف ذلك إلى نفسه وأن يعترف أنه من ظلمه وجهله . قال سهل بن عبد الله قدّس الله سره إذاعمل العبد حسنة وقال يارب أنت بفضلك استعملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكرالله تعالى له ذلك وقال له ياعبدى بل أنت أطعت وأنت تقربت و إذانظر إلى نفسه وقال أناعملت وأنا أطعت وأناتقربت أعرض الله تعالى عنه وقال ياعبدى أناوفقت وأنا أعنت وأناسهلت و إذاعمل سيئة وقال يارب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى جلت قدرته عليه وقال له ياعبدى بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت و اذاقال يارب أناظلمت وأنا أسأت وأناجهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال ياعبدى أناقضيت وأناقدرت وقد غفرت وحلمت وسترت اه (لانهاية لمذامك إن أرجعك إليك) أى وكلك إلى نفسك لأنها مجبولة على الشر فاذا خلى الله بينك و بينها أى لم يعنك عليها ولم يحكمك فيها غلبتك وتحكمت فيك فتوقعك فى أنواع القبائح حتى لا يبقى فى أعمالك مايستحسن ولافى أحوالك مايحب وذلك من علامات الطرد والبعد عن الله (ولا تفرغ مدائحك إن أظهرجوده عليك) بأن تولى عنايتك ونصرك على نفسك ولم يحكمها فيك فتصير أحوالك حسنة جميلة فلا تفرغ مدائحك ولا تنقضى محاسنك وذلك من علامات اصطفائه لك واجتبائه وقد علم أنه لاطريق للنجاة من النفس وغوائلها إلاالتعلق بالله والالتجاءاليه (كن بأوصاف ربوبيته متعلقا) لامتحققا إذلاحظ للعبد فى شىء من أوصاف مولاه إلاتعلقه به لاتحققه (و بأوصاف عبوديتك متحققا) ومعنى التعلق بأوصاف الربوبية النظر اليها وملاحظتها أى ملاحظة كونها له فلايصح لك أن تتصف بشىء منهاومعنى التحقق بأوصاف العبودية النظر اليها وملاحظتها أى ملاحظة كونها له فهى التى ينبغى أن يتصف بها العبد حقيقة لابأوصاف الربوبية وماوجد فيه من أوصاف الربوبية فهوعارية عنده وليس هوله حقيقة فاذا لاحظ كون الغنى والقدرة والعزة والقوة ليست إلاللمولى ولاحظ أن الذى يتصف به العبد حقيقة هو أضدادها وهى الفقر والعجز والذل والضعف أمده الله تعالى بأوصافه فيكون غنيا بالله قادرا بالله عالما بالله عزيزا بالله قويا بالله كما سيأتى فى قوله تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ثم علل ذلك بقوله

يظهره عليك خلق لك الطاعة وحلاك بهاونسبها إليك وقال لك ياعبدى أنت مطيع ومتق ومجتهد وعامل وسأثيبك على ذلك فاذاشهد العبد هذا الفضل العظيم واستولى عليه الخجل والحياء من سيده الكريم وانطلق لسانه فى هذه الحالة بالدعاء والسؤال وقال يارب كما تفضلت علىّ بخلق الطاعة لى وحليتنى بهاووصفتنى بصفات حميدة أناخلىّ عنها فى الحقيقة ووعدتنى مع ذلك جزيل الثواب والنجاة من العقاب فتقبل منى عملى وأنجز لى ماوعدتنى كان فى ذلك مصيبا و إلا فلا . فحق العبد أن لاينسب إلى نفسه شيئا من محامدالصفات ومحاسن الأعمال حقيقة ولا أدبا إذ لاأهلية فيه لذلك وأمامذامّ الصفات والأعمال ومساويهما فمقتضى الأدب أن يضيف ذلك إلى نفسه وأن يعترف بأن ذلك من ظلمه وجهله قال سهل بن عبدالله رضى الله تعالى عنه : إذاعمل العبد حسنة وقال يارب أنت بفضلك استعملت وأنت أعنت وأنت سهلت شكرالله تعالى له ذلك وقال له ياعبدى بل أنت أطعت وأنت تقربت و إذا نظر إلى نفسه وقال أناعملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله تعالى عنه وقال ياعبدى أناوفقت وأنا أعنت وأناسهلت و إذاعمل سيئة وقال يارب أنت قدّرت وأنت قضيت وأنت حكمت غضب المولى جلت قدرته عليه وقال له ياعبدى بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت و إذاقال يارب أناظلمت نفسى وأنا أسأت وأناجهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال ياعبدى أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وحلمت وسترت (لانهاية لمذامك إن أرجعك إليك ولاتفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك) من أرجعه الحق إلى نفسه ووكله إلى عقله وخدمته فقد طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وكانت أحواله مدخولة معلولة وأعماله مستقبحة مرذولة ومن آواه اليه وأظهرجوده عليه فقداصطنعه لنفسه ورفعه إلى حضرة قدسه وكانت أحواله حسنة جميلة وأعماله كلها ممدوحة مقبولة كما قيل :

لما انتسبت إلى حماك تعرّفت ... ذاتى فصرت و إلا من أنا

(كن بأوصاف ربوبيته متعلقا و بأوصاف عبوديتك متحققا) التعلق بأوصاف الربوبية أن تشهد وجودك ولوازم وجودك لاشىء من جميع ذلك لك ولامنك و إنما هى عوار عندك فلا ترى وجودك إلا بوجوده ولا بقاءك إلا ببقائه ولاعزتك إلا بعزته ولا قدرتك إلابقدرته ولاغناك إلا بغناه إلى غير ذلك من الأوصاف ولايتم لك ذلك إلابأن تتحقق بأوصاف عبوديتك من عدمك وفقرك

وذلك

وذلك وعجزك والتعلق والتحقق المذكوران متلازمان بل هما شئ واحد لا تعدد فيهما على التحقيق (منعك أن تدعى ماليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين) أورد هذا كالدليل على ماذكره آنفا من أنه لاحظ للعبد من صفات مولاه الا التعلق بها فقط وأن ادعاء شئ منها من كبائر معاصى القلب ومن مشاركة المربوب للرب ومن مقتضى الغيرة التى اتصف بها وأعلمنا بشأنها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «لاأحد أغير من الله تعالى» ومن غيرته أنه حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن تحريم ذلك على العبد والتسجيل عليه باستحقاق الطرد والبعد ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شئ من الشركة فى قلب العبد بادّعاء شئ من أوصاف الربوبية لنفسه عقدا أو قولا لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه ، وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحدة منهما ألقيته فى النار » ومعنى المنازعة الدعوى قولا وعبارة والاضمار فعلا و إشارة ، ومعنى الغيرة فى حقه تعالى أنه لايرضى بمشاركة غيره له فيما اختص به من صفات الربوبية وفيما هو حق له من الأعمال الدينية و إذا كان الحق تعالى مانعا لك ومحرّما عليك أن تدعى ماليس لك مما أعطى المخلوقين من الأموال ومسميا ذلك ظلما وعدوانا فكيف يبيح لك أن تدعى وصفه وهو ربّ العالمين لاشريك له فى ذلك لاأنت ولاغيرك فهو إذن من أعظم الظلم وأشد العدوان عافانا الله من ذلك . قلت وهذا المعنى الذى ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى هذه المسئلة هو الغرض الأقصى الذى هو مرمى نظر الصوفية وكل ماصنفوه ودوّنوه وأمروا به ونهوا عنه من أفعال وأقوال وأحوال إنما هى وسائل إلى هذا المقصد الشريف والمقام المنيف فشأنهم أبدا إنما هو العمل على موت نفوسهم و إسقاط حظوظها بالكلية كما قيل الصوفى دمه هدر وملكه مباح وليس ذلك هو المقصود لهم بالذات و إنما غرضهم من ذلك مايلزم عنه من انفراد الله تعالى عندهم بالوجود ولوازم الوجود انفرادا لايشاركونه فى شئ منها ألبتة كما ذكرناه آنفا وهذا هو كيمياء السعادة الذى أعوز أكثر الناس ولم يحظوا منه الا بالافلاس إذ بذلك يستحق المرء عبودية الله عزّ وجل الذى لامقام للعبد أشرف منه كما قال الشاعر :

ألست لى خلفا منى كفا شرفا　　فما وراءك لى قصد ومطلوب

ولهذا المعنى كانت عندهم دقائق خطرات الحظوظ وخفيات هواجس الهوى وكل مايقتضى بقاء حظ النفس وثبوتها من محبة المقامات و إيثار الألطاف والكرامات ذنوبا عظيمة وأخلاقا ذميمة لئيمة قادحة فى صدق العبودية والاخلاص للربوبية يتوبون من جميع ذلك إلى ربهم و يتعوّذون به من شرهم ويخافون من مساكنته وملاحظته غاية البعد ونهاية المكر والطرد كما قيل :

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة　　وجودك ذنب لايقاس به ذنب

ذكر أنه كان لبعض الملوك عبد يقدّمه على أشكاله وأقرانه فشكا أهل إقليم عاملهم إلى الملك فقال تخيروا من شئتم أوليه عليكم فاختاروا ذلك العبد لما رأوا ميل الملك إليه فقال الملك راجعوه فان اختار الولاية وليته عليكم فرغب الغلام فى الولاية فأمر بكتب المنشور وأمر باستقباله إذا وافى محلّ ولايته والمبالغة فى ألطافه بأنواع المكرمات والمبارّ ودسّ من يرش عليه ماء ورد فيه سم ثم أمر من يقول إذا أشرف على الموت هذا جزاء من اختار الولاية على خدمة مولاه ، ففى هذا عبرة لأولى الأبصار وتبصرة لأرباب الاعتبار و إلى هذا المعنى الجليل المؤدى الى سواء السبيل تشير الحكاية المشهورة المروية عن أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه حدث يحيى بن معاذ رضى الله تعالى

(منعك أن تدعى ماليس لك) أى حرّم عليك أن تدّعى شيئا ليس لك (مما) أعطى (للمخلوقين) من الأموال وسماه تعالى عدوانا وظلما (أفيبيح لك) سبحانه (أن تدعى وصفه وهو رب العالمين) أى فيكون ادعاؤك ذلك من أعظم الظلم وأشد العدوان فاذا ادّعيت أنك غنى أو قادر أو عزيز أو قوىّ أوعالم كما يقع لبعض الناس كان ذلك من كبائر معاصى القلب ومن مشاركة المربوب للرب ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شئ من الشركة فى قلب العبد بادعاء شئ من أوصاف الربوبية لنفسه اعتقادا أوقولا لأن ذلك منازعة له وتكبر عليه ، وفى الحديث « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدة منهما ألقيته فى النار » وفى رواية «قصمته» ومعنى المنازعة الدعوى بالعبارة أو الاعتقاد واضافة هذين الوصفين له تعالى كناية عن شدة الاختصاص بهما

عنه أنه رآه فى بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيهما مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لايطرف ، قال ثم سجد عند السحر فأطال ثم قعد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء فرضوا بذلك و إنى أعوذ بك من ذلك ، و إن قوما طلبوك فأعطيتهم طىّ الأرض فرضوا بذلك و إنى أعوذ بك من ذلك ، و إن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فانقلبت لهم الأعيان فرضوا بذلك وانى أعوذ بك من ذلك ، وان قوما طلبوك فأعطيتهم عبدك خضرا فرضوا بذلك و إنى أعوذ بك من ذلك حتى عدّ نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت إلىّ فرآنى فقال يحيى قلت نعم ياسيدى ، قال مذ متى أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدى حدثنى بشىء فقال أحدثك بشىء يصلح لك أدخلنى فى الفلك الأسفل فدوّرنى فى الملكوت السفلى فأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوّف بى فى السموات وأرانى مافيهما من الجنات إلى العرش ثم أوقفنى بين يديه فقال سلنى أىّ شىء رأيت حتى أهبه لك فقلت ياسيدى مارأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدى حقا تعبدنى لأجلى صدقا لأفعلنّ بك ولأفعلنّ بك وذكر أشياء فقال يحيى بن معاذ رضى الله تعالى عنه ، فهالنى ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت ياسيدى لم لم تسأله المعرفة به إذ قال لك ملك الملوك سلنى ماشئت قال فصاح به صيحة وقال ويلك اسكت وتلك غيرة عليه منى لاأحب أن يعرفه سواه . قال الشيخ أبوطالب المكى رضى الله تعالى عنه بعد أن ذكر هذه الحكاية فهذا حال عبد فان عن نفسه مأخوذ إذ كان ربه عز وجل له موجدا طال مقامه فى المقامات فقصرت عن وصفه الصفات وحق له إذا نظر إلى الحسن الذى حسنت المحاسن كلها عن حسنه وشانت الزينات جميعها بعد النظر إلى زينته وشهد الجمال الذى تجمل الجمال والتجملون بجماله أن لايستحسن سواه وكيف يحب غير ما استحسن أو تزين فى عينه إلا إياه أم كيف يطلب غير ما أحب أو يصبر مع غير ماطلب بل كيف يهتم بغير ماطلب فهذا نعت عبد مطلوب بعين ماطلب ووصف شخص محبوب بعين ما أحب - الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس - انتهى وفى الاشارات عن الله سبحانه ياعبدى اعزل نفسك ينعزل معها الملك والملكوت فتلحق الدارين بالملك وتلحق العلوم بالملكوت فتكون عندى من وراء ما أبدى فلا يستطيعك ما أبدى لأنك عندى و إذا كنت عندى كنت عبدى حقا و إذا كنت عبدى كان عليك نورى فلايستطيعك ما أبدى وان أرسلته أرسلته إليك لأن نورى عليك وليس نورى عليها فاذا جاءك لم يطعك فأوذنك به فتأذن أنت له والعبارات عنهم فى هذا المعنى خارجة عن الحصر وفيما سمناه منها كفاية و إنما ذكرنا هذه المعانى وان كانت فى الظاهر أعلى من أن يتناولها كلام المؤلف رحمه الله تعالى لأن مرجع أمره إليها إذا وقفنا فى النظر وتصرفنا فيه بوجوه العبر فكان باطنه هو المقصود المعتبر وكلام الصوفية رضى الله تعالى عنهم كثيرا مايجرى هذا المجرى والله تعالى يجزيهم عنا خيرا ويمنّ علينا بالفهم عنهم وحسن القبول منهم و يفتح أسماعنا للاصغاء إليهم و يشرح صدورنا باستحسان مايرد منهم أو يبدو عنهم بمنه وفضله (كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد) خرق العوائد بانكشاف عالم القدرة لا يكرم الحق تعالى به إلا من خرق عوائد نفسه وفنى عن إرادته وحظوظه فمن لم يصل إلى هذه المقامات لايطمع فيها و إن ظهر له ماصورته صورة الكرامة فينبغى له أن يخاف عند ذلك من الاستدراج والمكر حيث لايحب ذلك ولايطلبه فان أحبه أوطلبه فهو دليل على بقائه مع إرادته وحظوظه وعاداته فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة وهل هذا إلا محال لايستقيم قال الشيخ أبوطالب المكى رضى الله

(كيف تخرق لك) أيها المريد أى تطمع أن تخرق لك (العوائد) بأن تظهر على يدك كرامة كطىّ الأرض (وأنت لم تخرق من نفسك العوائد) أى ما اعتدته من الكبر والعجب والدعوى وغير ذلك تخرق العوائد بظهور شىء من عالم القدرة لا يكرم الله به إلا من خرق عوائد نفسه وفنى عن إرادته وحظوظه ومن لم يصل إلى هذا المقام لايطمع فيها فان ظهر له ما فى صورته كرامة فينبغى له أن يخاف من الاستدراج والمكر ولا يحب ذلك ولا يطلبه فان أحبه أوطلبه كان ذلك دليلا على بقائه مع إرادته وحظوظه وعاداته فكيف تخرق العوائد لمن هذه صفته على سبيل الكرامة

عنه وجميع الأنوار من الغيوب التى وراء الحجب والأستار لايظهر عليها إلا مطلوب والمطلوب لا يكون إلا محجوبا وهو عن نفسه مسلوب فمتى بقيت عليه من نفسه بقية ونظر الى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية فيسترها عليه رحمة له لأنه لو كوشف بهالهلك فى حيرة الهوى وغرق فى بحار الدنيا ونفس حبه وعين طلبه إياها هو حجابه عنها واستتارها عنه حتى يكون كارها لظهورها كراهيته ظهور الخلق على معصيته وخائفا منها تخوفه على نفسه فى تظاهرها عليه بهلكته فهنالك حين يبتلى بها ويختبر ليظهر كيف يعمل وكذا الشيخ أبوعبد الله القرشى رضى الله عنه قال من لم يكن كارها لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصى فهو فى حقه حجاب وسترها عليه رحمة فاذن من خرق عوائد نفسه لايريد ظهور شىء من الآيات وخوارق العادات له بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك فاذا فنى عن إرادته جملة فكان له تحقق فى رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف ووجود الاسعاف وسلك إلى مرتبة الصديقية المهيع الناهج وضرب مع أهل الارادة بقدح الفالج. قال الشيخ أبوالعباس ابن العريف أصبحت يوما مهموما فقلت للشيخ أبى القاسم بن رو بيل حدثنى بحكاية عسى الله أن يفرج ما بى ، فقال نعم وصف لى رجل ببعض السواحل يعرف بأبى الخيار فقصدته فوجدته على ساحل البحر فسلمت عليه وجلست فلم يتكلم ولم أكلمه حتى إذا كان وقت الصلاة أقبل نفر من بعض الأودية متفرّقون فاجتمعوا إليه وتقدّمهم واحد منهم فصلى بهم ثم افترقوا ولم يكلم أحد منهم أحدا وجلس الشيخ مكانه وجلست عنده حتى إذا كان وقت الصلاة حضر النفر فصلوا ثم انصرفوا حتى إذا كان وقت العصر اجتمعوا وصلوا ثم جلسوا بعد ذلك وتذاكروا سير الصالحين ومقامات العارفين والأولياء إلى قريب الاصفرار ثم تفرّقوا واجتمعوا للمغرب ثم تفرّقوا ، فجلست عندهم ثلاثة أيام وهم على ذلك ثم وقع فى نفسى أن أسأله عن مسئلة أستفيدها فتقدمت إليه فقلت أيها الشيخ مسئلة أسأل عنها ، فقال قل فنظر الجماعة إلىّ كالمنكرين ففزعت فقلت أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد ؟ قال فأعرض عنى ولم يجبنى فخفت أن أكون قد أغضبته فقمت عنه ، فلما كان فى اليوم الثانى قلت لابدّ أن أسأله عن المسئلة وعزمت على ذلك فتقدّمت إليه وقلت أيها الشيخ متى يعلم المريد أنه مريد ؟ فأعرض عنى كالأولى ولم يجاوبنى فقمت وعدت فى الثالثة وسألته عن المسئلة بعينها ؟ فاجتمع وقال لا تقل هكذا أظنك تريد أن تسأل عن أوّل قدم يضعه المريد فى الارادة ؟ فقلت نعم ، قال لى إذا اجتمع فيه أربع خصال : إحداها أن تطوى له الأرض وتكون عنده كقدم واحد ، وأن يمشى على الماء ، وأن يأكل من الكون متى أراد ، وأن لاتردّ له دعوة ، فعندذلك يضع أوّل قدمه فى الارادة وأمامتى ماعلم المريد عندنا أنه مريد سقط من حدّ الارادة . قال الشيخ أبوالعباس بن العريف رضى الله عنه : فصحت صيحة كادت نفسى تذهب معها ثم قلت له آيستنا من الارادة يا أبا القاسم وتعجبت من علو همة هذا الشيخ انتهى . واعلم أنه أول مايخرق له من العادة تسميته باسم المريد مع كونه مسلوب الارادة ، وما أحسن ماقال الشاعر :

تكون مريدا ثم فيك إرادة   إذا لم ترد شيئا فأنت مريد

والتحقيق فى هذا أن من تمحضت إرادته لعبودية الله عز وجل بمراعاة حقوقه لأجل ماوجب عليه من ذلك لايتوصل به إلى نيل حظ ماهو الذى يسمى مريدا فلم يسم بذلك إلا أنه متصف بالارادة الحقيقية المتعلقة بأشرف المطالب ونهاية الآمال والمآرب وذلك أمر وجودى يصح أن يشتق منه اسم لمن قام به

(ما الشأن وجود الطلب) أى الدعاء بلسان المقال أى ليس الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب حوائجك وحظوظك من مولاك دون غيره ظانا أن طلبك ذلك منه دون غيره يوفى بما يجب عليك فى الدعاء من الأدب فان ذلك لا يوفى به (إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب) أى إنما الشأن المعتبر عند المحققين أن تطلب جميع مطالبك منه دون غيره لا لقصد نيل حظك ومرادك فقط بل أن تطلب ذلك منه إظهارا للعبودية وقياما بحقوق الربوبية فبذلك يحسن أدبك ويصح سؤلك وطلبك وذلك هو الوفاء على التحقيق بحق الأدب فى الدعاء ويحتمل أن يراد بالطلب الطلب بالقلب وتوجهه لشئ من الأغراض أى ليس الشأن أن تطلب شيئا من مولاك بقلبك مما لك فيه حظ سواء صاحبه طلب باللسان أولا بل الشأن أن ترزق حسن الأدب وهو ترك الطلب اكتفاء بنظره إليك فالأدب الحسن فى الدعاء على الوجه الأول أن يدعو إظهارا للعبودية وقياما بحق الربوبية لا لنيل حظ نفسه فقط وعلى الوجه الثانى ترك الدعاء والطلب اعتمادا على قسمته واكتفاء بمشيئته واشتغالا بذكره عن مسئلته (ما طلب لك) بالبناء للفاعل وهو (شئ مثل الاضطرار) أى إن أحسن الطالبين لك هو الاضطرار فشبهه بشخص طالب والاضطرار إظهار غاية الفاقة فلا تتوهم من نفسك شيئا من الحول والقوة ولا ترى لها سببا من الأسباب تعتمد عليه أو تستند إليه وتكون بمنزلة الغريق فى البحر أو الضال فى التيه القفر لا ترى لغناك إلا مولاك ولا ترجو النجاة من هلكتك إلا منه ويحتمل بناء طلب للمفعول والنائب قوله شئ أى إن اضطرار العبد هو أقصى أوصاف عبوديته ولذلك لم يطلب من العبد شئ أجل منه وقوله (ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار) من عطف اللازم على الملزوم لأن الذلة والافتقار لازمان للمضطر وهما موجبان لاسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما وإليه الاشارة بقوله تعالى ـ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ـ فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم

ذلك الأمر لا أنه سمى بذلك لأجل ما سلب عنه من الارادة المجازية المتعلقة بحظوظه لكن لما كان سلب إحداهما يقتضى وجود الأخرى كاقتضاء الواجب صح لذلك الشاعر أن يطلق اسم الارادة على من سلبت منه ويحجره عمن وجدت فيه رشاقة وملاحة ونعمة وبهذا تبين لك صحة كلام أبى يزيد رضى الله عنه واستقامته حيث قيل له ما تريد فقال أريد أن لا أريد وأنه ليس بمختل ولا متناقض كما توهم بعضهم قال فى التنوير واعلم أنه قال بعضهم إن أبا يزيد لما أراد أن لا يريد فقد أراد وهذا قول من لا معرفة عنده وذلك أن أبا يزيد رضى الله عنه إنما أراد أن لا يريد لأن الله تعالى اختاره وللعباد أجمع عدم الارادة معه فهو لا يختار معه شيئا ولا يريده فهو فى إرادته أن لا يريد موافق لارادة الله له ولذلك قال الشيخ أبو الحسن فكل مختارات الشرع ومرتباته هو مختار لله ليس لك منه شئ فاسمع وأطع وهذا موضع الفقه الربانى والعلم اللدنى وهو أرض تنزل علم الحقيقة المأخوذ عن الله قال فأبان الشيخ بهذا الكلام أن كل مختار للشرع لا يناقض اختيار مقام العبودية المبنى على ترك الاختيار لئلا ينخدع عقل قاصر عن درك الحقيقة بذلك فيظن أن الوظائف والارادات ورواتب السنن إرادتها يخرج بها العبد عن صريح العبودية لأنه قد اختار فبين الشيخ أن كل مختارات الشرع ومرتباته ليس لك منه شئ وإنما أنت مخاطب أن تخرج عن تدبيرك لنفسك واختيارك لها لا عن تدبير الله تعالى ورسوله لك فافهم قال فقد علمت إذن أن أبا يزيد ما أراد أن لا يريد إلا لأن الله أراد منه ذلك فلم تخرجه هذه الارادة عن العبودية المقتضاة منه انتهى وقد طال بنا الكلام فى هذا المعنى حتى آل إلى بعد المناسبة بينه وبين المسئلة المنبه عليها من الكتاب والحديث شجون يجر بعضه إلى بعض لكن لما كان قصدنا فى هذا التنبيه استغنام ذكر الفوائد فى مواضعها ومظانها لتقرع مسائل هذا الفن الغريب أسماع من أراد الله تعالى توفيقه ممن بينه وبينه بعد المشرقين صح منا ذلك وكنا سائرين فيها على أوضح المسالك وبالله تعالى التوفيق (ما الشأن وجود الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب) إذا التزم العبد طلب حوائجه وحظوظه من مولاه ولم يطلب ذلك من غيره فلا يظنن أنه وفى بما يجب عليه من حق الربوبية فليس ذلك بالشأن المعتبر عند المحققين وإنما الشأن أن يتأدب العبد بين يدى مولاه أدبا حسنا بأن يفوض أمره إليه ويرضى بما قسم له ولا يطلب منه ما ليس له كما سيقول المؤلف رحمه الله بعد هذا ويطلب عبودية منه لأن القصد نيل حظه فبهذين الوجهين يحسن أدبه ويصح سؤاله وطلبه وذلك هو الوفاء على التحقيق (ما طلب لك شئ مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار) اضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته ولذلك لم يطلب من العبد شئ أجل منه قال أبو محمد عبد الله بن منازل رضى الله عنه العبودية الرجوع فى كل شئ إلى الله عز وجل على حد الاضطرار وفيه أيضا خاصية إجابة الدعاء قال الله عز وجل أمن

(لو أنك لاتصل إليه إلا بعد فناء مساويك) أى عيوب نفسك ومنها شهوة الوصول إليه (ومحو دعاويك) أى نسبة مالا تستحقه إليك كالقوة والعزة والغنى والقدرة وفناء ذلك ومحوه بالرياضات والمجاهدات أى لاتعتقد أنك لاتصل إليه إلا بعد فناء ذلك برياضتك ومجاهدتك فان اعتقدت ذلك (لم تصل إليه أبدا) لأن ذلك من الأوصاف الذاتية الجبلية التى لاينفك

عنها العبد وحينئذ فالوصول منة من الله عليك لا بكسبك كما أشار إلى ذلك بقوله (ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه) أى إلى حضرة قربه (غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته) أى ستر عنك أوصافك وأظهر عليك أوصافه فأفناك عنك وأبقاك به أى غيب صفاتك الدنيئة باظهار صفاته العلية عليك وإلى ذلك الاشارة بقوله فى الحديث القدسى «ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها» (فوصلك إليه بما منه إليك) وهو إظهار صفاته عليك (لابما منك إليه) من الاجتهاد فى الأعمال. قال الشاذلى قدس سره لن يصل

ـ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ـ والاضطرار المطلوب منه أن لايتوهم العبد من نفسه شيئا من الحول والقوّة ولا يرى لنفسه سببا من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه ويكون بمنزلة الغريق فى البحر أو الضال فى التيه القفر لايرى لغيائه إلا مولاه ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدا سواه . وقال بعض العارفين المضطر الذى يقف بين يدى مولاه فيرفع يديه إليه بالمسئلة فلا يرى بينه و بين الله حسنة يستحق بها شيئا فيقول هب لى يا مولاى بلا شئ والذلة والافتقار أمران لازمان له وهما موجبان لاسراع مواهب الحق تعالى إلى العبد المتصف بهما و إليه الاشارة بقوله عز من قائل ـ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ـ فذلتهم أوجبت لهم عزتهم ونصرتهم كما قيل :

و إذا تذللت الرقاب تقربا   منها إليك فعزّها فى ذلها

وقيل :   حيث أسلمتنى إلى الذال واللا   م تلقيتنى بعـين وزاى

قال فى لطائف المنن: والجالب للتوفيق علامة صدق الرجعى إلى الله فى أول كل فعل وترك تحقيق الفقر والفاقة إليه والانغماس فى بحر الذلة والمسكنة بين يديه واستصحاب ذلك إلى الفراغ من ذلك أبدا وقد قال الله سبحانه ـ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ـ وقال تعالى ـ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ـ فلا تدخل جنة عملك وعلمك وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه بقوله ـ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ـ ولكن ادخلها كما بين لك وقل كما رضى لك ـ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله ـ وافهم ههنا قوله صلى الله عليه وسلم «لاحول ولا قوّة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» وفى رواية أخرى «كنز من كنوز تحت العرش» فالترجمة ظاهر الكنز والمكنوز فيها صدق التبرى من الحول والقوّة والرجوع إلى حول الله تعالى وقوّته (لو أنك لاتصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبدا ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ونعتك بنعته فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه) الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بمحو صفات النفس وقطع علاقات القلب وشئ من ذلك لايتصوّر من العبد من حيث هو لأن ذلك طبعه وجبلته ولولم يكن إلا إرادته وعمله فى تحصيل هـذا الغرض بنفسه فهما من جملة المساوى والدعاوى المحتاج إلى محوها قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه لن يصل الولى إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى يعنى انقطاع أدب لا انقطاع مال وقال سيدى أبو الحسن رضى الله عنـه ولن يصل الولى إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته فلو خلى الله تعالى عبـده وذلك لم يصل إليه أبدا ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إليه تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية مايغيب بذلك صفات عبده ونعوته عنه ويكون ذلك علامة على محبته له كما أشار إليه بقوله فى الحديث القدسى «فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به و يده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها» وعند ذلك لايكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره له مولاه وأراده فيكون حينئـذ واصلا إلى الله بما منّ الله إليـه من الفضل

الولى إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل إليه أبدا ولكن إذا أراد الله أن يوصل عبده إليه تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية مايغيب صفات عبده ونعوته عنه وعند ذلك لا يكون له إرادة ولا اختيار إلا ما اختاره مولاه وأراده اهـ

(لولا جميل ستره) أى ستره الجميل (لم يكن عمل أهلا للقبول) لأنّ العبد مبتلى بنظره إلى نفسه وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه وشهود حوله وقوّته عليه وقد يكثف حجابه فيرائى به و يطلب حمد الناس له وهـذا كله من الشرك الخفىّ القادح فى الاخلاص والاخلاص شرط فى قبول العمل كما مرّ وحينئـذ فيكون اعتماد المريد فى وصوله على فضل الله وكرمه لاعلى اجتهاده ولو قال لولا فضله لكان أولى (أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته) وذلك أنّ المطيع قد يعرض له عند طاعته أحوال كرؤية نفسه والاعجاب والكبر وازدراء الغير واستحقاقه الجزاء إلى غير ذلك من كبائر القلوب فيخاف عليه أن تنقلب طاعتـه معصية والعاصى ربما تحمله معصيته على الحـذر والخوف من ربه وتوجب له الاستكانة والخضوع وشـدّة الافتقار إليه فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه

وهذا زيادة تحذير من رؤية استحقاق الوصول بالأعمال فانّ ذلك غلط وجهـل (الستر على قسمين ستر عن المعصية) بأن يمنعه عنها ولا يهيء له أسبابها (وستر فيها) أى مع فعلهـا بأن لايظهرها للناس حال فعلها أو بعـده (فالعامة) لعدم تحققهم بحقائق الايمان يغلب عليهـم شهود الخلق و يتوقعـون منهـم حصـول المنافع ودفع المضارّ فيراءونهـم ويتصـنعون لهـم ويتزينون ويطمعون فيهـم ويتملقون بين أيديهم و يكرهون أن يطلعوا منهـم على ماتسقط به منزلتهم من قلوبهم ولذا (يطلبون من الله تعالى الستر) أى أن يستر عليهم (فيها) أى فى المعصـية أى فى حال كونهم عاملين لهـا ومستخفين بها ومحبين لهـا وإنما طلبوا ذلك (خشـية سقوط مرتبتهم عند الخلق) إذا اطلعوا على حالهم فيفوتهم ما كانوا يتوقعون منهم من حصول المنافع ودفع المضارّ وهؤلاء هم الذين يعتمدون على غير الله وهم أهل الشرك الخفىّ الذى يخرج صاحبـه من حقائق الايمان وفى مثلهم قال الله تعالى ـ يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم ـ (والخاصة) لتحققهم بحقائق الايمان برآء من هذا الوصف الذميم لا يلتفتون إلى الخلق مدحا ولا ذما ولا يتوقعون منهم نفعا ولا ضرّا ولا يعتمدون عليهم ولا يسكنون إليهم وحالهم إنما هو القناعة ينظر الله إليهم (يطلبون من الله الستر عنها) بأن يعيبها عن نظرهم ولايخطرها بقلوبهـم فتميل إليها نفوسهم ويعملونها وإنما طلبوا ذلك (خشية

والكرم لابما منّ العبد إليه من الاجتهاد والعمل فسبحان المتفضل على من شاء بما شاء . وقال رضى الله عنه (لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول) العبد مبتلى بنظره إلى نفسه وفرحه بعمله من حيث نسبته إليه وشهود حوله وقوّته عليه وهذا لامحيص له عنه إلا بما شاء ربه وقد يكثف حجابه فيرائى به و يطلب حمد الناس له وهـذا كله من الشرك الخفىّ القادح فى الاخلاص الحقيقى والاخلاص شرط فى قبول العمل كما تقدّم.قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه:مسكين ابن آدم جسم معيب وقلب معيب يريد أن يخرج من معيبين عمل بلا عيب فعمل العبـد لما كان بهذه المثابة لم يكن فيه أهلية لوجود القبول لولا جميل ستر الله تعالى وعظيم حلمه و برّه فليعتمد المريد على فضل الله تعالى وكرمه لاعلى اجتهاده وعمله . قال الشيخ أبوعبد الله القرشى رضى الله عنه إذا طالبهم بالاخلاص تلاشت أعمالهم و إذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرءوا عن كل شيء ومن كل شيء لهم ومنهم (أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته) شرف العبـد ورفعة قدره إنما يكون بنظره إلى ربه عز وجل و إقباله عليه وسكونه إليه واعتماده عليه ، ودناءته وخسته وسقوطه من عين الله تعالى إنما تـكون بنظره إلى نفسه و إقباله على غيره واستناده إلى سواه فالعبد عنـد عمله بالطاعة معرّض لهـذه الأخطار من نظره إلى نفسه واستعظام عمله وعجبه بطاعته وسكونه إلى معاملته وليته يسلم فيه من دقائق الرياء والتصنع بخلاف المعصية فى جميع هذه الأشياء فانها تحمله على الحـذر والخوف من ربه وتوجب له الاستـكانة والخضوع وشـدّة الافتقار إليه فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذا أطاعه أحوج منـه إلى حلمه إذا عصاه . وفى الخـبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى إلى نبىّ من الأنبياء «قل لعبادى الصدّيقين لا تغتروا فانى إن أقمت عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم وقل لعبادى الخطائين لا تيأسوا من رحمتى فانى لا يكبر علىّ ذنب أغفره» ولهذا المعنى قال أبو يزيد رضى الله عنه توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة (الستر على قسمين ستر عن المعصية وستر فيها فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق والخاصة يطلبون من الله الستر عنها خشية سقوطهم

سقوطهم من نظر الملك الحق) بمخالفته والتعرّض لسخطه وشتان ما بين هـذين الحالين وهذا هو الغالب من حال الفريقين وقد تطلب العامة الستر فيها امتثالا لأمر الله ورسوله بالستر لمن ابتلى بشئ منها ولا يكون عندهم استخفاف

بها ولا محبة لها وتطلب الخاصة الستر فيما وقع منهم بأن لا يفضحهم بين خلقه ولا بين يديه لخجلهم من وقوع المعصية منهم ولاساءة الناس ظنهم بالمنسوبين إلى الله إذا اطلعوا عليهم (من أكرمك) أى أقبل عليك باعطاء أومحبة أوشكر (إنما أكرم فيك جميل ستره) أى ستره الجميل عليك فلولا جوده ما أقبلوا عليك ولا أحبوك ولا نظروا إليك بعين الرضا إذ لو اطلعوا على ما أنت عليه لاستقذروك ونفروا عنك وحينئذ (فالحمد) لا ينبغى أن يكون إلا (لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك) فلا تحمده إلا من حيث إجراء الخير على يديه لا من حيث إنه المكرم والمعظم حقيقة إذ ليس ذلك إلا الله فمن أقبل الناس عليه وأكرموه فقد يغلط فيضع الحمد والثناء فى غير موضعه فيكون من الظالمين وقد يغلط فيرى لنفسه وصفا محمودا يستحق به الاكرام فيكون من الجاهلين بأنفسهم الناظرين إلى عملهم الغافلين عن منة الله عليهم فحذره المصنف من هاتين الغلطتين

سقوطهم من نظر الملك الحق) العامة يغلب عليهم شهود الخلق والتصنع والتزين لهم ومحبة حمدهم وكراهية ذمهم فهم يعملون المعصية ويستخفون بها ويطلبون الستر من الله عليهم فيها أى فى حال كونهم عاملين بها لئلا يراهم الخلق فيسقطوا من أعينهم وفى أمثالهم قال الله عز وجل ـ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ـ قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى هذه الآية الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أنّ الحق مطلع عليهم أولئك الذين وسم الله قلوبهم بوسم الفرقة . روى عدىّ بن حاتم رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة حتى إذا دنوا منها ونظروا إليها واستنشقوا ريحها وما أعدّ الله لأهلها نودوا أن اصرفوهم عنها فلا نصيب لهم فيها قال فيرجعون بحسرة ما رجع الأوّلون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا قال ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وركنتم إلى الناس ولم تركنوا إلىّ فاليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب» وفى بعض الكتب المنزلة: إن لم تعلموا أنى أراكم فالخلل فى إيمانكم وإن علمتم أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ـ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ـ هو الرجل تمرّ به المرأة فى القوم فيريهم أنه يغضّ بصره عنها ويودّ أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها وقال فى رواية أخرى هو الرجل يكون فى القوم فتمرّ بهم المرأة فيريهم أنه يغضّ بصره عنها فاذا رأى من القوم غفلة لحظ إليها ونظر فاذا خاف أن يفطنوا غضّ بصره عنها فقد اطلع الله عز وجل على قلبه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها وهذا كله شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار والخاصة من أهل الايمان واليقين برآء من هذا الوصف الذميم لا التفات لهم إلى الخلق مدحا ولا ذما وهمتهم مصروفة عن النظر إليهم والاعتماد عليهم فى نفع أو دفع ضرّ وحالهم إنما هو القناعة بعلم الله تعالى ومراقبة نظره فهم يطلبون الستر من الله عنها فى أن يغيبها عن نظرهم ولا يخطرها بقلوبهم فتميل إليها أنفسهم فيعملون بها فيقعون فى مخالفة ربهم والتعرّض لسخطه والسقوط من عينه وشتان ما بين الحالين وإلى هذا المعنى أشار سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى دعائه بقوله : اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابها وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها واحملنا على النجاة منها ومن التفكر فى طرائقها وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدّها (من أكرمك إنما أكرم فيك جميل ستره فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك) العبد محل الآفات والعيوب وستر الله الجميل هو الذى يحبب الناس إلى الناس فاذا أكرمك أحد فلا يذهبن ذلك بك إلى أن ترى لنفسك وصفا محمودا تستحق به الاكرام فتكون جاهلا بنفسك ولا يحملنك أيضا رؤية إكرام الخلق لك لوجود جهلهم بحالك على أن تحمدهم عليه دون ربك الذى اضطرهم إلى إكرامك وستر عنهم عيوبك وأظهر لهم محاسنك فتكون بذلك

(ما صحبك) أى ليس الصاحب الحقيقى (إلا من صحبك) أى أقبل عليك بإحسانه (وهو بعيبك عليم) أى لم يمنعه من صحبته لك و إقباله عليك ما يعلمه من تفاصيل عيو بك (وليس ذلك إلا مولاك الكريم) وكذا من تخلق بأخلاقه من السادة الصوفية العارفين بالله تعالى أما الذى يصحبك مع جهله بها فليس بصاحب حقيقة لأنه لا يثبت عند ظهورها له وان عزم على ذلك فليس فى مقدوره الصبر عليه وان صبر فلا بد من تأثر يلحقه من ذلك (خير من تصحب من يطلبك) أى يريدك ويؤثرك على غيرك و يعتنى بك (لالشىء يعود منك إليه) أى وليس ذلك الا مولاك أو من تخلق بأخلاقه أما من يصحبك لفعالك معه و نفعك له فليس بصاحب حقيقة لأن قصده مجرد قضاء حوائجه منك فاذا زال غرضه فارقك (لو أشرق لك نور اليقين) أى العلم بالله و بما وعد به على لسان نبيه أى لو كثر وأضاء ذلك النور فى قلبك (لرأيت الآخرة) فى تلك

الحالة (أقرب إليك من) نفسها فى حالة (أن ترحل إليها) أى فى حال ارتحالك إليها وحلولك فيها (ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء) أى الفناء الشبيه بالكسفة بفتح الكاف أى الكسوف والتغير أو كسرها وهى القطعة من الشىء التى يغطى بها الاناء فلا تلتفت إليه النفس ولا تنظر ما فيه (عليها) وذلك أن نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه فاذا أشرق فى قلب العبد رأى به الحق حقا والباطل باطلا والآخرة حق والدنيا باطل فيبصر الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل فكانت أقرب إليه من أن يرتحل فيقبل عليها بالتهيؤ والاستعداد لها ويبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقينى الزهد فيها والتجافى عن زهرتها والاقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال صلى الله عليه وسلم «إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح قيل يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه فلا تأمره إلا بخير ولا تطالبه بارتكاب منهى ولا تكون له همة إلا المسارعة إلى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات وذلك لاستشعاره فى كل حين بحلول الأجل وفوات صلاح الأمل

كافرا بنعمة ربك ظالما بوضع الحمد فى غير موضعه (ما صحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك إلا مولاك الكريم خير من تصحب من يطلبك لالشىء يعود منك إليه) الصاحب على الحقيقة هو من بذل إحسانه إليك وأسبغ نعمه عليك ولم يمنعه من ذلك ما يعلمه من عيو بك التى يكرهها منك وليس ذلك إلا مولاك وخير صاحب لك أيضا من اعتنى بك وآثرك وأرادك من غير منفعة ينالها منك وليس ذلك أيضا إلا مولاك فاتخذه صاحبا ودع الناس جانبا (لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها) نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هى عليه فيحق به الحق و يبطل به الباطل والآخرة حق والدنيا باطل فاذا أشرق نور اليقين فى قلب العبد أبصر به الآخرة التى كانت غائبة عنه حاضرة لديه حتى كأنها لم تزل فكانت أقرب إليه من أن يرحل إليها فحق بذلك حقها عنده وأبصر الدنيا الحاضرة لديه قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة فظهر له بطلانها حتى كأنها لم تكن فيوجب له هذا النظر اليقينى الزهادة فى الدنيا والتجافى عن زهرتها والاقبال على الآخرة والتهيؤ لنزول حضرتها ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح قيل يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» أو كما قال صلى الله عليه وسلم وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعى نفسه فلا تأمره بسوء ولا تطالبه بارتكاب منهى ولا يكون همه إلا المسارعة إلى الخيرات والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات وذلك لاستشعاره حلول الأجل وفوات صالح العمل و إلى هذا المعنى الاشارة بحديثى حارثة ومعاذ رضى الله عنهما روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النبى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ياحارثة فقال أصبحت مؤمنا بالله حقا قال انظر ما تقول فان لكل قول حقيقة فقال يارسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى فكأنى بعرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها فقال أبصرت فالزم عبد نور الله الايمان فى قلبه قال يارسول الله ادع الله لى بالشهادة فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودى يوما فى الخيل ياخيل

ياخيل الله اركبي فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد فبلغ أمه ذلك فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له يارسول الله أخبرني عن ابني حارثة فان يك في الجنة فلن أبكي ولن أجزع وان يك غير ذلك بكيت ماعشت في الدنيا فقال صلى الله عليه وسلم ياأم حارثة إنها ليست بجنة ولكنها جنة في جنان وحارثة في الفردوس الأعلى فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك ياحارثة . وروى أنس أيضا: أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال له كيف أصبحت يامعاذ قال أصبحت بالله مؤمنا قال النبي صلى الله عليه وسلم إن لكل قول مصداقا ولكل حق حقيقة فما مصداق ماتقول قال يانبيّ الله ماأصبحت صباحا قط إلا ظننت أن لا أمسي وما أمسيت مساء قط إلاظننت أن لا أصبح ولاخطوت خطوة قط إلاظننت أن لا أتبعها أخرى وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة قال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم فهذان الرجلان الفاضلان حارثة بن سراقة ومعاذ بن جبل الأنصاريان رضى الله تعالى عنهما لما أشرق عليهما نور اليقين وتمكن من قلوبهما أي تمكين صدر منهما ماصدر مما ذكراه من فنون العبر وشاهدا أمر الدارين بمنزلة رأى العين فسلمت أعمالهما من العيوب والآفات وحفظا من الهفوات والسيئات وطهرت منهما الأسرار والقلوب وسارعا في كل أمر محبوب وطارت أرواحهما اشتياقا إلى لقاء الواحد الفرد وطابت أنفسهما بالموت حتى صار عندهما أحلى من الشهد حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم وكذلك غيرهما من الصحابة وكبار التابعين وأئمة الدين رضى الله عنهم أجمعين :

ولقد أجاب معبر عن حالهم   فاسمع مقالا صادقا مقبولا
إن الألى ماتوا على دين الهدى   وجدوا المنية منهلا معسولا

وروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن حرام بن ملحان رضى الله عنه وهو خال أنس طعن يوم بئرمعونة في رأسه فتلقى دمه بكفه ثم نضحه على رأسه ووجهه وقال فزت ورب الكعبة وكان جبار ابن سلمى فيمن حضر بئرمعونة مع عامر بن الطفيل ثم أسلم بعد ذلك فكان يقول مما دعاني إلى الإسلام إني طعنت رجلا منهم فسمعته يقول فزت والله قال فقلت في نفسي والله مافاز أليس قتلته حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا الشهادة فقلت فاز لعمر الله المطعون ههنا والله أعلم هو عامر ابن فهيرة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الأمراء الثلاثة يوم مؤتة أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح الله عليه أظنه قال صلى الله عليه وسلم والله مايسرنا أنهم عندنا أوقال مايسرهم أنهم عندنا وعيناه تذرفان دموعا فلله درّهم لقد حازوا مرتبة شريفة ومنزلة عالية منيفة وتبا لأمثالنا الذين عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم فحجبت عنا شموس المعارف ووقعنا في أودية المهالك والمتالف واغتررنا بهذه الدار الغرّارة الفتانة السحارة فتشبثت مخالبنا بشباكها وارتبكنا في مصايدها وأشراكها من غير شعور منا بحالها وتزوير محالها فكنا في قصدنا إليها وتعويلنا عليها بمنزلة ظمآن لاح له سراب حسبه ماء فلماجاءه لم يجد فيه هناء ولاغناء . ثم مع هذا كله تنتسب إلى الدين وتدّعي كمال المعرفة واليقين والدخول في بحار أولياء الله المتقين مع أن أحدنا لوخير بين حلول الحين أوالبقاء في الدنيا معلقا بأشفار العين لاختار البقاء فيها على هذه الحال مع كونه لايحدث نفسه في طاعة بازدياد ولاعن معصية بانتقال وهذه كلها أخلاق يهودية لاتليق بمن ينتسب إلى هذه الملة المحمدية قال الله عزوجل مخبرا عن حال اليهود وكاشفا لأسرارهم وهاتكا لأستارهم ـ ولتجدنهم أحرص

(ماحجبك) أيها المريد المحجوب (عن الله وجود موجود) من الأكوان الدنيوية والأخروية (معه) إذ لاوجود لما سواه على التحقيق (ولكن حجبك عنه توهم موجود معه) أى توهمك أن ماسواه له وجود مع أنه فى ذاته عدم محض عند العارفين ووجوده كوجود ظلال الشجر على الماء فانها لاتمنع سير السفن فلاحاجب لك عن الله إلاتوهم وجود ماسواه لاغير وذلك كرجل بات فى مكان وأراد البراز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئيرا أى صوت أسد فمنعه ذلك عن البراز فلما أصبح لم يجد هناك أسدا وإنما الريح انضغطت فى تلك الكوة فماحجبه وجود أسد وإنماحجبه توهم الأسد (لولا ظهوره فى المكوّنات) أى تجليه عليها بالوجود (ماوقع عليها وجود إبصار) أى لم توجد وإذا لم توجد فلا تبصر فوجودها إنما هو بطريق العارية وظهور الحقّ فيها كظهور الشمس فى الكوّة ذات الزجاج وإلا فهى فى ذاتها عدم محض لاوجود لها فى ذاتها كما تقدم غير مرة ويحتمل أن المعنى أن ظهور الحق تعالى لنا من وراء حجاب المكوّنات هو الذى أوجب ظهورها ووقوع الأبصار عليها ولولا تجليه فى هذه المكوّنات بأن يتجلى التجلى الحقيقى الذى لاخفاء معه لاضمحلت وتلاشت ولم يقع عليها أبصار بدليل قوله تعالى ـ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرّ موسى صعقا ـ وإلى ذلك أشار بقوله (لوظهرت صفاته اضمحلت مكوناته) بل لم يكن هناك بصر ولا إبصار ولا مبصر كما جاء فى الحديث حجابه النور وفى رواية حجابه النار لوكشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره (أظهر كل شئ لأنه الباطن) أى فان مقتضى اسمه الباطن أن لايشاركه فى البطون شئ فلذا أظهر الأشياء كلها أى جعلها ظاهرة ولاباطن فيها غيره (وطوى وجود كل شئ لأنه الظاهر) أى أن مقتضى اسمه الظاهر أن لايشاركه فى الظهور شئ فلذا طوى وجود كل شئ أى لم يجعل لغيره وجودا من ذاته بل المكونات جميعها عدم محض ولاوجود لها إلامن وجوده . وحاصله أنّ من أسمائه تعالى الظاهر الباطن فاسمه الظاهر يقتضى بطون كل شئ حتى لاظاهر معه فينطوى حينئذ وجود كل شئ واسمه الباطن يقتضى ظهور كل شئ حتى لاباطن معه فيظهر إذ ذاك وجود كل شئ أى بوجوده فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار ولاوجود لغيره إلابطريق التبع عند أرباب البصائر بخلاف غيرهم من المحجوبين

(أباح

الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ـ فلو لم ينه العاقل عن محبة البقاء فى هذه الدار ويأمره بايثار دار القرار إلا تشبهه باليهود الناقضين للعهود المتهاونين بأوامر المعبود لكان ذلك أبلغ ناه وآمر فضلا عما ورد فى ذلك من مواعظ وزواجر نزع الله عن قلوبنا حجاب الغفلة والغرور وحمانا عن مشابهة كل ظلوم وكفور وحبب إلينا لقاءه ورزقنا مارزق أولياءه وأصفياءه وأحباءه بمنه وكرمه (ماحجبك عن الله وجود موجود معه ولكن حجبك عنه توهم موجود معه) تقدم أن لا موجود سوى الله تعالى على التحقيق وأن وجود ماسواه إنما هو وهم مجرد فلاحاجب لك من الله تعالى إلا توهم وجود ماسواه لا غير والتوهمات باطلة فلا حاجب لك عن الله تعالى إذن وقد استوفى المؤلف رحمه الله تعالى ذكر جميع أنواع الاعتبارات فى هذا المعنى قبل هذا قال فى لطائف المنن وأشبه شئ بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظلّ لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم وإذا ثبتت ظلية الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر لأن الشئ إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله كذلك أيضا من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله تعالى فان ظلال الأشجار فى الأنهار لاتعوق السفن عن التسيار ومن ههنا يتبين لك أيضا أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله ولوكان بينك وبينه حجاب وجودى للزم أن يكون أقرب إليك منه ولاشئ أقرب من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب فما حجبك عن الله وجود موجود معه وذلك كرجل بات فى مكان وأراد البراز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البراز فلما أصبح لم يجد هناك أسدا وإنما هو الريح انضغط فى تلك الكوة فماحجبه وجود أسد وإنما حجبه توهم الأسد (لولا ظهوره فى المكونات ماوقع عليها وجود أبصار لوظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته) ظهور الحقّ تعالى من وراء حجاب المكونات هو الذى أوجب ظهورها ووقوع الابصار عليها ولولا وجود حجابيتها لم يقع عليها أبصار ولتلاشت لوجود التجلى الحقيقى كما قال لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته بل لم يكن هناك بصر ولا إبصار ولا مبصر كما جاء فى الحديث حجابه النار وفى رواية النور لو كشف عنها لأحرقت سبحات وجهه كلّ شئ أدركه بصره (أظهر كلّ شئ لأنه الباطن وطوى وجود كل شئ لأنه الظاهر) من أسمائه تعالى الظاهر والباطن فاسمه الظاهر يقتضى بطون كل شئ حتى لاظاهر معه فينطوى حينئذ وجود كلّ شئ واسمه الباطن يقتضى ظهور كلّ شئ حتى لاباطن معه فيظهر إذ ذاك وجود كل شئ فالحق تعالى هو الموجود بكل اعتبار والحمد لله

(أباح لك) أى أمرك الله تعالى (أن تنظر ما فى المكونات) وهو جمال الحق سبحانه أى أن تتصدى بنظرك القلبى حتى تشاهد أنه الموجود فى المكونات أى الظاهر فيها (وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات) بأن تحتجب بها عنه فلا تشاهده فيها. ثم استدل على ذلك وبينه بقوله (قل انظروا ماذا فى السموات) فأتى بفى الظرفية المشعرة بأن الاعتبار بالمظروف دون الظرف قال فى لطائف المنن فما نصب لك الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها اه وأشار إلى ذلك هنا بقوله - قل انظروا ماذا فى السموات - (فتح لك باب الأفهام) أى نبهك وأيقظك لما هو المطلوب منك وهو مشاهدة ما فيها كما يفهم من الظرفية (ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام) فتحتجب بها عنه ولا تشاهده فيها فتصير مقصدا مع أنها وسيلة إذ ليست إلا مرائى ومجالى يتجلى فيها الحق سبحانه لأرباب الشهود ويستدل بها عليه أرباب الحجاب. ثم ذكر حاصل ما تقدم بقوله (الأكوان) من حيث ذاتها عدم محض وإنما هى (ثابتة باثباته) أى إنما حصل لها وصف الثبوت والتحقق باثبات الله لها أى ظهوره فيها فالثبوت لها أمر عرضى ولا ثابت حقيقة إلا هو ولذا قال (وممحوة بأحدية ذاته) أى من نظر إلى أحدية ذاته لم يجد للأكوان ثبوتا وتحققا حينئذ وإنما لها ثبوت فى النظر إلى الواحدية لأن الأحدية عند العارفين هى الذات البحت أى الخالصة عن الظهور فى المظاهر وهى الأكوان والواحدية هى الذات الظاهرة فى الأكوان فيكون للأكوان حينئذ ثبوت باعتبار ظهور الحق فيها ولذا يقولون بلسان الاشارة الأحدية بحر بلا موج والواحدية بحر مع موج فان الحق سبحانه عندهم كالبحر والأكوان كالأمواج التى يحركها ذلك البحر فهى ليست عينه ولا غيره هذا هو توحيد العارفين وقد كرر المصنف الكلام عليه فى هذا الكتاب وأبرزه فى عبارات مختلفة محاولة على أن يحقق عندك الحق ويبطل عندك الباطل وقد أفرده بعضهم بالتأليف وتكلم على وحدة الوجه بما لا مزيد عليه

(أباح لك أن تنظر ما فى المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات قل انظروا ماذا فى السموات فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام) أمر الله تعالى بالنظر فى المكونات ليس لذاتها لأن فى ذلك البعد عن الله تعالى بالنظر إلى ما سواه ولم يبح هذا وإنما أمرهم بذلك ليتوصلوا بنظرهم فيها إليه لوجود ظهوره فيها والاشارة إلى هذا المعنى بفى فى قوله تعالى - قل انظروا ماذا فى السموات والأرض - فالمعنى المقصود فى وجود الظرفية ومنها يستفاد وهو معنى قوله فتح لك باب الأفهام فلو أسقطها وقال انظروا السموات لكان فيه دلالة على وجود الأجرام وهى أغيار له وفيها البعد عنه فكيف يدل على ذلك وهو لم يأذن فيه. قال فى لطائف المنن فما نصبت لك الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها قال ولنا فى هذا المعنى :

ما أبينت لك العوالم إلا ... لتراها بعين من لا يراها
فارق عنها رق من ليس يرضى ... حالة دون أن يرى مولاها

(الأكوان ثابتة باثباته وممحوة بأحدية ذاته) الأكوان من ذاتها العدم المحض كما تقدم وإنما حصل لها وصف الثبوت باثبات الله تعالى لها وجعلها أكوانا فالثبوت لها أمر عرضى والحق اللازم هو وجود أحدية الله عز وجل والأحدية مبالغة فى الوحدة ولا تتحقق إلا إذا كانت الوحدة بحيث لا يمكن أن يكون أشد ولا أكمل منها فمن مقتضى حقيقتها محو الأكوان وبطلانها بحيث لا توجد إذ لو وجدت لم تكن أحدية ولكان فى ذلك تعدد واثنينية كما قيل :

رب وعبد ونفى وضد ... قلت له ليس ذاك عندى
فقال ما عندكم فقلنا ... وجود فقد وفقد وجدى
توحيد حق بترك حق ... وليس حق سواى وحدى

وأنشدوا أيضا :

سر سرى من جناب القدس أفنانى ... لكن بذاك الفناعنى قد احيانى
وردنى للبقا حتى أعبر عن ... جمال حضرته لكل هيمانى
وطرت فى ملكوت من عجائبه ... لم ألق غير وجود ماله ثانى

وأنشد المؤلف رحمه الله تعالى لنفسه فى لطائف المنن يوصى رجلا من إخوانه اسمه حسن فقال :

حسن بأن تدع الوجود بأسره ... حسن فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بأنه ... لا ترك إلا للذى هو حاصل

(الناس يمدحونك لما يظنونه فيك) من الأوصاف الحميدة (فكن أنت ذامّا لنفسك لما تعلمه منها) أى فلا تغترّ بمدح الناس لك وثنائهم عليك بل ارجع على نفسك باللوم والذم على تلبسها بخلاف مايظن الناس فيك ولذا قال علىّ كرم الله وجهه اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ولاتؤاخذنا بمايقولون واغفر لنا ما لايعلمون ويؤخذ من قوله فكن أنت الخ أنه ليس مأمورا بتكذيب الناس ولابالسعى فى تبديل ظنهم فيه وإنما (١٠٨) . هومأمور بعدم الاغترار وتقديم علمه على ظنهم، نعم إن كان المادح كاذبا فى مدحه

متى شهدت سواه فاعلم أنه	من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده	والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصريح من الهدى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شئ غيره	يقضى به الآن اللبيب العاقل
لا غرو أن لا نسبة مثبوتة	ليذمّ ذو ترك ويحمد فاعل

وقال رضى الله تعالى عنه (الناس يمدحونك لما يظنونه فيك فكن أنت ذامّا لنفسك لما تعلمه منها) ذم العبد لنفسه واحتقارها لما يتحققه من عيوبها وآفاتها مطلوب منه لأن ذلك يؤديه إلى الحذر من غرورها وسرورها فتصلح بسبب ذلك أعماله وتصدق أحواله و إلا فسدت عليه واعتلت لدخول الآفات عليها ولايصدّنه عن ذلك ثناء الناس عليه ومدحهم له لأنه يعلم من عيوب نفسه مالايعلمه غيره ثم إنهم لما قاموا بحق مايجب عليهم من المدح له وحسن الظن به فينبغى أيضا أن يقوم هو بحق مايجب عليه من اتهام نفسه وسوء اعتقاده فيها قال بعضهم من فرح بمدح نفسه فقد أمكن الشيطان أن يدخل فى بطنه وقال آخر إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل وقيل لبعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله فيهم فغضب وقال إنى لأحسبك عراقيا وقال بعضهم لما مدح اللهم إن عبدك تقرب إلىّ بمقتك فأشهدك على مقته وقال آخر اللهم اجعلنا خيرا ممايظنون ولاتؤاخذنا بمايقولون واغفرلنا مالايعلمون قال الامام أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلائق لأن الممدوح هو المقرب عند الله تعالى والمذموم على الحقيقة هو المبعد عند الله تعالى الملقى فى النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله تعالى من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره و إن كان من أهل الجنة فلاينبغى أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قلّ التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه انتهى كلام أبى حامد رضى الله تعالى عنه (المؤمن إذا مدح استحيا من الله تعالى أن يثنى عليه بوصف لايشهده من نفسه) المؤمن الحقيقى هو الذى لايشهد من نفسه صفة محمودة يستحق بها أن يمدح أو يثنى عليه و إنما يشهد ذلك من ربه عز وجل فاذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله تعالى استحياء تعظيم و إجلال أن يثنى عليه بصفة ليست فيه فيزداد بذلك مقتا لنفسه واستحقارا لها ونفورا عنها وتقوى عنده رؤية إحسان الله تعالى وشهود فضله فى إظهار المحاسن عليه وهذا هو الشكر الذى ينال به المزيد مع سلامته مع السكون إلى ثناء العبيد (أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس) الاغترار بمدح الناس وثنائهم غاية فى الجهل والغباوة وذلك من علامات المقت لأن

بارتكاب للبالغة والغلوّ تأكد تكذيبه وزجره وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم «احثوا التراب فى وجوه المدّاحين» فمدحه حينئذ منهىّ عنه وكذا لوكان مدحه يورث عند الممدوح غرة و يغلطه فى نفسه وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم لمن مدح عنده رجلا «قطعت عنق صاحبك» وقال: إياكم والمدح فانه الذبح» (المؤمن) الحقيقىّ (إذا مدح استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لايشهده من نفسه) أى لايرى ذلك الوصف الذى مدح عليه من نفسه) و إنما يراه منة من الله عليه فلا يشهد من نفسه صفة محمودة يستحقّ بها أن يثنى عليه و إنما يشهد ذلك من ربه فاذا أثنى الناس عليه وذكروا محاسنه استحيا من الله استحياء

تعظيم و إجلال أن يثنى عليه بصفة ليست منه فيزداد بذلك مقتا لنفسه واستحقارا لها ونفورا عنها وتقوى عنده المغتر رؤية إحسان الله إليه وشهود فضله فى إظهار المحاسن عليه وهذا هو الشكر الذى به ينال المزيد مع سلامته من السكون إلى ثناء العبيد (أجهل الناس) أى أشدهم جهلا (من ترك يقين ما عنده) أى اليقين الذى عنده وهو علمه بعيوب نفسه وتقصيره معربه (لظن ما عند الناس) أى لأجل الظن الذى عند الناس وهو ظنهم صلاح حاله حتى مدحوه وأثنوا عليه فاذا اغتر ذلك المدوح واعتقد استحقاقه لما مدح به واغتر بشهادة الخلق فيه بذلك كان أجهل الناس لأنه ألغى اليقين وقدم الظن عليه وقدم ماعند غيره على ماعند نفسه وقد شبه ذلك

بعضهم بمن يهزأ بك و يقول لك إنّ العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك وأنت ترضى بالسخرية بك وتفرح بذلك ولاشك أنّ العيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه (إذا أطلق الثناء) أي ألسنة الناس بالثناء (عليك ولست بأهل) أي والحال أنك لست أهلا لما يثنون به عليك إما

لعدم وجود ذلك فيك أو لكونك معيبا بالعيوب الأصلية والعارضة فلا تستحق ثناء عليك لولا فضل الله عليك وستره الجميل (فأثن عليه بما هو أهله) أي فالأدب أن تثني على سيدك بما هو أهله ليكون ذلك شكرا لنعمة ستره عليك و إطلاق الألسن بمدحك مع عدم أهليتك لذلك ولا تغترّ بأقوال المادحين (الزهاد إذا مدحوا) أي مدحهم أحد من الناس (انقبضوا لشهودهم الثناء) صادرا (من الخلق) وغيبتهم عن الرب و إنما انقبضوا خوف الاغترار بذلك الثناء فيفوتهم نصيبهم من ربهم (والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق) فهم حاضرون مع ربهم لا يشاهدون معه غيره قائلون ألسنة الخلق أقلام الحق فإذا مدحوا شهدوا الثناء منه فانبسطوا لذلك وكان مزيدا في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم فلا يحصل عندهم إعجاب ولا اغترار . قيل وهذا محمل قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الايمان في قلبه» ولذا كان يمدح المصنف شيخه المرسي وهو ساكت و يقع عنده المدح موقعا عظيما وكذا وقع لغيره من العارفين وصاحب هذا المقام إذا ذمّه أحد لا يجد في نفسه عليه ولا يؤذيه لعدم شهوده الذمّ صادرا منه

المغترّ بذلك ترك يقينه بنفسه لظنّ غيره به وهو على كل حال أعلم بنفسه وقد شبهه الحرث المحاسبي رضي الله عنه الراضي بالمدح بالباطل بمن يهزأ به و يقال له إنّ العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك وهو يفرح بذلك و يرضى بالسخرية به . قلت ولاشك أنّ الذنوب والعيوب التي يعلمها العبد من نفسه أنتن وأقذر من العذرة التي تخرج من جوفه ولافرق بين الحالين إلا أنه في حال المدح يعلم أنّ المادح لم يشاركه في معرفة ذنوبه وعيوبه مشاركة ذلك المستهزئ للمستهزأ به في معرفة حال مايخرج من جوفه فهو بجهله وغباوته قد رضي بأن يكون له في قلوب العباد الجاهلين بحاله قدر وجاه من غير مبالاته بسقوطه من عين مولاه الذي يعلم من حاله مالا يعلمه هو ولاغيره من حيث رضي بالمدحة وفرح بها ولم يقابل ذلك بالاباء والكراهية هذا إذا كان المادح من أهل العلم والدين وأما إن كان جاهلا أو فاسقا فلا غباوة أعظم من الرضا بمدحهم والفرح به قال يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه تزكية الأشرار هجنة بك وحبهم لك عيب عليك . وقيل لبعض الحكماء إنّ العامة يثنون عليك فأظهر الوحشة من ذلك وقال لعلهم رأوا مني شيئا أعجبهم ولاخير في شيء يسرّهم و يعجبهم . و يروى عن بعض الحكماء أنه مدحه بعض العوام فبكى فقال له تلاميذه أتبكي وقد مدحك فقال له إنه لم يمدحني حتى وافق بعض خلقي خلقه فلذلك بكيت فانظر هذا فقد نبهك هذا الحكيم على العلة في ذلك (إذا أطلق الثناء عليك ولست بأهل فأثن عليه بما هو أهله) المؤمن هو الذي لا يرى نفسه أهلا لأن يمدح أو يثنى عليه لأنّ موجبات ذلك ليس له منها شيء كما تقدّم فإذا أطلق الله تعالى ألسنة الناس بالثناء عليه ولا أهلية فيه لذلك فينبغي أن يعرف الحق لأهله فيستعمل نفسه بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ليكون ذلك شكرا لنعمة إطلاق الألسنة بالثناء عليه من غير استحقاق لذلك ولا لثبوت أهلية (الزهاد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق) تقدّم أنّ الزهاد في غيبة عن الله تعالى فهم لا يشاهدون إلا الخلق فإذا مدحوا وأثني عليهم شهدوا ذلك من الخلق فانقبضوا عند ذلك لأنهم يخافون فوات نصيبهم من ربهم لأجل ما يتوقعون من الاغترار بذلك والعارفون حاضرون مع ربهم فهم لا يشاهدون معه غيره فإذا مدحوا شهدوا الثناء من ربهم فانبسطوا لذلك وكان ذلك مزيدا في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم كان بعضهم يمدح وهو ساكت فقيل له في ذلك فقال وما عليّ من ذلك ولست أغلظ في نفسي بل لست في البين والمجري والمثني هو الله عزّ وجلّ . وقيل هذا المعنى في الخبر المروي «إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الايمان في قلبه» قال أبو طالب المكي رضي الله عنه وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الايمان العلي إلى المولى الأعلى فيفرح بذلك لمولاه و يضيفه إلى سيده الذي تولاه فيردّ الصنعة إلى صانعها و يشهد من الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر لا ينظر إلى وصفه ولا يعجب بنفسه انتهى . قلت وللمؤلف رحمه الله قصائد في مدح شيخه أبي العباس المرسي رضي الله عنه وكان ينشدها كثيرا بين يديه و يقع ذلك منه موقعا عظيما وكان يستعيد منه بعضها و يقول له في بعضها أيدك الله بروح القدس نحو ما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لشاعره حسان بن ثابت مع أنّ حب المدح عندهم من الرذائل التي تشبه الفضائل و بهذا النظر والشهود الجلي استقام لهم من مدحهم لأنفسهم وثناؤهم عليها مالم يستقم لغيرهم كما وقع لجماعة منهم . وقد روى في ذلك عن سيدي عبد القادر الجيلاني وسيدي أبي الحسن

(متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء و إذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك) أى تطفلك على أهل الله ولست منهم بل أنت داخل معهم فى أمر لا تستحقه كما أن الطفيلى يدخل مع الأضياف فى ضيافتهم ولا يستحق الدخول معهم وهو منسوب لطفيل رجل من أهل الكوفة كان يأتى الولائم من غير أن يدعى إليها وكان يقال له طفيل الأعراس (وعدم صدقك فى عبوديتك) لأن القبض عند المنع والبسط عند العطاء

من علامات بقاء الحظ والعمل على نيله وهو مناقض للعبودية عند العارفين فمن وجد ذلك فليعرف عدم صدقه فى عبوديته وأنه طفيلى بين أهل الله فى ادعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها بل الحاصل عنده مجرد دعوى نعم إن كان قبضه خوفا من عدم صبره ومقاومته للقهر الالهى فيحصل عنده بعض ضجر وكان بسطه لعدم وقوعه فى ذلك ففيه اعتناء من الحق به حيث لم يوقعه فى أمر يشوش عليه حاله لم يكن دليلا على ماذكر لأن العارفين لابد من بقايا شىء من بشريتهم يتمكنون به من مخالطة الخلق ومن لازم البشرية ذلك فالخطاب المذكور مع المريدين (إذا وقع منك ذنب) على حسب مقامك (فلا يكن سببا ليأسك) أى يقتضى يأسك (من حصول الاستقامة) أى اعتدال أحوالك (مع ربك) بأن تعتقد بسبب صدور الذنب أن حصول الاستقامة لك مستحيل فيحملك ذلك على تعاطى غيره من الذنوب و إذا

وهذا غلط لأن الاستقامة على العبودية لا يناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذا جرى القدر عليه بذلك و إنما يناقضها الاصرار عليه والعزم على فعله ثانيا فالواجب عليك أن تتوب إلى مولاك وترجع إليه ولا تيأس من رحمته (فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر عليك) ويقبل عليك المولى بعد ذلك بتوفيقه و إحسانه ثم أشار إلى ما يكون سببا فى الرجوع إلى الله عند صدور الذنب فقال (إذا أردت أن يفتح) الله (لك باب الرجاء) فيه (فاشهد) أى استحضر فى نفسك (ما) هو واصل (منه إليك) من جلب المنافع

الشاذلى وسيدى أبى العباس المرسى رضى الله عنهم وغيرهم غير شىء مع أن ذلك معدود عندهم من الصدق القبيح وماذاك إلا لما ذكرناه ولا يتأول ماوقع لهم من ذلك بما تأول به علماء الظاهر مدح يوسف عليه الصلاة والسلام لنفسه وثناءه عليها بغاية الحفظ والعلم لعدم الحاجة إليه فى هذا المقام والله تعالى أعلم . وعلامة الصدق فى حب المدح و إن كان صاحب هذا المقام لايحتاج إلى علامة أن لا يكره ذم الناس له من حيث نسبة ذلك إليهم لأنهم مصرفون فى قبضة القدرة فيسمح لهم و يصفح عنهم ولايجد فى قلبه عليهم ولايصل بشىء من الأذى إليهم كما قيل :

رب رام لى بأحجار الأذى ... لم أجد بدا من العطف عليه

فعسى يطلع الله على ... فرح القوم فيدنينى إليه

(متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء و إذامنعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك فى عبوديتك) القبض عند المنع والبسط عند العطاء من علامات الحظ والعمل على نيله وهو مناقض للعبودية عند العارفين فمن وجد ذلك فليعرف به عدم صدقه فى عبوديته وأنه طفيلى بين أهل الله تعالى فى ادعائه مقاماتهم وهو لم يؤهل لها والطفيلى هو الذى يأتى الولائم والضيافات فيدخل مع أهلها من غير دعوة وهو منسوب إلى رجل من أهل الكوفة من بنى عبد الله بن غطفان كان يقال له طفيل الأعراس وطفيل العرائس وكان يأتى الولائم من غير أن يدعى إليها فشبه صاحب الكتاب هذا به قال الشيخ أبوعبد الرحمن السلمى رضى الله عنه أكثر الخلق مع الله تعالى فى أحوالهم و إراداتهم على الظنون ماتحقق منهم له إلا قليل ألا تراه تعالى يقول ـ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ـ فمن تحقق فى حاله مع الله تعالى غاب عن كل ما منه وله من الأحوال والأقوال والأفعال نظرا إلى ما إليه من رعاية الحق وحياطته وتوليه وكان للحق من حيث الحق له لا من حيث هو للحق ولكن أكثر العبيد يشيرون إليه بالمعرفة و يظهرون حالة المحبة فاذا ورد عليهم وارد بلاء أوخلاف مراد رجعت نفوسهم إلى حد الاشفاق عليها والاهتمام بها ونسوا مادعوا به وما أشاروا إليه ولو كانوا للحق من حيث الاستحقاق لنسوا فى جنب ما أشار إليه جميع الموارد ساء أم سر لأن من حصل فى ميدان الوصول لا يعترض عليه عارض خلافه وأذهله حاله عما سواه . وقال رضى الله عنه (إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر عليك) الاستقامة على العبودية لايناقضها فعل الذنب على سبيل الفلتة والهفوة إذاجرى القدر عليه بذلك و إنما يناقضها الاصرار عليه فاذا وقع من العبد ذنب فينبغى له أن يبادر إلى التوبة منه ولاييأس بسبب وقوعه فيه من الاستقامة مع ربه و يرى أنه طرده وأبعده رؤية توجب له القنوط من رحمة الله تعالى واليأس من روح الله تعالى لأنه قد يكون ذلك الذنب آخر ذنب قدّر عليه وقد وقع ذلك وفرغ منه (إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك

ودفع الضار من حين كونك فى بطن أمك إلى الوقت الذى أنت فيه فاذاشهدت ذلك غلب عليك حال الرجاء فيه وعدم اليأس من رحمته ولومع الوقوع فى الذنب (و إذا) غلب عليك الرجاء وخفت أن يوقعك ذلك فى مخالفته و (أردت أن يفتح لك باب الخوف) ليكفك عن ذلك (فاشهد) أى استحضر فى نفسك (ما) هو واصل (منك إليه) من المخالفات والعصيان وسوء الأدب بين يديه فاذاشهدت ذلك غلب عليك حال الخوف فتنكف عن مخالفته فالرجاء والخوف حالان ينشآن عن الشاهدتين المذكورتين وشبههما بشئ عليه باب مغلق استعارة بالكناية والباب تخييل والفتح ترشيح أو الاضافة للبيان (ربما أفادك) أيها العارف (فى ليل القبض) أى القبض الشبيه بالليل بجامع السكون فى كل (مالم تستفده) أى علوما ومعارف لم تستفدها (فى إشراق نهار البسط) أى البسط الشبيه بالنهار بجامع الانتشار فى كل لما تقدم أن من

و إذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد مامنك إليه) الرجاء والخوف حالان عن مشاهدتين فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء فليشهد مامنّ الله له من الفضل والكرم والاسعاف والالطاف فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء ، ومن أراد أن يفتح له باب الخوف فليشهد مامنه إلى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديه فسيغلب عليه حينئذ حال الخوف (ربما أفادك فى ليل القبض مالم تستفده فى إشراق نهار البسط ـ لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا.) تقدّم أن القبض يؤثره العارفون على البسط لما فيه من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط وقد ينفتح لهم فيه من أبواب المعارف مالاينفتح لهم فى البسط فينبغى للعبد أن يعرف نعمة الله تعالى عليه فى ليل القبض كما يعرفها فى إشراق نهار البسط لما يعلم أن فى الليل من المنافع ماليس فى النهار فليكل علم ذلك إلى ربه وليحسن ظنه به فانه لايدرى أيهما أقرب إليه نفعا كما أشار إليه بالآية الكريمة وتشبيه القبض بالليل والبسط بالنهار مجاز بديع وقد تقدّم نحوه فى كلام الأستاذ سيدى أبى الحسن رضى الله عنه (مطالع الأنوار القلوب والأسرار) نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد مطالعها وموضع شروقها قلوب العارفين وأسرارهم ، وهذه هى الأنوار الحقيقية من المطالع الروحانية بخلاف الأنوار الحسية . قال فى لطائف المنن : واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى وليا صان قلبه من الأغيار وحرسه بدوام الأنوار ، حتى لقد قال بعض العارفين : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها فقلب المؤمن أولى بذلك ، يقول الله تعالى فيما يحكيه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن» فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذى أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلا ، ولهذا قال الشيخ أبوالحسن رضى الله عنه : لوكشف عن نور المؤمن العاصى لطبق مابين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع ، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول لوكشف عن حقيقة الولىّ لعبد لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته قال ولقد أخبرنى بعض المريدين قال صليت خلف شيخى صلاة فشهدت ما بهر عقلى وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته وانبثت الأنوار من وجوده حتى إنى لم أستطع النظر إليه قال: فلوكشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر مشرقات أنوار قلوبهم وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب وأنوار قلوب أولياء الله تعالى لا كسوف لها ولاغروب.

حصل عنده البسط تهييج نفسه إلى إظهار ماعنده من المعارف وغيرها فربما كان ذلك سببا لحجبه بخلاف من حصل عنده القبض فان نفسه تنكسر وتذل فيكون ذلك سببا فى إفاضة الله الخير عليه ولذا كان العارفون يؤثرونه على البسط لما فيه من من عدم حظ النفس ووجود قدرتهم على الوفاء بآدابه دون البسط وقد يحصل عندهم فيه جزع وعدم صبر على مقاومة القهر الالهى بخلاف البسط فينبغى للعبد أن يعرف قدر نعمة الله عليه فى حال القبض كما يعرفها فى حال البسط وأن يكل كل ذلك إلى ربه ويحسن ظنه به فانه لايدرى أيهما أقرب له نفعا كما قال تعالى (لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا . مطالع الأنوار) أى مواضع طلوع وشروق الأنوار المعنوية وهى نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد (القلوب والأسرار) أى قلوب العارفين وأسرارهم فهى كالسماء التى تشرق فيها الكواكب وتطلع فيها ، وتقدّم أن تلك الأنوار أشدّ إشراقا من أنوار الكواكب . قال بعضهم : لوكشف الحق تعالى عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر من مشرقات أنوار قلوبهم وأين نور الشمس والقمر من أنوار القلوب فان ذلك النور يطرأ عليه الكسوف والغروب وأنوار قلوب أهل الله لا كسوف لها ولاغروب اه قال الشاذلى قدّس سره لوكشف عن نور المؤمن العاصى لطبق مابين السماء والأرض فماظنك بنور المؤمن الطائع فمن لطف الله عدم الاطلاع على أنوار العارفين فقد قال المرسى قدّس سره لوكشف عن حقيقة الولىّ لعبد لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته اه

(نور مستودع فى القلوب) وهو نور اليقين المودع فى قلوب العارفين (مدده) أى يمتد و يتزايد ضياؤه (من النور الوارد من خزائن الغيوب) وهو نور الأوصاف الأزلية فاذا تجلى الله عليهم بأوصافه تزايد ذلك النور الحاصل فى قلوبهم وذلك دليل على عناية الله بهم قال فى لطائف المنن واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا تولى ولياصان قلبه من الأغيار وحرسه بدوام الأنوار اه ثم أشار إلى أن النور المستودع فى القلب على قسمين بقوله (نور يكشف لك عن آثاره) أى عن أحوال المكونات فتطلع على أحوال العباد وعلى مافوق السماء وما تحت الأرض وهذا يسمى كشفا صوريا وهو ليس معتنى به عند المحققين (ونور يكشف لك به عن أوصافه) أى أوصاف جلاله وجماله وذلك النور لايحصل إلا من تجلى تلك الأوصاف عليه وهذا يسمى كشفا معنويا وهو المعتد به عندهم ولم

يقل ونور يكشف لك به عن ذاته لأن تجلى الذات البحت الخالية عن الصفات مختلف فيه عندهم فبعضهم نفاه و بعضهم أثبته ويسميه الشيخ محيي الدين بالبوارق لكونه يطرأ ويزول سريعا لأن القدرة البشرية لاتطيق دوامه (ربما وقفت القلوب مع الأنوار) أى فتحتجب بها وتتعطل عن السير إلى الله تعالى (كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار) أى بكثائف هى الأغيار أى الشهوات واللذات التى هى غير المولى سبحانه فالحجاب على المولى قسمان نورانى وهو العلوم والمعارف إذا وقفت القلوب معها وركنت إليها وجعلتها

كذلك قال قائلهم : إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

(نور مستودع فى القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب) نور اليقين المستودع فى القلوب يستمد و يتزايد ضياؤه من النور الوارد من خزائن الغيوب وهو نور الأوصاف الأزلية كما ذكرناه عن الشيخ أبى العباس المرسى رضى الله عنه قبل هذا وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى أنار الظواهر بأنوار آثاره وأنار السرائر بأنوار أوصافه (نور يكشف لك به عن آثاره ونور يكشف لك به عن أوصافه) النور المدرك بالحواس يكشف لك به عن آثاره وهى الأكون المحدثة وليس لك إلى ذلك كبير حاجة إلا من حيث تستدل به على المؤثر والنور المستودع فى القلوب يكشف لك به عن أوصافه الأزلية حتى تراها عيانا وفى هذا غاية بغيتك و به شرف قدرك ومنزلتك إذ بذلك تتحقق فى المعرفة وترتفع فى المشاهدة ولا تحتاج إلى دليل يدلك وهذا فرقان ما بين النورين قال فى لطائف المنن نور الشمس تشهد به الآثار ونور اليقين تشهد به المؤثر قال ولنا فى هذا المعنى :

هذه الشمس قابلتنا بنور ولشمس اليقين أبهر نورا
فرأينا بهذه النور لكن بهاتيك قد رأينا المنيرا

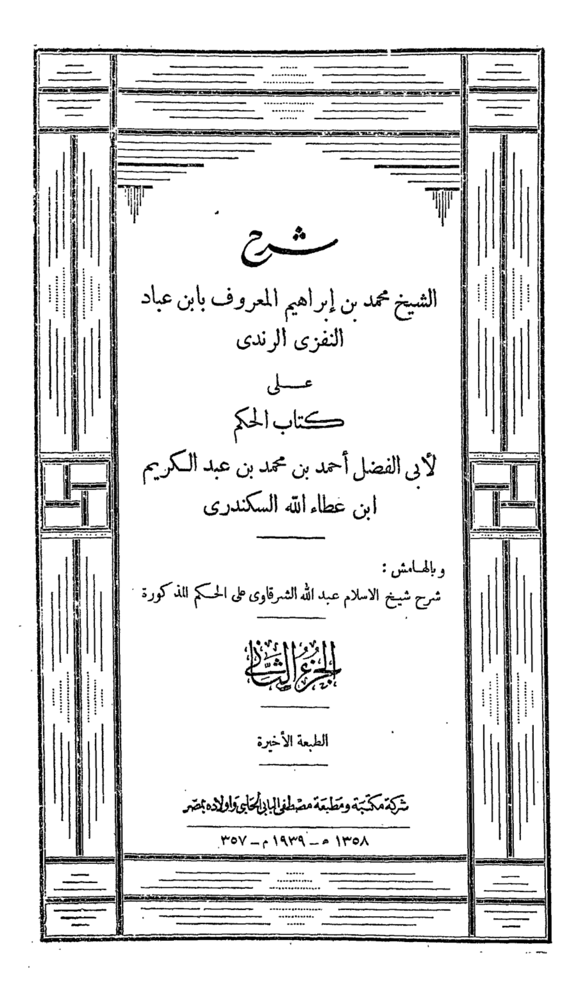
(ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار) القلوب نورانية فتحتجب بوقوفها مع لطائف الأغيار النورانية من العلوم والمعارف والنفوس ظلمانية فتحتجب بمحبتها لكثائف الأغيار الظلمانية من العادات والشهوات فالقلوب محجوبة بالأنوار كما أن النفوس محجوبة بالظلمات والحق وراء ذلك كله قال أبو الحسن التسترى رحمة الله عليه فى قصيدته النونية :

تقيدت للأوهام لما تداخلت عليك ونور العقل أورثك السجنا وهمت بأنوار فهمنا أصولها
ومنبعها من أين كان فما همنا وقد تحجب الأنوار للعبد مثل ما تبعد من أظلام نفس حوت ضغنا

(ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالا لها أن تبتذل بوجود الأظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار) أنوار السرائر إنما خفيت عن العيان بما سترها به من كثائف الظواهر مع أن الظهور التام لاينبغى أن يكون إلا لها لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعا من الاهانة بها وقد تقدم مثل هذا الستر فى قوله سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية .

تم الجزء الأول من شرح ابن عباد على الحكم ، ويليه : الجزء الثانى

غاية مقصدها وظلمانى وهو شهوات النفوس وعاداتها ووصفها بالكثافة لأنها لاتزول إلا بمعاناة ومشقة (ستر أنوار السرائر) أى أنوار قلوب أوليائه (بكثائف الظواهر) أى بالأحوال التى يتلبسون بها فى ظواهرهم و يتعاطونها من الصنائع وغيرها فان تلك الأحوال كثائف أى حاجبة لغيرهم عن الاطلاع على أنوار قلوبهم و إنما ستر تلك الأنوار مع أن الظهور التام لاينبغى أن يكون إلا لها (إجلالا لها أن تبتذل بوجود الاظهار وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار) أى لأنها رفيعة القدر جليلة الخطر فأجلها عن الابتذال لها بوجود إظهارها وصانها من أن ينادى عليها بلسان الاشتهار بين الأغيار فيكون ذلك نوعا من الاهانة بها وقد تقدم هذا فى قوله سبحان من ستر سر الخصوصية الخ لكن أعاد ذلك هنا لأجل التعليل المذكور وأيضا سترها رحمة من الله بالمؤمنين إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقا لايقدر على القيام بها فاذا قصر وقع فى المحذور



شرح

الشيخ محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد
النفزى الرندى

على

كتاب الحكم

لأبى الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم
ابن عطاء الله السكندرى

وبالهامش :
شرح شيخ الاسلام عبد الله الشرقاوى على الحكم المذكورة

الجزء الثانى

الطبعة الأخيرة

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م - ٣٥٧

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

وقال رضى الله عنه

(سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه) لادليل على الله سواه ولا وصول إليه بغيره وكذلك أولياؤه ولما كان الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعناية والخصوصية ويستحيل أن يكون بطلب أو سبب كان أولياؤه المخصوصون بالقرب منه كذلك لما خلع عليهم الخلع العظيمة وتولاهم بمننه الجسيمة فاصطفاهم لنفسه واختصهم بمحبته وأنسه وطهر أسرارهم من أنجاس الأغيار وصان قلوبهم بما أودع فيها من الأنوار والأسرار فكانوا لذلك صفوته فى عباده وخباياه فى بلاده كما قال فى بعض الاشارات عنه سبحانه أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم أحد غيرى وهذا من غيرته عليهم لأن الحق تعالى أغير على أوليائه من أن يظهرهم إلى من لا يعرفهم فلم يجعل لأحد دليلا عليهم إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه لأنه يلبسهم لباس التلبيس بين الأنام ويظهرهم بما يحقرهم فى أعين الخواص والعوام فلم يكن لأحد دليل عليهم أو وصول بسبب إليهم . قال فى لطائف المنن فأولياء الله أهل كهف الايواء فقليل من يعرفهم قال وقد سمعته يقول يعنى شيخه أبا العباس المرسى رضى الله عنه معرفة الولى أصعب من معرفة الله فان الله معروف بكماله وجماله وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وقال فيه وإذا أراد الله تعالى أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته. وقال صاحب كتاب أنوار القلوب لله سبحانه عباد ضنّ بهم عن العامة وأظهرهم للخاصة فلا يعرفهم إلا شكل مثلهم أو محب لهم ولله تعالى عباد ضنّ بهم عن الخاصة والعامة وعباد أظهرهم للخاصة والعامة ولله تعالى عباد يظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية ولله عباد يظهرهم فى النهاية ويسترهم فى البداية ولله عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم حتى يلقونه بما أودعهم منه فى قلوبهم وهم شهداء الملكوت الأعلى والصفيح الأيمن من العرش الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده فتطيب أجسادهم به فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثوا بها مشرقة بنور البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقى الأحد عزّ وجلّ اه . وقال أبو يزيد رضى الله عنه

(سبحان من لم يجعل الدليل) أى الاهتداء والوصول والاستدلال (على أوليائه إلا من حيث) أى من جهة (الدليل عليه) أى أنه مماثل لذلك فكما أن الله محتجب بالأكوان عن المخلوقين فاهتداؤهم إليه ووصولهم إلى معرفته أمر عسير يتعجب منه فاذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها كذلك الولى مستتر بكثائف الظواهر من الصنائع الخسيسة وما يتعاطاه من مأكول ومشروب وغيرها فيكون الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته أمرا عسيرا يتعجب منه فاذا حصل ذلك لأحد كان منحة عظيمة ومنة جسيمة يشكره عليها. والحاصل أن الوصول إلى معرفة الله تعالى الخاصة عناية من الله تعالى لا بطلب ولا بسبب وكذلك الولى بل معرفته أصعب من معرفة الله تعالى لأنه تعالى معروف بكماله وجماله والولى مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب فاذا أراد الله تعالى أن يعرّفك بولى من أوليائه لتنتفع به طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته (ولم يوصل إليهم) أى يعرف بهم ويجمع عليهم (إلا من أراد أن يوصله إليه) وذلك لأنهم أحبابه فيغار عليهم أن يجمع عليهم غير أحبابه وهذا البعض الأولياء وهم السالكون فمن أراد أن يوصله إليه جمعه عليهم على وجه الصحبة الخاصة وهم قسمان قسم يظهر للعامة والخاصة وقسم لا يظهر إلا للخاصة وهناك عباد لا يظهر عليهم أحدا من خلقه حتى الحفظة ويتولى قبض أرواحهم بيده ولا يسلط التراب على أبدانهم

أولياء

(ربما أطلعك على غيب ملكوته) أى ملكوته الغائب عنك كالذى فوق السماء وتحت الأرض (وحجب عنك الاستشراف) أى الاطلاع (على أسرار العباد) أى ما فى قلوبهم من خير أو شر وذلك من لطف الله بك لأن (من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الالهية) بأن يستر على المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين ويحسن إلى المسيئين ويرأف بعباد الله أجمعين فمن لم يتصف بذلك (كان اطلاعه فتنة عليه) لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها والعجب بعمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة (و) كان أيضا (سببا لجر الوبال إليه) من ادعائه بصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزى والنكال. روى أن ابراهيم عليه السلام لما أراه الله ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل فى معصية من معاصى الله تعالى فدعا عليه فهلك وكذلك آخر وآخر فهلكوا فأوحى الله تعالى اليه أن يا ابراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادى فانهم منى على ثلاث خصال إما أن يتوب العبد منهم الىّ فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لى وإما أن يبعث إلىّ فان شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته. قيل إن هذا سبب لأمر الله له بذبح ولده

أولياء الله تعالى عرائس ولا يرى العرائس إلا من كان محرما لهم وأما غيرهم فلا وهم مخدرون عنده فى حجال الأنس لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة وقال أبو على الجرجانى رضى الله عنه الولى هو الفانى فى حاله الباقى فى مشاهدة الحق تولى الله سبحانه سياسته فتوالت عليه أنوار التوالى لم يكن له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله عزّ وجلّ قرار وفى الاشارات عن الله سبحانه إنما سميت الولى وليا لأنه يلينى دون ماسواى فهم منزهون بتنزيه الحق تعالى لهم من أن يوصل إليهم بغيره ولذلك صدّر المؤلف كلامه بالتسبيح (ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد) من لطف الله تعالى إخفاء أسرار الناس بعضهم على بعض لا سيما سر يقتضى وجود عيب وهو ظاهر ماذكره المؤلف هنا بدليل الكلام الذى عقبه به وقد يظهر لبعض الناس ماسوى ذلك من الأسرار الملكوتية ووجه الفرق بينهما ماذكره المؤلف الآن ويحتمل أن يريد ماهو أعم مما ذكرناه ويدخل فى ذلك أسرار الولاية إذا اختص الحق تعالى بها بعض عباده ويكون فى ذلك تنبيه على العلة الموجبة لخفاء الولى حسبما ذكره المؤلف فى المسئلة التى فرغنا منها حتى يمتنع الوصول إليه بطلب أو سبب وإخفاء ذلك أيضا عن عامة المؤمنين من النعم العظيمة إذ لو ظهرت أسرار الولاية على أحد لأوجبت على من ظهرت له حقوقا لا يقدر على القيام بها فان فرط فى ذلك وترك القيام بتلك الحقوق رأسا وقع بسبب ذلك فى محذورات لا يقوم لها شئ وقد فهمت هذا المعنى من كلام سهل بن عبد الله رضى الله عنه وقد سأله بعض تلامذته كيف تعرف أولياء الله تعالى فقال إن الله تعالى لا يعرّفهم إلا لأشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم ومن خالفهم بعد علمه بهم كفر ومن قعد عنهم حرج ولكن الله تعالى جعل اختياره تغطية أمورهم رحمة منه لخلقه ورأفة ولكن الله تعالى قد أخبر بكراماتهم فقال جلّ وعزّ — الله ولى الذين آمنوا والله ولىّ المؤمنين — فأفردهم به ولو أظهرهم حتى يبرزهم لكان فى النظر إليهم حجة وكان الاستماع لحديثهم فرضا اه والمعنى الذى ذكرته فى هذه المسئلة فهمته من الكلام الذى ذكره الشيخ أبو طالب رضى الله عنه فى كتاب الشكر قال فيه ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمول ستره لهم بعضهم من بعض وسترهم عند العلماء والصالحين منهم ولولا ذلك لما نظروا إليهم ثم حجب الصالحين عنهم ولو أظهر عليهم آيات يعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربه منهم لبطل ثواب المحسنين إليهم ولحرم قبول إحسانهم عليهم ولحبطت أعمال المسيئين إليهم ففى حجب ذلك وستره مايحمل العاملين لهم فى الخير والشر على الرجاء وحسن الظن من وراء حجاب اليقين وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن المعاجلة لما ستر عليهم من عظيم شأنهم عند الله عزّ وجلّ وجليل قدرهم ففى ستر هذا نعم عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم ونعم جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغرين لشعائر الله من أجلهم إذ كانوا أساءوا إليهم من وراء حجاب فهذا هو لطف خفى من لطف المنعم الوهاب كما جاء فى الخبر: من آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر لوليى فقد يكون مثل ذلك من آذى نبيا وهو لا يعلم بنبوّته قبل أن يخبر أنه رسول الله وأن الله عزّ وجلّ نبأه فلا يكون وزره وزر من انتهك حرمة من كان أعلمه أنه نبى لله عزّ وجلّ لعظم حرمة النبى اه ماذكره الشيخ أبو طالب والوجه الأوّل أولى فى تقرير معنى ماذكره المؤلف والله تعالى أعلم (من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه وسببا لجرّ الوبال إليه) المطلع على السرائر التى

لأنه تعالى رحيم بعباده كشفقته على ولده . والحاصل أن المكاشفة نعمة من الله على المريد وشكرها الستر والصفح (حظ النفس في المعصية) كالزنا (ظاهر جلي) وهو التذاذه بها فانها لاتطلب منك التلبس بالمعصية إلا لأجل أن تلتذ بها فيحصل لك الوبال والنكال (وحظها في الطاعة باطن خفي) لا يطلع عليه إلا أرباب البصائر وذلك لأن في الطاعة مشقة عليها فاذا أمرتك بها لم تعلم حظها فيها إلا بعد تفتيش فقد تريك أن حظها فيها التقرب إلى الله تعالى وفي الباطن ليس لها حظ إلا إقبال الناس عليك واشتهارك بينهم بالصلاح ومن حاسب نفسه وراقب خاطره تبين له مصداق هذا (ومداواة مايخفى) أي زوال حظوظها الخفية (صعب علاجه) لأنه يحتاج إلى دقة وفهم ونفوذ إدراك فأهل البصائر يتهمون نفوسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات ويفتشون عن سبب ميلهم إليها فان كان لحظ من حظوظها تركوها أو عالجوا نفوسهم في حال فعلها حتى تكون خالصة لله تعالى كما وقع لبعضهم أنه حدثته نفسه بالخروج إلى الغزو وأظهرت له أن ذلك لله تعالى ففتش فاذا هو لأجل أن تستريح من تعب المجاهدة فانه كل يوم يقتلها مرات كثيرة يمنعها من شهواتها فأرادت أن تقتل مرة واحدة فتستريح وأيضا لأجل أن تتسامع الناس بأنه استشهد فيكون شرفا له وذكرا في الناس فترك الخروج إلى الغزو وقد يجد الشخص من النشاط واللذة في نوع من العبادات ما لا يجده في نوع آخر وما ذلك إلا لأجل أن حظها فيه أكثر من الآخر فاذا كان من أهل البصائر انتقل عما مالت إليه نفسه إلى غيره فان طاوعته لم يكن لها في الاشتغال بذلك النوع حظ وإلا كان لأجل حظها

(٤)

تقتضي وجود العيب إذا لم يتخلق صاحبه بالرحمة الالهية فيرحم المذنبين ويحلم على الظالمين ويصفح عن الجاهلين ويحسن إلى المسيئين ويرأف بعباد الله أجمعين فانه يكون ذلك الاطلاع فتنة عليه لأن ذلك يؤديه إلى رؤية نفسه واستعظام أمرها والعجب بعمله والتكبر على غيره وهذا هو أعظم الفتنة ويكون ذلك سببا إلى جر الوبال إليه من ادعائه لصفات ربه ومنازعته لكبريائه وعظمته وهذا هو أعظم الوبال وغاية الخزي والنكال ، وفي بعض الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما نزعت الرحمة إلا من قلب شقي » وفي حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » وفي الاشارات عن الله تعالى أنه قال : عبدي إن استخلفتك شققت لك من الرحمة شقا فكنت أرحم بالمرء من نفسه . وقد أدب الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام في بعض مواطنه العظيمة المقدار وعلمه كيف يتخلق بهذا الخلق الكريم عند اطلاعه على الأسرار . روى عن قسامة بن زهير رضي الله عنه أنه قال بلغني أن إبراهيم عليه السلام حدث نفسه أنه أرحم الخلق قال فرفعه الله تعالى حتى أشرف على أهل الأرض فأبصر أعمالهم ومايفعلون فقال يارب دمرهم فقال الله تعالى أنا أرحم بعبادي منك يا إبراهيم اهبط فلعلهم يتوبون ويرجعون . وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما أرى الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل بمعصية من معاصي الله عز وجل فدعا الله عليه فهلك وكذلك على آخر وآخر فهلكوا فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فانهم مني على ثلاث خصال إما أن يتوب العبد منهم فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تسبح لي وإما أن يبعث إليّ فان شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته » وقيل إن سبب أمر الله له بذبح ولده هو هذا المعنى الذي ظهر منه من غلظته على العصاة وقلة رحمته لهم وقد ذكر في بعض التفاسير أنه عليه السلام كان يعرج به كل ليلة إلى السماء وهو قوله تعالى ـ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ـ فعرج به ذات ليلة فاطلع على مذنب على فاحشة فقال اللهم أهلكه يأكل رزقك ويمشي على أرضك ويخالف أمرك فأهلكه الله تعالى فاطلع على آخر فقال اللهم أهلكه فنودي كف عن عبادي رويدا رويدا فاني طالما رأيتهم عاصين فلما هبط أرى في المنام ماذكر الله تعالى حيث يقول ـ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ـ فلما تشمر لذلك أخذ السكين بيده قال اللهم هذا ولدي وثمرة فؤادي وأحب الناس إليّ فسمع قائلا يقول أما تذكر الليلة التي سألت فيها إهلاك عبدي أو ماتعلم أني رحيم بعبادي كما أنت شفيق بولدك فاذا سألتني إهلاك عبدي أسألك ذبح ولدك واحدا بواحد والبادي أظلم (حظ النفس في المعصية ظاهر جلي وحظها في الطاعات باطن خفي ومداواة مايخفى صعب علاجه) النفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق فهي لاتسعى إلا في ذلك ولو في عملها في الطاعات فضلا عن المعاصي ومن حاسب نفسه

الرياء كما يدخل فى العمل إذا عمله صاحبه عند الناس ويسمى الرياء الجلى يدخل فيه إذا عمله وحده بأن يقصد به توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه فى المحافل ومسارعتهم فى قضاء حوائجه فاذا قصر أحدهم فى حقه الذى يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره وربما توعد من قصر فى حقه بمعاجلة الله له بالعقوبة وأن الله يأخذ بثأره منه فاذا وجد العبد هذه الأمارة فى نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وإن أخفاه عن الناس ويسمى هذا الرياء بالخفى ولا يسلم من الرياء الجلى والخفى إلا العارفون الموحدون لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة فلم يرجوا منهم حصول منفعة ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة فأعمال هؤلاء خالصة

نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا وقد تجد من النشاط واللذة فى نوع من العبادة ما لاتجده فى نوع آخر وإن كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه وماذاك إلا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم إذا ألفت بابا من أبواب العبادات لمعرفتهم بخدعها ومكايدها فيشوّشون ذلك عليها وينتقلون منه . وقد حكى عن أبى محمد المرتعش رضى الله عنه أنه قال حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لى أن جميع ذلك كان مشوبا بحظى وذلك أن والدتى سألتنى يوما أن أستقى لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسى فعلمت أن مطاوعة نفسى فى الحجات كانت بشوب وحظ من نفسى إذ لو كانت نفسى فانية لم يصعب عليها ماهو حق فى الشرع فهذا مما يبين أن حظ النفس فى الطاعة موجود ولكنه خفى على العامل فذلك تعسر مداواته لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك فليتطلب بذلك آفات نفسه ولطائف خدعها وخفايا حظوظها فيعمل على تصفية عمله من ذلك فلا جرم إذ كان متعذرا يجب عليه اتهام نفسه ومخالفتها فى كل ماتدعو إليه كائنا ما كان قال الشيخ أبو بكر الخفاف رضى الله عنه سمعت بعض مشايخى يقول عن أحمد بن أرقم البلخى قال حدثتنى نفسى بالخروج إلى اسبيجاب للغزو فقلت سبحان الله إن الله تعالى يقول إن النفس لأمارة بالسوء وهذه تأمرنى بالخير لا يكون هذا أبدا ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس فتستروح به وتتسامع الناس بها فيستقبلونها بالبر والتعظيم والاكرام فقلت لها أسلك العمران ولا أنزل على معرفة فأجابت فأسأت ظنى بها وقلت والله أصدق قولا فقلت لها أقاتل العدوّ حاسرا فتكونى أوّل قتيل فأجابت وعدّ أشياء مما أرادها به فأجابت إلى كل ذلك قال فقلت يارب نبهنى لها فانى لها متهم ولقولك مصدّق فألهمت كأنها تقول لى إنك تقتلنى كل يوم مرات بمخالفتك إياى ومنع شهواتى ولا يشعر بى أحد فان قاتلت فقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقال استشهد أحمد فيكون شرفا لى وذكرا فى الناس قال فقعدت ولم أخرج ذلك العام فهكذا خدع النفس وغرورها أعاذنا الله من شرها وسيأتى من كلام المؤلف رحمه الله إذا التبس عليك أمران انظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لايثقل عليها إلا ما كان حقا (ربما دخل الرياء عليك من حيث لاينظر الخلق إليك) رياء العبد بالعمل حيث يكون بمرأى من الناس ظاهر لايحتاج إلى أمارة عليه ورياؤه بعمله حيث لايراه أحد أمر خفى لايعرف إلا بالأمارات والعلامات بل هو أخفى من دبيب النمل ومن أماراته أن يلتبس بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه فى المحافل والمجالس ومسارعتهم إلى قضاء حوائجه وإذا قصر أحدهم فى حقه الذى يستحقه عند نفسه استبعد ذلك واستنكره ويجد تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره وإهانته وإهانة سواه حتى ربما يظهر بعض سخفاء العقول ذلك على ألسنتهم فيتوعدون من قصر فى حقهم بمعاجلة الله له بالعقوبة وأن الله تعالى لايدعهم حتى ينتصر لهم ويأخذ بثأرهم فاذا وجد العبد هذه الأمارات من نفسه فليعلم أنه مراء بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس . وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال إن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة ألم تكونوا يرخص لكم فى السعر ألم تكونوا تبادرون بالسلام ألم تكن تقضى لكم الحوائج وفى الحديث الآخر «لاأجر لكم قد استوفيتم أجوركم» وقال عبدالله بن المبارك روى وهب بن منبه رضى الله عنه أن رجلا من العباد قال لأصحابه إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن يكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ ذلك ملكهم فركب فى موكب من الناس فاذا السهل والجبل

وإن عملوها بين أظهر الناس ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو المرائى بعمله وإن عبد الله فى جبل بحيث لايراه أحد ولا يسمع به

(استشرافك) أيها المريد أى تحبتك وميلك إلى (أن يعلم الخلق بخصوصيتك) أى بما خصك الله تعالى به من علم نافع أو عمل صالح أو أحوال باطنية (دليل على عدم صدقك فى عبوديتك) لأن الصدق فى العبودية هو طرح الأغيار وعدم الالتفات إليها رأسا فلو كنت صادقا فى عبودية الرب لقنعت بعلمه بك ولم تحب أن يعلمك غيره فتغار على حالك من رؤية الأغيار له قال بعضهم من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب هذا فى بداية السلوك فان تحقق العبد فى المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة فلا بأس بالاخبار بأعماله والاظهار لمحاسن أحواله ليؤدى حق شكرها وليقتدى به غيره فمبنى أمر أهل الطريق فى البداية على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق و إخفاء الأعمال وكتمان الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا فى إخلاص أعمالهم لسيدهم حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء فهناك إن شاء الله أظهرهم و إن شاء سترهم ولم تتعلق إرادتهم بظهور ولا خفاء بل يردون الأمر إليه فى ذلك . ثم بين حقيقة صدق العبودية بقوله :

قداماتلاً من الناس فقال السائح ماهذا فقيل له هذا الملك قد أتاك فقال للغلام ائتنى بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجرة فأقبل يحشو شدقه و يأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم قالوا هذا قال كيف أنتم قال كالناس وفى حديث آخر بخير فقال الملك ماعند هذا من خير فانصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم بسببه من الأشرار كما روى عن الفضيل بن عياض رضى الله عنه أنه قال من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلى. وسمع مالك بن دينار رضى الله عنه امرأة وهى تقول له يا مرائى فقال لها ياهذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة ودخل رجل على داود الطائى رضى الله عنه فقال ما حاجتك قال زيارتك فقال أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ولكن انظر ماذا ينزل بى أنا إذا قيل لى من أنت فزار أمن الزهاد أنت لاوالله أمن العباد أنت لاوالله أمن الصالحين أنت لاوالله ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول كنت فى الشبيبة فاسقا فلما كبرت صرت مرائيا والله للمرائى شر من الفاسق إلى غير هذا مما روى عنهم فى هذا المعنى ولا يسلم من الرياء الخفى والجلى إلا العارفون الموحدون لأن الله تعالى طهرهم من دقائق الشرك وغيب عن نظرهم رؤية الخلق بما أشرق على قلوبهم من أنوار اليقين والمعرفة فلم يرجوا منهم حصول منفعة ولم يخافوا من قبلهم وجود مضرة فأعمال هؤلاء خالصة و إن عملوها بين أظهر الناس و بمرأى منهم ومن لم يحظ بهذا وشاهد الخلق وتوقع منهم حصول المنافع ودفع المضار فهو مراء بعمله و إن عبد الله تعالى فى قنة جبل بحيث لايراه أحد ولايسمع به وقد تقدم قول يوسف بن الحسين الرازى رضى الله عنه أعز شىء فى الدنيا الاخلاص وكم أجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت فيه على لون آخر (استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك) الخصوصية ههنا مااختص الحق تعالى به بعض عباده من عمل نافع أو علم صالح وصدق العبودية فيه أن يقنع بعلم الله تعالى فيه بحاله ولايتطلع إلى أن يعرف بذلك أحد من الخلق فيشغله حينئذ الحياء من ربه والشكر له عن الاستشراف إلى معرفة الخلق بذلك و يغار على حاله من رؤية الأغيار له ولهذا فضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا كما ورد فى الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم وقال عيسى عليه السلام إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه وليمسح شفتيه فاذا خرج إلى الناس رأوا أنه لم يصم و إذا أعطى أحدكم فليعط بيمينه وليخفه عن شماله و إذا صلى أحدكم فليسدل عليه ستر بابه فان الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق. وقد سئل حكيم من الحكماء عن علامة الصادق فقال كتمان الطاعة وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه من أحب أن يعرف بشىء من الخير ويذكر به فقد أشرك فى عبادته لأن من عبد الله على المحبة لايحب أن يرى خدمته سوى مخدومه وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه كل من لم يقنع فى أفعاله وأقواله بسمع الله ونظره دخل عليه الرياء لامحالة وقال بعضهم ماأخلص أحد قط إلا أحب أن يكون فى جب لايعرف وقال سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه من أحب أن يطلع الخلق على مابينه و بين الله فهو غافل وقال أبو الخير الأقطع رضى الله عنه من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب وقال بعضهم لمن استوصاه لا تحب أن تعرف ولا تحب أن تعرف إنك ممن لا يحب أن يعرف فعلى العبد إخفاء حاله جهده وأن يبلغ فى كتمانه أقصى ما عنده . قال الحسن رضى الله عنه أدركت أقواما مامن أحد منهم يستطيع أن يسر شيئا من عمله إلا أسره و إن كان الرجل ليجلس مع القوم

وإنه

و إنه لفقيه وما يعلم به حتى يقوم ولقد أدركت أقواما يأتى أحدهم الزور فيقوم فيصلى وما يشعر به الزور ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدرون أن يعملوه لله سرّا فيكون علانية أبدا ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره ولقد أدركت أقواما يجتهدون فى الدعاء وما يسمعهم أحد وقال محمد بن واسع رضى الله عنه أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم فى الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذى إلى جنبه وفى رواية عنه إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم فان وقع منه إعلان و إظهار فى وقت ما فليشتغل حينئذ بمراقبة قلبه وصونه عن أن يعمل فيه الفرح اطلاع الناس على حاله ولينكر ذلك على نفسه وليكرهه ولا يرضه منها وليجاهد نفسه فى ذلك أشد المجاهدة فان خالف هذا واستشرف إلى معرفة غير الله بحاله وغفل عن مجاهدة نفسه فى حال ظهور ذلك منه ولو فى لحظة خيف عليه أن يعمل الفرح فى قلبه فيقع عند ذلك فى الفتنة فان كان ضعيف الارادة لم يسلم من الوقوع فى الرياء الجلى والخفى لأن سببه قد استتبّ له و إن كان قوى الارادة وسالكا سبيل المعرفة لم يسلم من السكون والركون فيفقد حينئذ الغيرة على الحال و ينحط بذلك من ذروة الكمال ولهذا كان إسقاط المنزلة عند الناس من ضروريات سالكى هذه الطريقة كما تقدم عند قوله ادفن وجودك فى أرض الخمول فان تحقق العبد فى المعرفة ومشاهدة الوحدانية الصرفة جاز له الاخبار بأعماله والاظهار بمحاسن أحواله بناء منه على نفى الغير وأداء لواجب حقّ الشكر . كان بعض السلف يصبح فيقول صليت البارحة كذا وكذا ركعة وتلوت كذا وكذا سورة فيقال له أما تخشى الرياء فيقول و يحكم وهل رأيتم من يرائى بفعل غيره وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له لم لا تكتم ذلك فيقول ألم يقل الله سبحانه وتعالى ــ وأما بنعمة ربك فحدّث ــ وأنتم تقولون لا تحدث فان قصد من هذا حاله إلى هداية عباد الله ودعائهم إلى الله تعالى فأظهر أحواله وأعماله للاقتداء به والاهتداء بهديه فهو خارج عن النمط الأوّل كله وداخل فى حكم هذا النوع الثانى وعلانية هذا أفضل من سره لأنه سلم من الآفات التى تعرّض لها غيره وحصلت منه الفوائد التى تضمنها إظهاره وجهره وقد جاء فى الخبر «السرّ أفضل من العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء» وهذا أرجح الوجوه عند العلماء فى قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى سأله عن فرحه باطلاع الناس على بعض أعماله «لك أجران أجر السر وأجر العلانية» وقد فضل ما ذكرناه من إظهار الطاعة جماعة من الصحابة والتابعين منعنا من ذكر وقائعهم خشية الاطالة وكان ذلك منهم لأجل هذا الغرض ومقام هذا العبد مقام النصحاء لعباد الله والدعاة لهم إلى الله فلا جرم كان له الدرجات العلا عند الله تعالى لأنه من أئمة المتقين لله وقد أخبر الله تعالى بجزائهم وذكرهم عقيب دعائهم بذلك فقال عز من قائل ــ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا و يلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ــ قال فى لطائف المنن اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاغتناء بشهوده قال الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال سبحانه أليس الله بكاف عبده وقال ألم يعلم بأن الله يرى وقال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد فمبنى أمرهم فى بدايتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق و إخفاء الأعمال وكتمان الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا فى إخلاص أعمالهم لسيدهم حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا فى الرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردّوا إلى وجود البقاء فهنالك إن شاء الحق أظهرهم و إن شاء سترهم و إن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه و إن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شئ إليه فظهور الولى ليس بارادته لنفسه ولكن

(بنظر الله إليك) فلا يكن التفاتك وتشوفك إلا لنظر الله إليك وكذا يقال فى قوله (وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك) فلا تلتفت إلى إقبالهم عليك ولا تطلبه بل لا يكون التفاتك وطلبك إلا لاقبال الله عليك فان إقبال الخلق على المريد قبل كماله يوجب له التصنع لهم ومداهنتهم وغير ذلك من الآفات وذلك يوجب انحطاط رتبته وسقوطه من عين الحق والعياذ بالله تعالى فلا يرضى باقبالهم إلا ذو عقل قاصر وهمة دنيئة لأنّ رضا الناس غاية لا تدرك وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك وأما من كان له عقل وافر فلا يميل إلا لإقبال الله من غير مبالاة بذمّ ذامّ ولا عيب معيب قال بعضهم الصادق هو الذى لا يبالى لو خرج كلّ قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب أن يطلع الناس على مثقال ذرة من صلاح عمله ولا يكره أن يطلعوا على السىء من عمله فان كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من إخلاص الصادقين اهـ

بارادة الله تعالى له بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه فاما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم وتولاهم فى ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سلمة «لا تطلب الامارة فانك إن أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها و إن أعطيتها عن مسئلة وكلت إليها» ومن تحقق منهم بالعبودية لله تعالى لم يطلب ظهورا ولا خفاء بل إرادته وقف على اختيار سيده له وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه اهـ (غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك) هذا المعنى هو حقيقة صدق عبودية الله الذى أشار إليه فى المسئلة التى قبل هذه وهو أن لا يكون له شعور ما من الخلق إليه من نظر و إقبال ولا تشوف إليه ولا طلب له و إنما يكون شعوره وتشوفه وطلبه مقصورا على ما من الله إليه من نظره إليه و إقباله عليه فيغيب أدنى الحالين بأعلاهما وذلك بأن يعلم أن ما من الخلق إليه أمر وهمى باطل فينقاد إليه كل ذى عقل قاصر يوجب له هذا الانقياد أنواعا من الكبائر والرذائل من الانحطاط فى أهواء الناس وتحسين مواقع نظرهم منه بالتصنع والتزين لهم وتربية الجاه والحشمة لديهم تكبرا وتعظما عليهم ومعاشرتهم بالنفاق والادهان وتخالف الأسرار والاعلان وهذا عذاب أليم استعجله فى دنياه إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة و يلبسه لباس الطمع والذلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته ولعذاب الآخرة أكبر وقد قال الشاعر :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذّة الجسور

ورأى سهل بن عبد الله رضى الله عنه رجلا من الفقراء بمكة فقال له شيئا فقال يا أستاذ لا أقدر على هذا من أجل الناس فالتفت سهل إلى أصحابه فقال لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين حتى يسقط الناس من عينه فلا يرى فى الدنيا إلا هو وخالقه فان أحدا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه أو تسقط نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرونه اهـ ثم من له بحصول ما أراده منهم فأغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة فربما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره وربما أرضى شخصا بما لا يرضى الآخر فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وساع فيما يضرّه عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب والنصب فى نفسه . وفى الحكاية المذكورة عن لقمان وابنه تنبيه على هذا المعنى ، ذكر أن لقمان دخل ذات يوم السوق وهو راكب حمارا وابنه يسوقه فقال الناس حين رأوه شيخ لم يشفق على صبى فأركبه خلفه فقالوا اثنان على حمار هلا زاد ثالثا فنزل لقمان و بقى الولد فقالوا شيخ ماش وصبىّ راكب فنزل الولد يمشى مع والده وساقا الحمار جميعا فقالوا حمار فارغ وهذان يسوقانه وكان غرض لقمان بهذا أن يرى ابنه شأن الناس مع من يراعى نظرهم فانه لا يسلم منهم على أىّ حالة تكون فرضى الناس غاية لا تدرك وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك فهذا حال من انقاد إلى الأوهام من ضعفاء العقول وسخفاء الأحلام وأما من كان له عقل وافر وحلم فاخر فلا يميل إلا إلى ما هو حق ووجود صدق وهو ما من الله إليه من نظر و إقبال وجزيل عطاء وعظيم نوال فهو يعمل فيما يؤدّيه إلى هذه المطالب من غير اكتراث بذمّ ذامّ أو عتب عاتب و يقول بلسان حاله :

إنّ الذى تكرهون منى هو الذى يشتهيه قلبى

و يقول أيضا ما قاله محمد بن أسلم رضى الله عنه مالى ولهذا الخلق كنت فى صلب أبى وحدى ثم صرت فى بطن أمى وحدى ثم دخلت الدنيا وحدى ثم تقبض روحى وحدى فأدخل فى قبرى وحدى و يأتينى منكر ونكير فيسألانى وحدى فان صرت إلى خير صرت وحدى و إن صرت إلى شر صرت وحدى ثم أوقف

بين

(من عرف الحق) أى من تحقق فى مقام المعرفة بالله (شهده فى كل شيء) أى رآه ظاهرا فى أعيان الموجودات فلا يستوحش من شيء و يأنس به كل شيء كما تقدم فى نعت العارفين (ومن فنى به) أى تحقق فى مقام الفناء (غاب عن كل شيء) فلا يرى فى الوجود ظاهرا إلا الله و يغيب هو عن نفسه وحسه فلا يشاهد له وجودا (٩) وتحققا بخلاف العارف فانه متحقق فى مقام البقاء فيرى الخلق والحق ويرى الحق ظاهرا فى كل الأشياء وقائما بها مع عدم غيبته عن نفسه وحسه (ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا) أى من إرادته وشهواته فهذه علامات يعرف بها حال من ادعى بلوغ هذه المقامات (إنما حجب الحق) أى الله (عنك شدة قربه منك إنما احتجب لشدة ظهوره) ولأن الحجاب كما يكون بشدة البعد يكون بشدة القرب فان اليد إذا قربت من البصر والتصقت به لم يرها بخلاف ما إذا كانت بعيدة عنه وكذلك الرب لم نره لاحاطته بنا إحاطة تامة وقربه منا قربا معنويا ولا يدرك ذلك إلا أرباب البصائر الذين تجلى الحق على بصائرهم فأزال عنهم الحجاب حتى رأوه قائما بالأشياء ومحيطا بها (و) إنما (خفى عن الأبصار) فى الدنيا فلم تدركه (لعظم نوره) وذلك كالشمس فان نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة وقوة نورها هو الذى حجب الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها فقد صار ظهورها الذى أوجبه وجود نورها حجابا لها وليس الحجاب منها على الحقيقة فان الظاهر لذاته لا يحتجب من ذاته و إنما يطرأ الحجاب عليه من غيره وهو هنا ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور وهذا لازم لما قبله

بين يدى الله وحدى ثم يوضع عملى وذنوبى فى ميزانى وحدى فان بعثت إلى الجنة بعثت وحدى وان بعثت إلى النار بعثت وحدى فمالى وللناس. وقد سئل الحرث بن أسد المحاسبى رضى الله عنه عن علامة الصادق فقال الصادق هو الذى لايبالى لو خرج كل قدر له من قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله فان كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من أخلاق الصادقين (من عرف الحق شهده فى كل شيء) فلا يستوحش من شيء و يستأنس به كل شيء كما تقدم من نعت العارفين (ومن فنى به غاب عن كل شيء) فلا يكون منه على الأشياء اعتماد ولا له إليها استناد (ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا) من مراداته وشهواته وهذه الأمور التى ذكرها المؤلف رحمه الله هى علامات بلوغ هذه المقامات العلية و بها تصح وتكمل فمن لم يجدها فى نفسه فلا ينبغى له أن يدعى تلك المقامات وليعمل على مجاهدة نفسه فيما يصححها و يكملها (إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك) شدة القرب حجاب كما أن شدة البعد حجاب لأن شدة قربه منك موجبة لاضمحلالك وذهابك والمضمحل الذاهب لامناسبة بينه و بين الثابت الموجود فكيف يراه. قال فى لطائف المنن فعظيم القرب هو الذى غيب عنك شهود القرب قال الشيخ أبو الحسن حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو وكلما دنا منها تزايد ريحها فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه وأنشد بعض العارفين :

كم ذا تموه بالشعبين والعلم ... والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسأل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متهم

(إنما احتجب لشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظم نوره) هذه عبارة تداولها الناس وضربوا لها مثلا بالشمس وذلك أن الشمس نورها أقوى من سائر الأنوار المحسوسة وقوة نورها هى التى حجبت الأبصار الضعيفة عن إدراك كنهها فقد صار ظهورها الذى أوجبه وجود نورها حجابا لها وليس الحجاب على الحقيقة منها فان الظاهر لذاته لايحجب من ذاته و إنما الحجاب عليه من غيره والحجاب ههنا ضعف البصر عن مقاومة فيضان النور فالحق تعالى احتجب عن الخلق بشدة ظهوره وخفى عن الأبصار لعظم نوره وأنشدوا فى هذا المعنى :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلا على أكمه لايعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... وكيف يعرف من بالعزة استترا

وأنشدوا أيضا

بالنور يظهر ما ترى من صورة ... وبه وجود الكائنات بلا امترا
لكنه يخفى لفرط ظهوره ... حسا ويدركه البصير من الورى
فاذا نظرت بعين قلبك لم تجد ... شيئا سواه على الذوات مصورا
و إذا طلبت حقيقة من غيره ... فبذيل جهلك لاتزال معثرا

(لا يكن طلبك تسببا إلى العطاء منه) أى لاتقصد بطلبك أى توجهك له بالدعاء والأعمال الصالحة حصول النوال منه وتعتقد أنه سبب مؤثر فى ذلك (فيقلّ فهمك عنه) أى عن الله أى فلا تفهم السر والحكمة فى أمر الله عباده بالطلب وهو ماذكره بقوله (وليكن طلبك لاظهار العبودية) أى لاظهار كونك عبدا ذليلا ضعيفا لاغنى لك عن سيدك (وقياما بحقوق الربوبية) فان الربوبية تقتضى التذلل والخضوع من المربوب يعنى أن الله تعالى لم يأمر عباده بالطلب منـــه إلا ليظهر افتقارهم إليه وتذللهم بين يديه لا لأن يتسببوا به إلى حصول ماطلبوه ونيـــل مارغبوا فيه هذا هو فهم العارفين عن الله ومن هذا حاله لاينقطع سؤاله ولارغبته (١٠) وإن أعطاه كل مطلب وأناله كل سؤل ومأرب ولايفرق بين العطاء والمنع فيكون عبد الله فى الأحوال كلها كما أنه ربه فى الأحوال كلها وقبيح بالعبـــد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيلـه من شهوته وهواه (كيف يكون طلبـك اللاحق) أى الوجـود فيما لايزال (سببا فى عطائه) أى إعطائه (السابق) أى الموجود فى الأزل فان الاعطاء وهـو تعلق الارادة فى الأزل تعلقا تنجيزيا قديما لا يكون الطلب سببا فيـــه لتأخره عنه والسبب لابد من تقدمه على المسبب ولذا قال (جلّ حكم الأزل) أى ماحكم به فى الأزل وتعلقت إرادته به وهو الاعطاء (أن ينضاف إلى العلل) أى أن ينسب لعلـة وهو الطلب أى أن يكون سببا مؤثرا فيه . إن قيل قد يكون ذلك الاعطاء معلقا على الطلب فيكون سببا فيه. أجيب بأن السبب فى الحقيقة هو فى تعلق إرادة الله تعالى فى الأزل أنك تدعوه فيما لايزال لا نفس الطلب المتأخر (عنايته فيك) أى إعطاؤه إياك ماتطلبه منه أى تعلق إرادته فى الأزل بالاعطاء (لالشىء منك) أى وقع منك اقتضى حصول تلك العناية كالدعاء والأعمال الصالحة (وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته) وهى بمعنى العناية أى أنك كنت معدوما فى الأزل و يلزم من ذلك عدم مايصدر منك (لم يكن فى أزله إخلاص أعمال) أى أعمال خالصة كالدعاء والصلاة والصوم (ولا وجود أحوال) مرادف لماقبله (بل لم يكن هنالك إلا محض الافضال وعظيم النوال) مرادف لما قبله فالدعاء ليس سببا مؤثرا فى المطلوب والأعمال الصالحة ليست سببا مؤثرا فى عناية الله أى دخول الجنة والنجاة من النار

وقال رضى الله عنه (لا يكن طلبك تسببا إلى العطاء منه فيقلّ فهمك عنه وليكن طلبك لاظهار العبودية وقياما بحقوق الربوبية) لم يأمر الله تعالى عباده بالطلب له والسؤال منه إلا ليظهر افتقارهم إليه ومثولهم بالتضرع والخضوع بين يديه ليكون ذلك إظهارا لعبوديتهم وقياما بحقوق ربوبيته لا لأن يتسببوا به إلى حصول ماطلبوه ونيل مارغبوه مما لهم فيه منفعة وحظ هذا هو فهم العارفين عن الله تعالى و يدل على هذا المعنى مايذكره المؤلف الآن قال أبو نصر السراج رضى الله عنه سألت بعض المشايخ عن الدعاء ما وجهـه لأهل التسليم والتفويض فقال تدعو الله على وجهين أحـدهما تريد بذلك تزيين الجوارح الظاهرة بالدعاء لأن الدعاء ضرب من الخدمة يريد أن يزين جوارحه بهذه الخدمة والوجه الثانى أن تدعو ائتمارا لما أمر الله تعالى من الدعاء اهـ . وقد قيل فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه و إلا فالرب يفعل مايشاء ومقتضى هذا أن لاينقطع سؤاله ولارغبته و إن أعطاه كل ما طلبه وأناله سؤله وأربه وأن لايفرق بين العدم والوجود والمنع والاعطاء فيما يرجع إلى إظهار الفاقة والفقر فيكون عبد الله فى الأحوال كلها كما أن ربه واسع الفضل فى الأحوال كلها وقبيح بالعبد أن يصرف وجهه عن باب مولاه ما ينيله من شهواته وهواه . قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه لايكون همك بدعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوبا وليكون همك مناجاة مولاك قال الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه شر الناس من يبتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء بخالص الدعاء وشدة التضرّع والبكاء فاذا زالت شكايته ورفعت عنـه آفته ضيع الوفاء ونسى البلاء وقابل الرفد بنقض العهد وأبدل العقد برفض الودّ أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم وخرطهم فى سلك أهل الرد . وقد قيل بلاء يلجئك إلى الانتصاب بين يدى معبودك خير لك من عطاء ينسيك إياه و يقصيك عنه (كيف يكون طلبك اللاحق سببا فى عطائه السابق) هذا دليل على نفى السببية المذكورة لأن ماطلبه العبد أمر سابق فى الأزل تقديره وطلبه أمر لاحق فيما لايزال وكيف يكون اللاحق سببا فى وجود السابق وهل السبب أبدا إلا متقدم على المسبب (جلّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل) هذا دليل آخر على ماذكره وهو أن حصول ماطلبه الداعى حكم من الله تعالى فى الأزل فلا يكون سببه الدعاء والسؤال لأن أحكام الله تعالى تجلّ عن أن تنضاف إلى علة وسبب من قبل أن له الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة فصنعه علة لكل شىء ولاعلة لصنعه كما قاله العارفون المحققون (عنايته فيك لالشىء منك وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته لم يكن فى أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك إلا محض الافضال وعظيم النوال) عناية الله تعالى بك

(علم أنّ العباد يتشوّفون إلى ظهور سرّ العناية) السرّ هو الشيء المخفي لأنه مخفي عنا والعناية هي تعلق الارادة بحصوله في المستقبل فلما
علم أنّا نتشوّف إلى حصوله فنطلبه بالدعاء والأعمال الصالحة و نعتقد تأثير ذلك فيه (فقال : يختص برحمته من يشاء) زجرا لنا وقطعا
لأطماعنا لاحتمال أن سرّ العناية خاص ببعض الناس كما أن النبوّة لما تشوّف الناس إلى ظهورها آخر الزمان ادّعاها جماعة فزجرهم الله
بقوله ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته ـ (وعلم أنه لو خلاهم وذلك) أي مع ملاحظة أن العناية الأزلية خاصة ببعض الناس وليست عامة (لتركوا
العمل اعتمادا على الأزل) قائلين إن كان سبق في الأزل أنا من أهل العناية ومن أهل الخصوص نجونا من النار ودخلنا الجنة من غير
أعمال فلا حاجة إلى الأعمال ولا إلى الدعاء بحصول المطالب (فقال: إن رحمة الله قريب من المحسنين) بالأعمال الصالحة فهي علامة وأمارة
على تلك العناية الأزلية و إن لم تكن علة موجبة لها فلا ينبغي تركها اعتمادا على (١١) ما في الأزل و إن لم يكن لها
تأثير في حصول المطلوب (إلى المشيئة يستند كل شيء) أي أن كل موجود يستند إلى مشيئة الله من حيث تعلقها به أزلا (وليست تستند هي إلى شيء) من الموجودات والمراد بالمشيئة في مرجع الضمير ما تعلقت به أزلا وهو مطالب العباد التي سبق بها العلم فان طلبها بالدعاء والأعمال الصالحة ليس سببا مؤثرا فيها وهذه العبارات التي ذكرها المصنف في غاية الحسن وفيها إشارة إلى التعلق بأحكام الأزل وطرح الأسباب والعلل فعلى العبد أن يلزم العبودية والافتقار ويترك التدبير والاختيار . قال
أبو بكر الواسطي إن الله لا يقرب فقيرا لأجل فقره ولا يبعد غنيا لأجل غناه وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يصل و بها يقطع
ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بهما ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما قرب من قرب من غير علة وأبعد من أبعد من غير علة
قال تعالى ـ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ـ (ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن
مسئلته) يعني أنّ بعض العارفين قد يغلب عليهم التفويض والتسليم فيترك السؤال والطلب اعتمادا على القسمة الأزلية وممن رأيناه
متحققا في هذا المقال العارف بالله تعالى الغارف من بحر الحقيقة الشيخ مصطفى أفندي التركي القسطموني الجركسي فسح الله في مدته
ورزقنا دوام مودته واختلف القوم هل الأفضل الدعاء أم السكوت والرضا فمنهم من قال الدعاء أفضل لأنه في نفسه عبادة لقوله صلى
الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة » والاتيان بما هو عبادة أولى من تركه ومنهم من قال السكوت والخمول تحت جريان

في الأزل حين لم تكن حين لا حين غير معلة بشيء كائن منك من إخلاص أعمال ولا وجود أحوال
تتوسل بجميع ذلك إليه وأين كنت إذ ذاك وأنت عدم محض بل لم يكن هناك إلا محض كرمه وإفضاله
وعظيم إحسانه ونواله لا غير . قال الواسطي رحمه الله تعالى أقسام قسمت ونعوت وأحكام أجريت
كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات (علم أنّ العباد يتشوّفون إلى ظهور سرّ العناية فقال
ـ يختص برحمته من يشاء ـ وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأزل فقال ـ إن
رحمة الله قريب من المحسنين) ظهور سرّ العناية التي مقتضاها الرحمة هو تخصيص المشيئة في قوله
عزّ من قائل ـ يختصّ برحمته من يشاء ـ ولا علة له من البعد والاحسان المنسوب إليه في قوله تعالى
ـ إنّ رحمة الله قريب من المحسنين ـ أمارة وعلامة على تلك العناية وليس بعلة موجبة و إنما أسند
الرحمة إليه وعلقها به لئلا يتكل العباد على السابقة و يتركوا العمل الذي هو مقتضى العبودية الواجبة
لله تعالى عليهم (إلى المشيئة يستند كل شيء) لأنّ وقوع ما لم يشأ الحق تعالى محال (ولا تستند هي
إلى شيء) لاستحالة وجود النقص فيما يجب له الكمال وهذه العبارات التي ذكرها المؤلف رحمه الله
من أوّل الفصل إلى هنا بلغت الغاية في الحسن واستغنت بترددها وتكرارها عن البيان والشرح
وفيها إشارة إلى أحكام الأزل وفقد الأسباب والعلل فيجب على العبد أن يبني عليها أعماله وأحواله
فيلتزم العبودية والافتقار و يدع التدبير والاختيار لمن بيده ذلك وهذا هو أدب التوحيد جعلنا الله
من أهله بمنه وكرمه وفضله . قال أبو بكر محمد بن موسى الواسطي رضي الله عنه إنّ الله لا يقرب
فقيرا لأجل فقره ولا يبعد غنيا لأجل غناه وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يصل و بها يقطع
ولو بذلت له الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بهما ولو أخذتهما كلهما ما قطعك بهما قرّب من قرب من
غير علة وقطع من قطع من غير علة كما قال تعالى ـ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ـ وقال
أيضا رضي الله عنه ما خالفه أحد ولا وافقه وكلهم مستعملون بمشيئته وقدرته أنى يكون له الوفاق
والخلاف وهو يقلب الليل والنهار بما فيهما وهو قائم على الأشياء و بالأشياء في بقائها وفنائها لا يؤنسه
وجد ولا يوحشه فقد بل لا فقد ولا وجد إنما هي رسوم تحت الرسوم . وقال رضي الله عنه (ربما
دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسئلته) قد يكون من الأدب
ترك السؤال والطلب لمن هو مستغرق في الأذكار راض بما يجري عليه من تصاريف الأقدار

الحكم أتم وأرضى لأنّ ماسبق من اختيار الحق لك أولى من اختيارك وقد ورد فى الحديث القدسى «من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» ومنهم من فصل فقال الأوقات مختلفة فان وجد الداعى فى قلبه إشارة إلى الدعاء كالانبساط وتوجه القلب فالدعاء أولى و إن وجد فيه

إشارة إلى السكوت كالقبض وعدم توجه القلب فالسكوت أولى فان لم يجد فى قلبه شيئا من ذلك كان الدعاء وتركه سواء، نعم إن كان الغالب عليه حينئذ المعرفة كان السكوت أولى . ثم علل ماذكره من كون الأدب قد يكون غالبا فى ترك الطلب فقال (إنما يذكر بالدعاء (من يجوز عليه الاغفال) أى السهو بأن يكون عنده غفلة وعدم علم بحال السائل فيذكره بالسؤال (وإنما ينبه) بمعنى يذكر (من يمكن منه الاهمال) أى عدم الاعتناء بحال السائل مع علمه بحاله فهذا مستحيل على الله تعالى ولذا كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبا وقد سئل الواسطى أن يدعو فقال أخشى إن دعوت أن يقال لى إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا وإن سألتنا ماليس لك فقد أسأت الثناء علينا وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ماقضينا لك فى الدهور اه (ورود الفاقات أعياد المريدين) الأعياد جمع عيد وهى الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح فالمريدون يسرون بالفاقات لأنها تسرع بوصولهم لمقصودهم لما فيها من الذل وقهر النفس كما تسر العوام بالأعياد لما فيها من نيل شهواتهم من ملابس وغيرها .

وهو أحد مذاهب القوم قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه واختلف الناس فى أى شئ أفضل الدعاء أم السكوت والرضا ، فمنهم من قال الدعاء فى نفسه عبادة قال النبى صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة» فالاتيان بما هو عبادة أولى من تركها ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى فان لم يستجب للعبد ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحق الربوبية لأنّ الدعاء إظهار فاقة العبودية وقد قال أبو حازم الأعرج لأن أحرم الدعاء أشدّ علىّ من أن أحرم الاجابة وطائفة قالوا السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى ولهذا قال الواسطى اختيار ماجرى لك فى الأزل خير لك من معارضة الوقت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا عن الله تعالى « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» وقال قوم يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضا بقلبه يأتى بالأمرين جميعا قال الامام أبو القاسم والأولى أن يقال إنّ الأوقات مختلفة ففى بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت وهو الأدب وفى بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء وهو الأدب و إنما يعرف ذلك فى الوقت لأنّ علم الوقت يحصل فى الوقت فاذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء به أولى و إذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى و يصح أن يقال ينبغى للعبد أن لا يكون ساهيا عن شهود ربه تعالى فى حال دعائه ثم يجب أن يراعى حاله فاذا وجد من الدعاء زيادة بسط فى وقته فالدعاء له أولى و إن عاد إلى قلبه فى وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض فالأولى ترك الدعاء فى هذا الوقت و إن لم يجد فى قلبه لا زيادة بسط ولا حصول زجر فالدعاء وتركه ههنا سيان و إن كان الغالب عليه فى هذا الوقت العلم فالدعاء أولى لكونه عبادة و إن كان الغالب عليه فى هذا الوقت المعرفة والحال فالسكوت أولى ويصح أن يقال ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحق سبحانه وتعالى فيه حق فالدعاء أولى وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم وأولى وفى الخبر المروى « إنّ العبد ليدعو الله عزّ وجلّ وهو يحبه فيقول الله ياجبريل أخر حاجة عبدى فانى أحب أن أسمع صوته و إنّ العبد ليدعو وهو يبغضه فيقول الله ياجبريل اقض لعبدى حاجته فانى أكره أن أسمع صوته » اه كلام الامام أبى القاسم القشيرى وهو حسن بديع وهو أوفى مما ذكره المؤلف رحمه الله فلذلك أوردته هنا بكماله (إنما يذكر من يجوز عليه الاغفال و إنما ينبه من يمكن منه الاهمال) أورد هذا كالدليل على ماذكره من أنّ ترك الطلب قد يكون من الأدب وذلك لأنّ فى الطلب إشعارا بتجويز الاغفال عليه فيقع بذلك التذكير له وتلويحا باحتمال وجود الاهمال منه فيكون ذلك تنبيها له وجميع ذلك محال على الحق تعالى عن ذلك علوّا كبيرا فلأجل هذه العلل كان ترك الطلب عند هؤلاء أدبا وقد سئل الواسطى رضى الله عنه أن يدعو فقال أخشى إن دعوت أن يقال لى إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا و إن سألتنا ماليس لك عندنا فقد أسأت الثناء علينا و إن رضيتنا أجرينا لك من الأمور ماقضينا لك فى الدهور وروى عن عبد الله بن منازل رضى الله عنه أنه قال مادعوت الله منذ خمسين سنة وما أريد أن يدعو لى أحد لأنه ماض علىّ ماسبق (ورود الفاقات أعياد المريدين) الأعياد عبارة عن الأوقات العائدة على الناس بالمسرات والأفراح وهم مختلفون فى ذلك فمنهم من مسرته وفرحه بوجود حظه ونيل شهواته وغرضه وهذا هو حال عامة المسلمين ومنهم من مسرته وفرحه بفقدان حظوظه و إعواز أمانيه وأغراضه

وأغراضه وهذا هو حال الخاصة من المريدين لأن مدار أمرهم إنما هو على مراعاة قلوبهم وتصفية أسرارهم من كدورات الأغيار والآثار ولا يتأتى لهم ذلك إلا بوجدانهم لما يقهرهم من ضرورات الفاقات وأنواع الحاجات والضرورات فتراهم يؤثرون الفقر على الغنى والشدة على الرخاء والذل على العز والمرض على الصحة إذ يحصل لهم بذلك رقة وحلاوة لايعرف قدرها إلاهم لأنها من وجودهم لقرب ربهم ورؤيتهم له فى حال فقدان حظهم وكلما ازدادوا فاقة و بلاء زادهم مولاهم قربة وولاء . كان بعضهم يطوف حول الكعبة الشريفة وهو يقول :

مؤتزر بشملتى كما ترى ... وصبيتى باكية كما ترى
وامرأتى عريانة كما ترى ... يامن يرى الذى بنا ولا يرى
أما ترى ماحل بى أما ترى ... أما ترى الذى بنا أما ترى

فسمعه بعضهم فجمع له كسراودفعها إليه فقال له إليك عنى لوكان معى شئ لما أمكننى أن أقول هذا القول . قال فى التنوير : وفى البلايا والفاقات من أسرار الألطاف مالا يفهمه إلا أولو البصائر ألم تر أن البلايا تخمد النفوس وتذهلها وتدهشها عن طلب حظوظها و يقع مع البلايا وجدان الذلة ومع الذلة تكون النصرة ـ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ـ وقال أبواسحق إبراهيم الهروى رضى الله عنه : من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعا على سبع فان الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير : أن يختار الفقر على الغنى ، والجوع على الشبع ، والدون على الرفع ، والذل على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة ، وقد تقدم عند قول المؤلف رحمه الله من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره الشفاء فى هذا المعنى فواجب إذن أن يكون ورود الفاقات أعياد المريدين كما قال فاذا فقدوا ذلك بمؤاتاة الأسباب استشعروا بذلك وجود الحجاب و بعدهم عن محل الاقتراب فحزنوا لذلك وتأسفوا وودوا لوعاد إليهم الحال الأول ، ومن هذا المعنى ماحكى عن خير النساج رضى الله عنه قال : دخلت بعض المساجد فاذا فيه فقير فلما رآنى تعلق بى وقال أيها الشيخ تعطف على فان محنتى عظيمة فقلت وماهى قال فقدت البلاء وقرنت بالعافية فنظرت فاذا هو قد فتح عليه شئ من الدنيا ، وقال بعضهم إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرا أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره كما أن الغنى يحترز من الفقر خذرا أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه ، وقد تقدم من حكايات عطاء السلمى وفتح الموصلى والفضيل بن عياض والربيع بن خثيم رضى الله عنهم مايوافق ماذكرناه وأنشدوا فى ذكر أعياد المريدين والعارفين ، وقيل إنها لأبى على الروذبارى رضى الله عنه :

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباى تحتهما ... قلب يرى ألفة الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى ... والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

(ربما وجدت من المزيد فى الفاقات مالا تجده فى الصوم والصلاة) ورود الفاقات يحصل للمريد بها مزيد كثير من صفاء القلب وطهارة السريرة وقدلايحصل له ذلك بالصوم والصلاة لأن الصوم والصلاة قد يكون له فيهما شهوة وهوى كما تقدم وما كان هذا سبيله لايؤمن عليه فيه من دخول الآفات فلايفيده تحلية ولا تزكية بخلاف ورود الفاقات فانهامباينة للهوى والشهوة على كل حال وقد تقدم نحو من هذا المعنى عند قوله إذافتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك إلى آخره

(ربما وجدت) أيها المريد (من المزيد) أى الزيادة فى حالك من طهارة السر وحصول أنوار ومعارف (فى الفاقات) أى فى حال ورودها عليك (مالا تجده فى الصوم والصلاة) لأنه قديكون قيامك بهما لشهوة نفسك وحظوظها ومن كان هذا سبيله فلا يؤمن فيه دخول الآفات فلا يفيدك تزكية ولا تحلية بخلاف ورود الفاقات فانها مباينة للهوى والشهوة على كل حال

(الفاقات بسط المواهب) أى كالبسط التى ترد عليها المواهب الإلهية لكل من جلس عليها كما أن الملك إذاجلس أحد على بساطه أعطاه شيئا من مواهب الدنيافالفاقات تحضرك مع الحق وتجلسك على بساط الصدق وناهيك بما يكون فى تلك الحضرة والمجالسة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية ولذاقال (إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقروالفاقة لديك) بأن تتحقق بهما فى نفسك تحققا تاما فلا يكون عندك استغناء بغيره بوجه من الوجوه فحينئذ ترد المواهب الإلهية عليك لقوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء ـ تحقق بأوصافك يمدك) بضم الياء وفتحها مع كسر الميم على الأول وضمها على الثانى (بأوصافه) ثم فصل ذلك بقوله (تحقق بذلك يمدك بعزه) فتصير عزيزا به لا بنفسك (تحقق بعجزك يمدك بقدرته) فتصير قادرا به لابنفسك (تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته) فتصير قويا به وكذا إن تحققت بفقرك يمدك بغناه فاذا جلست على بساط الذل وقلت يا عزيز من للذليل غيرك وعلى بساط العجز وقلت ياقادر من للعاجز غيرك وعلى بساط الضعف وقلت يا قوىّ من للضعيف غيرك وعلى بساط الفقر والفاقة وقلت ياغنى من للفقير غيرك وجدت الاجابة كأنها طوع يدك فقوله تحقق بأوصافك الخ مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب لأن من جملة المواهب الامداد

(14)

(الفاقات بسط المواهب) الفاقات تحضره مع الحقّ وتجلسه على بساط الصدق وناهيك بما يكون فى تلك المحاضرة والمجالسة من المواهب الربانية والنفحات الرحمانية (إن أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ـ إنما الصدقات للفقراء) هذا مثل ماذكره الآن وذكر الآية عقيبه إشارة بديعة ، وتصحيح الفاقة والفقر هو التحقق بأوصاف العبودية المذكورة فى المسئلة التى تأتى بأثر هذه ، ومما يتعلق بظاهر الآية التى استشهد بها المؤلف رحمه الله على طريقة القوم ما قال بعضهم صدق الفقير أخذه الصدقة ممن يعطيه لاممن يقبل إليه على يده ، فالحقّ تعالى هو المعطى على الحقيقة لأنه جعلها لهم فان قبلها من الحقّ فهو الصادق فى فقره لعلوّ همته ومن قبلها من الوسائط فهو المتوسم بالفقر مع رداءة همته (تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه تحقق بذلك يمدّك بعزه تحقق بعجزك يمدك بقدرته تحقق بضعفك يمدّك بحوله وقوّته) هذا مناسب لما ذكره من الفاقات والمواهب ، وقد تقدّم التنبيه على هذا المعنى عند قوله كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا . قال سيدى أبوالحسن الشاذلى رضى الله عنه بعد كلام ذكره : وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذل لله تعالى وأضدادها أوصاف الربوبية فمالك ولها فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه وقل من بساط الفقر الحقيقى ياغنىّ من للفقير غيرك ومن بساط الضعف ياقوى من للضعيف غيرك ، ومن بساط العجز ياقادر من للعاجز غيرك ، ومن بساط الذلّ ياعزيز من للذليل غيرك تجد الاجابة كأنها طوع يدك ـ واستعينوا بالله واصبروا ، إن الله مع الصابرين ـ اهـ كلام سيدى أبى الحسن وهومعنى ماذكره المؤلف ههنا وأكثر كلام المؤلف جار على منهاج كلام أبى الحسن رضى الله عنهما ونفع بهما . وقال رضى الله عنه (ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة) الكرامة الحقيقية إنما هى حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها ومرجعها إلى أمرين صحة الايمان بالله عزوجل واتباع ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا فالواجب على العبد أن لايحرص إلا عليهما ولا تكون له همة إلا فى الوصول إليهما . وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلاعبرة بها عندالمحققين إذ قد يرزق ذلك من لم تكمل له الاستقامة قال سيدى أبوالحسن الشاذلى رضى الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان كرامة الايمان بمزيد الايقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ليس ذاحظ فى العلم والعمل بالصواب كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا وكلّ كرامة لايصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور وناقص أوهالك مثبور . وقال سيدى أبوالعباس المرسى رضى الله عنه ليس الشأن من تطوى له الأرض فاذاهو بمكة وغيرها من البلدان إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه فاذاهو عند ربه وذكر عند سهل بن عبد الله رضى الله عنه

بضدّ الوصف الذى تحققت به (ربما رزق الكرامة) أى الأمر الخارق للعادة (من لم تكمل له الاستقامة) فلاينبغى للمريد أن يعتنى بها ويغتر بظهورها على يده لأنها حينئذ ربما كانت معونة أواستدراجا لا كرامة فالكرامة الحقيقية هى كمال الاستقامة ومرجعها إلى أمرين صحة الايمان بالله واتباع ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا فالواجب على المريد أن لايحرص إلاعليها ولا يكون له همة إلافى الوصول إليها ، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلاعبرة بها عند المحققين

عنه الكرامات فقال وما الآيات وما الكرامات هى شئ تنقضى لوقتها ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود وقال بعض المشايخ لاتعجبوا ممن لم يضع فى جيبه شيئا فيدخل يده فى جيبه فيخرج منه مايريد ولكن تعجبوا ممن يضع فى جيبه شيئا فيدخل يده فى جيبه فلا يجده فلا يتغير وقيل لأبى محمد المرتعش رضى الله عنه إن فلانا يمشى على الماء فقال عندى من مكنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى على الماء والهواء وقال أبو يزيد رضى الله عنه لوأن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى وقيل له إن فلانا يقال إنه يمر فى ليلة إلى مكة فقال الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهو فى لعنة الله وقيل له يقال إن فلانا يمشى على الماء فقال الحيتان فى الماء والطير فى الهواء أعجب من ذلك وقال الجنيد رضى الله عنه حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات وقد تقدم مثل هذا عند قوله ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه (من علامات إقامة الحق لك فى الشئ إقامته إياك فيه مع حصول النتائج) لااعتبار بما يقوم فيه العبد بنفسه من عمل أوحال و إنما العبرة بما يقيمه فيه ربه وعلامة إقامة الله عبده فى الشئ أن يديمه عليه و يحصل له ثمرته ونتيجته و ينبنى على هذا آداب ومعاملات وقد أشرنا إلى نحو من هذا عند قول المؤلف رحمه الله إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب إلى آخره (من عبر من بساط إحسانه أصمتته الاساءة ومن عبر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء) من شاهد إحسان نفسه وعمل بطاعة ربه انبسط لسانه بالنصيحة والموعظة لعباد الله فان وقعت منه إساءة ومخالفة انقبض عن ذلك وصمت لما يعتريه من الخجل والحياء وهذه طريقة أهل التكليف الذين ينظرون إلى مامنهم إلى الله تعالى من عمل صالح أوطالح ومن شاهد احسان الله إليه وغاب عن رؤية احسانه هو انبسط لسانه فى الحالين من غير فرق لأن مشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته فى الحالين أوجبت جراءته على ذلك وقد قيل جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان وهذه طريقة أهل التعريف الذين ينظرون إلى مامن الله تعالى إليهم . قلت وماذكرته هنا من لفظى التعريف والتكليف ومانبهت به عليهما من الكلام اللطيف أشرت به إلى مسئلة عظيمة مهمة ينبنى عليها آداب وأحكام جمة وهى مسئلة اختلاف الناس فى معاملاتهم لربهم بحسب نياتهم فى مراتب قربهم ومن أحكامها مسئلة التعبير التى اقتصر المؤلف عليها فى هذا الفصل ولم يذكر معها سواها مما ينبنى على ذلك الأصل وقد نبه عليها فى لطائف المنن وأتى فيها بكلام مستوعب حسن فرأينا أن ننقله ههنا بكماله ليتبين به مقصدنا فى تفصيله واجماله . قال فيه وقال رضى الله عنه يعنى شيخه أبا العباس الناس على ثلاثة أقسام عبد هو بشهود مامنه إلى الله وعبد هو بشهود مامن الله إليه وعبد هو بشهود مامن الله إلى الله قال ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره واساءته فيقوم مقام المعتذر بين يدى الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان و يستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء وعبد آخر الغالب عليه شهود مامن الله إليه من الفضل والاحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله قال الله سبحانه وتعالى ــ قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ــ فالأول حال العباد والزهاد والثانى حال أهل العناية والوداد الأول شأن أهل التكليف والثانى شأن أهل التعريف الأول حال أهل اليقظة والثانى حال أهل المعرفة فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه العارف من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه وعرف إساءته فى احسان الله إليه ــ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ــ وقال رضى الله عنه قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من

(من علامات إقامة الحق) أى الله (لك فى الشئ) كالاكتساب أو التجريد (إقامته إياك فيه) أى تيسر أسبابه لك و إدامته عليك (مع حصول النتائج) أى ثمرات ذلك الشئ كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب كما مر (من عبر) أى تكلم فى علوم القوم وأفادها للمريدين (من بساط إحسانه) أى ملاحظا أن تعبيره و إفادته تلك العلوم نشأ من إحسانه أى أعماله الصالحة الشبيهة بالبساط الذى يجلس عليه عند ورود المواهب (أصمتته الاساءة) أى أسكتته إساءته ومخالفته للرب فينقبض عن ذلك التعبير لما يعتريه من الخجل والحياء بسبب المعصية التى صدرت منه وسبب ذلك مشاهدته إحسان نفسه (ومن عبر من بساط إحسان الله إليه) أى ملاحظا أن تعبيره و إفادته تلك العلوم ناشئ من إحسان الله إليه غائبا عن رؤية نفسه (لم يصمت إذا أساء) أى لم يسكت عن ذلك التعبير إذا صدرت منه معصية لأن غيبته عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك ولذا قيل جراءة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان

كثرة العمل معرؤية التقصير من النفس. وقال بعض أهل المعرفة لايخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه قرأت ليلة من الليالى: قل أعوذ برب الناس إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس فقيل لى شر الوسواس وسواس يدخل بينك و بين حبيبك ينسيك ألطافه الحسنة و يذكرك أفعالك السيئة و يقلل عندك ذات اليمين و يكثر عندك ذات الشمال ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد ولذلك قل أن تجد الزاهد والعابد إلا مكمودا حزينا لأنه علم أن الله تعالى طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله قال الله سبحانه وتعالى ـ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ـ فعاين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه فلذلك لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكليف أمرا عظيما وعلموا ضعفهم عن حمله والقيام بهمتى وكلوا إلى نفوسهم قال الله عز وجل "وخلق الانسان ضعيفا وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله تعالى حمل عنهم ما حملهم قال الله تعالى ـ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ فرجعوا إليه بصدق الالتجا فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفات المنن تروح عليهم بنفحات اللطف والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف فتلازمهم المشقات وتطول بهم المسافات فان شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات وأما القسم الثالث وهم الذين أمدهم الله تعالى بشهود ما من الله إلى الله هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى ميدان التفريد وأهل القسم الأول وهم الذين غلب عليهم شهود ما منهم إلى الله لم يخرجوا عن باطن الشرك و إن خرجوا عن ظاهره لأنهم أقبلوا على أنفسهم مو بخين لها شاهدين لتقصيرهم واساءتهم فلولم يشهدوا الفعل لها أو منها ماتوجهوا لها بالتو بيخ إذا قصرت فلذلك قال ذلك العارف الذى سبق قوله لايخلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير . فان قلت إذا كان تو بيخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف تصنع والله تعالى قد ذم النفس وأمرنا بتو بيخها إذا قصرت وو بخها هو إذا كانت كذلك . فالجواب أن ذمها لأن الله تعالى أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف إليها فعلا فلا تراها هى الفاعلة له وأما القسم الثانى وهو الذى يشهد ما من الله إليه فهو و إن كان خيرا من القسم الأول لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق فلولا اثباته لنفسه ما شهد ذلك فلأجل هذين العنيين آثر أهل الله تعالى القسم الثالث وهو أن يكون بشهود ما من الله إلى الله فافهم اه كلامه رحمه الله تعالى ولأجل ما تضمنه من الفوائد الجليلة والمقاصد النبيلة دعانا قرب المناسبة إلى ذكره على ماهو عليه فى هذا الموضع والله الموفق لارب غيره (تسبق أنوار الحكماء أقوالهم فحيث صار التنوير وصل التعبير) الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به والأنوار المنسوبة إليهم هى أنوار معرفتهم وهى قوة يقينهم فان الأمور كلها بيد الله تعالى لاشريك له فيها فان أرادوا ارشاد عباد الله تعالى ونصيحتهم باذن الله تعالى سبقت أنوار قلوبهم إلى الله تعالى بالالتجا والافتقار إليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعدادا لقبول ما يريدون إيراده عليهم من كلام الحكمة فيجيبهم إلى ذلك فاذا تكلموا به تلقته قلوبهم التى وصل إليها أنوار أسرار الحكماء كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع وقد أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال يابنى ما بلغت من حكمتك قال لاأتكلف مالا يعنينى قال يابنى إنه قد بقى شىء آخر جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله

(تسبق أنوار الحكماء) وهم العارفون بالله تعالى العالمون به (أقوالهم) وأنوارهم هى أنوار معرفتهم وهى قوة يقينهم بأن الأمور كلها بيد الله تعالى لاشريك له فيها فاذا أرادوا إرشاد عباد الله ونصيحتهم باذن من الله تعالى توجهوا إلى الله والتجئوا إليه فى أن يتولى لهم أمر قلوب عباده بأن يجعل فيها أهلية واستعدادا لقبول ما يرد عليها فيخرج من قلوبهم حينئذ نور ناشىء من نور سرائرهم يصل إلى تلك القلوب (فحيث صار) أى حصل (التنوير) أى النور أى استقر فى قلوب عباد الله الذين يريدون إرشادهم (وصل التعبير) أى تلقته تلك القلوب بالقبول كما تتلقى الأرض الميتة وابل المطر فينتفعون بذلك أتم انتفاع ثم علل ذلك بقوله

يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء وإنما قلنا إن الحكماء هم العارفون بالله تعالى العالمون به لأنهم خائفون من الله تعالى وفى بعض الآثار «رأس الحكمة مخافة الله» والخوف من ثمرات العلم بالله وقال الله تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ والعلم الموجب للخشية هو العلم بالله فقط فالحكماء هم العالمون بالله تعالى وإن كانوا ضعفاء فى سائر العلوم الرسمية كليلة ألسنتهم فى البيان عنها (كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز) اللسان ترجمان القلب فاذا صفا من الأكدار وتزكى من الأغيار وأشرقت فيه الأنوار كانت ترجمانية لسانه على حسب ذلك فيتكلم بالكلام النورانى الذى يلج آذان السامعين فتفتح بسببه إذ ذاك أقفال قلوبهم ويستجيبون به لنداء الحق حبيبهم. وروى الحافظ أبو نعيم رحمه الله عن سعيد بن عاصم قال: كان قاص يجلس قريبا من مجلس محمد بن واسع فقال له يوما وهو يوبخ جلساءه مالى أرى القلوب لا تخشع ومالى أرى العيون لا تدمع ومالى أرى الجلود لا تقشعر فقال محمد بن واسع ياعبد الله ما أرى القوم أوتوا إلا من قبلك إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب . قلت وقد حاز المؤلف قصب السبق فى هذا المعنى الذى ذكره ومن مارس كلامه فى هذا الكتاب وفى غيره وحصل له منه التأثير المحمود سلم ماقلناه وكفى بشهادة شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه على عظم قدره ودعائه له برهانا على ذلك . قال فى لطائف المنن وكنت قد قلت لبعض تلامذة الشيخ يعنى أبا العباس أريد لو نظر الىّ الشيخ برعايته وجعلنى فى خاطره فقال ذلك للشيخ فلما دخلت على الشيخ قال رضى الله عنه لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده ثم قال أىّ شىء تريد أن تكون والله ليكونن لك شأن عظيم والله ليكونن لك كذا وكذا والله ليكونن لك كذا وكذا لم أثبت منه إلا قوله ليكونن لك شأن عظيم قال فكان من فضل الله سبحانه مالا أنكره قال فأخبرنى سيدى جمال الدين ولد الشيخ قال قلت للشيخ يريدون أن يصدّروا ابن عطاء الله فى الفقه فقال الشيخ هم يصدرونه فى الفقه وأنا أصدره فى التصوّف وقال دخلت عليه فقال إذا عوفى الفقيه ناصر الدين نجلسك فى موضع جدك ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية وتتكلم إن شاء الله تعالى فى العالمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه قال وسمعته يقول أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدى جمال الدين فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ وأتيته بالجزء الأوّل فقال ماهذا قلت كتاب التهذيب استنسخته لكم فأخذه فلما نهض ليقوم قال اجعل بالك الولى لا يتفضل عليه أحد تجد هذا إن شاء الله فى ميزانك فلما أتيته بالجزء الثانى لقينى بعض أصحابه عند نزولى من عنده قال قال الشيخ عنك والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به فى علم الظاهر والباطن فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابه وقال طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء فقال هذا الكتاب استنسخه لى ابن عطاء الله والله ما أرضى له بجلسة جده ولكن بزيادة التصوّف قال وأخبرنى بعض أصحابه قال قال لى الشيخ يوما إذا جاء ابن فقيه الاسكندرية فأعلمونى به فلما أتيت الشيخ أعلمنا الشيخ بذلك فقال تقدم فتقدّمت بين يديه فقال جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش فقال له هذا ملك الجبال قد أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش فسلم عليه ملك الجبال ثم قال يامحمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله تعالى ولا يشرك به شيئا فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يخرج من أصلابهم كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه . قال وخرجت يوما من عند الفقيه المكين الأسمر

(كل كلام يبرز وعليه) الواو للحال وفى بعض النسخ إسقاطها (كسوة القلب الذى منه برز) فاذا كان القلب منوّرا اكتسى الكلام نورا فلا تمجه الأسماع ولا تنكره القلوب فكسوته هو ذلك النور وكلام الحكماء يبرز مكسوا بكسوة الأنوار فتفتح به أقفال القلوب ويستجيبون لنداء حبيبهم وكلام المدعين يبرز وعليه الظلمة فلا ينتفع به أتم انتفاع وقد ينتفع به من جهة حقيقته ومضمونه لا من جهة قائله « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »

وخرج معى أبو الحسن الجوهرى وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن فسلمت عليه وسلم علىّ
بشاشة و إقبال فقلت له من أين تعرفنى فقال وكيف لا أعرفك كنت يوما جالسا عند الشيخ أبى
العباس وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له ياسيدى إنه ليعجبنى هذا الشاب انقطع فلان وفلان
عن الملازمة وهذا الشاب ملازم قال فقال الشيخ يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا
يدعو إلى الله فكان ماقال الشيخ رحمه الله تعالى قال وكنت كثيرا مايطرأ علىّ الوسواس فى الطهارة
فبلغ ذلك الشيخ فقال بلغنى أن بك وسواسا فى الوضوء قلت نعم فقال رضى الله عنه هذه الطائفة
تلعب بالشيطان لاالشيطان يلعب بهم ثم مكثت أياما ودخلت عليه فقال ماحال ذلك الوسواس قلت
على حاله فقال إن كنت لا تترك الوسوسة لا تعد تأتينا فشق ذلك علىّ وقطع الله ذلك الوسواس
عنى قال وكان رضى الله عنه يلقن للوسواس سبحان الملك القدوس الخلاق الفعال — إن يشأ
يذهبكم و يأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز — قال وعملت قصيدة أمدحه بهافقال حين أنشدت
أيدك الله بروح القدس قال ثم عملت قصيدة أخرى باشارته جوابا لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد
اخميم فلماقرئت عليه قال رضى الله عنه صحبنى هذا الفقيه و به مرضان وقد عافاه الله منهما ولابد
أن يجلس و يتحدث فى العلمين يشير الشيخ إلى مرض الوسواس قال فلقد انقطع عنى ببركة الشيخ
حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التى أجدها قد تساهلت فى بعض الأمر والمرض الآخر
كان بى ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى فعافانى الله تعالى وشفانى . قال و بتّ ليلة من
الليالى مهموما فرأيت الشيخ فى المنام فشكوت إليه ماأنافيه فقال اسكت والله لأعلمنك علماعظيماقال
فلما انتبهت جئت إلى الشيخ رضى الله عنه فقصصت عليه الرؤيا فقال هكذا تكون إن شاء الله تعالى
قال وجاء يوما من السفر فخرجنا للقائه فلماسلمت عليه قال لى يا أحمد كان الله لك ولطف بك وسلك
بك سبيل أوليائه و بهاك بين خلقه قال فقد وجدت بركة هذا الدعاء وعلمت أنه لايمكننى الانقطاع
عن الخلق وأنى مراد بهم لقوله و بهاك بين خلقه قال وكنت أنا لأمره من المنكرين وعليه من
المعترضين لالشىء سمعته منه ولالشىء صح نقله عنه حتى جرت مقاولة بينى و بين بعض أصحابه وذلك قبل
صحبتى إياه وقلت لذلك الرجل ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدّعون أمورا عظاما وظاهر
الشرع يأباها فقال ذلك الرجل بعد أن صحبت الشيخ تدرى ماقال لى الشيخ يوم تخاصمنافقلت لاقال
دخلت عليه فأول ماقال لى هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك فعلمت أن الشيخ كوشف
بأمرنا ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاما فماسمعت منه شيئا ينكره ظاهر الشرع من الذى كان
ينقله عنه من يقصد الأذى قال وكان سبب اجتماعى معه أن قلت فى نفسى بعد أن جرت المخاصمة بينى
و بين ذلك الرجل دعنى أذهب فأرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لايخفى شأنه قال فأتيت إلى
مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال الأول إسلام والثانى إيمان والثالث
إحسان و إن شئت قلت الأول عبادة والثانى عبودية والثالث عبودة و إن شئت قلت الأول شريعة
والثانى حقيقة والثالث تحقق ونحو هذا فما زال يقول و إن شئت قلت إلى أن بهر عقلى وعلمت أن
الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى فأذهب الله ما كان عندى ثم أتيت تلك الليلة
إلى المنزل فلم أجد شيئا منى يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى ووجدت معنى غريبا ما أدرى ماهو فانفردت
فى مكان أنظر إلى السماء و إلى كواكبها وماخلق الله فيهامن عجائب قدرته فحملنى ذلك إلى العود إليه مرة
أخرى فأتيت فاستؤذن لى فلمادخلت عليه قام وتلقانى ببشاشة و إقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت
نفسى أن أكون أهلا لذلك فكان أول ماقلت له ياسيدى أنا والله أحبك فقال أحبك الله كما أحببتنى
ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال أحوال العبد أربعة لاخامس لها النعمة والبلية

والطاعة

(من أذن له) من العارفين بالله تعالى (فى التعبير) عن الحقائق وهى علوم الوهب والفتح المأخوذة عن الله تعالى بلا واسطة وعلامة الاذن له فى ذلك تيسير التعبير عليه وسهولته وعدم احتياجه فى إلقاء المعارف إلى كلفة بل يجد لسانه منطلقا بها ويجد عنده باعثا إلى التعبير مع السلامة من آفات النطق وعلامة ذلك بالنسبة للسامعين ماذكره بقوله (فهمت فى مسامع

الخلق عبارته) فلم يفتقروا إلى معاودة وتكرار وجعل الأسماع محلا للفهم مبالغة وإلا فمحلها حقيقة هو القلب (وجليت) بضم الجيم وتشديد اللام أى ظهرت (اليهم إشارته) وهى ألطف من العبارة التى يستعملها أهل الطريق فى الاخبار من العلوم الباطنية والحقائق العرفانية أى فلا يحتاجون إلى إطناب ولا إكثار بخلاف غير المأذون له فى ذلك ثم قال (ربما برزت الحقائق وهى العلوم العرفانية مكسوفة الأنوار) بما غشيها من ظلمة رؤية الأغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم (إذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار) قال أبو العباس المرسى قدس الله سره كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة وكلام غير المأذون له يخرج مكسوف الأنوار حتى إن الرجلين ليتكلمان

والطاعة والمعصية فان كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنة عليك وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار قال فقمت من عنده وكأنما كانت تلك الهموم والأحزان ثوبا نزعته قال ثم سألنى بعد ذلك بمدة كيف حالك فقلت أفتش على الهم فلا أجده فقال :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

الزم فوالله إن لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن اهـ ما نقلته من لطائف المنن وإنما أوردت ذلك هنا على طوله ليعرف به قدر المؤلف وليدفع بواضح برهانه طعن الطاعن وتعسف المتعسف ولنتعرض بذلك لنزول الرحمة من الله تعالى علينا وموالاة منحه وعطاياه لدينا فقد قيل عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة مع ما فى ذلك من قرب المناسبة لمعنى ما أورده المؤلف من الكلام الحائز به قصب السبق بين من عاصره من الأئمة الأعلام وأما شيخه أبو العباس وشيخ شيخه أبو الحسن فحالهما أوضح من نار على علم ولقد طرزت بكلامهما الكتب والدفاتر وزهيت بمآثرهما وعلومهما الألسنة والأقلام والصحف والمحابر ولولا خشية الملالة وكراهة الاطالة لذكرنا من ذلك ما يبهر عقول السامعين والمطالعين ويرغم آناف الجاحدين والمعاندين :

سيكفيك من ذاك المسمى إشارة ودعه مصونا بالجمال محجبا

(من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارته) المأذون له فى التعبير هو الذى يتكلم لله وبالله وفى الله ولذلك كان كلامه صوابا قال الجنيد رضى الله عنه الصواب كل نطق عن إذن أشار بهذا والله أعلم إلى قوله تعالى ـ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ـ فاذا قرع أسماع السامعين كلامه فهمت فى مسامعهم عبارته فلم يفتقروا إلى معاودة ولا تكرار وجليت إليهم إشارته فلم يحتاجوا معها إلى إطناب ولا إكثار بخلاف غير المأذون له فى ذلك قيل لحمدون بن أحمد بن عمارة القصار رضى الله عنه ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا قال لأنهم تكلموا لعز الاسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق (ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك فيها بالاظهار) من لم يستكمل الأوصاف المذكورة لم يؤذن له فى إظهار شىء من الحقائق الربانية فان أظهرها برزت مكسوفة الأنوار بما غشيها من ظلمة رؤية الأغيار فمجتها آذان السامعين وأنكرتها قلوبهم وعلامة استكمال الأوصاف المذكورة أن يفتح له باب التعبير مع وجود السلامة من آفات النطق قال فى لطائف المنن إن من أجلّ مواهب الله لأوليائه وجود العبارة قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول الولى يكون مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة حتى إذا أعطى العبارة كان كالاذن من الله فى الكلام قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر (عباراتهم إما لفيضان وجد

بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وتردّ على الآخر (عباراتهم) التى يعبرون بها عن العلوم والمعارف التى يجدونها فى باطنهم (إما الفيضان وجد) أى لفيضان ما يجدونه فى قلوبهم من ذلك فقلوبهم ضيقة يفيض عنها ما يحل فيها قهرا عنهم كالاناء الضيق إذا وضع فيه ماء كثير فانه يفيض منه قهرا

(أو لقصد هداية مريد) و إن كانت قلوبهم مسعة يمكنهم ردّ مايستقرفيها فلايفيض منها شئ (الأول حال السالكين) أى من أهل البداية فهم معذورون فى التعبير لوجود الغلبة عليهم (والثانى حال أرباب المكنة والمحققين) من أهل النهاية فيلزمهم ذلك لمافيه من الارشاد والهداية (٢٠) فان عبر السالك لاعن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى و إن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان فى ذلك إفشاء سرّ لم يؤذن له فيه وأيضا لحاله يقتضى وجود الصمت وعدم النطق لأنه فى حضرة الحقّ تعالى يتلقى ما يرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم (العبارات) التى يعبر بها أهل هذه الطريقة عن العلوم والمعارف (قوت لعائلة المستمعين) الاضافة للبيان أى هى من حيث معناها قوت لأرواح العائلة وهم المستمعون المحتاجون إلى ما يلقى إليهم من المواعظ والحكم كما أنّ الأطعمة الحسية قوت لأبدان المحتاجين إليها (وليس لك إلا ما أنت له آكل) أى كما أنّ الأقوات الحسية مختلفة فلا يصلح للواحد منها ما يصلح للآخر لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم كذلك الأقوات المعنوية التى تفهم من العبارات مختلفة فلا يصلح للواحد منها مايصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم فقد تلقى العبارة على جماعة فيفهم كلّ واحد منها ما لايفهمه الآخر وقد يفهم بعضهم من الكلام الذى يسمعه معنى لايقصده المتكلم و يتأثر باطنه بذلك تأثرا عجيبا بأنه ور بما فهم منه ضدّ ما قصده المتكلم به فقد سمع بعضهم قائلا يقول : إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار

أو لقصد هداية مريد فالأول حال السالكين والثانى حال أرباب المكنة والمحققين) إنما يقع التعبير منهم عما يطالعون به من الأمور الغيبية والعلوم الاشهادية لأحد معنيين إما حال غلبة الوجد عليهم وفيضانه وهم معذورون فى ذلك لوجود الغلبة وهذا حال السالكين من أهل الهداية و إما لقصد هداية مريد فيلزمهم ذلك لما فيه من فائدة الارشاد والهداية وهذا حال أهل التمكين والمحققين من أهل النهاية فان عبر السالك لاعن غلبة وجد كان فى ذلك نوع من الدعوى و إن عبر المتمكن من غير قصد هداية مريد كان فى ذلك إفشاء سرّ لم يؤذن له فيه وأيضا لحاله يقتضى وجود الصمت وعدم النطق لأنه فى حضرة الحق تعالى يتلقى مايرد على سمع قلبه من عجائب العلوم وغرائب الفهوم فكيف يصدر منهم نطق أو تعبير على غير الوجه المذكور والصمت من آداب الحضرة قال الله عزّ وجلّ - وخشعت الأصوات للرحمن فلاتسمع إلا همسا - (العبارات قوت لعائلة المستمعين وليس لك إلاما أنت له آكل) المستمعون موسومون بالفقر والحاجة إلى معنى مايستمعون إليه من المواعظ والحكم وهو قوت قلوبهم وغذاء أرواحهم كما أنّ المستطعمين والسؤال موسومون بالفقر والحاجة إلى قوت أبدانهم وكما أنّ أقوات هؤلاء مختلفة فلا يصلح لواحد من هؤلاء ما يصلح للآخر من الأطعمة والأشربة لاختلاف طبائعهم وأمزجتهم فكذلك أقوات الآخرين مختلفة فلا يصلح لواحد منهم من العبارات التى تتضمن وجود القوت المعنوى مايصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم فاذا سمعت عبارة من عالم أوعارف أو أحد من أهل هذا الطريق ولم تحظ منها بشئ فاعلم أنها لاتصلح لقوتك وغذائك وهى صالحة لقوم آخرين ومما ينتظم فى هذا السلك أن تقرع أسماع بعض الناس العبارة من بعض الأشخاص فيفهم منها معنى لم يقصده المتكلم و يتأثر باطنه بذلك تأثرا عجيبا وقد يقع ذلك لجملة من الناس فيفهم كلّ واحد منهم ما لايفهمه الآخر و يحصل لهم بذلك التأثر مع أنّ المتكلم لم يرد شيئا من ذلك ور بما كان ذلك مضادا له وقد يسمع أرباب القلوب من الجمادات و يستعدون به لسئ الحالات قال فى لطائف المنن ور بما فهم من اللفظ ضدّ ماقصد واضعه كما أخبرنا الشيخ الامام مفتى الأنام تقىّ الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله قال كان ببغداد فقيه يقال له الجوزى يقرأ اثنى عشر علما فخرج يوما قاصدا المدرسة فسمع منشدا يقول :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فانّ الوقت ضاق عن الصغار

فخرج هائما على وجهه إلى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات قال وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر قول القائل :

لوكان لى مسعد بالراح يسعدنى لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شئ شريف أنت شاربه فاشرب ولوحملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعنى أسكن النارا

فقال إنسان هناك لاتجوز قراءة هذه الأبيات فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ اقرأ هذا رجل محجوب والشيخ مكين الدين الأسمر هذا هو الذى شهد له الشيخ أبوالحسن الشاذلى رضى الله عنه

ولانشرب بأقداح صغار   فان الوقت ضاق عن الصغار   فخرج هائماً على وجهه حتى أتى مكة ولم يزل مجاورا بها حتى مات (ربما عبر عن المقام) أى عن أى مقام من مقامات اليقين كمقام الزهد ومقام الورع ومقام التوكل إلى غير ذلك (من استشرف عليه) أى اطلع عليه وقارب الوصول إليه ولم يظفر به ولم يتحقق فيه (وربما عبر عنه من وصل إليه) وتحقق فيه (وذلك) أى ماذكر من الحالين (ملتبس) أى يلتبس الفرق بين حال هذا وحال هذا (إلا على صاحب بصيرة) فانه لايخفى عليه لأنه لايرى فى الكلام صورة التكلم الباطنة وماهو عليه من كمال أونقص وعلامة الأول أن يجد الفرح والاستبشار عند التعبير

بأنه من السبعة الأبدال قال ويكفيك فى هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا ينادى يا سعتربرى ففهم كل واحد منهم مخاطبة خوطب عن الله بها فى سره فسمع الواحد اسع تر برى وسمع الآخر الساعة ترى برى وسمع الآخر ما أوسع برى فالمسموع واحد واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه – تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل – وقال سبحانه – قد علم كل أناس مشربهم – فأما الذى سمع اسع تر برى فمريد دل على الله تعالى بالنهوض إلى الله بالأعمال فيستقبل الطريق بالجد وقيل له اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة وأما الثانى فكان واصلا إلى الله تعالى طاولته الأوقات نخاف أن تفوته المواصلة فقيل له ترويحا على قلبه لما أحرقته نار الشغف الساعة ترى برى وأما الآخر فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع ما أوسع برى قال وقال الشيخ محيى الدين ابن العربى رحمه الله دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر فاجتمع بها جماعة من المشايخ فقدم الطعام وعمروا الأوعية وهناك وعاء زجاج قد اتخذ للبول ولم يستعمل فقرب فيه رب المنزل الطعام فالجماعة يأكلون وإذا الوعاء يقول منذ أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لاأرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك اليوم محلا للأذى ثم انكسر نصفين فقال الشيخ محيى الدين فقلت للجميع سمعتم ماقال الوعاء فقالوا نعم قال فقلت ماسمعتم فأعادوا القول الذى قدتقدم قال فقلت قال قولا غير ذلك قالوا وماهو قلت قال كذلك قلوبكم قد أكرمها الله بالإيمان فلاترضوا بعد ذلك أن تكون محلا لنجاسة المعصية وحب الدنيا جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه . قلت وهذه المنازع كلها مما يستملح ويستظرف وتتأثر بها القلوب السليمة وتنقاد لها النفوس الكريمة وقد جرت عادة أئمة هذه الطريق باستعمالها وإيرادها فى محالها فلاحرج علينا إذن فى ذكر بعض ذلك إذا كانت له مناسبة تامة ووجدت فيها فائدة خاصة أوعامة وبالله التوفيق لارب غيره (ربما عبر عن المقام من استشرف عليه وربما عبر عنه من وصل إليه وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة) كما أن الواصل إلى مقام من مقامات اليقين يعبر عنه كذلك يعبر عنه من استشرف عليه ولم يتحقق فيه بالمنازلة والمواصلة والتباس ذلك على من ليس له بصيرة ظاهرة وأما ذو البصيرة فلايخفى عليه ذلك لأنه يرى فى الكلام صورة التكلم الباطنة وماهو عليه من كمال أونقص وقد قيل تكلموا تعرفوا (لاينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته فان ذلك يقل عملها فى قلبه ويمنعه وجود الصدق مع ربه) الواردات الالهية لاينبغى للسالك أن يعبر عنها اختيارا منه بل يخفيها ويصونها ولايطلع عليها أحدا إلا شيخا مرشدا لأن نفسه تجد فى ذلك لذة وانشراحا فتقوى به صفاتها فيقل بسبب ذلك عمل الواردات فى قلبه من التأثير المحمود ولأجل غلبة أحكام نفسه وإيثار حظه يمنعه ذلك من وجود صدقه مع ربه وقد تقدم هذا المعنى فى قوله استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك (لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك

واستعظام الأمر واستحسانه لكونه فى مباديه وقريب عهد بغيره بخلاف الثانى فانه يتكلم فيه كعادته فى كلامه بغيره وربما عبر عن المقام من نقله من كتاب وحفظ أحواله من ممارسته لكلام القوم وحفظه لعباراتهم وقد يوهم مع ذلك أنه واصل متمكن وعلامته التى تبين حاله أن يبحث معه على مقتضى قواعد فنون العلم فان صار يتكلف الأجوبة ويشم منه رائحة التعصب والانتصار للنفس والأنفة من العجز فهو مدع كاذب (لاينبغى للسالك أن يعبر عن وارداته) أى ما يمنحه الله من العلوم الوهبية والأسرار التوحيدية فلا ينبغى له أن يعبر عنها اختيارا منه بل يخفيها ويصونها ولا يطلع عليها أحدا إلا شيخا مرشدا له (فان ذلك يقل عملها فى قلبه) أى فلايحصل له كمال الانتفاع بها وهو تمكنها فى القلب وتأثره بها (ويمنعه وجود الصدق مع ربه) إذ لايخلو التعبير عنها عن شهوة نفسانية لأن النفس تجد عند التعبير عنها لذة وانشراحا وذلك يقوى صفاتها وقوة صفاتها مما يمنعها من وجود الصدق مع ربها (لا تمدن يدك) أيها المريد المتجرد (إلى الأخذ من الخلائق) مما يعطونه لك من الأرزاق على وجه الرفق إلا بشرطين أشار إلى الأول بقوله (إلا أن ترى) أى إلا بعد ملاحظتك (أن المعطى فيهم مولاك) فلاترى العطاء الذى يصل إليك إلا منه وأن الخلق أسباب ووسائط ولا يكفى فى تلك الرؤية أن تكون علما وإيمانا فقط

فاذا كنت كذلك فخذ ماوافقك العلم) هـذه قاعدة عظيمة يحتاج إليها السالـكون المتجرّدون
ليبنوا عليها أحوالهم فيما يصـل إليهم من الرفق على أيدى الخلق ، وقد ذكرها المؤلف رحمه الله
بعبارات بديعة محمودة موجزة جمع فيها جملة المعانى التى يحتاج إليها من ذكرناه فلنبسط كلامه
فى ذلك على حسب عادتنا معه على الوجه الذى ذكرناه فى مقدمة هذا التنبيه ، وهذا قصدنا فى
جميع ماتكلمنا عليه من مسائل كتابه . ونقول على حسب ذلك أرزاق العباد المعتادة لهم تنقسم
إلى قسمين : أحدهما رزق يصلون إليه بأسباب وأعمال وتصرّفات كالتجارات والصناعات وغيرها
وهذا حال أهل الأسباب ، والثانى رزق يصل إليهم على أيدى الخلق من غير عمل ولا سعى وهذا
حال أرباب التجريد وكلّ واحد من القسمين له آداب وأحكام تخصه فأحكام القسم الأول وآدابه
لم يتعرض لها المؤلف رحمه الله تعالى وهى مذكورة فى فنّ الفقه وغيره فواجب على كل من دخل
فى شئ من الأسباب تحصيل علمه وطلبه من حيث هو وأحكام القسم الثانى وآدابه هى التى تعرض
لها المصنف وأجمل رحمه الله تعالى جميع ذلك فى مراعاة شرطين وجعلهما من شروط صحة الأخذ
الشرط الأول أن لايرى العطاء إلامن مولاه عز وجل وهذا هو الأصل وإنما اشترطه على الآخذ
لأنه مقتضى حاله من تحقيق التوحيد وتخليص التجريد وبه يصح له مقام القناعة والتوكل ويسقط من
قلبه هم الرزق وتزول به عنه علاقات الخلق وإن لم يكن على هذ الوصف كان عبدا للناس مولها قلبه
إليهم فيكثر طمعه فيهم ورغبته فيما فى أيديهم واستشرافه إليهم فيقع بسبب ذلك فى كبائر الذنوب من
معاصى القلب والجوارح مثل المداهنة والنفاق والرياء والتصنع والتلبيس والغش وعدم النصيحة وقلة
الشفقة وغير ذلك من الصفات المذمومة المناقضة للعبودية لله عزوجل قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه
من استفتح باب المعاش من غير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين ولا يكفى فى تلك الرؤية المذكورة
أن تكون علما وإنما فقط بل لابد أن تكون حالا وذوقا . دعا بعض الناس شقيقا البلخى رضى
الله عنه وكان فى طبقته من أصحابه نحو خمسين رجلا فوضع الرجل طعاما واسعا وأنفق نفقة كثيرة
فلما قعدوا قال لهم شقيق إن هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وأنى أقدمه إليه فطعامى
عليه حرام قال فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم ، فقال صاحب المنزل
لشقيق رحمك الله ما أردت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى : أى كلهم لايرونه فيما صنع
ولاينظرون إليه فيما قدم إلا ذلك الرجل وحده ، وإنما اشترطنا فى رؤية العطاء من الله تعالى أن
يكون حالا وذوقا لأن ذلك هو اللائق بحال المتجرد كما ذكرناه لأن التجريد حال شريف لايدخل
فيه بالاختيار والتعمد لأن ذلك من اتباع هوى النفس وطلب الحظ والراحة وإنما يقيم الحق تعالى
فيه من أراده به من أهل التقوى والمراقبة بعد كمال شغله بالله تعالى وجده فى الهرب عن كل مايقطعه
عن الله تعالى فحينئذ يسلبه الحق من تدبيره واختياره ويكاشفه بوحدانيته فى إيراده ويكون تركه
للأسباب بحكم الوقت وإشارة الحال كما روى أن أباحفص النيسابورى رضى الله عنه كان حدادا
وكان غلامه يوما ينفخ عليه الكير ، فأدخل الشيخ يوما يده فى النار وأخرج الحديدة من النار
فغشى على غلامه وترك أبوحفص الحانوت وأقبل على أمره ، وكان يقول رضى الله عنه تركت
العمل فرجعت إليه وتركنى العمل فلم أرجع إليه ، وقال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : لاينبغى
للصوفى أن يتعرض للقعود عن الكسب إلاأن يكون رجلا مغلوبا قد أغنته الحال عن المكاسب ،
وأما من كانت الحاجات به قائمة ولم يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلف فالعمل أولى به والكسب
بسعى أحلّ له وأبلغ لأن القعود لايصلح لمن لم يستغن عن التكلف وقال الشيخ أبوعبد الله القرشى

رضى

بل لابدّ أن تكون حالا وذوقا فان ذلك هو اللائق بحال المتجرّد و إلى الثانى بقوله (فاذا كنت كذلك) أى ملاحظا مولاك (فخذ ماوافقك العلم) على أخذه . وحاصله أن لاتأخذ إلا ماوافقك العلم على أخذه وأباح لك أخذه والمراد علم الظاهر بأن لا تأخذ إلامن يد مكلف رشيد تقى وعلم الباطن بأن لاتأخذ إلاما كان على وجه الرفق والمعونة أى لا تأخذ إلا ما أنت مفتقر إليه فى الحال لتنفقه فى ضروريانك وحاجاتك من غير إسراف ولا إقتار كما كان عليه الصلاة والسلام فى أكله وشربه ولباسه ومسكنه غير ذلك فلا تأخذ مايأتيك قبل وقتك ولازائدا على حاجتك إلاأن يكون فى خلقك سخاء ولاتأخذ ماتعطاه على جهة الاختبار من الله بأن أعطيت شيئا كنت قدقصدت تركه لله من شهوة كنت مبتلى بهاقد ملكتك ومنعتك القيام بحقوق ربك ولا تأخذ من منان ولافخور ولامظهر لعطيته ولامن يثقل على قلبك قبول عطيته فقدقيل لاتأكل إلامن يرى لك الفضل فى أكله

رضى الله عنه مادامت الأسباب قائمة بالنفس فالاكتساب أولى ، وقال بعض المنقطعين : كنت ذاصنعة جليلة فأريد منى تركها فحاك فى صدرى من أين المعاش فهتف بى هاتف لاأراه تنقطع إلىّ وتتهمنى فى رزقى على أن أخدمك وليا من أوليائى أومنافقا من أعدائى ، وقداشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صحة قبول العطاء عدم الاستشراف إلى الناس ولا يكاد يحصل هذا الشرط لمن ذكرناه من أهل التجريد إلابهذه الرؤية المذكورة . روى زيد عن خالد الجهنى رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جاءه معروف من أخيه من غيرمسئلة ولااستشراف نفس فليقبله فانما هو رزق ساقه الله تعالى إليه » وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من وجه إليه شئ من هذا الرزق من غير مسئلة ولا استشراف فليأخذه وليوسع فى رزقه فان كان عنده غنى فليدفعه إلى من هوأحوج منه » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينى العطاء فأقول له أعطه يارسول الله من هوأفقر إليه منى فقال صلى الله عليه وسلم « خذه فتموّله أوتصدّق به » وماجاءك من هذا المال وأنت غيرمستشرف ولاسائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك . قال سالم فمن أجل ذلك كان ابن عمر لايسأل أحدا شيئا ولايردّ شيئا أعطيه فالاستشراف إلى الناس مذموم قادح فى التوحيد ، فلاينبغى أن يأخذ المريد عطاء على هذا الوجه. روى أن أحمد بن حنبل رضى الله عنه خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن فى الموضع من يحمله فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته فلمادخل الدار بعدإذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبزعلى السرير ينشف فرآه أيوب وكان يصوم الدهرفقال أحمدلابنه صالح ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردهمافقال أحمد ضعهما ثم صبر قليلا ثم قال خذهما والحقه بهما فلحقه فأخذهما فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد أعجبت من ردّه وأخذه ؟ قال نعم قال هذارجل صالح لمارأى الخبزاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف ردّه ثم أيس فرددناه إليه بعدالاياس فقبله . وأما الاستشراف إلى الرزق مع قطع نظره عن الخلق فلايضره ذلك لأنه خلق ضعيف ذوفاقة ورزقه معلوم لابدّ منه فاستشرافه إلى الرزق فى الحقيقة استشراف الى الرازق ولاينافى ذلك حقيقة العبودية ولكن إن كثر منها الاستشراف الى الرزق وشغلت صاحبها عن دوام المحاضرة والمناجاة من الحق فليصرفها عن ذلك صرفا جميلا ولينهج لها من التعلق والتوثق بالله سبيلا . قال الشيخ أبومحمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : كنت فى بدايتى واقفا بين العشاءين أصلى وأنافارغ بلاسبب حتى جاءتنى النفس فقالت لى السلام عليك قلت لها وعليك السلام قالت العشاء فأدهتنى بداهية فتوقفت ، ثم ألهمنى الله تعالى أن قلت لها أتدرين له موضعا ؟ قالت لا قلت لها إيش هوومتى هو ؟ قالت لا ، قلت لها أنارب أوعبد. قالت عبد ، قلت لها فالعبد يقدر على شئ ماهذا الكفر والشرك اللذان أتيتينى بهما اهربى إلى خالقك فاطلبى منه العشاء لأنه خالقك والقادر على كل شئ فيعطيك ويجيبك ماطلبت فتطعمى وتأكلى فمالك وإياى وماهذه الحيرة قال فذهبت الى خالقها فجاء عشاء متمكن كثير فأكلت قال وكذلك يحتج عليها ومن هنا تثبت الأقدام . وذكر أيضامسئلة عظيمة مفيدة تتضمن كيف يكون حال الفقير بالنسبة الى الرزق وما تحتاج إليه بنيته من الرفق وجعلها من قواعد الفقر والارادة فرأينا ذكرها فى هذا الموضع من الواجب التعين ليتحقق فى العمل بها كل من يقف عليهامن مريد مبتدئ . قال رضى الله عنه اعلم أن الفقير لايخلو إماأن يكون جالسا أوماشيا، أماقاعدة الجالس فان جلسته موضع أليته وهومكانه وزمانه طرف سجادته لايتعداها ولا يكون التفاته لوقت ولا الى سبب معلوم لأنه لايدرى الأوقات ماهى ولا يحدها ولايدرى متى هى

ولاوقتها ويعلم أن جميع الأشياء تطلبه وتحتاج إليه لأنها خلقت من أجله وهوخليفة فيها وقد فرغ من جميعهافالالتفات والأمل لماذا بل يكون هدفا للأقدار تجرى عليه ولا كسب له ولاسبب فى التحصيل ثم قال وأما الماشى من الفقير الذى يكون فى سفرأوغيره فلا تجاوزهمته خطوته.مثاله أن يكون ماشيا فخطرله التغير والالتفات إليه من بلد أوشخص أومطعم أومشرب فيهلك ويظفر به العدوّ وتزل قدمه فان تمادى فى التعلق بشىء من هذه القواطع والشواغل ومشى إلى شىء منها وفقده ومات مات قاتل نفسه ، وذلك أنه يكون فى يوم صائف ووهج وقدأصابه العطش الشديد فيعرض له خيال ماء فيجىء العدوّ فيروج عليه أن اسرع تلحق ذلك الماء فتشرب منه فيزول عطشك فان مشى راكنا لهذا الخاطر يجىء للوضع فيجده سرابا فهناك يظفر به ويقول له الآن تموت فيقتله من ساعته فيموت قاتل نفسه إذ كان جاهلا بربه وآياته ولم يعرف دواءه من دائه ولاتعلم العلم ولاسأل العلماء لبقائه مع نفسه قال : فحكمه إذا جاءه هذا الخاطر بالترويج من العدو فى سفره من السرعة إلى الماء والركون إلى الأغيار من منازل أوأشخاص أوغير ذلك أن يعرض على العدو ويقول إن الله تعالى يمكن أن يتوفانى قبل لحوقه فبالضرورة يطيعه فى ذلك ويسلمه ويقول له أيضا قال النبى صلى الله عليه وسلم « من مشى إلى طمع فليمش رويدا » وقال « من تأنى أصاب أوكاد ومن تعجل أخطأ أوكاد والعجلة من الشيطان » ومن هذا كثير فلا يشكّ شاك أنه كما يحتج للنفس والشيطان بهذه القواعد من العلم أنهم ينقطعون ولا حجة عندهم بعد الاستعانة بالله تعالى والتعلق به ، ثم يقول له أيضا أتنكر أن الله تعالى قادر على أن يطعمنى ويسقينى إن شاءالله تعالى ينبع لى عينا الساعة قبل وصولى لذلك الماء ؟ فيقول الشيطان بالضرورة نعم ، فاذا كان هذا كذلك فالله سبحانه أعلم بمصالحى ومنافعى من كلّ مخلوق ، فاذا حصل هذا العلم رجع يمشى متأنيا همته مع خطرته ناظرا لمايرد عليه من ربه فاذا وصل إلى ماخطرله أوّلا أورآه من بعد ولم يجد ماتعلق به خاطره أولا من صاحب أوطعام بقى على أصله لاتغير عنده ولا تردّد فظفر بالعدو وقتله كمافعل أيضا الشيطان بغيره الشىء أوضدّه هذا ما أردنا ذكره من كلام هذا الامام ، وهو عندى من أنفس الكلام المقرب غاية المرام لماتضمنه من المعانى البديعة والأنفاس الرفيعة ولمافيه من تجريدالتوحيد والآداب المرضية مع العبيد فهو جدير بأن يكتب ويرسم ويكمل به الغرض الذى تقدّم والله تعالى أعلم . وحكم الشرط الثانى أن لايأخذ إلامايوافق العلم وهذا شرط لازم للتجرد أيضا . قال الشيخ أبوطالب المكى رضى الله تعالى عنه : وينبغى لمن لامعلوم عنده من الأسباب أن يتورّع فى أخذها ويتخير المعطى لها كما يتخير أهل المكاسب فى الاكتساب لأن لله تعالى فى كلّ شىء حكما والقعود عن المكاسب لايسقط أحكامها والقاعد عن الطلب لايسقط أحكام المطالب ولأن ترك العمل عمل يحتاج إلى علم ولم تكن سيرة القراء الصادقين أن يأخذوا من كل أحد ولافى كل وقت ولا يأخذوا كل مايعطون مما يزيد على كفايتهم إلاأن يكونوا ممن يخرجونه إلى غيرهم اه فموافقة العلم التى ذكرها المؤلف رحمه الله على قسمين موافقة العلم الظاهر وموافقة العلم الباطن أما موافقة العلم الظاهر فبأن لايأخذ إلامن يد بالغ عاقل تقى وقد جاء فى الحديث «لاتأكل إلاطعام تقى ولايأكل طعامك إلاتقى» فلاتأخذ من يد ظالم ولاعامل بالربا ولاجاهل بمايحل ويحرم من وجوه المكاسب ولاتأخذ من يد صبى ولا عبد غير مأذون له ولامعتوه ، وأماموافقة العلم الباطن فبأن لايأخذ إلاما كان على وجه الرفق والمعونة فلايأخذ الاماهو مفتقر اليه فى الحال ولاغنى له عنه من ضروريانه وحاجاته من غير إسراف ولا إقتار ولابأس أن يأخذ مايزيد على ذلك بأن كان فى خلقه سخاء وبذل وإيثار وتخلق بمحاسن الأخلاق لاليتوصل به

إلى

إلى حظ عاجل من جاه أو رئاسة أوقبول عند الناس ولا يأخذ ما يعطاه على جهة الابتلاء والاختبار أما الابتلاء فان يأتيه قبل وقته أو زائدا على حاجته فان أخذه فليخرجه فى السر ليأمن بذلك من آفة الاظهار وأما الاختبار فأن لا يأخذ شيئا قد نوى تركه لله تعالى من شهوة كان مبتلى بها قد ملكته وأمرته ومنعته القيام بحقوق ربه فليوف بعهد الله تعالى وليدفع ذلك عن نفسه إن خاف انحلال عزمه وفساد نيته فان لم يخف على ذلك فليأخذه وليخرجه إلى غيره وهذا أشد شىء على النفس وهو من أعظم درجات الزهد ولا يأخذ من منان ولا فخور ولا مظهر لعطيته ولا يأخذ ممن يثقل على قلبه قبول عطيته فقد قيل لا تأكل إلاطعام من يرى لك الفضل عليه فى أكله ولا تأكل إلا طعام من يرى أنه وديعة عنده ولا تأكل إلا طعام زاهد لأنه يسر بأكلك ولا تأكل إلا طعاما يراك صاحبه أفضل من الطعام وقد روى أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال لقد هممت أن لا أقبل إلا من قرشى أو أنصارى أو ثقفى أودوسى قال أبو طالب المكى رضى الله عنه وفعل هذا جماعة من التابعين. جاءت إلى فتح الموصلى رضى الله عنه صرة فيها خمسون دينارا فقال حدثنى عطاء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من آتاه الله رزقا من غير مسئلة فرده فانما يرده على الله عز وجل » ثم فتح الصرة وأخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثنا عنه : أن رجلا أهدى إليه كيسا فيه ألوف ورزمة فيها من دقيق خراسان فرد ذلك فقال له بعض أصحابه فى ذلك فقال له من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس شيئا مثل هذ لقى الله تعالى يوم القيامة وماله عند الله من خلاق . وكان الحسن رضى الله عنه يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم التيمى رضى الله عنه يسأل أصحابه الدرهم والدرهمين ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذ وكان بعض العباد إذا دفع إليه بعض أهل الدنيا الشىء قال ضعه عندك واعرض على قلبك حالتى كيف أنا عندك بعد الأخذ أفضل أو دون ذلك وأصدقنى فان قال أنت عندى الآن أفضل منك قبل ذلك أو قال له أنت عندى بعد الأخذ مثل ما كنت قبل ذلك قبل منه وإن أخبره بنقصانه فى قلبه لم يقبل منه وكان بعضهم يرد على أكثر الناس صلاتهم فعوتب فى ذلك فقال ما أرد عليهم إلا إشفاقا عليهم ونصحا لهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم . ويروى عن الأعمش أنه قال جاء شاب من العرب إلى إبراهيم التيمى بألفى درهم فقال يا أبا عمران خذ هذه الدراهم والله ما هى من ذى سلطان ولا من كذا ولا من كذا فقال له إبراهيم بارك الله لك وجزاك خيرا فلما ولى قلت يا أبا عمران مامنعك أن تأخذها والله ما لامرأتك قميص فقال صدقت يا سليمان ولكن هذا شاب من العرب لم يحنكه السن ولم تحنكه الآداب فكرهت أن يجلس فى حيه فيقول أعطيت إبراهيم ألفى درهم فيحبط الله أجره وتذهب دراهمه وممن ذهب إلى هذا سفيان الثورى رضى الله عنه كان يشترط على بعض من كان يأخذ منه أن لا يذكره لاشفاقه عليه لا من أجله بل من ذهاب أجره لأنه قيل فى معنى قوله تعالى ـ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ـ قال المن أن يذكره والأذى أن يظهره وقال الجنيد للرجل الخراسانى الذى جاءه بالمال وسأله أن يأكله فقال الجنيد بل أفرقه على الفقراء فقال الرجل أنا أعلم بالفقراء منك ولم أختر هذا فقال له الجنيد وأنا أؤمل أن أعيش حتى آكل هذا فقال إنى لم أقل لك أنفقه فى الخل والبقل وإنما قلت أنفقه فى الطيبات وألوان الحلاوات وكلما نفد أسرع كان أحب إلى فقال الجنيد ومثلك لا يحل أن يرد عليه فقبله فقال الرجل ما ببغداد أحد أعظم منة على منك فقال الجنيد وما ببغداد أحد ينبغى أن يقبل منه شىء إلا من كان مثلك. وكان السرى

السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رضى الله عنهما الشيء فيردّه فقال له يا أحمد احذر آفة الرد فانها أشدّ من آفة الأخذ فقال أحمد أعد عليّ ماقلت فأعاده فقال له أحمد مارددت عليك إلا وعندى قوت شهر فاحبسه لى عندك فاذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ وعلى الجملة فلاينبغى أن يأخذ المريد إلامن يد زاهد عارف فبذلك يسلم من الآفات ويكفى من جميع المؤنات. وقال أبو بكر الدقاق رضى الله عنه منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء فما رأيت رفقا لأصحابنا إلا من بعضهم لبعض أو ممن يحبهم ومن لم تصحبه التقوى والورع فى هذا الأمر أكل الحرام الصرف وإن أراد أن يسأل من مثل هؤلاء فليفعل قال أبو طالب المكى رضى الله عنه كان بشر بن الحرث رضى الله عنه لايقبل من الناس شيئا وكان بعضهم يقول أحب أن أعلم من أين يأكل فقال له من يخبر أمره أنا أدرى من أين يأكل كان له صديق عاقل يعنى نظيره فى العقل والدين لأن بعضهم كان لايقبل إلا من النظراء ولايقبل من الأتباع وهذا الصديق العاقل الذى كان يقوم بكفايته ولم يكن يظهر أمره ولايلتقى معه هو السرى بن مغلس السقطى رضى الله عنه . قال بشر رضى الله تعالى عنه ماسألت أحدا قط شيئا من الدنيا إلا سريا السقطى لأنه قدصح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون قد أعنته على مايحب وكان سرى رضى الله عنه يوجه إلى أحمد بن حنبل فى حاجاته فيقبل منه وكان إذا ذكر عند أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء إنه ليعجبنى أمره وإن بلغت به الحاجات كلّ مبلغ وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه فلم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب لشغله بحاله فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل من دون هؤلاء ممن جهل حاله . جاء فى الأثر «من جاع فلم يسأل فمات دخل النار» وقد سئل الناس عند الحاجة والفاقة نبى الله تعالى موسى والخضر عليهما السلام لقوله تعالى ـ استطعما أهلها ـ وكان أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رضى الله عنهما يسأل من باب أو بابين بين العشاءين ويكون ذلك معلوما عند حاجته من يوم أو يومين وكان له مقام فى الزهد والتوكل قال أبو طالب ولم يعب هذا عليه عموم ولا خصوص ونقل عن أبى سعيد الخراز رضى الله عنه أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شيء لله ونقل عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة وكان يفطر فى كل ثلاثة أيام ليلة وليلة إفطاره يطلب من الأبواب وكان الثورى يسأل فى البوادى من الحجاز إلى صنعاء اليمن قال كنت أذكر لهم حديثا فى الضيافة قال فيخرجون إليّ طعاما فأتناول حاجتى وأترك ما يبقى وليجتنب المريد الأكل بالدين وقبول إرفاق النسوان . فان قيل كيف يردّ مايعطاه فى الوجوه التى حكمتم عليه بعد الأخذ فيها وهو إنما يأخذ من ربه كما تقدّم وهل الراد لذلك إلا راد على الله تعالى فكيف يستقيم ذلك . فالجواب أن القيام بحقّ الشريعة والطريقة لا بد منه والتوحيد لاينافى ذلك وقد قيل الكامل من لايطفيء نور معرفته نور ورعه وكل باطن من العلم يخالف ظاهرا من الحكم فهو مردود ووجه صحة الرد للعطاء عند مشاهدة التوحيد ظاهر إذ لا فرق فى ذلك بين يد المعطى ويد الآخذ فكما يشهد الآخذ يد الله تعالى فى العطاء عند يد المعطى فيأخذ مايعطاه عند موافقة العلم اتباعا لاذن الله تعالى وأمره يشهد يد الله تعالى فى المنع عند يد نفسه بالرد عند مخالفة العلم فلا يأخذه ولا يقبله اتباعا لنهى الله تعالى عن ذلك وعدم إذنه فيه كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكبش الذى أهدى إليه مع السمن والأقط وكما فعله فتح الموصلى وحسن البصرى رضى الله عنهما مع روايتهما للحديث الذى ذكر فيه أن رد الهدية رد على الله تعالى وقد تقدم ذكره بلفظه فهذا يدفع ذلك الخيال والله تعالى الموفق لصالح الأعمال وإنما أطلت الكلام فى هذه المسئلة

لأن

(ربما استحيا العارف) المحقق (أن يرفع حاجته إلى مولاه) فلايطلب منه شيئا (لاكتفائه بمشيئته) أي بما تعلقت به مشيئته
من إعطاء أومنع أوضر أونفع قال الشاذلي قدس الله سره لما سئل عن الكيمياء أخرج الخلق من قلبك

واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ماقسم لك (فكيف لايستحي أن يرفعها إلى خليقته) فلا يسألون منهم شيئا ولايرفعون إليهم حاجة لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد فرفع الهمة عن الخلق وعدم التعرض لهم مما يحتاجه سالكو هذه الطريق فان من خلعت عليه خلعة الملك حفظها وصانها حري أن تدام له ولا تسلب عنه والمدنس لخلع المواهب حري أن لاتترك له فلا تدنس إيمانك بطمعك في المخلوقين ولا تجعل اعتمادك إلا على رب العالمين واتبع ملة ابراهيم في رفع الهمة عن الخلق فانه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل وقال له ألك حاجة فقال أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى فقال له سل الله فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي وخرج بالعارف باقي الفقراء وهم أقسام
ثلاثة منهم من يصبر فاذا احتاج سأل الناس وقبل منهم مع كونه لايرى أن المعطى فيهم إلا مولاه ومنهم من لايسأل
وإذا أعطى قبل على الوجه المذكور ومنهم من لايسأل وإذا أعطى لايقبل قال بعضهم وهذا من الروحانيين إذا سأل الله
تعالى أعطاه وإن أقسم عليه أبر قسمه

لأن الحاجة ماسة إليها وليعلم من ذلك أن جميع تفاريعها ومسائلها داخل في كلام المؤلف رحمه الله
تعالى على حكم الايجاز والاختصار وكلامه فيها من بديع الكلام ومستحسنه ولشيخه أبي العباس
المرسي رضي الله عنه في معنى ماذكره كلام بديع مختصر منتزع من كتاب الله عز وجل نقله عنه
في لطائف المنن قال رضي الله عنه للناس أسباب وسببنا نحن الايمان والتقوى قال الله سبحانه
ـ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ـ وقد جوّد المؤلف
رحمه الله صناعته وأحسن سياقته في مقصد الارشاد والهداية والله أعلم (ربما استحيا العارف أن يرفع
حاجته إلى مولاه لاكتفائه بمشيئته فكيف لايستحي أن يرفعها إلى خليقته) قد تقدم أن من الأدب
ترك الطلب والسؤال من الله تعالى اكتفاء بمشيئته ورضا بسابق قسمته وأن العارفين المحققين
يستحيون من الله تعالى في ذلك فكيف لايستحيون من مولاهم عز وجل عند سؤالهم للمخلوقين
وهل أدبهم في ذلك واستحياؤهم من ربهم إلا واجب عليهم فلايسألون منهم شيئا ولايرفعون إليهم حاجة
لأنهم فقراء محتاجون ومولاهم هو الغني الحميد وقد تقدم هذا المعنى عند قوله لاتتعدّ نية همتك إلى
غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال. قال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه مامن نفس ولا قلب
إلا والله مطلع عليه في ساعات الليل والنهار فأيما نفس أوقلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس
وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه من علامات المعرفة أن لاتسأل حوائجك قلت أوكثرت إلا من
الله سبحانه وتعالى مثل موسى عليه الصلاة والسلام اشتاق إلى الرؤية فقال ـ رب أرني أنظر إليك ـ
واحتاج مرة إلى رغيف فقال ـ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ـ وذكر الامام أبو القاسم
القشيري رضي الله عنه أن بعض الفقراء كان يأتي كل يوم ويقف بحذاء الكعبة بعد مايطوف ماشاء
الله تعالى ويخرج من جيبه رقعة ينظر فيها فلما كان بعد أيام فعل مثل ذلك ثم تباعد ومات فجاء بعض من
يرمقه ونظر في الرقعة فاذا فيها ـ واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ـ قال فكان الرجل أصابته الفاقة
فصبر ولم يظهر حاله لمخلوق حتى مات. وقال أبو بكر الجوهري رحمه الله تعالى كنت بعسقلان على برج
أحرس فمر بي رجل عليه جبة صوف متخرقة فقمت إليه مسلما وعانقته وأجلسته وجاريت معه في فنون
من العلم وكان قدماه حافيتين فقلت له لم لاتسأل أصحابك في نعل تقيك من الحفاء فقال ياأخي لرد أمس
بالحبال وحبس عين الشمس بالعقال ونقل ماء البحر بالغربال أهون علي من موقف السؤال وارتجائي
من المخلوقين النوال ثم أخرجني من باب المدينة فانتهى بي إلى صخرة منقورة فاذا عليها مكتوب كل
من كد يمينك وعرق جبينك فان ضعف يقينك فاسأل المولى يعينك قال في التنوير واعلم رحمك
الله أن رفع الهمة لسالكي طريق الآخرة عن الخلق وعدم التعرض لهم أزين لهم من الحلي للعروس
وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس ومن خلعت عليه خلعة الملك حفظها وصانها حري بأن
تدام له ولا تسلب عنه والمدنس لخلع المواهب حري أن لا تترك له فلا تدنس أيها الأخ إيمانك
بطمعك في المخلوقين ولا تجعلن اعتمادك إلا على رب العالمين وكن أيها الأخ ابراهيميا فقد قال أبوك
ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه ـ لا أحب الآفلين ـ وماسوى الله آفل إما وجودا وإما إمكانا وقد قال
سبحانه ـ ملة أبيكم إبراهيم ـ أي اتبعوا ملته فواجب على المؤمن أن يتبع ملة ابراهيم ومن ملته رفع
همته عن الخلق فانه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال له ألك حاجة فقال له

أما إليك فلا وأما إلى الله تعالى فبلى قال فاسأله قال حسبي من سؤالى عامه بحالى فانظر كيف رفع همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق فلم يستغث بجبريل ولا احتال على السؤال من الله بل رأى ربه أقرب إليه من جبريل عليه السلام ومن سؤاله فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله وأنعم عليه بنواله و إفضاله وخصه بوجود إقباله ومن ملة ابراهيم معاداة كل ماشغل عن الله وصرف الهمة بالرد إلى الله لقوله تعالى ــ فانهم عدو لى إلا رب العالمين ــ والغنى إن أردت الدلالة عليه فهو فى اليأس من الناس ولقد قال الشيخ أبوالحسن رضى الله عنه أيست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لنفسى ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى وهذا هو الكيمياء والاكسير الذى من حصل له يحصل له غنى لافاقة بعده وعز لاذل معه و إنفاق لانفاد له وهو كيمياء أهل الفهم عن الله قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه صحبنى إنسان وكان ثقيلا على فبسطته يوما فانبسط فقلت له ياولدى ماحاجتك ولم صحبتنى فقال ياسيدى قيل لى إنك تحسن الكيمياء فصحبتك لأتعلم منك ذلك فقلت له صدقت وصدق من حدثك ولكنى أخالك لاتقبل فقال بل أقبل فقلت له نظرت إلى الخلق فوجدتهم على قسمين أعداء وأحباء فنظرت إلى الأعداء فعلمت أنهم لايستطيعون أن يشوكونى بشوكة لم يردنى الله بها فقطعت نظرى عنهم ثم تعلقت بالأحباء فوجدتهم لايستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يردنى الله به فقطعت نظرى عنهم وتعلقت بالله تعالى فقيل لى إنك لاتصل إلى حقيقة هذا الأمر حتى تقطع يأسك منا كما قطعته من غيرنا أن نعطيك غير ماقسمناه لك فى الأزل وقال مرة أخرى لما سئل عن الكيمياء أخرج الخلق من قلبك واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ماقسم لك قال وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله ولا مداومته على ورده و إنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه وانحياشه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع و بذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال قال الله تعالى ــ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ــ فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله والفهم هو ماذ كرناه من الاعتناء بالله والاكتفاء به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى اه مايتعلق بغرضنا من كلام صاحب التنوير وهو من الكلام النفيس الخطير وأنت رحمك الله إذا تأملته بعين بصيرتك ناصحا لربك فى علانيتك وسريرتك علمت منه أن ماتضمنه عظيم الوقع وأنه مستحسن منا إيراده فى هذا الموضع إذ هو منوط بالايمان والتوحيد محتاج إليه كل سالك ومريد فمن رعاه حق رعايته وصرف إلى العمل بمقتضاه عنان عنايته فقد تحقق بمحاسن الايمان وكان من ولاية الله تعالى بمكان ومن أهمله وضيعه وجهل قدره وموقعه خيف عليه الوقوع فى الشرك الخفى والجلى واستحق بذلك أن يطرد عن باب مولاه العلى فيقوى طمعه فى الخلق و يضيق إليه متسعات أبواب الرزق كما قال بعض العارفين المكاشفين رضى الله عنه قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم لاتبدين فاقة إلى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة لسوء أدبك وخروجك عن حدك فى عبوديتك إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إلى وتتضرع بها لدى وتتوكل فيها على سبكتك بالفاقة لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك وسمتك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى فان وصلتها بى وصلتك بالغنى و إن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى وحسمت أسبابك من أسبابى طردا لك عن بابى فمن وكلته إلى ملك ومن وكلته إليه هلك اه ومنهم من يأنف من قبول الرفق على أيدى الخلق وترتفع همته عن ذلك و إن لم يكن سؤال ولا طلب . يحكى عن حماد بن سلمة رحمه الله أنه قال كان فى جوارى امرأة أرملة لها أيتام وكانت ليلة ذات مطر فسمعت صوتها تقول يارفيق ارفق قال فخطر ببالى أنها أصابتها فاقة فصبرت حتى احتبس المطر فحملت معى عشرة دنانير ودققت عليها الباب فقالت حماد بن سلمة فقلت نعم كيف

(إذا التبس عليك) أيها المريد (أمران) واجبان أو مندوبان فلم تدر أيهما أولى أن تشتغل به كطلب ما لابد منه من العلم والسعى على العيال وكطلب علم زائد على مالابد منه واشتغال بنوافل وكصلاة النوافل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لايثقل عليها إلا ما كان حقا) أى أولى لأنها (٢٩) مجبولة على الجهل فشأنها أبدا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق فاذا وجد المريد من نفسه خفة وميلا عند بعض الأعمال دون بعض اتهمها وترك ماخف عليها ومالت إليه وعمل بما استثقلته فان عمل بالأخف كان ذلك معدودا عندهم من نفاق القلب هذا إن لم تصر نفسه مطمئنة فان صارت كذلك عمل بما خف عليها ومالت إليه لكن ينظر حينئذ إلى ماهو أكبر فائدة وأعظم مزيدا فى حاله فيقدمه على غيره وهناك ميزان آخر تميز به الأولى من غيره مما التبس عليك وهو أن تقدر نزول الموت بك فأى عمل سرك أن تكون مشغولا به إذ ذاك فهو حق وما عداه باطل فان العبد فى هذه الحالة لايصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى فاذا التبس عليك الاشتغال بالعلم أو بطريق القوم فانظر أيهما تحب أن تكون عليه حال خروج روحك فاشتغل به فان كنت تحب أن تخرج روحك و بيدك الكراس لإخلاصك فى طلب العلم وقصدك به وجه الله فاشتغل به و إن كنت تكره ذلك وتحب أن تكون فى ذلك الوقت مشتغلا بذكر الله مثلا لا بطلب العلم فلا تطلب العلم بل اشتغل بغيره لأن ذلك دليل على عدم إخلاصك فيه والكلام فى القدر الزائد على مالابد منه من العلم

الحال فقلت بخير وعافية احتبس المطر ودفء الصبيان فقلت خذى هذه الدنانير وأصلحى بها بعض شأنك قال فصاحت بنية لها خماسية أتريد ياحماد أن تكون بيننا و بين معبودنا واسطة ثم قالت لأمها لما رفعت صوتك باظهار السر علمت أن الله يؤدبنا باظهار الرفق على يدى مخلوق. وذكر الشيخ عبد الرحمن السلمى عن ابن عباس بن دهقان قال كنت عند بشر بن الحرث رضى الله عنه وهو يتكلم فى الرضا والتسليم فاذا هو برجل من المتصوفة فقال له ياأبا نصر انقطعت عن أخذ البر من أيدى الخلق لاقامة الجاه فان كنت متحققا بالزهد منصرفا عن الدنيا فخذ من أيديهم لينمحى جاهك عندهم واخرج بما يعطونك إلى الفقراء وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب فاشتد ذلك على أصحاب بشر فقال بشر اسمع أيها الرجل الجواب: الفقراء ثلاثة : فقير لايسأل و إن أعطى لايأخذ فذلك من الروحانيين إذا سأل الله تعالى أعطاه و إن أقسم على الله أبر قسمه. وفقير لايسأل و إن أعطى قبل فذلك من أوسط القوم عقده التوكل والسكون إلى الله تعالى فهو ممن توضع له الموائد فى حظيرة القدس وفقير اعتقد الصبر وموافقة الوقت فاذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال فكفارة سؤاله صدقه فقال الرجل رضيت رضى الله عنك وقال رضى الله عنه

(إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لايثقل عليها إلاما كان حقا)

هذا ميزان صحيح باعتبار غالب الأنفس لأنها مجبولة على الجهل والشره فشأنها أبدا إنما هو طلب الحظوظ والفرار من الحقوق كما تقدم عند قوله حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعة باطن خفى فاذا وجد المريد من نفسه ميلا وخفة عند بعض الأعمال دون البعض اتهمها وترك ما مالت إليه وخف عليها وعمل بما استثقلته . قال بعض العارفين منذ عشرين سنة ماسكن قلبى إلى نفسى ساعة وسكون القلب إلى النفس هو اتباعه للأخف عليها دون الأثقل وهو معدود عندهم من نفاق القلب ومن يبقى عليه شىء من دواعى الهوى وان قل لايؤمن عليه من مثل هذا لخفة العمل على النفس إنما تكون لأجل موافقة هواها وهواها لايميل إلا إلى الباطل فاذا التبس عليك أمران واجبان أو مندوبان ولم تعلم أيهما أوجب أو أفضل لتقدمه على الآخر فانظر أثقلهما على نفسك فاعمل به و إنما قلنا باعتبار غالب الأنفس لأن النفس المطمئنة لاتوصف بالجهل ولا بالشره فقد يخف العمل عليها ولايدل ذلك على أنه باطل فليكن نظر العبد حينئذ إلى ماهو أكثر فائدة وأعظم مزية فليقدمه على غيره . وقد ذكر الشيخ أبوطالب المكى رضى الله عنه حكاية عجيبة فى شره النفس وكونها لاتميل إلا إلى الباطل . قال حدثنى بعض إخوانى عن بعض هذه الطائفة قال قدم علينا بعض الفقراء فاشترينا من جار لنا حملا مشويا ودعوناه إليه فى جماعة من أصحابنا فلما مد يده أخذ لقمة وجعلها فى فيه ثم لفظها ثم اعتزل وقال كلوا أنتم فانه قد عرض لى عارض منعنى من الأكل فقلنا لانأكل إن لم تأكل فقال أنتم أعلم أما أنا فغير آكل ثم انصرف قال فكرهنا أن نأكل دونه فقلنا لودعونا الشواء فسألناه عن أصل هذا الحمل فلعل له سببا مكروها فدعوناه فلم نزل به نسأله عنه حتى أقر أنه كان ميتة وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصا على ثمنه فشواه ووافق

أنكم اشتريتموه قال فرميناه للكلاب . قال ثم إنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لأىّ معنى تركت أكله و بأىّ عارض فقال أخبرك ماشرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة للرياضة التى ريضتها بهافلما قدمتم إلى هذاشرهت نفسى إليه شرهاماعهدته قبل ذلك فعلمت أن فى الطعام علة فكرهت أكله لأجل شدّة شره النفس إليه . قال الشيخ أبوطالب رضى الله عنه فانظر رحمك الله كيف اتفقا فى شره النفس على قصة واحدة ثم اختلفا بالتوفيق والخذلان فعصم العالم بالورع والمحاسبة وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وترك المراقبة أعنى البائع للحمل وعصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم ثم تدارك البائع بعد وقوعه بصدق المشترى وحسن نيته اه وثم ميزان آخر أصح وأكثر تحقيقا من الأوّل وهو أن يقدر نزول الموت به فأىّ عمل سرّه أن يكون مشغولا به إذ ذاك فهوحق وماعداه باطل. قال فى لطائف المنن والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان فى دائرة الوقت أما الوقت فكما تقدم يعنى أنه علامة صحة مرتبة الولاية وأما الأفعال والأحوال فاذا التبس عليك أمر لاتدرى هل يرضى الله فعله أوتركه أوحالة أنت بها لاتدرى هل قمت فيها بحق أوقمت فيها بهوى فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل تثبت مع تقدير ورود الموت عليهاولم تنهزم فهى حق وكل حالة وعمل هزمها الموت فهى باطلة إذ الموت حق والحق يهزم الباطل و يدمغه لقوله عزّ وجلّ ـ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذاهو زاهق . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ـ وما كنت فيه قائما بحق لم يهزمه الموت إذهوحق والموت حق والحق لايهزم الحق . قال وقد تجاذبت الكلام أنا و بعض من يشتغل بالعلم فى أنه ينبغى إخلاص النية فيه وأنه لايشتغل به إلا لله تعالى فقلت له الذى يقرأ العلم لله هو الذى إذا قلت له غدا تموت لايضع الكتاب من يده اه قلت وهذا هو فصل الخطاب ونهاية الصواب فان العبد فى هذه الحالة لايصدر منه إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرياء وممازجة حظ النفس واتباع الهوى فهذا هوالمطلوب من العبد ولايستتم له ذلك إلا أن يتحقق بما يقدر من حلول الموت وحصول الفوت وهذا هومعنى قصر الأمل الذى هو أصل حسن العمل وهوأن لايقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا وعند ذلك يخلص عمله من الآفات و يتطهر من أنواع الرعونات لأن توقع الموت فى كل نفس ولحظة يهدم عليه جميع ذلك كما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى وكل عمل استرسل فيه صاحبه غافلا عن تقدير وقوع ذلك إن لم يكن متحققا به لم يسلم مما ذكرناه فاذن بعيد من الإخلاص من يأخذ فى علم غير متعين عليه الأخذ فيه لايجتنى ثمرته إلا فى ثانى حال و يكون فى الحالة الراهنة متمكنا من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم فيفوز بثوابها و يتنجز له حصول التقرب بها لأن فى ذلك قوت نفسه ووفارة حظه وآية ذلك أنه قد يعرض له فى حال أخذه فيه غرض دنيوى يكون احتظاء نفسه به أكثر فيقدمه على ما كان آخذا فيه و يتشاغل به من غير مبالاة بما يفوته من ذلك و إنما عبرنا بلفظ الأخذ ليدخل فيه تعلم التعلم وتعليم العلم فان الأمر فيهما واحد وكل عمل لاإخلاص فيه ليس بالله ولا لله مردود على صاحبه مضروب به وجهه و بهذا يتبين لك غرور أكثر الخلق فى علومهم وأعمالهم إلا من رحم الله تعالى ولهذا نشاهد أكثر الناس عند نزول الموت بهم يندمون على ما أسلفوه من عمل و يودّون أن لوأنسىء لهم فى الأجل وهيهات هيهات فنعوذ بالله من الغفلة فى زمان المهلة فانها مبدأ كل عمل فاسد ومنشأ وجود الغرة والجهالة لكل عالم وعابد وماذكرنا من معرفة اختلاف درجات الصالح ليقدم الفاضل فيها على المفضول لايصلح إلا لمن أيده الله بنور اليقين وجبله على النصيحة فى الدين وكان له حظ وافر

(من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات) أى العبادات (والتكاسل عن القيام بالواجبات) فهذا من الصور التى يخف فيها الباطل و يثقل فيها الحق و إنما كانت النوافل تخف على النفس دون الفرائض لأن العادة أنه لا مزية فى القيام بالفرائض لاستواء الناس كلهم فيها بخلاف النوافل فانها تذكر بها و يحصل لها بها مزية وجاه ومنزلة فى القلوب وهذا هو حال أكثر الناس فتجد الواحد منهم إذا اعتقد التوبة أى صمم عليها لاهمة له إلا فى نوافل الصيام والقيام وتكرار المشى إلى بيت الله الحرام وما أشبه هذا من النوافل ومع ذلك هو غير متدارك لما فرط فيه (٣١) من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات وما ذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التى خدعتهم ولم يعتنوا بمجاهدة أهوائهم التى أسرتهم وملكتهم (قيد) الله تعالى (الطاعات) الواجبة عليك كالصلوات الخمس (بأعيان الأوقات) أى بأوقات معينة ولم يطلق وقتها (كى لا يمنعك عنها وجود التسويف) فانه تعالى لو أطلقها ولم يعين لها أوقاتا لحملك التسويف على تركها فانك تتكاسل وتقول حتى أفرغ من حاجتى أصلى لاتساع وقتها فربما مضى يومك أو ليلتك ولم تفعلها بخلاف تقييدها بأوقات معينة فان ذلك يلجئك إلى تحصيلها و يحجزك عن تفويتها (ووسع عليك الوقت) أى وسع أوقاتها عليك ولم يضيقها (كى تبقى لك حصة الاختيار) فيمكنك فعلها فى أول وقتها أو وسطه أو آخره ولا تعد من المضيعين لها إذا أتيت بها فى آخر وقتها مثلا ولتتمكن أيضا من الاتيان بها على الوجه الأكمل وهو مواطأة القلب للجوارح فان الوقت إذا كان متسعا يمكنك أن تتخلى عن الشواغل والقواطع المانعة من استجماع الفكر والحضور مع الله تعالى حال العبادة واستعمال الآداب اللائقة بين يدى الله تعالى حينئذ

من الخوف والحذر وموافقة مولاه فى كل ورد وصدر ولا شك أن هذه المرتبة عزيزة المنال متعذر إدراكها إلا على الآحاد من الرجال وسبيل من لم يصل إليها ممن ذكرناه إذا كان منصفا أن يستعين بنظر من هو أصح منه حالا وأصوب مقالا وفعالا و يفوض جميع أموره إليه و يعتمد إشارته فى كل مايشير به عليه وعلامة إنصافه وجود اتهامه لنفسه وعدم اعتماده على عقله وحدسه ومن لم يكن منصفا فالكلام معه هذيان فاسد وضرب فى حديد بارد وسيأتى مزيد تنبيه على غرور الآخذين فى العلم فى موضع أليق من هذا والله ولى التوفيق (من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات) هذه من الصور التى يتبين بها خفة الباطل وثقل الحق على النفس وماذكره هو حال أكثر الناس فترى الواحد منهم إذا عقد التوبة لاهمة له إلا فى نوافل الصيام والقيام وتكرار المشى إلى بيت الله الحرام وما أشبه ذلك من النوافل وهو مع ذلك غير متدارك لما فرط فيه من الواجبات ولا متحلل لما لزم ذمته من الظلامات والتبعات وماذاك إلا لأنهم لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التى خدعتهم ولم يحظوا بمجاهدة أهوائهم التى استرقتهم وملكتهم ولو أخذوا فى ذلك لكان لهم فيه أعظم شغل ولم يجدوا فسحة لشىء من الطاعات والنفل . قال بعض العلماء من كانت الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع وقال محمد بن أبى الورد رضى الله عنه هلاك الناس فى حرفتين اشتغال بنافلة وتضييع فريضة وعمل بالجوارح بلا مواطأة القلب عليه و إنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول وقال الخواص رضى الله عنه انقطع الخلق عن الله بخصلتين إحداهما أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض والثانية أنهم عملوا أعمالا بالظاهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها وأبى الله أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق و إصابة الحق . قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه فأفضل شىء للعبد معرفته بنفسه ووقوفه على حده و إحكامه لحالته التى أقيم فيها وابتداؤه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه لما نهى عنه بعلم يدبره فى جميع ذلك وورع يحجزه عن الهوى فى ذلك ولا يشتغل بطلب نفل حتى يفرغ من فرض لأن النفل لا يصح إلا بعد حوز السلامة كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حوز رأس المال فمتى تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد و إلى الاغترار أقرب اه وقال رضى الله عنه (قيد الطاعات بأعيان الأوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف ووسع عليك الوقت كى تبقى لك حصة الاختيار) أنعم الله عليك فيما أمرك به من الطاعات المؤقتة بالأوقات بنعمتين عظيمتين إحداهما تقييدها لك بأعيان الأوقات لتوقعها فيها فتفوز بثوابها ولو لم يفعل هذا لسوفت بها ولم تعمل بها حتى تفوت فيفوتك ثوابها والنعمة الثانية توسيع أوقاتها عليك ليبقى لك نصيب من الاختيار حتى تأتى بالطاعات فى حال سكون وتمهل من غير حرج ولاضيق

(علم قلة نهوض العباد إلى معاملته) أى الاقبال عليه بطاعته والقيام بحقوق ربوبيته طوعا منهم لما هم عليه من وجود الضعف ولما فى نفوسهم من وجود الكسل (فأوجب عليهم وجود طاعته) أى ألزمهم بذلك قهرا عنهم وخوفهم بدخول النار إن لم يفعلوها (فساقهم إليه) أى إلى الاقبال عليه بطاعته وفى نسخة إليها أى إلى الطاعة (بسلاسل الايجاب) أى الايجاب الشبيه بالسلاسل اللاتى توضع فى عنق الأسير يجرّ بها قهرا عنه من أمره إلى الموضع الذى يريده وكذلك الايجاب يسوقهم الله تعالى به إلى الطاعة التى يحصل لهم بها ما يسرهم فى المستقبل و إن كانت شاقة عليهم فى الحال فهو يفعل بهم كما يفعل الولى بالصبى ألا تراه كيف يؤدبه و يضربه على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته و يلزمه أمورا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك لأجل تحصيل منافعه فى المستقبل الذى هو جاهل بها الآن فاذا كبر وعقل (٣٢) عرف ذلك عيانا (عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل) كما يفعل بأسارى الكفار حين يراد منهم الدخول فى الاسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل فى رقابهم وهذا معنى حديث قاله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر ولفظه «عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل» والعجب والتعجب استعظام أمر خفى سببه وهو مستحيل عليه تعالى ففيه المذهبان السلف يقولون إن لله عجبا ولا نعلم حقيقته وهو منزه عن معناه المشهور والخلف يؤولون ذلك فيقولون معنى التعجب المنسوب إلى الله إظهار عجب هذا الأمر لخلقه لأنه بديع الشأن وهو أن الجنة شأنها أن يسارع إليها لنفاستها وهؤلاء يرغبون عنها و يمتنعون منها حتى يقادوا إليها بالسلاسل

وما

لله الحمد على نعمه (علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته فساقهم إليها بسلاسل الايجاب ، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل) لما علم الله تعالى قلة نهوض العباد إلى معاملته الواجبة له عليهم من إقامة العبودية لمشاهدة الربوبية فى حال طواعية منهم إذ فى ذلك قرة أعينهم وغاية نعيمهم أوجب عليهم وجود طاعته على حال كراهية منهم لأجل ما خوفهم به إن لم يفعلوا فساقهم بسلاسل تخويفه وتحذيره إليهم واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم مما لا علم لهم به وفعل بهم ما يفعل بالصبى ألا تراه كيف يؤدب و يضرب على استرساله على مقتضى طبعه وجبلته و يلزم أمورا شاقة عليه فيفعلها وهو كاره لذلك والغرض إنما هو حصوله على منافعه التى هو جاهل بها فاذا كبر وعقل عرف ذلك عيانا وقد عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل كما فعل بأسارى الكفار حين يراد بهم الدخول فى الاسلام فيقادون إلى الجنة بالسلاسل فى رقابهم وهذا حديث يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا «عجب الله من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل» قلت وتعبير المؤلف رحمه الله بالسلاسل والسوق بها واستعماله ذلك فى التكاليف الواجبة التى ألزم العباد القيام بها من بديع الاستعارات كما قال الشاعر وهو أبو خراش الهذلى :

وليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وكذلك تمثيله بالحديث المذكور فيه ذلك والاشارة به إلى مقصوده فى غاية الحسن . قال بعض العلماء يجوز أن يكون معنى التعجب المنسوب إلى الله تعالى فيه إظهار عجب هذا الأمر لخلقه لأنه بديع الشأن وهو أن الجنة التى أخبر الله تعالى بما فيها من النعيم المقيم والعيش الدائم والخلود فيها الذى من حكم من سمع به من ذوى العقول أن يسارع إليها و يبذل مجهوده فى الوصول إليها و يتحمل المكاره والمشقات لينالها وهؤلاء يمتنعون عنها و يرغبون عنها و يزهدون فيها حتى يقادوا إليها بالسلاسل كما يقاد إلى المكروه العظيم الذى تنفر منه الطباع وتألم منه الأبدان وتكرهه النفوس وقد قرأ جماعة من القراء بل عجبت و يسخرون بضم التاء ؛ وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من فلان وفلانة فى قصة الأنصارى الذى قال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث صحيح مشهور فالعجب منسوب إلى الله تعالى وقد ورد فى الكتاب والسنة فهو إذن من الصفات السمعية (أوجب عليك وجود خدمته

كما يقادون إلى الأمر المكروه وقيل المراد بالتعجب لازمه وهو الاحسان إلى المتعجب منه فانك إذا قلت ما أعلم زيدا يلزمه أنك تريد الاحسان إليه و إكرامه فالمعنى أحسن ربك إلى هؤلاء القوم حيث دعاهم إلى الجنة وساقهم إليها كرها وهذا فى حق العامة أما الخاصة فلا يحتاجون الى الايجاب والتخويف والتحذير لأن الله تعالى شرح صدورهم ونوّر بصائرهم وكتب فى قلوبهم الايمان وحبب اليهم الطاعات و بغض إليهم العصيان فلم يحتاجوا الى شىء من ذلك لتمام حريتهم من الأغيار التى تملك القلوب فهم ملازمون لطاعته طوعا بل لو أكرهوا على تركها لم يستطيعوا الصبر عنها وفائدة تكليفهم حينئذ إظهار محبتهم كما يأمر الملك وزراءه اللازمين لحضرته بخدمته زيادة فى القرب والتشريف (أوجب عليك وجود خدمته) فى الظاهر

(وما أوجب عليك) فى الحقيقة ونفس الأمر (إلا دخول جنته) لأنه تعالى غنىّ عن خلقه لاتنفعه طاعتهم ولاتضره معصيتهم و إنما أوجب الأعمال عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم وهو دخول الجنة لا ليحصل له شرف بذلك وهذا تصريح بما علم قبله لأن حاصله أنه تعالى إنما أوجب على عباده طاعته لقلة نهوضهم إليها فساقهم إليها بسلاسل الايجاب وسوقهم إليها بذلك إنما هو لأمر يرجع إليهم وهو دخول الجنة بدليل الحديث وهو عجب ربك الخ فيؤول المعنى إلى أن سوقهم إلى طاعته وهو إيجابها عليهم سوق إلى الجنة فلم يوجب عليهم إلا دخولها وهو ما صرح به هنا (من استغرب أن ينقذه الله من شهوته) التى استرقته (وأن يخرجه من وجود غفلته) التى استولت عليه أى من استحكمت فيه الشهوة والغفلة واستغرب أن يخرجه الله منهما (فقد استعجز) أى فكأنه استعجز (القدرة الالهية) أى المنسوبة إلى الاله وفى بعض النسخ قدرة إلهية أى نسبها إلى العجز (وكان الله على كل شىء مقتدرا) أى مع أنه تعالى وصف نفسه بالاقتدار على كل شىء وإخراجه من ذلك من جملة الأشياء فينبغى له أن يقصد باب مولاه بالذلة والافتقار فعساه يسهل عليه ما استصعبه و يظهر فيه ما استغرب به وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التى تؤثر عن الصالحين الذين تقدمت لهم فى بدايتهم الزلات ووقعت

وما أوجب عليك إلا دخول جنته) هذه عبارة حسنة موافقة لمعنى ماتقدم والمقصود من هذا كله الاعلام بأن الله تعالى غنىّ عن خلقه لاتنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم وأن التكاليف كلها إنما أوجبها عليهم لما يرجع إليهم من مصالحهم لاغير. قلت وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى هو حال عامة الناس الذين من شأنهم التأنى وعدم الانقياد للأوامر والنواهى ولذلك احتاجوا إلى التخويف والتحذير والموالاة للحض والمبالغة فى النكير. وأما الخاصة منهم فلم يحتاجوا إلى شىء من ذلك لأن الله تعالى شرح صدورهم ونوّر بصائرهم وكتب فى قلوبهم الايمان وحبب إليهم الطاعة و بغض إليهم العصيان فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه المذكورون من فعل الواجبات واجتناب المحظورات فقط بل أضافوا إلى ذلك المبادرة الى أعمال الطاعات والمسارعة إلى نوافل الخيرات و بالجملة صارت أعمالهم كلها قربات وذلك لتمام حريتهم وصحة عبوديتهم نعم العبد صهيب لولم يخف الله لم يعصه. قال فى التنوير و إنما جعل الحق سبحانه الايجاب على العباد علما منه بما هم عليه من وجود الضعف و بما نفوسهم متصفة به من وجود الكسل فأوجب عليهم ما أوجبه لأنه لوخيرهم فيما أوجب عليهم لم يكونوا به قائمين إلا قليلا وقليل ماهم فأوجب عليهم وجود طاعته وفى التحقيق ما أوجب عليهم إلا دخول جنته فساقهم إلى الجنة بسلاسل الايجاب: عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل. قال واعلم رحمك الله أنا تاملحنا الواجبات فرأينا الحق سبحانه جعل فى كل ما أوجبه تطوّعا من جنسه فى أىّ الأنواع كان ليكون ذلك التطوّع من ذلك الجنس جابرا لما عساه أن يقع من الخلل فى قيام العبد بالواجبات وكذلك جاء فى الحديث: إنه ينظر فى مفروض صلاة العبد فان نقص منها شىء كمل من النوافل فافهم رحمك الله هذا ولاتكن مقتصرا على مافرض الله عليك بل لتكن فيك ناهضة حب توجب إكبابك على معاملة الله تعالى فيما لم يوجبه عليك ولوكان العباد لايجدون فى موازينهم إلا فعل الواجبات وثواب ترك المحرمات لفاتهم من الخير والمنة ما لايحصره حاصر ولايحزره حازر فسبحان الله الفاتح للعباد باب المعاملة والمهيء لهم أسباب المواصلة. قال واعلم أن الحق سبحانه علم أن فى عباده ضعفاء وأقوياء فأوجب الواجبات و بين المحرمات فالضعفاء اقتصروا على القيام بما أوجب والترك لما حرم وليس فى قلوبهم من سلطان الحب ووجود الشغف مايحملهم على المعاملة من غير إيجاب فمثلهم كمثل العبد يعلم السيد منه أنه إن لم يخارجه لم يهد إليه شيئا فلذلك وقت سبحانه الأوراد ووظف وظائف العبودية وعرف ذلك بالطالع والغارب والزوال وصيرورة ظل كل شىء مثله فى الصلاة وبالحول فى الأموال النامية العين والماشية و بوقت حصول المنفعة فى الزرع ــ وآتوا حقه يوم حصاده ــ و بعشر ذى الحجة فى الحج و بشهر رمضان فى الصيام فوظف الوظائف ووقتها وجعل للنفوس فيها فسحة الحظوظ والسعى فى الأسباب وأهل الله هم أهل الفهم عنه جعلوا الأوقات كلها وقتا واحدا والعمر كله نهجا الى الله تعالى قاصدا فعلموا أن الوقت كله له فلم يجعلوا شيئا منه لغيره ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: عليك بورد واحد وهو إسقاط الهوى ومحبة المولى أبت المحبة أن تستعمل محبا إلا فيما يوافق محبوبه وعلموا أن الأنفاس أمانات الحق عندهم وودائعه لديهم فعلموا أنهم مطالبون برعايتها فوجهوا هممهم لذلك وكما أنّ له الربوبية الدائمة كذلك حقوق ربوبيته عليك دائمة فربوبيته غير مؤقتة بالأوقات فحقوق ربوبيته عليك ينبغى أن تكون أيضا كذلك لذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: إن لكل وقت سهما يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية اه (من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الالهية وكان الله على كل شىء مقتدرا) من استرقته الشهوة واستولت عليه الغفلة فلاينبغى له أن يستغرب

أن ينقذه الله من أسر شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه فان فى ذلك نسبة العجز إلى القدرة الإلهية والله تعالى متصف بالاقتدار على كل شىء وهذا من الأشياء وليعلم العبد أن قلوب العباد ونواصيهم بيده فلا يقنط ولا ييأس وليقصد باب مولاه بالذلة والانكسار والافتقار فعساه يسهل عليه مااستصعبه ويظهر فيه مااستغرب به وما ذلك على الله بعزيز وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التى تروى عن الصالحين الذين تقدمت لهم فى بدايتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله تعالى بلطفه واستنقذهم بجوده وعطفه فأصلح أعمالهم وصفى أحوالهم وأبدل سيآتهم حسنات ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات كل ذلك فى أقرب زمان وأقصر مدة وأوان ، والحكايات فى هذا المعنى عن الشيوخ مثل سيدى الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك وأبى عقال بن علوان وغيرهم رضى الله تعالى عنهم معروفة مشهورة . ومن أغرب مارأيته فى هذا المعنى مارواه عبد الصمد بن مغفل عن عمه وهب بن منبه رضى الله عنهما أن رجلا قتل نفسا فجاء إلى سائح من سائحى بنى إسرائيل فسأله عن ذلك قال فرفع له السائح من الأرض عرجونا أبيض قديما حائلا ثم قال له إذا اخضر هذا العرجون قبلت توبتك وأراد السائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لعظم ذنبه فأخذ الرجل العرجون وهو يطمع فى التوبة ويعزم فتاب وجعل يعبد الله تعالى زمانا ويدعو حتى اخضر ذلك العرجون باذن الله تعالى وقدرته . وأغرب من هذا وأعجب ماخرّجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال قتلت تسعة وتسعين نفسا فهل لى من توبة فقال لا فقتله فكمل به المائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عزّ وجلّ فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا أتى نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم حكما فقال قيسوا مابين الأرضين فالى أيهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة» قال قتادة قال الحسن ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره . وقال عيسى بن دينار : كان يقال ماوفق الله عبدا لعمل إلا وهو يريد أن يقبله منه ولاوفق الله عبدا لنزوع عن ذنب إلا وهو يريد أن يغفره له . وقد ذكر القاضى يونس بن عبد الله المعروف بابن الصفار رحمه الله فى كتاب التسبب والتيسير لصالح العمل أنه أخبره ثقة من أهل العلم قال كان رجل من أهل الأدب له أصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة فدعوه ذات يوم فلم يجبهم فقالوا له مايمنعك من إجابتنا فقال دخلت البارحة فى الأربعين وأنا أستحى من سنى ثم لزم الخير والعبادة . قال وروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه قال : وجبت حجة الله على ابن الأربعين . وذكر فيه أيضا عن مغيث بن سمىّ قال : كان رجل من بنى إسرائيل يعمل بالخطايا فبينما هو يسير ذات يوم ذكر ماسلف من عمله فقال اللهم غفرانك فمات على ذلك الحال فغفر له . وذكر فيه أيضا عن رجل من العلماء أنه رأى فى منامه شيخا وجماعة من الشعراء قد أحدقوا به يسألونه قال فقلت له أيها الشيخ أخبرنى بأحكم بيت قالته العرب فأنشدنى :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

قال فوالله لقد نفعنى الله عزّ وجلّ بهذا البيت ماذكرته بعد ذلك عند شهوة أو خطيئة إلا ارتدعت

منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله بلطفه وأصلح أعمالهم وصفى أحوالهم كفضيل ابن عياض وعبد الله ابن المبارك وأبى عقال ابن علوان وغيرهم رضى الله عنهم

(ربما أوردت الظلم) أى الشهوات والمعاصى والغفلات (عليك ليعرفك) حال ورودها (قدر ما منّ) الله (به عليك) أى ما كان قد منّ الله به عليك سابقا من الأنوار والاقبال على مولاك فتحمده عليها و إذا رجعت إلى حالك عرفت أن ذلك نعمة عظيمة فيكثر منك الحمد والشكر فقد صارت النقمة نعمة وقد يكون سبب ورودها ما حصل منك

من الاعجاب بطاعتك فيوردها عليك لتعرف قدرك ولا تتعدى طورك فلا تتكبر ولا ترى نفسك على أبناء جنسك وهذه نعمة أيضا وقد ترد عليك عقوبة وامتحانا وعلامة ذلك أنك كلما خرجت به من معصية وقعت فى أخرى وهكذا ولا توفق للتوبة ولا تعتقد التقصير من نفسك (من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها) هذا تعليل لما قبله كأنه قال إنما كان ورود الظلم معرّفا بقدر النعم لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها فعند وجود النقيض يظهر فضل المناقض فإنما يعرف قدر نعمة البصر مثلا من ابتلى بالعمى وقد قيل إنما يعرف قدر الماء من ابتلى بعطش البادية لا من كان على شاطئ الأنهار والأودية الجارية (لا تدهشك واردات النعم) أى النعم الواردة أى المترادفة عليك (عن القيام بحقوق شكرك) أى

عنها وأرجو أن لا يفارقنى الانتفاع به ما بقيت إن شاء الله تعالى . وفى الكتاب المذكور حكايات مستحسنات فى هذا المعنى فطالع ذلك فيه والله المستعان الموفق لا ربّ غيره (ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر ما منّ به عليك) الظلم أضداد الأنوار فما من نور إلا وفى مقابلته ظلمة وكل ظلمة على قدر نورها والشئ يعرف بضدّه كما قيل * و بضدّها تتبين الأشياء * فما أورده عليك من ظلمات الحجبة والغيبة فى ليالى الهجر والفرقة فإنما ذلك ليعرفك قدر ما منّ عليك من أنوار التجلى والحضور فى نهاية القربة والوصلة فجميع ذلك نعم سابغة عليك من غير علم منك بذلك (من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها) أكثر الناس لا يعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم. قال سرىّ السقطى رضى الله عنه من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم . وقال الفضيل رضى الله عنه عليكم بمداومة الشكر على النعم فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم وقال بعض البلغاء إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة وقال آخر شكر النعمة عصمة من حلول النقمة وفى معنى هذا قيل إنما يعرف قدر الماء من بلى بالعطش فى البادية لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية وقيل أيضا الولد العاق المصر على تأبيه إنما يعرف قدر الآباء يوم وفاة أبيه وقيل نعم الله مجهولة وتعرف إذا فقدت . ومن دعاء بعض الصالحين اللهم عرفنا نعمتك بدوامها ولا تعرفها لنا بزوالها. قلت ولأجل غلبة الجهل بالنعم إلا عند الفقد وتضييع الشكر عليها من العبد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنظر إلى من هو أسفل منا لئلا نزدرى نعمة الله علينا والسعيد من وعظ بغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه « انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وروى أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه » قال الشيخ أبو حامد رضى الله عنه وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى فيشاهدهم ويشاهد عللهم ومحنهم و يحضر حبس السلطان و يشاهد أرباب الجنايات ومحنهم فى التعرض لإقامة العقوبات و يحضر المقابر فيشاهد أصحاب العزاء وتأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه وكان يعود إلى بيته و يشتغل بالشكر طول النهار على نعم الله عليه فى تخليصه من تلك البلايا اهـ وكان الربيع بن خيثم رضى الله عنه حفر فى داره قبرا وكان يضع فى عنقه غلا وينام فى لحده ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يقوم و يقول يار بيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد وهذا كله موافق لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديثين المذكورين ولا طريق للعبد الغافل إلى تعرّف النعم الموجودة لديه أبلغ منه فاذا عرف نعم الله تعالى عليه اشتغل بالشكر عليها من قبل أن تزال عنه فلا يكون له سبيل إليها وقد تقدّم من كلام المؤلف رحمه الله لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها (لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فان ذلك مما يحط من وجود قدرك) إذا ترادفت نعم الله تعالى عليك فلا ينبغى أن تدهشك عن القيام بشكرها من حيث ترى عجز نفسك عن توفية ذلك وأن لا قبل لك به فتتركه

شكر المولى عليها بأن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك فتترك الشكر (فان ذلك مما يحط من وجود قدرك) أى إن الله تعالى قد رفع قدرك وجعل القليل منك كثيرا قال تعالى ــ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ــ فلا تبخس نفسك حقها وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر بسبب كثرة النعم وذلك من الجهل كما لو تركت الشكر عليها لاستقلالها فى نظرك فالحامل على ترك الشكر

على النعمة أحد أمرين وكل منهما مذموم ومن شكر اللسان ذكر الله ومنه الباقيات الصالحات التي تذكر عقب الصلوات (تمكن حلاوة الهوى) الهوى ميل النفس والمراد به الهوى وهو الشهوات أي تمكن حب شهوات الدنيا (من القلب هو الداء العضال) أي الذي لاتنفع فيه الحيل والأسباب والأدوية كالايمان والمعرفة واليقين فان الداء إذا تمكن من القلب لم يبق للدواء محل فلذا أعضل أمره وتعذر برؤه فلا يفيد فيه إلا وارد إلهي كما أشار إليه بقوله (لايخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج يرد على القلب من شهود صفات الجلال ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة وتذكره نزول الموت به ودخوله للقبر وحيدا وسؤال الملكين مع أحوال الحشر والمعاد الذي تذهل (٣٦) فيه كل مرضعة عما أرضعت ويجعل الولدان شيبا إلى غير ذلك (أو شوق مقلق) يرد على القلب من شهود صفات الجمال ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد لأهل الطاعات وتذكره ما أعد لأوليائه من النعيم مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى غير ذلك والمواظبة على حضور مجالس الذكر والتذكير علاج كبير ونفع كثير في حصول ذلك إذ لا يزال ذلك يعمل في القلب شيئا فشيئا إلى أن يسكنه الخوف أو الشوق أما اذا لم يكن الأول مزعجا والثاني مقلقا فلا يفيدان تركا ولا توجها (كما لا يحب العمل المشترك) وهو المشوب بالرياء والتصنع (كذلك لا يحب القلب المشترك) وهو الذي فيه

فان الله تعالى رفع قدرك وأعلى أمرك وجعل القليل منك كثيرا وأشهدك من حسن توليه لك ونسبة أفعالك إليه ما يؤذن بعظم سيادتك ورفعة قدرك فلم تبخس نفسك حقها وتحطها عن قدرها فتراها عاجزة عن الشكر والقيام بمقتضى الأمر لاعلى وجه الأدب والاتيان من الشكر بما وجب كان الأمر في ذلك إليها . قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه مامن نعمة إلا والحمد لله أفضل منها والنعمة التي ألهم بها الحمد أفضل من الأولى لأن بالشكر يستوجب المزيد. وفي أخبار داود عليه السلام إلهي ابن آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة وفوقها نعمة فمن أين يكافئك فأوحى الله تعالى إليه ياداود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير وان شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمني . وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إليه إني بأرض قد كثرت فيها النعم حتى لقد أشفقت علي من قبل ضعف الشكر فكتب إليه عمر إني كنت أراك أنك أعلم بالله مما أنت إن الله تعالى لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل قال الله ـ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ـ وقال تعالى ـ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ـ الخ وأي نعمة أعظم من دخول الجنة (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال) القلب محل الايمان والمعرفة واليقين وهذه هي الأدوية لأمراضه التي أوجبها وجود الهوى والشهوة فاذا تمكن الداء من القلب لم يبق للدواء محل فلذلك أعضل أمره وتعذر برؤه (لايخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق) الشهوة المتمكنة من القلب لايخرجها إلا وارد قوي قاهر غالب يرد عليه وذلك إما خوف مزعج أو شوق مقلق وما عدا هذين الأمرين لا استقلال له بذلك (كما لايحب العمل المشترك كذلك لايحب القلب المشترك العمل المشترك لايقبله والقلب المشترك لايقبل عليه) العمل المشترك هو المشوب بالرياء والتصنع والقلب المشترك هو الذي فيه محبة غير الله تعالى والسكون إليه والاعتماد عليه فالعمل المشترك معتل بنظر صاحبه إلى الناس والقلب المشترك معتل بنظر صاحبه إلى نفسه فالعمل المشترك لايحبه ولايقبله ولا يثيب عليه لفقد الاخلاص منه والقلب المشترك لايحبه ولا يقبل عليه ولايرضى عنه لعدم وجود الصدق فيه فمن صحح أعماله بالاخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبا لله تعالى مثابا مرضيا عنه وإلا فلا. وقال رضي الله عنه (أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول)

محبة غير الله والسكون إليه والاعتماد عليه. ولما كانت المحبة بمعنى ميل القلب مستحيلة في حقه تعالى أولها على طريقة الخلف الأنوار بقوله (العمل المشترك لايقبله) أي لايثيب عليه لعدم الاخلاص فيه فعدم محبته بمعنى عدم إثابته عليه (والقلب المشترك لايقبل عليه) أي لايرضى عن صاحبه ولايثيبه لعدم وجود الصدق منه فعدم محبته بمعنى عدم الرضا عن صاحبه وعدم إثابته فمن صحح أعماله بالاخلاص وأحواله بالصدق كان محبوبا لله أي مثابا مرضيا عنه وإلا فلا. أما السلف فيثبتون لله محبة لكن لا نعلم حقيقتها (أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول) أي الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب وهي معارف وأسرار إلهية تنقسم إلى قسمين أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب فقط وأنوار أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد القلب معها نفسه وربه ودنياه وآخرته فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه وتارة

يحب آخرته وتارة يحب دنياه والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لايظهر فيها إلاوجود الله عز وجل فلذلك لايحب سواه ولايعبد إلاإياه قال بعض العارفين إذا كان الايمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا وكان مرة مع ربه ومرة مع نفسه فاذادخل الايمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجرهواه اه . ثم فرع على ماتقدّم بقوله (ربما وردت عليك الأنوار) أى العلوم والمعارف الإلهية (فوجدت القلب محشوا بصور الآثار) أى معلقا بصور المكوّنات من أموال وأولاد وغيرها (فارتحلت من حيث نزلت) أى من المكان الذى نزلت فيه وهوالقلب لأنها مطهرة مقدّسة فلاتحل فى القلب المدنس بالأغيار (فرغ قلبك من الأغيار) أى التعلق بغير مولاك وامح عنه صور الآثار بأن لا تتوجه بسيرك إلى غير ربك فلا يكون لك أنس إلابه ولا اعتماد إلا عليه (يملأه بالمعارف والأسرار) قال تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهديهم (٣٧) سبلنا ـ وتقدّم فى كلام المصنف

الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب تنقسم إلى قسمين أنوار أذن لها فى الوصول إلى ظاهر القلب فقط وأنوار أذن لها فى الدخول إلى صميم القلب وسويدائه فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد العبد معها نفسه وربه ودنياه وآخرته فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه وطورا يسعى فى العمل لآخرته وطورا يعمل فى أمور دنياه والأنوار الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لايظهر فيها إلا وجود الله عز وجل فلذلك لايحب سواه ولايعبد إلاإياه. قال بعض العارفين إذا كان الايمان فى ظاهر القلب كان العبد محبا للآخرة والدنيا وكان مرّة مع الله تعالى ومرّة مع نفسه فاذا دخل الايمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه وفى لفظ آخر إذا كان الايمان فى ظاهر القلب يعنى أعلى الفؤاد كان المؤمن يحبّ الله حبا متوسطا فاذا دخل الايمان فى باطن القلب وكان فى سويدائه أحبه الحب البالغ . قال الشيخ أبوطالب المكى رضى الله عنه ومحبة العبد ذلك أن ينظر فان كان يؤثر الله تعالى على جميع هواه ويغلب محبته على هواه حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شىء فهو محب لله تعالى حقا كما أنه مؤمن به حقا وإن رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك . وقال بعض العلماء ظاهر القلب محلّ الاسلام وباطنه مكان الايمان فمن ههنا يتفاوت المحبون فى المحبة لفضل الايمان على الاسلام وفضل الباطن على الظاهر (ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوّا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت . فرغ قلبك من الأغيار يملؤه بالمعارف والأسرار) الأنوار الالهية قد ترد على القلب فلاتجد فيه موضعا لاستقرارها لما غلب عليه من رعونات البشرية واستحكم فيه من صور الآثار الكونية فترتحل من حيث تنزل لأنها مقدّسة مطهرة فاذا أردت حلول الأنوار فيه وتجلى المعارف والأسرار له ففرغه من الأغيار وامح عنه صور الآثار قال الله تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ـ وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته (لا تستبطىء منه النوال ولكن استبطىء من نفسك وجود الاقبال) تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله لا تطالب ربك بتأخير مطلبك ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك والعبارتان متفقتان معنى وإن اختلفتا لفظا (حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها إذ مامن وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد فكيف تقضى فيه حق غيره

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته وإذا كان كذلك (فلا تستبطىء منه النوال) أى إعطاء المعارف والأسرار (ولكن استبطىء من نفسك وجود الاقبال) عليه بمحو صور الأغيار من مرآة قلبك بالمجاهدة والرياضة . ثم قال (حقوق) كائنة (فى الأوقات) أى الأزمنة وتلك الحقوق هى وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما (يمكن قضاؤها) أى إن من فاته شىء من ذلك فى وقته المعين له أمكنه قضاؤه فى وقت آخر (وحقوق الأوقات) هى ما يرد على العبد من قبل الرب من الأحوال فوقت كل عبد ما هو عليه من تلك الأحوال وأوقاته أربعة لاخامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية وسمى ما ذكر وقتا لأنه يرد فى وقت مخصوص تسمية للشىء باسم زمنه وحقوقها الواجبة عليك فيها هى المعاملات الباطنية التى تقتضيها تلك الأحوال فحقه عليك فى النعمة الحمد والشكر وفى البلية الصبر والرضا وفى الطاعة شهود المنة وفى المعصية الاستغفار والتوبة ولذا يقولون الفقير ابن وقته أى يتأدّب معه ويعطيه حقه كما يتأدّب الولد مع أبيه وتلك الحقوق (لا يمكن قضاؤها) إذا فاتت (إذ ما من وقت) أى حال (يرد إلا ولله عليك فيه حقّ جديد وأمر أكيد) هو بمعنى ما قبله أى فلا يسعك إلا أن توفى حقه فيمنعك اشتغالك بحقه عن اشتغالك بحقّ ما فاتك ولذا قال (فكيف تقضى فيه حقّ غيره) مما فاتك

(وأنت لم تقض حق الله فيه) وهو الحق المتعلق بذلك الوقت ولو قال وأنت لم تقض حق ذلك الوقت لكان أوضح وحينئذ فيجب عليك أن تكون مراقبا لقلبك حق تقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنك قضاؤها إن فاتت ولا تشغل أوقاتك بشهوات نفسك ورعونات بشريتك حتى تضيع حقوق الله تعالى الواجبة عليك التي ليس لها خلف يقوم مقامها و إذا فاتت لا يمكن قضاؤها ولذا قال (مافات من عمرك لاعوض له) أي لاعودة ولارجوع له فإذا خليته من العمل الصالح الذي هو وظيفة ذلك الوقت فاتك من السعادة بقدره ولا يمكنك تداركه (وماحصل لك منه لاقيمة له) أي لا يمكن أن يقاوم بشيء لعظم قدره لأنك تتوصل به إذا اشتغلت بحق الله تعالى فيه إلى ملك كبير في الآخرة وشرف عظيم كثير لا يفنى ولذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير. وفي الحديث «مامن ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة وندامة» ويقال إن العبد يوم القيامة وقال تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة فيرى في كل خزانة نعيما ولذة جزاء لما كان أودعه في تلك الخزانة من الأعمال الصالحة والتي لم يعمل فيها شيئا يراها فارغة فيتحسر و يندم حيث لا ينفعه الندم ثم يلقى عليه الرضا والسكون

وأنت لم تقض حق الله فيه) الحقوق الكائنة في الأوقات هي وظائف العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وغيرهما فمن فاته شيء منها في وقته المعين أمكنه قضاؤه في وقت آخر إذ قد جعل له في ذلك مجال رحب فيستدرك فيه ما يفوته من تلك الحقوق والحقوق المضافة إلى الأوقات هي المعاملات الباطنة التي تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه المتلونة عليه ووقت كل عبد ماهو عليه من ذلك فالعبد مطالب بحقوق جميع ذلك عند وروده عليه إذ لله تعالى على كل عبد عند كل حال يحل به وارد يرد عليه حق جديد وأمر أكيد ولا يسعه إلا أن يوفيه إذ ذاك فإن فاته لم يجد مجالا لقضائه ولا يمكنه ذلك فعلى العبد أن يكون مراقبا لقلبه حتى يقوم بمراعاة تلك الحقوق التي لا يمكنه قضاؤها إن فاتت . قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: أوقات العبد أربعة لاخامس لها النعمة والبلية والطاعة والمعصية ولله تعالى عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه لها ووفقه للقيام بها ومن كان وقته المعصية فمقتضى الحق منه وجود الاستغفار والندم ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر والرضا رضا النفس عن الله والصبر مشتق من الإصبار وهو نصب الغرض للسهام وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء فإن ثبت لها فهو صابر والصبر ثبات القلب بين يدي الرب وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر ثم سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ماذا له يارسول الله ؟ فقال أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» أي لهم الأمن في الآخرة وهم المهتدون في الدنيا (مافات من عمرك لاعوض له وماحصل لك منه لاقيمة له) عمر العبد ميدان لأعماله الصالحة المقربة له من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب في الدار الآخرة وهذه هي السعادة التي لها يكدح العبد ويسعى من أجلها وليس له منها إلا ماسعى كما قال تعالى ــ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ــ فكل جزء يفوته من العمر خاليا من عمل صالح يفوته من السعادة بقدره ولاعوض له منه قال الجنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لا يستدرك وليس شيء أعز من الوقت وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من ذلك يتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك لأنه في غاية الشرف والنفاسة ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بقية عمر المرء مالها ثمن يدرك فيها مافات ويحيي ما أمات ، وقد نظم بعض الشعراء في المعنى رحمه الله وأرضاه فقال :

بقية العمر عندي مالها ثمن ... وإن غدا غير محسوب من الزمن

يستدرك المرء فيها كل فائتة ... من الزمان و يمحو السوء بالحسن

وقال رجل لعامر بن عبدالله بن قيس رضي الله عنه وهو يريد الجمعة قف حتى أكلك فقال له لولا أني أبادر لوقفت لك قال له وما تبادر قال أبادر خروج روحي وقال الحسن البصري رضي الله عنه: أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم يقول كما لا يخرج دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه .

وقال السرى السقطى رضى الله عنه: جزت من بغداد أريد الرباط إلى عبادان لأصوم بها رجب وشعبان فاتفق لى فى طريقى على الجرجانى وكان من الزهاد الكبار فدنا وقت إفطارى وكان معى ملح مدقوق وأقراص فقال ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام لن تفلح ولن تدخل فى سنن المحبين فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير فسف منه فقلت ما دعاك إلى هذا قال إنى حسبت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة. وفى الخبر ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة ويقال إن العبد تعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة أربعا وعشرين خزانة فيرى فى كل خزانة نعيما ولذة وعطاء وجزاء لما كان أودع خزائنه من ساعاته فى الدنيا من الحسنات فيسره ذلك ويغتبط به فإذا مرت به فى الدنيا ساعاته التى لم يذكر الله فيها رآها فى الآخرة خزائن فارغة لاعطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوؤه ذلك ويتحسر عليه كيف فاته حيث لم يدخر فيها شيئا فيرى جزاءه مذخورا ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون. وجاء فى الخبر «إن أهل الجنة بيناهم فى نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوق أضاءت منه منازلهم كما يضىء الشمس والقمر لأهل الدنيا فينظرون إلى رجال من فوقهم أهل عليين يرونهم كما يرون الكوكب الدرى فى أفق السماء وقد فضلوا عليهم فى الأنوار والجمال والنعيم المقيم كما فضل القمر على سائر النجوم فينظرون إليهم يطيرون على نجب تسرح بهم فى الهواء يزورون ذا الجلال والإكرام فينادونهم هؤلاء يا إخواننا ما أنصفتمونا كنا نصلى كما تصلون ونصوم كما تصومون فما هذا الذى فضلتم به علينا فإذا النداء من قبل الله تعالى إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ويعطشون حين تروون ويعرون حين تكتسون ويذكرون حين تسكتون ويبكون حين تضحكون ويقومون حين تنامون ويخافون حين تأمنون فلذلك فضلوا عليكم اليوم فذلك قوله تعالى ـ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ـ وقال أبو على الدقاق رضى الله عنه: رؤى بعضهم مجتهدا فقيل له فى ذلك فقال ومن أولى منى بالجهد وأنا أطمع أن ألحق الأبرار والكبار من السلف قال الله تعالى ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ـ وفى معناه أنشدوا:

السباق السباق قولا وفعلا حذر النفس حسرة المسبوق

(ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا) المحبة للشىء تقتضى الانقياد له وشدة العلاقة به وأن لا يبغى به بدلا كما قيل حبك للشىء يعمى ويصم وذلك معنى استعباده للمحب له فمن أحب غير الله عز وجل فقد استعبدك ذلك الغير كائنا ما كان والله لا يحب أن تكون لغيره عبدا ولا يرضى بذلك تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والخميصة والقطيفة والزوجة وقال محمد بن السماك كتب إلى أخ إن استطعت أن تكون لغير الله عبدا ما وجدت للعبودية بدا فافعل وقال الجنيد رضى الله عنه إنك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشىء مما دونه لك مسترق وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية. وسئل عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة فقال: المكاتب عبد ما بقى عليه درهم. ومن الحكايات فى هذا المعنى ما ذكر عن أبى عبد الله الرازى نزيل نيسابور قال: كسانى ابن الأنبارى صوفا ورأيت على رأس الشبلى قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف فتمنيت فى نفسى أن يكونا جميعا لى فلما قام الشبلى من مجلسه التفت إلى فتبعته وكان من عادته إذا أراد أن أتبعه أن يلتفت إلى فلما دخل داره دخلت فقال انزع الصوف فنزعته فلفه وطرح عليه القلنسوة ودعا بنار فأحرقهما ومثل هذا مما كان ينكره عليه من لم يعرف مقصوده وفى ذلك شىء كثير ورد عنه (لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك) الحق تعالى غنى عن أعمال العاملين لأنه منزه عن الأعواض والأغراض فلا تنفعه طاعتك ولا تضره

(ما أحببت شيئا) من أمور الدنيا (إلا كنت له عبدا) لأن محبتك للشىء تقتضى انقيادك له وشدة علاقتك به وأن لا تبغى به بدلا كما قيل حبك للشىء يعمى ويصم وهذا معنى استعباده لك فإن أحببت غير الله فقد استعبدك ذلك الغير كائنا ما كان (وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا) أى لا يرضى بذلك. وفى الحديث «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم والزوجة والخميصة تعس وانتكس» وقال الجنيد إنك لن تكون على الحقيقة له عبدا وشىء مما دونه لك مسترق وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية المكاتب عبد ما بقى عليه درهم (لا تنفعه طاعتك) لأنه غنى عن العالمين وأعمالهم (ولا تضره معصيتك) لتنزهه تعالى عن أن يصل إليه مكروه من خلقه (وإنما أمرك بهذه) أى الطاعة (ونهاك عن هذه) أى المعصية (لما يعود عليك) من المنافع والمصالح فى الدارين وذلك على سبيل التفضل منه لا على وجه الإيجاب عليه

(لايزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر عنه) لأن عزه صفة من صفاته الجامعة كالألوهية والكبرياء والعظمة وصفاته تعالى فى غاية الكمال والتمام فهى منزهة عن الزيادة والنقصان وهذا تعليل لما قبله من كونه لايعود عليه نفع من عبيده ولايلحقه ضرر منهم (وصولك إلى الله) الذى يشير إليه أهل هذه الطريقة هو (وصولك إلى العلم به) أى إلى مشاهدته بعين بصيرتك مشاهدة تغنيك عن الدليل والبرهان و يعبر عن ذلك العلم بالمشاهدة و بعلم اليقين و بالتجلى و بالفيض الرحمانى والتعرف العيانى والذوق الوجدانى وأهل الشهود متفاوتون فمنهم من يحصل له تجلى الأفعال وهو أول التجليات عندهم فيفنى فعله وفعل غيره فى فعل الله تعالى فلايرى فاعلا إلا هو ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه أول مراتب الوصول ومنهم من يحصل له تجلى الصفات فيقف فى مقام الهيبة والأنس بما يشاهده قلبه من الجلال والجمال وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة فيغيب فى شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهو أيضا رتبة فى الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين ويكون من ذلك فى الدنيا لمح

معصيتك و إنما أمرك ونهاك لما يعود عليك من الصالح والنافع فى الدارين لاغير وذلك على سبيل التفضل منه من غير إيجاب عليه وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل . قال فى لطائف المنن: اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشىء وجوبا أو يقتضيه منهم ندبا إلا والصلحة لهم فى فعل ذلك الأمر ولم يقتض منهم ترك شىء تحريما أوكراهة إلا والمصلحة لهم فى ترك ما أمرهم بتركه وجوبا أوندبا ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى إنه يجب على الله رعاية مصالح عباده بل إنما نقول ذلك عادة الحق وشرعته المستمر فعلها مع عباده على سبيل التفضل فليت شعرى إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه ثم إنا نظرنا فرأينا كل ماهو واجب أومندوب إليه يستلزم الجمع على الله وكل منهى عنه أومكروه يتضمن التفرقة عنه فاذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه لكن الطاعات هى أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها والمعصية هى أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها اهـ (لايزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه ولاينقص من عزه إدبار من أدبر عنه) عزة الله تعالى صفة من صفات ذاته وصفاته فى غاية الكمال والتمام فهى منزهة عن الزيادة والنقصان وسبقية العلل وقال رضى الله عنه (وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به و إلا فجل ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء) الوصول إلى الله تعالى الذى يشير إليه أهل هذه الطريقة هو الوصول إلى العلم الحقيقى بالله تعالى وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعال عنه وقال الجنيد رضى الله عنه متى يتصل من لاشبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير هيهات هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الايمان قال الشيخ أبوحفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى صاحب كتاب عوارف المعارف رحمه الله . واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليهما الشيوخ وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو رتبة فى الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى و يخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه رتبة فى الوصول ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهذا تجل بطريق الصفات وهو رتبة فى الوصول ومنهم من يرتقى إلى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغمى فى شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين وهذه رتبة فى الوصول وفوق هذا رتبة حق اليقين و يكون من ذلك فى الدنيا لمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى مراتب الوصول فاذا تحققت الحقائق بعلم العبد مع

وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذه وهو من أعلى رتب الوصول قال فى عوارف المعارف فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه فى أول المنزل فأين الوصول هيهات منازل طريق الوصول لاتنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى اهـ (و إلا) ترد بالوصول ماذكر وهو العلم الحقيقى بالله تعالى بطريق الذوق والوجدان بأن أردنا به الوصول المتعارف وهو وصول الذوات والأجسام فلايصح (فجل) أى لأنه تعالى (ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء) لاحسا وهو ظاهر ولامعنى إذ كيف يتصل من لاشبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير وشرط الاتصال المداناة فى الوصف ولانسبة بين كامل على الاطلاق وناقص على الاطلاق

(قربك منه) الذى يشير إليه أهل هذه الطريقة هو (أن تكون مشاهدا لقربه) منك قربا معنويا فتستفيد بهذه المشاهدة شدّة المراقبة فى التأدّب بآداب الحضرة (و إلا) نقل ذلك بل أردنا القرب الذى هو من صفات الأجسام (فمن أين أنت ووجود قربه) قربا حسيا فهذا لايصح (الحقائق) أى العلوم اللدنية التى يقذفها الله تعالى فى أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحريرهم من رقّ الأغيار وتعرّضهم بسرّهم إلى نفحات الحق (ترد فى حال التجلى) أى تجلى الله على قلوبهم (مجملة) لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها لعظم التجلى على قلوبهم (و بعد الوحى) لزوال ذلك التجلى (يكون

هذه الأحوال الشريفة أنه فى أوّل المنزل فأين الوصول هيهات منازل طريق الوصول لاتنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى فكيف بالعمر القصير الدنيوى (قربك منه أن تكون مشاهدا لقربه و إلا فمن أين أنت ووجود قربه) القرب الحقيقى قرب الله منك قال الله تعالى ـ و إذا سألك عبادى عنى فانى قريب ـ وقال تعالى ـ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون ـ وقال عزّ من قائل ـ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ـ وحظك من ذلك إنما هو مشاهدتك لقربه فقط فتستفيد بهذه المشاهدة شدّة المراقبة وغلبة الهيبة والتأدّب بآداب الحضرة وأما أنت فلا يليق بك إلا وصف العبد وشهوده من نفسك كما يقول المؤلف رحمه الله تعالى بعد هذا إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك (الحقائق ترد فى حال التجلى مجملة و بعد الوحى يكون البيان ـ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إنّ علينا بيانه) حقائق العلوم اللدنية التى يقذفها الحق تعالى فى أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحرّرهم من رقّ الأشياء وتعرّضهم باللجأ والافتقار لما يفتح عليهم المولى يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقا لوعده لهم من غير تعلم ولا دراسة وعند ورودها عليهم وتجليها لهم تكون مجملة لاتتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها فاذا وعوها وتصرّفت فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل تبين لهم معناها وظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة حتى إنّ بعضهم ربما يجرى على لسانه و بنانه كلام كثير من غير أن يلقى له بالا فاذا فرغ من ذكره أورسمه يتصفحه و يتأمله فيجده صحيحا مستقيما وقد أخبرنى بنحو ذلك من له قدم صدق فى هذا الطريق عن نفسه قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه وأصحاب الحقائق يجرى بحكم التصرّف عليهم شئ لاعلم لهم به على التفصيل و بعد ذلك يكشف لهم وجهه فربما يجرى على لسانهم شئ لايدرون وجهه ثم بعد فراغهم عن النطق به يظهر لقلوبهم برهان ماقالوه من شواهد العلم إذ تحقيق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت اهـ كلام الامام أبى القاسم وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى والله تعالى أعلم وكأنهما أشارا بذلك إلى المسئلة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة وقد عبروا عن ذلك بعبارات فقد سئل عبدالله بن طاهر الأبهرى رضى الله عنه عن الحقيقة فقال الحقيقة كلها علم فسئل عن العلم فقال العلم كله حقيقة وقال الشبلى رضى الله عنه الألسنة ثلاثة لسان علم ولسان حقيقة ولسان حق فلسان العلم ماتأدّى إلينا بالوسائط ولسان الحقيقة ما أوصله الله إلى الأسرار بلا واسطة ولسان الحق ليس إليه طريق وقال رويم رضى الله عنه أصح الحقائق ماقارن العلم وقال أبو بكر الوراق رضى الله عنه كنت فى تيه بنى اسرائيل فوقع فى قلبى أنّ علم الحقيقة بخلاف علم الشريعة فاذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بى وقال يا أبا بكر كل حقيقة تخالف الشريعة فهى كفر و إشارة المؤلف رحمه الله بالآية التى ذكرها إلى هذا المعنى بينة (متى وردت الواردات الالهية

البيان) أى تتصرف فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل فيتبين لهم معناها و يظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية حتى إنه ربما يجرى على لسان بعضهم كلام كثير لايلقى له بالا فاذا فرغ من ذكره وتأمله وجده صحيحا . مثال ذلك ماوقع من الحلاج من قوله مافى الجبة إلا الله فانّ هذا قاله لعظم التجلى عليه فاذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحا لأنّ معناه أنه لاقائم بالأشياء إلا هو سبحانه وهذا معنى صحيح يوافق الشريعة وكذا قول بعضهم أنا اللوح أنا القلم فانّ ذلك لعظم التجلى عليه وغيبته عن حسه يرى أنّ نفسه عين تلك الأشياء فاذا زال وتأمل فيه وجد معناه صحيحا أى أن التجلى علىّ وهو الله سار سرّه فى اللوح والقلم وغيرهما وأشار بذلك إلى المسئلة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة حيث قالوا حقيقة بلا شريعة باطلة وشريعة بلا حقيقة عاطلة . ثم استدل على ذلك بقوله تعالى (فاذا قرأناه) أى أقرأناه لك على لسان جبريل (فاتبع قرآنه) أى فاستمع لقراءته ثم اقرأه بعد ذلك (ثم إنّ علينا بيانه) أى بيان معانيه لك فقد جعل بيان المعنى بعد قراءته المقارنة للتجلى الالهى (متى وردت الواردات) وهى التجليات (الالهية) و يعبر عنها بالأحوال أيضا وقوله

(عليك) متعلق بوردت أى وردت على قلبك من قبل الحق فأحدثت فيه أحوالا سنية (هدمت) أى أزالت (العوائد عليك) أى الأمور التى كنت معتادا لها وهى رعونات نفسك لأن لها سلطنة عظيمة فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك وأثبتت عوضا منه أحوالا علية وأوصافا مرضية (إن) أى لأن (الملوك) أى جنودهم (إذا دخلوا قرية أفسدوها) أى أزالوا ماتلبس به أهلها من النعيم وكذلك الواردات الإلهية شبيهة بجنود الملك إذا حلت قلبا قهرت مافيه وأزالته وهذا جواب عما يقال إن العوائد مما جبلت عليه الطبائع فكيف تزيلها الواردات . وحاصل الجواب أن الوارد له القهر كجند الملك ووضح ذلك بقوله (الوارد يأتى من حضرة قهار) أى إن له القهر والغلبة لوروده من حضرة اسمه القهار والقهار هو الغالب الذى لا يغلب (لأجل ذلك لا يصادمه شىء) من رعونات البشرية (إلا دمغه) أى أزاله ومعناه فى الأصل أصاب دماغه بالضرب و يلزم منه إتلافه و إذهابه وهو أيضا حق (٤٣) ورد على باطل والباطل لاثبات له مع الحق قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق - كيف يحتجب الحق) أى الله (بشىء) من الموجودات العلوية والسفلية (والذى) أى والحال أن الذى (يحتجب) الله تعالى (به هو) أى الله (فيه ظاهر) أى ظاهر فيه تشاهده أرباب البصائر (وموجود حاضر) مدرك لهم فكيف يكون ماهو ظاهر فيه حجابا له حتى يستدل عليه به هل ذلك إلا من عمى البصائر وعدم رؤيته فى كل شىء كما تقدم (لاتيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور) بقلبك مع الله حال فعله بأن تكون ملاحظا أنك حاضر بين يديه غير غائب عنه كأنك تراه كما فى الحديث فلا فإن ذلك دليل على قبوله ولا يلزم من فقد الدليل فقد المدلول ولذلك قال (فربما قبل من العمل مالم تدرك ثمرته) أى ثمرة قبوله أى علامته (عاجلا) أى حال فعله ومن علامة قبوله أيضا وجدان حلاوته واستلذاذ قلبه به حال فعله كما مر وقوله كيف يحتجب الحق إلى هنا معترض بين الكلام على الوارد ثم تممه بقوله (لا تزكين واردا) أى لا تفرح به وتمدحه فى سرك (لا تعلم ثمرته) فإذا ورد عليك وارد إلهى أى تجل إلهى ملك قلبك ويعبر عنه بالحال لكن لم يتأثر قلبك به بحيث تحب الاقبال على المولى وتنهض لطاعته وتقوم بحقوق ربوبيته فلا تفرح بذلك الوارد لأن ثمرته إنما هى تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما مر فإن لم يوجد هذا عندك فلا تفرح به فإن فى ذلك نوعا من الاغترار (فليس المراد من السحابة الامطار و إنما المراد منها وجود الاثمار) أى إنها مرادة لوجود الاثمار الذى اقتضاه وجود إمطارها لا لمجرد وجود إمطارها وكذلك الوارد مراد لثمرته لا لوجود حظ نفسك فيه فإن كثيرا ممن يحصل عندهم تلك الأحوال القلبية يغترون بها وربما تركوا الأعمال الظاهرة مع وجود عقلهم

عليك هدمت العوائد عليك - إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) الواردات الإلهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته وتهدم عليه مستمر عاداته ولها سلطنة عظيمة على ذلك فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت عنه بمرة وأثبتت عوضا عن ذلك أحوالا علية وأوصافا مرضية ، أنشدنى سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى هذا المعنى :

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت ... أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها ... حين التزلزل والرجال رجال

الأرض أرض النفوس والجبال جبال العقل والشمس شمس المعرفة والاشارة بالآية إلى هذا المعنى بينة (الوارد يأتى من حضرة قهار لأجل ذلك لا يصادمه شىء إلا دمغه - بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) الوارد موسوم بسمة القهر والغلبة لوروده من حضرة القهار الغالب على أمره لأجل ذلك لا يصادمه شىء من رعونات البشرية إلا دمغه وأزاله وهو أيضا حق ورد على باطل ، والباطل لاثبات له مع الحق والاشارة بالآية إلى هذا المعنى بينة (كيف يحتجب الحق بشىء والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر) قد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام على هذا المعنى فى أول الكتاب وأتى فيه بالعجب العجاب وقد نبهنا عليه هناك (لا تيأس من قبول عمل لم تجد فيه وجود الحضور فربما قبل من العمل مالم تدرك ثمرته عاجلا) العمل الذى لا يجد صاحبه حضورا فيه ينبغى له أن لا ييأس من قبوله فإن ذلك إلى الله تعالى فقد يقبل من العمل مالم تدرك ثمرته عاجلا من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك ولو لم يكن إلا قصد التقرب به وسقوطه عن نظره ، وقد تقدم التنبيه على هذا المعنى عند قوله لا عمل أرجى للقلوب (لا تزكين واردا لا تعلم ثمرته فليس المراد من السحابة الإمطار و إنما المراد منها وجود الأثمار) الوارد مراد لثمرته لا لوجدان حظ نفسك منه كما أن السحابة مرادة لوجدان الأثمار الذى اقتضاه وجود إمطارها لا لمجرد وجود إمطارها وثمرة الوارد إنما هى تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة كما تقدم فإن لم تعلم وجود هذا فيك

(لاتطلبنّ بقاء الواردات) أى التجليات والأحوال القلبية (بعد أن بسطت أنوارها عليك) وأنوارها هى تكييف ظاهرك وباطنك بكيفيات العبودية (وأودعت) فيك (أسرارها) وهى مالاح فى قلبك من عظمة الربوبية فاذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلاتطلبن بقاءه حال وجودها ولا تحزن على فقده إذافقدته (فلك فى الله غنى عن كل شئ وليس يغنيك عنه شئ) كما قيل :

لكلّ شئ إذا فارقته عوض   وليس لله إن فارقت من عوض

فالله تعالى إنما أدخلك فى الحال لتأخذ منها لا لتأخذ منك لأنها جاءت حاملة هدية التعريف من الله اليك فاذا أوصلت إليك ما كان فيها فلا تطلب بقاءها إذ لا يطلب بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ولا أمين بعد أن أدّى أمانته فان طلبت بقاءها كنت عبد الحامل لا عبد المحمول . ثم أقام دليلا على ذلك بقوله (تطلعك إلى بقاء غيره) من الواردات المذكورة وغيرها كالأنوار والمقامات والنعم الباطنة والظاهرة (دليل على عدم وجدانك له) إذ لو وجدته فى قلبك واجتمع عليه سرك لم تطلب بقاء غيره (واستيحاشك لفقدان ماسواه) كالواردات المذكورة (دليل على عدم وصلتك به) أى وصولك إليه إذ لو وصلت إليه لنسيت كل محبوب ولم تستوحش عند فقد شئ سواه فالسالك إذا وردت على قلبه واردات إلهية و بسطت فيه أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه بأنه من الواصلين فان كان يتطلع و يتشوّف الى شئ من الأغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف . قال الجنيد قدّس سره انك لن تكون له على الحقيقة عبد أوشئ مماسواه لك مسترق وانك لن تصل الى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية

فلا ترك الوارد ولاتفرح به فان فى ذلك نوعا من الاغترار وانخداعا بلبسة الاظهار فكن على حذر منه (لاتطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها وأودعت أسرارها فلك فى الله غنى عن كلّ شئ وليس يغنيك عنه شئ) أنوار الواردات المنبسطة على العبد هى تكييف ظاهره و باطنه بكيفيات العبودية وأسرارها المودعة فيه بمالاح له من عظمة الربوبية فاذا أفادك الوارد هذه الفوائد فلاتطلبن بقاءه فى حال كونه ولاتأس على فقده إذا فقدته فان لك فى الله غنى عنه وعن غيره وليس لك غنى عن الله تعالى فى شئ من الأشياء كما قال الشاعر :

لكلّ شئ إذا فارقته عوض   وليس لله إن فارقت من عوض

قال أبوعبدالله بن عطاءالله رضى الله عنه إياك أن تلاحظ مخلوقا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا و يدخل فى هذا المعنى الذى ذكره ابن عطاء الله رضى الله عنه جميع الأغيار والأنوار والمقامات والأحوال والدنيا والآخرة والنعم الباطنة والظاهرة فلاتلاحظ شيئامن ذلك ولاتركنن إليه ولاتعتمد عليه بقى أوذهب فان ذلك قادح فى إخلاص التوحيد. قال فى التنوير : واعلم أن البارى سبحانه إنما يدخلك فى الحال لتأخذ منها لالتأخذ منك و إنما جاءت تحمل هدية التعريف من الله إليك فيها فتوجه إليها باسمه المبدئ فأبداها وأبقاها حتى إذا أوصلت إليك ما كان لك فيها فلما أدت الامانة توجه إليها باسمه المعيد فأرجعها وتوفاها فلا تطالبن بقاء رسول بعد أن بلغ رسالته ولا أمين بعد أن بلغ أمانته و إنما يفتضح المدعون بزوال الأحوال و بعزلهم عن مراتب الانزال هناك يبدو العوار وتنهتك الأستار فكم من مدّعى الغنى بالله و إنماغناه بطاعته أو بنوره أوفتحه وكم من مدّعى العز بالله و إنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمدا على ماثبت عندهم من معرفته فكن عبدالله لاعبد العلل وكما كان الله لك ربا ولاعلة فكن عبدا له ولا علة لتكون له كما كان لك اه . وقال سيدى أبوالعباس المرسى رضى الله عنه عبد هو فى الحال بالحال وعبد هو فى الحال بالمحول فالذى هو فى الحال بالحال عبدالحال والذى هو فى الحال بالمحول عبدالمحول وأمارة من هو فى الحال بالحال أن يأسى عليها إذافقدها و يفرح بها إذاوجدها والذى هو فى الحال بالمحول لايفرح بها إذا وجدت ولا يحزن عليها إذافقدت وفى الاشارات عن الله سبحانه لاتركنن إلى شئ دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك فان ركنت إلى العلم تتبعناه عليك و إن أويت إلى العمل رددناه عليك وان وثقت بالحال وقفناك معه و إن أنست بالوجد استدرجناك فيه و إن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم وان اغتررت بالمعرفة نكرناها عليك فأىّ حيلة لك وأىّ قوّة معك فارضنا لك رباحتى نرضاك لنا عبدا (تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ماسواه دليل على عدم وصلتك به) وجدان العبد لربه ووصوله إليه هو غاية مطالبه ومنتهى آماله ومآربه وبه يفوز بالنعيم ويحظى بالملك العظيم وعند ذلك ينسى كل محبوب و يلهى عن كلّ مفروح به ومرغوب وهذه هى صفة أهل التفريد الذين استتروا فى ذكرالله المجيد كما روى عن أبى عبدالله البسرى رضى الله عنه قال سألت

(النعيم) أى نعيم الدنيا والآخرة أى التنعم والتلذذ بما فيهما من الملابس والمطاعم والحور والولدان والقصور (و إن تنوّعت مظاهره) أى مواضع ظهوره وهى الأمور المذكورة التى يتنعم بها ظاهرا (فإنما هو) أى النعيم بمعنى التنعم والتلذذ (بشهوده تعالى (واقترابه) أى إنما (٤٤) يكون نعيما حقيقيا إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء مشاهدا له وحاضرا معه فان لم تكن بتلك الحالة فليس ذلك بنعيم حقيقة بل هو عذاب (والعذاب) أى التألم (وإن تنوّعت مظاهره) من الضرب والجحيم والسلاسل وغيرها (إنما هو) أى العذاب بمعنى التألم (بوجود حجابه) تعالى أى إنما يكون تألما حقيقة إذا كنت حال ملابستك لتلك الأشياء محجوبا عنه وكان غائبا عنك فان كنت مشاهدا له فليس ما أنت فيه عذابا حقيقة بل هو نعيم (فسبب العذاب) أى التألم (وجود الحجاب و إتمام النعيم) أى النعيم التام أى التلذذ والتنعم (بالنظر إلى وجهه الكريم) أى مشاهدته بعين البصيرة فى الدنيا و بالبصر فى الآخرة. وحاصله أن النعيم محصور فى شهود الرب والتألم فى الحجاب عنه وأما مايتنعم به ظاهرا أو يعذب به ظاهرا فليس بنعيم ولاعذاب بالنظر إلى ذاته (ماتجده القلوب من الهموم والأحزان) الدنيوية

الدنيوية (فلأجل مامنعت من وجود العيان) أى معاينة الرب ومشاهدته بعين البصيرة و إلا لم يحصل عندها هم ولاحزن على فوات شئ من الدنيا فوجدانهما من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها فلوغاب الشخص عن رؤية نفسه بمعاينة سيده لكان دائم الفرح والسرور كما قال تعالى ـ لاتحزن إن الله معنا ـ فمن استنار قلبه بنور المعرفة لا يكون عنده غمّ أبدا لكن فى

رجلا بالكلام ماالذى أجلسك فى هذا الموضع فقال لى وما سؤالك عن شئ إن طلبته لم تدركه و إن لحقته لم تقع عليه قلت تخبرنى ماهو قال علمى بأن مجالسة الله تستغرق نعيم الجنان ثم قال أوّاه قدكنت أظن أن نفسى ظفرت ومن الخلق هربت فاذا أنا كذاب فى مقالتى لو كنت محبا لله صادقا مااطلع علىّ أحد فقلت أما علمت أن المحبين خلفاء الله فى أرضه مستأنسين بخلقه يبعثونهم على طاعته فصاح صيحة وقال لى يامخدوع لو شممت رائحة الحب وعاين قلبك ماوراء ذلك من القرب ما احتجت أن ترى فوق مارأيت ثم قال ياسماء و يا أرض اشهدا أنى ماخطر على قلبى ذكر الجنة والنار قط إن كنت صادقا فأمتنى فوالله ماسمعت له كلاما بعدها وخفت أن يسيء إلىّ الظن من الناس من قتله فتركته ومضيت فبينما أنا على ذلك و إذا أنا بجماعة فقالوا مافعل الفتى فكنيت عن ذلك فقالوا ارجع فان الله قد قبضه فصليت معهم عليه فقلت لهم من هذا الرجل ومن أنتم قالوا ويحك هذا رجل به كان قد يمطر المطر قلبه على قلب إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أما رأيته يخبر عن نفسه أن ذكر الجنة والنار ماخطر على قلبه فهل كان أحد كذا إلا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقلت من أنتم قالوا نحن السبعة المخصوصون من الأبدال قلت علمونى شيئا قالوا لاتحب أن تعرف ولا تحب أن يعرف أنك ممن يحب أن لايعرف وفى مثل هذا الحال أنشدوا :

كانت لقلبى أهواء مفرّقة ... فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذصرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد سئل أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه عن أقرب مايتقرب به العبد إلى الله تبارك وتعالى فقال أقرب مايتقرب به إليه أن يطلع الله على قلبه وهو لايريد من الدنيا والآخرة غيره فهذه هى العلامة الصادقة والدلالة القاطعة على التحقق بهذا المقام العظيم فان كان له شعور بشئ من الأغيار المحبوبة فتطلع إلى بقائها أو استوحش لفقدانها فذلك دليل على عدم تحققه بذلك فليعرف منزلته وحده وليعمل فى تصحيح هذا المقام جهده . وقال رضى الله عنه (النعيم و إن تنوّعت مظاهره إنما هو لشهوده واقترابه والعذاب و إن تنوّعت مظاهره إنما هو لوجود حجابه فسبب العذاب وجود الحجاب و إتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم) مظاهر النعيم المتنوّعة هى ماورد من أنواع الثواب فى الدار الآخرة من الحور والقصور والولدان والغلمان والمآكل والمشارب والملابس إلى غير ذلك من أنواع المسرات واللذات ومظاهر العذاب المتنوّعة هى ماورد من أنواع العقاب فيها من الجحيم والحميم والزقوم والحيات والعقارب والسلاسل والأغلال والأنكال وغير ذلك من أنواع الآلام والعقوبات وليس وجود النعيم والعذاب بسبب وجود هذه الأشياء ومباشرتها للمنعم والمعذب و إنما ذلك لما تضمنته وظهر فيها من وجود قرب الله تعالى وشهوده للمنعم أو وجود حجابه و إعراضه عن المعذب فهذان الأمران بهما يقع النعيم والعذاب على التحقيق (ما تجده القلوب من الهموم والأحزان فلأجل ما منعت من وجود العيان) .وجود الهموم والأحزان

الدنيوية والأخروية من نتائج رؤية النفس واعتبارها وبقاء حظها وهوالذى منع العبد من وجود العيان فلو قد فنى عن رؤية نفسه وذهب عن مراعاة حظه لظفر بوجود العيان ولم يكن له همّ ولا حزن ألبتة بل يكون متصل الحبور دائم الفرح والسرور كما قال تعالى ـ لا تحزن إن الله معنا ـ فالمعية المذكورة لا يجتمع معها حزن وهمّ وهى ماقلناه من وجود العيان والعيان والله أعلم درجة فوق درجة اليقين كما قال الشاعر :

كبر العيان علىّ حتى إنه صار اليقين من العيان توهما

قال الشبلى رضى الله عنه من عرف الله لا يكون له غم أبدا وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ياداود إن محبتى فى خلق أن يكونوا روحانيين وللروحانيين علم هو أن لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم ياداود لا يعزج الهم قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين وسيأتى فى كلام المؤلف رحمه الله أوحى الله إلى داود عليه السلام بى فافرح و بذكرى فتنعم فباستنارة القلب بنور المعرفة واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج معه الهم و يحل محله الروحانية على أن فى وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام إذا لم يقدر على دفعها عن نفسه فوائد جزيلة لا ينبغى أن تستحقر من قبل إنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر والفرح بالدنيا ثم هى كفارات إن كانت فى الأمور الدنيوية ودرجات إن كانت فى الأمور الأخروية والهم متعلق بما يكون فى المستقبل والحزن متعلق بما يكون فى الماضى (من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك و يمنعك مايطغيك) وجدان الكفاية من الرزق وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد لما له فى ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية أما مصالح الدين فى عدم الزيادة على الكفاية فظاهر إذ لو وجدها ربما أوجب له ذلك طغيانا كما قال الله تعالى ـ كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى ـ فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية وهو سبب الطغيان والطغيان أصل كل معصية لله عزّ وجلّ . وقصة ثعلبة ابن حاطب حين طلب الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم : أن يرزقه الله مالا وما آل إليه أمره أمر مشهور . وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى» وفى حديث أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «ماطلعت شمس ولا غربت إلا بجنبها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الثقلين : ياأيها الناس هلموا إلى ربكم فان ماقل وكفى خير مما كثر وألهى» أو كما قال صلى الله عليه وسلم . وأما مصالح الدنيا فى ذلك فسيأتى التنبيه عليها فى قول المؤلف رحمه الله تعالى ليقل ماتفرح به يقل ماتحزن عليه وأما مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها فمن أجل توصله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد قال الله تعالى ـ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ـ أى لا تنس نصيبك فى الآخرة أن تتوصل إليه بما آتاك الله من الدنيا وأما مصالح الدنيا فى ذلك فظاهر لا يحتاج إلى التنبيه عليه إذ بذلك يحصل له طيب العيش وراحة القلب والبدن وصيانة الوجه عن ذل المسئلة عند وجود الحاجة والفاقة فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة و يقنع بما أباح له من هذه المنة الجسيمة فيستعمل بذلك راحة نفسه والاستغناء عن بنى جنسه و يحصل له بذلك حلاوة الزهد فى الأمور العاجلة وتجافى القلب عن زهراتها فان طلب الزيادة من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف عليه من اقتحام المهالك إذ يجره الحرص والطمع إلى ذلك . قال بعض العارفين كل من لا يعرف قدر مازوى عنه من الدنيا ابتلى بأحد وجهين إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات أو رغبة فى غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليس الغنى عن

وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام إذا لم يقدر على دفعها عنه فوائد جليلة لأنها توجب خمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر والفرح بالدنيا والهم مايتعلق بما يكون فى المستقبل والحزن مايتعلق بما يكون فى الماضى و يصح أن يكون هذا شاملا للأمور الأخروية أيضا فأهل النار لا يحصل للواحد منهم همّ ولا حزن إلا إذا لم يشاهد مولاه فان شاهده لم يحصل عنده ذلك بل يكون العذاب فى حقه عذوبة (من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك) من غير زيادة ولا نقصان (و يمنعك مايطغيك) أى يوقعك فى الطغيان وهو كثرة المال قال تعالى ـ كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى ـ وفى الحديث «ماقل وكفى خير مما كثر وألهى» أما مانقص عن الكفاية فقد يكون معه اشتغال عن طاعة الرب فليس ذلك من تمام النعمة ولما كان ذلك هو المناسب لحال المريد الصادق لم يقل و يمنعك مايطغيك أو يقلل رزقك عن كفايتك

كثرة العرض و إنما الغنى غنى النفس» وغنى النفس عن الدنيا شرف الأولياء المختارين وعز أهل التقوى من المؤمنين المحسنين ولقد صدق الشاعر فى قوله :

غنى النفس ما يكفيك من سدّ خلة ... فان زدت شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

يحكى عن بنان الحمال رضى الله عنه أنه قال كنت مطروحا طاويا على باب بنى شيبة سبعة أيام لم أذق شيئا فنوديت فى سرى إنّ من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عينى قلبه وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه ذكر لى أن فى خراب أيلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خربة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهى محلوقة الرأس فلما نظرت إلىّ قالت لى من غير أن أكلمها مرحبا بك ياعبد الواحد قال فقلت لها رحب الله بك وعجبت من معرفتها لى ولم ترنى قبل ذلك فقالت ماالذى جاء بك ههنا قلت جئت لتعظينى قالت واعجبا لواعظ يوعظ ثم قالت ياعبدالواحد اعلم أنّ العبد إذا كان فى كفاية ثم مال إلى الدنيا سلبه الله سبحانه وتعالى حلاوة الزهد فيظل حيران والها فان كان له عند الله نصيب عاتبه وحيا فى سره فقال عبدى أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى وأجعلك دليلا لأوليائى وأهل طاعتى فى أرضى فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع إلى ما كنت عليه أرجع عليك ما كنت تعرفه من نفسك قال ثم تركتنى وولت عنى فانصرفت و بقلبى حسرة منها . وفى بعض الكتب إنّ أهون ما أصنع بالعالم إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتى . وذكر أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم التجيبى القرطبى المالكى رحمه الله فى كتاب النصائح له عن أبى عبد ربه الشامى ثم الدمشقى إنه كان من أكثر أهل دمشق مالا فخرج مسافرا فأمسى إلى جانب نهر ومرعى فنزل به قال فسمعت صوتا يكثر حمد الله تعالى فى ناحية المرج فاتبعته فوافيت رجلا ملفوفا فى حصير فسلمت عليه فقلت من أنت ياعبد الله فقال رجل من المسلمين فقلت فماحالك هذه قال حال نعمة يجب علىّ حمد الله عليها قال فقلت وكيف و إنما أنت فى حصير قال ومالى لا أحمد الله تعالى وقد خلقنى فأحسن خلقى وجعل منشئى ومولدى فى الاسلام وألبسنى العافية فى أركانى وستر علىّ ما أكره ذكره ونشره فمن أعظم نعمة ممن أمسى فى مثل ما أنافيه فقلت له إن رأيت رحمك الله أن تقوم معى إلى المنزل فانا نزول على النهر هناك قال ولم؟ قلت لتصيب من الطعام ونعطيك مايغنيك عن لبس الحصير قال مالى فيه من حاجة فراودته على أن يتبعنى فأبى فانصرفت وقد تقاصرت فى نفسى ومقتها إذ لم أخلف بدمشق رجلا يكاثرنى فى غنى وأنا ألتمس الزيادة فقلت اللهم إنى أتوب إليك من سوء ما أنا فيه فبتّ لا يعلم إخوانى ما أجمعت عليه فلما كان من السحر رحلوا كنحو رحلتهم فيما مضى وقدموا لى دابتى فصرفتها إلى دمشق فقلت ما أنا بصادق فى التوبة إن مضيت إلى متجرى فسألنى القوم فأخبرتهم وعاتبونى على المضى فأبيت فلما قدم دمشق وضع يده يتصدّق بماله فمازال يفرقه فى سبيل الخيرات حتى احتضر فما وجدوا عنده إلا قدر ثمن الكفن زاد غير أبى إبراهيم وكان يقول يعنى أباعبدربه المذكور والله لوأن نهركم يعنى نهر دمشق سال ذهبا ماخرجت إليه ولا أخذت شيئامنه ولوقيل لى من مسّ هذا العمود مات لقمت إليه وعانقته شوقا إلى الله ورسوله (ليقلّ ماتفرح به يقل ماتحزن عليه) درء المفاسد عند العقلاء أهمّ من جلب المصالح فمن زوى الله تعالى عنه فضول الدنيا فرضى بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه لأنه دفع عن نفسه مفسدة وجود الحزن بتركه لما يفيده حصول مصلحة الفرح الذى يزول عن قرب واعتاض من ذلك الرائحة الدائمة كما قيل :

ومن سره أن لا يرى مايسوؤه ... فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

(ليقل ماتفرح به) من المال وغيره (يقل ماتحزن عليه) فمن زوى الله عنه فضول الدنيا فرضى بذلك وقنع منها باليسير ولم يتطلع إلى زيادة من مال أو جاه فهو كامل العقل حسن النظر لنفسه لأنه دفع عنها مفسدة وجود الحزن بتركه ولم ينظر إلى حصول مصلحة الفرح بوجود الذى يزول عن قريب ودرء المفاسد مقدّم عند العقلاء على جلب المصالح فالمفروح به هو المحزون عليه إن قليلا فقليل وإن كثيرا فكثير

فانّ صلاح المرء يرجع كله فسادا إذا الانسان جاز به الحدا

وقيل لبعضهم لم لاتغتم فقال لأنى لاأقتنى مايغمنى فقده فالمفروح به هوالمحزون عليه إن قليلا فقليل و إن كثيرا فكثير كما قيل :

على قدر ما أولعت بالشئ حزنه ويصعب نزع السهم مهما تمكنا

يحكى أن رجلا حمل إلى بعض الملوك قدحا من فيروزج مرصعا بالجواهر لم يرله نظير ففرح الملك به فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة وفقرا قال وكيف ذلك قال إنّ انكسر كانت مصيبة لاجبرلها و إن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر فاتفق أنه انكسر القدح يوما فعظمت مصيبة الملك فيه وقال صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا وأمثال هذه المصيبة وأعظم منها نازلة له بكل من له علاقة بشئ من أسباب الدنيا فانها إن لم تؤخذ منه بغصب أوسرقة أوجائحة نازلة فلابد أن يؤخذ هوعنها بالموت الهازم للذات المنغص للشهوات فان كان له ألف محبوب مثلا نزل به عند الموت ألف مصيبة فى وقت واحد لأنه كان يحبها كلها وقد سلبت منه فى كرة واحدة ولذلك كان الزهد فى الدنيا من قضايا العقل . قال سهل ابن عبدالله رضى الله عنه للعقل ألف اسم ولكل اسم منها ألف اسم وأوّل كل اسم منها ترك الدنيا . قال الحسن رضى الله عنه كيف يسمى عاقلا وهو يمسى و يصبح فى الدنيا ومباهاة أهلها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أولئك هم الخاسرون وأولئك هم الغافلون وأولئك هم الجاهلون وأنشدوا :

أيها المرء إن دنياك بحـــر طافح موجـــه فلا تأمنها

وســبيل النجاة فيها بين وهو أخذ الكفاف والقوت منها

وقال أبو علىّ الثقفى رضى الله عنه أفّ من أشغال الدنيا إذا أقبلت وأف من حسراتها إذا أدبرت والعاقل من لايركن إلى شئ إذا أقبل كان شغلا و إذا أدبر كان حسرة وقد قيل فى معناه :

ومن يحمد الدنيا لشئ يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة و إن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقيل لأبى القاسم الجنيد رضى الله عنه متى يكون الرجل موصوفا بالعقل فقال إذا كان للأمور مميزا ولها متصفحا وعما يوجبه عليه العقل باحثا يلتمس بذلك طلب الذى هو أولى ليعمل به و يؤثره على ماسواه فاذا كان كذلك فمن صفته ركوب الفضل فى كلّ أحواله بعد إحكام العمل بما فرض الله عليه ليس من صفة العقلاء إغفال النظر لما هو أحقّ وأولى ولامن صفتهم الرضا بالنقص والتقصير فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله وترك التشاغل بما يزول وترك العمل بما يفنى و ينقضى وذلك صفة لكلّ ما احتوت عليه الدنيا كذلك لايرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل و يسير حائل يصدّه التشاغل به والعمل له عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها ونفعها و يتأبد سرورها و يتصل بقاؤها وذلك أن الدين يدوم نفعه و يبقى على العامل له حظه وما سوى ذلك زائل متروك ومفارق موروث يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه ومحاسبة الله عليه كذلك صفة العاقل لتصفحه الأمور بعقله والأخذ منها بأوفرها . قال الله تعالى ــ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ــ بذلك وصفهم الله تعالى وذوو الألباب هم ذوو العقول و إنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعا فى العاجل والآجل و إلى ذلك ندب الله عزّ وجلّ من عقل فى كتابه اهـ كلام الجنيد رضى الله عنه وهو فى غاية الحسن

(إن أردت أن لاتعزل فلا تتول ولاية لاتدوم لك) هـذه من أفراد ماقبلها لأن الولاية مآلها إلى الحزن بسبب وقوع العزل عنها بموت أوغيره ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا تقع فى العزل عنها فيحصل عندك غاية الهم والحزن (إن رغبتك) فى الولاية (البدايات) (٤٨) أى بداياتها من كونها رائقة الحسن مليحة الظاهر وأن كل من تلبس بها حسن حاله ومنظره بين الناس وتيسر معاشه (زهدتك) فيها (النهايات) فان نهايتها مفارقتها بعزل أوموت فيحصل لك مزيد الضرر دنيا وأخرى لأن الولايات قل من يسلم فيها بدينه وذلك مما يحمل العاقل على الزهد فيها والهرب منها (إن دعاك إليها ظاهر) أى ظاهر حالها من تيسر اللابس والمآل كل عند التلبس بها (نهاك عنها باطن) أى باطن حالها من كونها شاغلة عن الله ومن حصول الضرر لكل من تلبس بها وهذا فى المعنى يرجع لما قبله فالظاهر يرجع للبدايات والباطن للنهايات (إنما جعلها) أى الدنيا (محلا للأغيار) كالأمراض والمحن والبلايا وقوله (ومعدنا للأكدار) بمعنى ماقبله (ليزهدك فيها) لأن الموجب لرغبتك فيها إنما هو ما تتوهم من حصول أغراضك ومطلوباتك فيها من غير تكدير ولا تنغيص وهو لا يكون أبدا حتى لوفرض ذلك لكان اللائق بك الزهد فيها والرغبة عنها لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال ولشغلها إياك غالبا عن الله تعالى . لايقال الزهد فيها يحصل بتصحيح الواعظ وتذكيره . لأنا نقول

ونهاية التحقيق وفيه مناسبة لما كنا بصدده من التنبيه على كلام المؤلف رحمه الله تعالى فرأيت ذكره ههنا لائقا والله تعالى الموفق للعمل بمنه وكرمه (إن أردت أن لاتعزل فلا تتول ولاية لاتدوم لك) هذه من أمثلة ماتقدم لأن الولاية مآلها إلى الحزن بسبب وقوع العزل عنها ومقتضى نظر العقل ترك الولاية المفروح بها لئلا يقع فى العزل المحزون به (إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات ان دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن) بدايات الأمور وظواهرها ترغب الجاهل فيها وتدعوه إليها لأنها رائقة الحسن مليحة الظاهر فيغتر الجاهل بذلك فتقوده إلى مافيه ضرره وهلاكه ونهايات الأمور وبواطنها تزهد العاقل وتنهاه عنها لما أشهدته من سماجتها وقبح باطنها فيعتبر العاقل بذلك فيهرب منها ويسلم من شرها وقد تقدم هـذا المعنى عند قوله الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة قال وهب بن منبه رضى الله عنه صحب رجل بعض الرهاب سبعة أيام ليستفيد منه شيئا فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لايفتر ثم التفت فى اليوم السابع فقال ياهذا قد علمت ماتريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد فيها رأس كل خير والتوفيق نجاح كل بر فاحذر رأس كل خطيئة وارغب فى رأس كل خير وتضرع إلى ربك أن يهب لك نجاح كل بر قال وكيف أعرف ذلك قال كان جدى رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء شبهها بالماء المالح يغر ولا يروى ويضر ولا ينفع وبظل الغمام يغر ويخذل وبالبرق الخلب يضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يضر ولاينفع وبزهر الربيع يغر بنضرته ثم يصفر فتراه هشيما وبأحلام النائم يرى السرور فى منامه فاذا استيقظ لم يجد فى يده شيئا إلا الحسرة وبالعسل المشوب بالسم الزعاف يغر ويقتل فدبرت هذه الأحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت فيها حرفا واحدا فشبهتها بالغول التى تهلك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدى فى المنام فقال لى يابنى أنت منى وأنا منك قال فبأى شىء يكون الزهد فى الدنيا قال باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعبر والعبر بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذها ولا أراك خلقى إلا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به . وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه لم تزل الدنيا مذمومة فى الأمم السالفة عند العقلاء منهم وطالبوها مهانين عند الحكماء الماضين وماقام داع فى أمة إلا وقد حذر من متابعة الدنيا وجمعها والحب لها ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال ـ اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ـ وقال ـ إنما هذه الحياة الدنيا متاع ـ أى لن تصل إلى سبيل الرشاد وفى قلبك محبة الدنيا وطلب لها والحكايات والآثار فى أحوال الدنيا وغرورها وشرورها أكثر من أن تحصى ولاشىء أبين فى ذلك من قول الله تعالى فى صفتها ـ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلامتاع الغرور ـ (إنما جعلها محلا للأغيار ومعدنا للأكدار تزهيدا لك فيها) ورود الأغيار والأكدار الدنيوية على العبد نعم من الله تعالى عليه لأن ذلك لامحالة يدعوه إلى الزهادة فى الدنيا والتجافى عنها ويصرف عنه وجود الغباوة والجهالة لأجل تمسكه بالخيال ومايستضر به فى الحال والمآل لأن الموجب لرغبته فيها وحرصه على نيلها إنما هو مايتوهمه فيها من الحصول على منيته وبغيته وقضاء غرضه من شهوته ، ونهمته

ونهمته من غير مكدر ولامنغص ولو تصور له حصوله على هذه الأشياء على حسب مايحبه ويهواه كان ينبغى له أن يرغب عنها عوضا عن الرغبة فيها إن كان عاقلا لأن مآل أمرها إلى الفناء والزوال والافتقار والانقضاء والارتحال وقد قالوا : شر لايدوم خير من خير لايدوم وقال الشاعر :

أشد الغمّ عندى فى سرور ... تيقن عنه صاحبه ارتحالا

أرى الدنيا على من كان فيها ... تدور فلا تديم عليه حالا

ثم هى مانعة له من سعادة الآخرة والقرب من الله عزوجل الذى هو غاية طلب الطالبين ونهاية رغبة الراغبين فكيف وهو معرّض فيها لأنواع المصائب والفجائع ووقوع الأغيار والأكدار فما من أحد فيها إلا وهو فى كل حال ووقت غرض لأسهم ثلاثة سهم بلية وسهم رزية وسهم منية فاذا نزل به ذلك عادت النقمة نعمة وانقلبت الحبرة عبرة وصارت الفرحة ترحة وهكذا شأن الدنيا أبدا فلا يفى مرجوها بمخوفها ولا يقوم خيرها بشرها ولقد صدق الشاعر فى قوله :

إن الليالى لم تحسن إلى أحد ... إلا أساءت إليه بعد إحسان

وصدق أيضا من قال

ماقام خيرك يازمان بشدة ... أولى بنا ماقلّ منك وماكفى

زمن إذا أعطى استردّ عطاءه ... وإذا استقام بدا له متحرفا

وقد كتب على بن أبى طالب إلى سلمان رضى الله عنهما : إنما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة مايصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن أسرّ ماتكون فيها أحذر ماتكون فيها فان صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه . وقال بعض البلغاء دار الدنيا كأحلام المنام وسرورها كظلّ الغمام وأحداثها كصوائب السهام وشهواتها كمشئوم السمام وفتنتها كالأمواج الطوام وقال أبو العتاهية :

هى الدار دار الأذى والقذى ... ودار الفناء ودار الغير

ولو نلتها بحذافيرها ... لمت ولم تقض منها الوطر

أيامن يؤمل طول البقاء ... وطول الخلود عليه ضرر

إذا ما كبرت وفات الشباب ... فلاخير فى العيش بعد الكبر

وأنشد أبومنصور الثعالبى رحمه الله فى ذمّ الدنيا :

تنحّ عن الدنيا فلا تخطبنها ... ولا تخطبن قتالة من تناكح

فليس يفى مرجوّها بمخوفها ... ومكروهها إن تأملت راجح

لقد قال فيها الواصفون فأكثروا ... وعندى لها وصف لعمرى صالح

سلاف قصارها زعاف ومركب ... شهى إذا استلذذته فهو جامح

وشخص جميل يؤنس الناس حسنه ... ولكن له أسرار سوء قبائح

فاذا علم العبد هذا كله علم اليقين وتمكن من قلبه غاية التمكين لم يتصور منه مع ذلك وجود رغبة ألبتة لأنه إذ ذاك يجمع بين خيبتين وخسارتين ويأتيه الموت وهو صفر اليدين من منافع الدارين وذلك هو الخسران المبين. قال أبوهاشم الزاهد رضى الله عنه إن الله وسم الدنيا بالوحشية ليكون أنس المريدين به دونها وليقبل المطيعون إليه بالاعراض عنها وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة مشتاقون وقيل أوحى الله تعالى إلى الدنيا تضيقى وتشددى على أوليائى وترفهى وتوسعى على أعدائى تضيقى على أوليائى حتى لايتعرفوا بك عنى وتوسعى على أعدائى حتى يشتغلوا بك عنى

(علم) الله (أنك لاتقبل النصح المجرد) عن الأمراض والبلايا والمحن لأن النصح المجرد لايقبله إلا من لم يستحكم فيه حب العاجلة والأنس بلذاتها الفانية أما من كان كذلك فلابد فى قصد هدايته من زيادة على النصح والوعظ (فذوقك من ذواقها) أى مما شأنه أن يذاق فيها وهو تلك الأمراض والبلايا والمحن (مايسهل عليك فراقها) فان العبد إذا نزل به شئ من ذلك يتمنى الموت ومفارقته الدنيا فهو نعمة من الله عليه و إن لم يعرف ذلك لغلبة طبعه عليه وقد تقدم مثل هذا عند قوله من لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان (العلم النافع) وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم (الذى ينبسط فى الصدر شعاعه) فيتسع وينشرح للاسلام (وينكشف به عن القلب قناعه) أى غطاؤه وغشاوته فتزول عنه الشكوك والأوهام . قال مالك ابن أنس رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذفه الله تعالى فى القلوب و إنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه و يبعده عن رؤيه نفسه وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه و إرادته. وقال المهدوى قدس سره العلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد فى الدنيا ومايقرب إلى الجنة و يبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان والمعقول والمنقول اه وجمع ذلك الجنيد قدس سره فى قوله العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك أى هو معرفة الله وحسن الأدب بين يديه . ثم ذكر المصنف عبارة أخرى فى بيان العلم النافع وتعريفه بلازمه فقال (خير العلم ما كانت الخشية معه) والخشية الخوف مع الاجلال وقيل هى الاجلال مع التعظيم وقيل الخوف مع العمل أى خير العلوم ماتلازمه خشية الله تعالى وتصاحبه وهو العلم المتقدم لأن الله تعالى أثنى على العلماء بذلك فقال تعالى - إنما يخشى الله

فلا يتفرغوا لذكرى (علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوّقك من ذواقها مايسهل عليك وجود فراقها) النصح المجرد لايقبله إلا من لم يستحكم فيه حب العاجلة والأنس بلذاتها الفانية وكان كريم الطبع سهل القياد وأما من رسخت فيه تلك الخبائث وتمكنت من باطنه وكان لئيم السجية صعب القادة فلا بد فى قصد هدايته و إرشاده من زيادة على النصح والوعظ وهو وجود مايقهره و يجبره وليس ذلك إلا ماذكرناه فاعرف قدر النعمة عليك بذلك واعمل بمقتضاها وسلم لربك فى حكمته وقدرته وحسن ظنك به وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من لم يقبل على الله بملاطفة الاحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان (العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه وينكشف به عن القلب قناعه) العلم النافع هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتأدب بين يديه فهذا هو العلم الذى يبسط فى الصدر شعاعه فيتسع و ينشرح للاسلام و يكشف عن القلب قناعه فتزول عنه الشكوك والأوهام وفى حكمة داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت . وقال محمد بن على الترمذى رضى الله عنه العلم النافع هو الذى قد تمكن فى الصدور وتصور وذلك أن النور إذا أشرق فى الصدور تصوّرت الأمور حسنها وسيئها ووقع بذلك ظل فى الصدور فهو صورة الأمور فيأتى حسنها و يجتنب سيئها فذلك العلم النافع من نور القلب خرجت تلك العلائم إلى الصدور وهى علامات الهدى والعلم الذى قد تعلمه فذلك علم اللسان إنما هو شئ قد استودع الحفظ والشهوة غالبة عليه قد أحاطت به وأذهبت بظلمتها ضوءه وقال أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه والعلم النافع هو علم الوقت وصفاء القلب والزهد فى الدنيا وما يقرب من الجنة وما يبعد عن النار والخوف من الله والرجاء فيه وآفات النفوس وطهارتها وهو النور المشار إليه أنه نور يقذفه الله فى قلب من يشاء دون علم اللسان المنقول والمعقول. وقال مالك بن أنس رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية و إنما هو نور يقذفه الله تعالى فى القلوب اه و إنما منفعة العلم أن يقرب العبد من ربه و يبعده عن رؤية نفسه وذلك غاية سعادته ومنتهى طلبه و إرادته قال الجنيد رضى الله عنه العلم أن تعرف ربك ولا تعدو قدرك وهذه عبارة مختصرة وجيزة جمع فيها رحمه الله مقصود علم الصوفية وهى معرفة الله تعالى وحسن الأدب بين يديه وهذه هى العلوم التى ينبغى للانسان أن يستغرق فيها عمره الطويل ولا يقنع منها بكثير ولا قليل وقد قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه من لم يتغلغل فى هذه العلوم يعنى علوم الصوفية مات مصرا على الكبائر وهو لايعلم وماسوى هذه العلوم قد لايحتاج إليها وربما أضر بصاحبها مداومته عليها وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخبر المشهور عنه من علم لاينفع ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى عبارة أخرى فى بيان العلم النافع وتعريفه بلازمه فقال (خير العلم ما كانت الخشية معه) خير العلوم ما يلزم وجود الخشية لله تعالى لأن الله تعالى

أثنى على العلماء بذلك فقال عز من قائل ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ فكل علم لاخشية معه فلاخير فيه بل لايسمى صاحبه عالما على الحقيقة قال الربيع بن أنس رحمه الله فى قوله تعالى ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ من لم يخش الله فليس بعالم ألا ترى أن داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة الايمان بك فما علم من لم يخشك وما حكمة من لم يؤمن بك . قال فى لطائف المنن فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية لله تعالى وشاهد الخشية موافقة الأمر أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكبار وطول الأمل ونسيان الآخرة فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء مثل الشمعة تضيء على غيرها وهى تحرق نفسها جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه وسببا فى تكثير العقوبة لديه اه وكان سهل بن عبد الله رضى الله عنه يقول لاتقطعوا أمرا من أمور الدنيا والدين إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله تعالى قيل يا أبا محمد من العلماء قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا و يؤثرون الله تعالى على نفوسهم وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته وشاور فى أمرك الذين يخشون الله تعالى وقال الواسطى رضى الله عنه أرحم الناس العلماء لخشيتهم من الله تعالى و إشفاقهم بما علمهم الله عز وجل وقال فى التنوير فى قوله صلى الله عليه وسلم «طالب العلم تكفل الله له برزقه» اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب العزيز أو فى السنة إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية وتكتنفه المخافة قال الله سبحانه ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ فبين أن الخشية تلازم العلم وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية وكذلك قوله تعالى ـ وقال الذين أوتوا العلم ـ والراسخون فى العلم . وقل رب زدنى علما ـ وقوله صلى الله عليه وسلم «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» وقوله: العلماء ورثة الأنبياء . وقوله هنا: طالب العلم تكفل الله برزقه إنما المراد بالعلم فى هذه المواطن العلم النافع القاهر للهوى القامع للنفس وذلك يتعين بالضرورة لأن كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أجل من أن يحمل على غير هذا وقد بينا ذلك فى غير هذا الكتاب والعلم النافع هو الذى يستعان به على طاعة الله تعالى و يلزمك المخافة من الله تعالى والوقوف على حدود الله وهو علم المعرفة بالله و يشمل العلم النافع العلم بالله والعلم بما أمر الله به إذا كان تعلمه لله تعالى اه وقد تقدم المعيار الصادق على صحة دعوى التعلم والتعليم لله عند قوله إذا التبس عليك أمران وقال الشيخ أبوعبد الرحمن السلمى رضى الله عنه كل علم لايورث صاحبه الخشية والتواضع والنصيحة للخلق والشفقة عليهم ولا يحمله على حسن معاملة الله تعالى ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانة ومخالفة النفس ومباينة الشهوات فذلك العلم الذى لاينفع وهو الذى استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أعوذ بك من علم لاينفع » ووصف الله تعالى العلماء بالخشية فقال ـ إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ وقال رجل للشعبى أيها العالم فقال اسكت العالم من يخشى الله تعالى وقال بعض السلف من ازداد علما فليزدد خشوعا وقال رجل للجنيد أى العلم أنفع قال مادلك على الله تعالى وأبعدك عن نفسك قال والعلم النافع مايدل صاحبه على التواضع ودوام المجاهدة ورعاية السر ومراقبة الظاهر والخوف من الله والاعراض عن الدنيا وعن طالبيها والتقلل منها ومجانبة أبواب أربابها وترك مافيها على من فيها من أهلها والنصيحة للخلق . وحسن الخلق معهم ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى والاقبال على مايعنيه فان العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة

من عباده العلماء فكل علم لاخشية معه لاخير فيه ولا يسمى صاحبه عالما على الحقيقة ويلزم من مصاحبة الخشية له الوقوف على حدود الله وملازمة طاعته والوثوق به والاعراض عن الدنيا وعن طالبيها والتقليل منها ومجانبة أبواب أربابها والنصيحة للخلق وحسن الخلق معهم والتواضع ومجالسة الفقراء وتعظيم أولياء الله تعالى بخلاف العلم الذى لاتصاحبه الخشية فانه يكون معه الرغبة فى الدنيا والتملق لأربابها وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والمباهاة والاستكبار وطول الأمل ونسيان الآخرة فان العالم إذا أحب الدنيا وأهلها وجمع منها فوق الكفاية يغفل عن الآخرة وعن طاعة الله بقدر ذلك . ثم ذكر عبارة أخرى من معنى ماتقدم فقال

وعن طاعة الله تعالى بقدر ذلك وقال الله عز وجل ـ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ـ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أحب دنياه أضرّ بآخرته ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه ألا فآثروا مايبقى على مايفنى » وقال فضيل بن عياض العالم طبيب الدين ودواء الدنيا داء الدين فاذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرئ غيره فاذا وفق الله العالم من العلماء للاقبال على الله وعلى أوامره والاعراض عن الدنيا ومافيها ومن فيها فأوّل مايلزمه أن يعرف نعم الله عليه فى ذلك و يقوم بواجب الشكر و يزيد تواضعا واجتهادا و يعلم أنه محمول على ذلك وأنّ ذلك بتوفيق من الله تعالى لابمجاهدة منه فان مجاهدته أيضا ومعرفته لنعم الله عليه بزيادة توفيق الله فاذا كان العالم بهذا المحل من الدين كان إماما يقتدى به فى أحكام الظاهر وأحوال الباطن يهتدى بنوره كل من صحبه و يستضيء بعلمه كل من اتبعه و يكون حجة لله على عباده و بركة فى بلاده ومن قاده علمه إلى طلب الدنيا وطلب العلوّ فيها وطلب اتباع الرياسة واستتباع الخلق فهو العلم الذى هو غير نافع وهو العلم المغترّ به ولاحسرة أعظم من أن يهلك العالم بما يرجو به نجاته ونحن نعوذ بالله من الخذلان اهـ . ثم عبر المؤلف رحمه الله تعالى بعبارة أخرى من معنى ماتقدّم فقال (العلم إن قارنته الخشية فلك و إلا فعليك) العلم الذى تلازمه الخشية لك لأنك تنتفع به فى دنياك وآخرتك وليس ذلك إلا ما ذكرناه والعلم الذى لاخشية فيه عليك لأنك تستضرّ به فيهما وهذا هو الفرق بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا من حيث إنّ علماء الآخرة موصوفون بالخشية والرهبة وعلماء الدنيا موسومون بالأمن والعزّة وقد بين علماؤنا رضى الله عنهم حال الفريقين وأوضحوا أمرهم بالنعوت والعلامات وأطالوا فى ذلك النفس لما شاهدوا من انتشار الفساد فى الأرض بسبب جهل الناس بالعلم النافع أى شيء هو فمن أراد الشفاء فى ذلك واستيفاء الكلام عليه وما فى ذلك من الأخبار والآثار فعليه بالنظر فى كتاب العلم من كتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى رضى الله عنه ولباب ذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ههنا وقد قال الفضيل بن عياض رضى الله عنه كان العلماء ربيع الناس إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحا و إذا نظر إليهم الفقير لم يودّ أن يكون غنيا وقد صاروا اليوم فتنة على الناس قال هذا فى زمانه الصالح فكيف لوأدرك زماننا هذا فانا لله و إنا إليه راجعون . واعلم أنه قد ورد فى الكتاب والسنة من فضل العلم والعلماء مالايحصى كثرة ولايرجى حصول ذلك إلا لمن صحت فيه نيته وصحة نيته فى ذلك أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله تعالى واستعماله فيما ينفع عنده و إيثاره الخروج عن ظلمة الجهل إلى نور العلم فهذه هى النية الصحيحة التى تحمد عاقبتها آجلا وتجتنى ثمرتها فى طاعة الله عاجلا وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كلّ يوم لا أزداد فيه علما يقرّبنى من الله عزّ وجلّ فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم » وقال الحسن رضى الله تعالى عنه كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه ولباسه و بصره ولسانه وصلاته وهديه وزهده وأن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرا له من الدنيا بمافيها لو كانت له ليضعها فى الآخرة وليأتين على الناس زمان يشتبه فيه الحقّ والباطل فاذا كان ذلك لم ينفع فيه إلا دعاء كدعاء الغريق . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه إنما يتعلم العلم ليتقى به الله و إنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به فان اختل هذا المقصد وفسدت نية طالبه بأن يستشعر به التوصل إلى منال دنيوى من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا قال الله عزّ وجلّ ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه

(العلم إن قارنته الخشية فلك) منفعته فى الدنيا والآخرة (و إلا فعليك) مضرّته فيهما . قال سفيان الثورى إنما يتعلم العلم ليتقى به الله و إنما فضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به فان اختلّ هذا القصد وفسدت نية طالبه بأن استشعر به التوصل إلى منال دنيوى من مال أو جاه فقد بطل أجره وحبط عمله وخسر خسرانا مبينا قال تعالى ـ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ـ الآية انتهى

من

«من تعلم علما لايبتغى به وجه الله تعالى لايتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعنى ريحها وكان الحسن رضى الله عنه يقول والله ماطلب هذا العلم أحد إلا كان حظه منه ماأراد به وقال الحسن عقوبة العالم موت القلب فقيـل له وما موت القلب؟ قال طلب الدنيا بعمل الآخرة فاذا انضاف إلى هـذا الغرض أن يتصدى به إلى تولى الأعمال السلطانية كائنة ما كانت أو يتوصل به إلى اكتساب مال من حرام أو شبهة فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه وباء بإثمه وآثام المقتدين به وكان الجهل إذ ذاك خيرا له من العلم وأحمد عاقبة وقال أبوعمر بن عبد البر رحمه الله تعالى وروينا عن الأوزاعى رضى الله عنه قال شكت النواويس إلى الله عزّ وجلّ ماتجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله تعالى إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه قال وروينا عن الفضيل ابن عياض وأسد بن الفرات قال بلغنى أن الفسقة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان قال فضيل بن عياض رضى الله عنه لأن من علم ليس كمن لم يعلم . قلت والغالب على طلبة العلم فى هذه الأعصار هذا الوصف المذموم لأن حبّ الدنيا قد استولى عليهم واستهواهم والحرص على التقدم والترؤس قد ملكهم فأصمهم وأعماهم ولذلك أمارات وعلامات لاتحصى ولا تخفى وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «يخرج فى آخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله تبارك وتعالى أبى تغترّون أم علىّ تجترئون فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران» رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه وروى أبوالدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أنزل الله تعالى فى بعض الكتاب أو أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكبوش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر إياى يخادعون وبى يستهزئون لأتيحنّ لهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران» وفى بعض الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأتى على الناس زمان لايبقى من القرآن إلا رسمه ولا من الاسـلام إلا اسمه قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة من أبدانهم شرّ من تظل السماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود» . واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذى يؤدى صاحبه إلى الخوف والخشـــية وملازمة التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الايمان وتوافق الاسرار والاعلان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها وإيثار الآخرة عليها والموالاة فى الله والمعاداة فيه والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة ولزوم الأدب بين يدى الله تعالى فيراعيها حفظا وطلبا ومعرفة الأسباب المضادة له عن ذلك فيرفضها رفضا وهربا إلى غير ذلك من الصفات العلية والمناحى السنية فبهذا كله يحصل له فوائد العلم وثمراته الدنيوية والأخروية فاذا خلا طالب العلم عنها أو عن بعضها فان كان ما يطلبه علما حقيقيا كان حجة عليه وإن كان وسميا كان وبالا واصلا إليه والعياذ بالله من ذلك . قال فى لطائف المنن ربما غرّ الغافل من طلبة العلم من قال طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله وليس فى قول هذا القائل مايستروح إليه من طلب العلم للرياسة والمنافسة به وإنما أخبر هذا القائل عن أمر منّ به عليه وفتنة سلمه الله منها لايلزم أن يقاس عليـه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن فى المعى أعيا علاجه الأطباء وضاق عليه خلقه فأخذ خنجرا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعى فقطعه فخرج الداء منه فهذا لايستصوب العقلاء فعله وأنه نجحت عاقبته

وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم إلى التهلكة * ليس المخاطر محمودا و إن سلما *
وقال فى مواضع أخر ولا يغرّنك أن يكون به انتفاع للبادى والحاضر فقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه ومثل من قطع الأوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدّة يتطهر ويجدد الطهارة فلم يصلّ صلاة واحدة إذ مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة ولقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مسئلة فأفتاه فيها فقال الرجل للحسن قد خالفك الفقهاء فزجره الحسن وقال ويحك وهل رأيت فقيها إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه قال وسمعت شيخنا أبا العباس يقول الفقيه من انفتق الحجاب عن عين قلبه والرجل الذى سأل الحسن البصرى هو فرقد السنجى والله أعلم وقد روى عنه فى صفة الفقهاء كلام أتم مما ذكره صاحب كتاب لطائف المنن . قال فرقد السنجى سألت الحسن عن مسئلة فأجابنى عنها فقلت له إن الفقهاء يخالفونك فقال لى ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم المجتهد فى العبادة القيم على سنة المصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا ينبذ من هو فوقه ولا يسخر ممن هو دونه ولا يأخذ على علم علمه الله له حطاما . قلت وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه فلا يبذل علمه إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التى ذكرناها ولا يبذل لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله قال رجل لسفيان الثورى رضى الله عنه إنك إن نشرت ما معك من العلم رجوت أن ينفع الله به بعض عباده وتؤجر على ذلك فقال سفيان الثورى والله لو أعلم بالذى يطلب هذا العلم لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذى آتيه فى منزله فأحدّثه بما عندى ممن أرجو أن ينفعه الله به وقد سئل بعض العلماء عن شئ فلم يجب فقال له السائل أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار» فقال له اترك اللجام واذهب فان جاء من يستحقه وكتمته فليلجمنى به وفى قوله عزّ من قائل ـ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ـ تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضرّ به أولى كما قيل :

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد حكى عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة فى أخلاقه فان وجدوا فيه خلقا رديئا منعوه من العلم أشد المنع وقالوا إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردىء فيصير العلم آلة شرّ فى حقه وقد قالت الحكماء زيادة العلم فى الرجل السوء كزيادة الماء فى أصول الحنظل كلما ازداد ريا ازداد مرارة وهذا كله صحيح مجرب فينبغى إذن للعالم أن لا يهمله بل يراعيه ويمتثله ولا اعتبار بما يتوهمه فى تعليمهم من وجود المصالح على تقدير حصول توفيق الله تعالى لهم لأن يعملوا ببعض ما يتعلمونه من العلم الصحيح إن كانت لهم ولاية حكم أو غير ذلك فانّ المفاسد التى تقع بسبب ذلك لهم فى خاصة أنفسهم والمفاسد التى تتعدى منهم إلى غيرهم أكثر ودرء المفاسد أهمّ عند العقلاء من جلب المصالح أما المفاسد التى تختصّ بهم فهى تقوية صفاتهم الذميمة وأخلاقهم اللئيمة بما يطلبونه من العلم لأنهم يستشعرون بذلك التوصل إلى جميع مطالبهم الدنيوية على غاية الكمال والتمام فاذا استشعروا بذلك توجهوا بهممهم إليه وعكفوا بالجدّ والاجتهاد عليه ولولا هذا الاستشعار لم يتصوّر منهم ذلك فاذا حصلوا على شيء من ذلك وظهرت لهم مخايل وصولهم إلى أغراضهم

المذكورة فرحوا بذلك واغتبطوا به وكلما ازدادوا علما ازدادوا فرحا واغتباطا بما هم فيه وهذا الفرح والاغتباط فى غاية الذم منهم لأن ذلك متعلق بأسباب الدنيا وهى بمنزلة السم القاتل الذى يوجب موت قلوبهم وقسوتها و بعدها عن التأثر بالمواعظ والحكم كما قيل :

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة ... كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

وعند ذلك تنتعش نفوسهم وتتقوّى صفاتها وتظهر آثار ذلك على ظواهرهم من التكالب على الدنيا والركون إلى من هى عنده من أبنائها المترفين وليس لهم مايتوسلون به إليهم سوى علمهم فيحتالون على تحصيل إقبالهم عليهم وصرف وجوههم إليهم بالتفنن عندهم بأنواع من الحيل ولايسلمون فى ذلك من الرياء والتصنع والنفاق والدهان و يجرهم ذلك إلى أنواع من المحظورات وضروب من العصيان مع مايحل بهم فى ذلك من الذل والهوان فاذا نالوا ذلك أو بعضه حصل لهم مقصود نفوسهم وتمكنوا من جميع حظوظهم بخرجوا من الحرية إلى استعباد الأغيار واستبدلوا بالجهل النافع العلم الضار وقد قال الفضيل ابن عياض رضى الله عنه لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحوا على دينهم وأعزوا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا وعز الاسلام وأهله ولكنهم أذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذ سلمت لهم دنياهم فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مافى أيدى الناس فذلوا وهانوا على الناس اهـ ، ولله درّ الشاعر رحمه الله حيث يقول :

يقولون لى فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل هذا مورد قلت قد أرى ... ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت إلا لأخدما

أأغرسه عزا وأجنيه ذلة ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه لعطاء الخراسانى كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم وكانوا لايلتفتون إلى دنيا غيرهم وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة فى علمهم فأصبح أهل العلم فيها اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى دنياهم فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها فاليوم يزداد الرجل بعلمه للدنيا حبا ولها طلبا وكان الرجل ينفق ماله على علمه و يكسب الرجل اليوم بعلمه مالا وكان يرى على طالب العلم زيادة فى باطنه وظاهره فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد فى الباطن والظاهر فانظر رحمك الله إلى ماذكره هؤلاء الفضلاء تجده لازما لطلبة هذا الزمان وليس الخبر كالعيان ثم بعد وقوع هذه المفاسد بهم وتوغلهم بها فى سوء أدبهم يتعذر عليهم بعد ذلك سلوك طريق الحق لما استحكم فى قلوبهم من علامات سوء الخلق فقد قيل التعمق فى الباطل قطع لآمال الرجوع عنه فكلما كان بعد المسافة من الحق أتم كان اليأس من الرجعة أوجب وأعظم الوبال عليهم اغترارهم بحالهم واستحسانهم لسىء أعمالهم واعتقادهم أنهم سالكون سبيل النجاة فى الدار الآخرة ونيل الثواب فيها وأنهم هم الذين حازوا الرتب الشريفة والمناقب المنيفة التى اختص بنيلها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وليس عندهم من المعرفة وعلوم التحقيق مايخرجون به من هذا الغرور لأنهم لم يسلكوا طريق ذلك ولم يهتدوا لما هنالك فهذا هو الفساد الذى يختص بهم ولايشاركون غيرهم فيه وأما الفساد الذى يتعدّى إلى غيرهم فأظهر من كل ظاهر وناهيك بمن ملكته نفسه أشدّ ملك واستعبدته

أشدّ استعباد هل يبقى عليه شيء من الشرّ أو نوع من أنواع الفساد إلا ويقع فيه إذا تمكن منه ومن دقيق مايسرى عنهم من الفساد من غير قصد منهم لذلك وقوع الاغترار للجهلة والاغمار بمشاهدة حالهم فانهم يشاهدونهم قد حازوا من رتب الدنيا ما أرادوه ويتوهمونهم نالوا شرف الآخرة بما أفادوه واستفادوه فيحملهم ذلك على الاقتداء بهم فى طلب العلم إن كانوا ممن فيه قابلية لذلك فيقعوا فيما وقعوا فيه من المهالك أو يؤديهم ذلك إلى محبتهم وموالاتهم واتخاذهم أربابا يسمعون منهم ويطيعونهم فى أوامرهم ونواهيهم ثم يخرج بهم استحسان حالهم إلى الداء الدفين وهو مسارقة طباعهم الدنيئة وأخلاقهم الرديئة فان نفوس العامة قابلة لذلك ومهيئة له بمنزلة الصبى الذى ترسخ فيه أخلاق آبائه ومنازعهم ومذاهبهم وعند ذلك يبطل فى حقهم ماهو مقصود من بعثة الرسل من التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وحب الفقر والمسكنة وإيثار التواضع والذلة والتخلق بأخلاق الايمان والاسلام وشدّة الحذر من ارتكاب المناهى والآثام ثم يئول ذلك بهم إلى الشرك الخفى والجلى ثم يحيق بهم المكر السيء والعياذ بالله تعالى ويكون وبال جميع ذلك راجعا إلى العالم لتيسير أسباب ذلك على يديه ولقد صدق ابن المبارك رحمه الله حيث يقول :

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
فباعوا النفوس ولم يربحوا ... ولم تغل فى البيع أثمانها
لقد رتع القوم فى جيفة ... يبين لذى العقل أنتانها

وروى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال إن الدين قد استضاء إضاءة هذه ثم أخذ كفا من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال والذى نفسى بيده ليجيأن أقوام يدفنون العلم هكذا كما دفنت هذه الحصاة ولتسلكنّ سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدم بالقدم والنعل بالنعل . قلت ومنشأ وجود هذه المفاسد خراب بواطنهم وظلمة قلوبهم بسبب فقد اليقين منها وانكساف أنوار الايمان فيها وإفلاسهم من حقائق ذلك وعدم اختصاصهم بشيء منه فصاروا بذلك مأسورين لأهوائهم منقادين لأغراضهم وآرائهم ففسدت بذلك نياتهم ومقاصدهم والأعمال بالنيات فاذا كانت النيات صالحة كانت الأعمال صالحة وترتب عليها آثار الصلاح وانعطف من ذلك على القلوب مزيد إشراق وحميد أخلاق يؤذن ذلك بوجود القرب من الله ونيل درجة الحب منه فاذا كانت النيات فاسدة كانت الأعمال أيضا فاسدة وترتب عليها آثار فاسدة وانعطف من ذلك على القلوب زيادة ظلمة ورداءة همة تقتضى البعد من الله تعالى وحصول المقت منه وطلب العلم عمل من الأعمال معرّض للصحة والاعتلال ، وليت شعرى هؤلاء الذين استغرقوا أعمارهم فى طلب العلم والأثر وأتعبوا أنفسهم بالدراسة والنظر وقطعوا أيامهم ولياليهم بالجوع والسهر وسمحت نفوسهم بفراق ملذوذاتها والبعد عن جميع مألوفاتها هل بعثهم على ذلك باعث الدين أو باعث الهوى ولاشك أن باعث الدين غير متصوّر منهم بل هو محال فى حقهم لما قدّمناه من خراب البواطن وظلمة القلوب وكيف يتصوّر ذلك منهم وهم لم يعملوا على تخلصهم من التكاليف الواجبة عليهم فى ظواهرهم وبواطنهم بل لم يعرفوا ذلك ألبتة وان ادّعوا أنهم على أحوال لايجب عليهم فيها حكم يحتاجون إلى تعرّفه والقيام به فهم مخدوعون ومن أين لهم ذلك والعلم به لايحصل ضرورة فلابدّ لهم من استفادته ولاعناية لهم بهذا أيضا وانما كان يتصوّر منهم باعث الدين لو توفرت أغراضهم كلها عليه ووصلوا إلى ما يمكنهم الوصول إليه من شهواتهم ولذاتهم بسبب تمّا من أسباب الدنيا ثم يصرفون مافضل من أوقاتهم عن محاولة هذه المطالب ونيلها إلى طلب العلم عوضا عن البطالة التى يتبرم بها صاحبها ويدعوه فراغه من أشغال دنياه إلى قطع ذلك الوقت

بلهو

بلهو ولعب أو ارتكاب معصية وذنب لا البطالة التي يكون فيها استراحة لنفسه واستجمام لعقله وحسه ففي هذه الحال قد يصح باعث الدين من أمثال هؤلاء وأما الحال التي وصفناها فلا يتصور عليها باعث إلا الدنيا المجردة المجاوزة للحد في الذم والمقت بمنزلة من هو حريص على الاتساع في الدنيا والحصول على غاية ملاذها فانه يعمل فيما يوصله إلى ذلك وإن كان فيه هلاكه فتراه يرتكب الأخطار ويخوض لجج البحار ويجوب البراري والقفار ويهون عليه في جنب ما يأمله كل مشقة تصيبه وبلية تنزل به ولو لم يفعل هذا لم يحصل إلا على سد الرمق والاقتصار على التبلغ والعاني فكذلك هؤلاء الذين كلامنا فيهم لو لم يتصوروا في خواطرهم الحصول على كايات أغراضهم من اتساع مالهم وجاههم في دنياهم ووصولهم مع ذلك إلى رفيع الدرجات في عقباهم لم يبلغوا ذلك المبلغ في الاجتهاد ولاقتصروا على بعضه وهذه كلها أمور بينة لا إشكال فيها عند من له أدنى تمييز وفهم وليس المانع لأكثر من ينتسب إلى العلم من العمل بمقتضى ماذكرناه خفاءه عليهم كيف وهم يعتقدون صحته ويسلمون حاصله وحقيقته في الأحايين عند ما ينجلي عن قلوبهم بعض ظلماتها وتتزحزح عن عظيم غمراتها إما بتذكير مذكر من الخلق أو وعظ واعظ في قلوبهم من قبل الحق ثم يرجعون في سائر أوقاتهم إلى مألوفاتهم ومعتاداتهم وإنما المانع لهم من ذلك انفراد الله تعالى بالمشيئة والقدرة واستئثاره بالخذلان والنصرة فاذا أراد الله تعالى أن يضل عبدا من عباده لم ينصره عقل ولم ينفعه علم قال الله عزوجل ـ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ـ وفي مثل هذا الوطن تبطل أحكام الأسباب ويتحقق أرباب الحقائق العظمة والجلال والعزة والكمال لرب الأرباب فليعتبر بما ذكرناه أرباب الأبصار وليسلموا أحكام الواحد القهار لعلهم بذلك يهتدون إلى منهج التحقيق حين يضل غيرهم عن سواء الطريق ✲ مصائب قوم عند قوم فوائد ✲ وليقل العبد المؤمن إذا نظر إليهم واعتبر بما جرى من سوء القضاء عليهم الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاهم به وفضلني عليهم تفضيلا فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من رأى مبتلى فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به هذا وفضلني عليه وعلى كثير ممن خلق تفضيلا عافاه الله من ذلك البلاء كائنا ما كان » فعلى المعلم الناصح لنفسه السالم في عقله وحدسه العامل على تصحيح أعماله وهمه المشفق على دينه الذي هو منوط بلحمه ودمه أن يتأمل هذه المفاسد ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها ولا يقدم على التعليم في هذه الأزمنة ذوات العلل المزمنة حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولا تجويز وقوع خطأ في نظر ولا سبيل له إلى هذا ولا يسعه خلاف ذلك إذا كان منصفا. قال بعضهم رأيت سفيان الثوري حزينا فسألته عن ذلك فقال وهو ندم ماصرنا إلا متجرا لأبناء الدنيا . قلت وكيف ذلك قال يلزمنا أحدهم حتى إذا عرف بنا وحمل عنا وجعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا أو جابيا يقول حدثنا سفيان الثوري وعليه أيضا أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم لأن كل ما تستحليه النفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل التي تقدح في إخلاص الأعمال وإخلاص الأعمال شرط في وجود القبول وعند ذلك يذهب عمله باطلا ولا ينال بسعيه طائلا وقد تقدم من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم للعمل عند قوله ماقل عمل برز من قلب زاهد ، وتقدم أيضا الكلام على اتهام النفس في دعائها إلى ماظاهره خير عند قوله إذا التبس عليك أمران ، وليتعلم الجزم في ذلك من بشر بن الحرث الحافي رضي الله عنه كان يقول أنا أشتهي أن أحدث ولو ذهب عني شهوة الحديث لحدثت ، وكان سبب تركه طلب الحديث أنه سمع أبا داود الطيالسي يحدث عن شعبة أنه كان يقول الاكثار من هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون

(متى آلمك) أى أوجد عندك الألم والغم (عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله) أى اقنع بعلمه (فيك) وا كتف به عن علمهم بحالك المقتضى لاقبالهم عليك وعدم ذمهم لك فان كنت عند الله مخلصا فى أعمالك مقبولا فأى شئ يضرك من كونك عند الخلق ليس على ذلك الوصف حتى يتوجهوا إليك بالذم والأذى وإن كنت حقيرا ممقوتا لعدم

إخلاصك فأى شئ ينفعك من إقبالهم عليك ورضاهم عنك وثنائهم عليك (فان كان لايقنعك علمه) بأن أحببت أن تدخل مع علمه علم غيره حتى يطلع على إخلاصك وأعمالك فيعظمك ويقبل عليك (فمصيبتك) الحاصلة لك (بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك) الحاصلة (بوجود الأذى منهم) بذمك والاعراض عنك لأن عدم القناعة بعلمه تعالى يردك إليهم فهو مصيبة ولا بد وأذاهم يردك إليه فهو فائدة فى الواقع ونعمة وإن كان مصيبة فى الظاهر فلا ينبغى للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه فلا يفرح إلا باقباله عليه ولا يحزن إلا باعراضه عنه ولا ينظر إلى المخلوقين فى إقبال ولا إعراض ولا مدح ولا ذم فانهم لايغنون عنه من الله شيئا فمن آلمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ماينه وبين ربه وليكتف بعلمه بحاله ولايحب أن يدخل مع علمه علم المخلوقين حتى يعظموه قال ابراهيم التيمى لبعض أصحابه مايقول الناس فى؟ قال يقولون إنك مراء فقال الآن طاب العمل قال بشر اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره وقال بشر الحافى سكون القلب إلى قبول المدح أشد عليه من المعاصى

فلما سمعه منه قال انتهينا انتهينا ثم ترك الرحلة فى طلب الحديث وأقبل على العبادة وروى أيضا مثل هذا الكلام عن مسعر بن كدام فاذا كان الاكثار من طلب الحديث بهذه المثابة عند إمامى المحدثين فى زمانيهما مع مافيه من الفوائد الأخروية فما ظنك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها ولقد ذكر الشيخ الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله باسناده إلى عبد الله بن مسلمة القعنبى رحمه الله قال دخلت على مالك بن أنس رضى الله عنه فوجدته باكيا فسلمت عليه فرد على السلام ثم سكت عنى يبكى فقلت له يا أبا عبد الله ما الذى أبكاك فقال لى يا ابن قعنب أبكى لله على مافرط منى ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الأمر بسوط ولم يكن فرط منى مافرط من هذا الرأى وهذه المسائل ولقد كان لى سعة فيما سبقت إليه قال هذا فيما كان آخذا فيه من المسائل المحققة المبنية على أصول صحيحة غير ملفقة فما الظن بما انتشر بعده من الهذيان الذى صار بحكم العادة واقتضاء العصبية وتمالؤ الناس على الضلال وتقليد الرؤساء الجهال دينا قويما وصراطا مستقيما وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو أهم عليه مما هو مأمور به ومسئول عنه من مراقبة ربه وإصلاح نفسه وقلبه فله فى ذلك شغل شاغل عما يفرق همه ويقسى قلبه وينسيه ذكر ربه عز وجل. قال وهب ابن منبه: ذكر طلب العلم عند مالك بن أنس فقال إن طلبه لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى ومن حين تمسى إلى حين تصبح فلا تؤثرون عليه شيئا وكان سفيان الثورى يقول لأهل العلم الظاهر طلب هذا ليس من زاد الآخرة وكان يقول ليس طلب الحديث من عدة الموت لكنه علة يتشاغل به الرجل وكان يقول لولا أن للشيطان فيه حظا ماازدحمتم عليه يعنى العلم فهذه نبذة قصدت إلى بثها فى الموضع اللائق بها من هذا التنبيه ليتنبه بها من سبق له من الله زوال العمى عن بصره ومراجعة خوفه وحذره من المعلمين والمتعلمين وليتبين بها كلام المؤلف رحمه الله غاية التبيين وبالله الذى لا إله سواه نستعين (متى آلمك إقبال الناس عليك أو توجههم بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك فان كان لايقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم) العبد لاينبغى أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه فلا يفرح إلا باقباله عليه ولا يحزن إلا لاعراضه عنه ولا ينظر إلى المخلوقين فى إقبال ولا إعراض ولا مدح ولا ذم فانهم لايغنون عنه من الله شيئا وقد تقدم هذا المعنى فى قوله رحمه الله غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك وغب عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك فمتى آلمه عدم إقبالهم عليه أو توجههم بالذم إليه فليرجع إلى ماينه وبين ربه فان كان قانعا بعلمه راضيا بقسمته كان له فى ذلك أعظم سلوان عما يفوته من جهة المخلوقين بل لايجد وقعا فى قلبه لما عسى أن يكون منهم من إقبال أو إعراض وإن لم يكن راضيا ولا قانعا فمصيبته بذلك أعظم من مصيبته بأذى الناس له بل لامصيبة له فى أذى الناس ألبتة عند من عرف سر ذلك على مايذكره المؤلف الآن رحمه الله تعالى. قال ابراهيم التيمى رضى الله عنه لبعض أصحابه مايقول الناس فى؟ فقال يقولون إنك مراء فقال الآن طاب العمل فقال بشر رضى الله عنه اكتفى والله بعلم الله فلم يحب أن يدخل مع علم الله علم غيره وقال بشر الحافى

(إنما أجرى الأذى على أيديهم) إليك أيها المريد (كى لاتسكون ساكنا إليهم) أى معتمدا عليهم فى تحصيل نفع أودفع ضر تاركا لجناب مولاك وقوله (أرادأن يزعجك عن كل شئ) بتوجه الخلق إليك بالأذى (حتى لايشغلك عنه شئ)هو بمعنى ماقبله. قال فى لطائف المنن اعلم أنّ أولياء الله حكمهم فى بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا وتتكمل فيهم المزايا ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أويميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رقّ إحسانه ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه ثم قال وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدإ ظهورهم سنة الله فى أحبابه وأصفيائه اه وقال الأستاذ أبو الحسن الشاذلى قدّس الله سره آذانى إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت فرأيت يقال لى من علامة الصدّيقية كثرة أعدائها ثم لايبالى بهم اه

سكون النفس إلى قبول المدح لها أشد عليها من المعاصى (إنما أجرى الأذى على أيديهم كيلا تسكون ساكنا إليهم أراد أن يزعجك عن كل شئ حتى لايشغلك عنه شئ) وجود أذى الناس للعبد نعمة عظيمة عليه لاسيما ممن اعتاد منه الملاطفة والاكرام والبرّة والاحترام لأنّ ذلك يفيده عدم السكون إليهم وترك الاعتماد عليهم وفقد الأنس بهم فيتحقق بذلك عبوديته لربه عز وجلّ قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه آذانى انسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت فرأيت يقال لى من علامات الصدّيقية كثرة أعدائها ثم لايبالى بهم وقال بعض العارفين الصيحة من العدوّ سوط الله يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره ولولا ذلك لرقد العبد فى ظلّ العزّ والجاه وهو حجاب عن الله عظيم وقال سيدى أبو محمد عبد السلام شيخ سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما فى دعائه : اللهم إنّ قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك . اللهم إنى أسألك اعوجاج الخلق علىّ حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك وقال أبو الحسن الوراق النيسابورى رضى الله عنه الأنس بالخلق وحشة والطمأنينة إليهم حمق والسكون إليهم عجز والاعتماد عليهم وهن والثقة بهم ضياع و إذا أراد الله بعبد خيرا جعل أنسه به و بذكره وتوكله عليه وصان سرّه عن النظر إليهم وظاهره عن الاعتماد عليهم وقد قالوا الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقرّبا إلى الله تعالى وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحقيقا بالله عزوجلّ . قال فى لطائف المنن . اعلم أنّ أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن يسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا وتتكمل فيهم المزايا وكيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليهم باستناد ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تقدروا فادعوا الله له» كل ذلك ليتخلص القلب من رقّ إحسان الخلق وليتعلق بالملك الحق قال وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرّهم فانّ خيرهم يصيبك فى قلبك وشرّهم يصيبك فى بدنك ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ولعدوّ تصل به إلى الله خير لك من حبيب يقطعك عن الله ومن إقبالهم عليك ليلا و إعراضهم عنك نهارا ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا قال وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدإ طرقهم سنة الله فى أحبابه وأصفيائه قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه اللهم إنّ القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك قال ومما يدلك على أنّ ذلك سنة الله فى أحبابه وأصفيائه قوله تعالى وزلزلوا الآية وقوله تعالى ـ حتى إذا استيأس الرسل ـ الآية وقوله تعالى ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا ـ الآيتين وقوله ـ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ـ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى اه وكذلك من استحلى حالا أوساكن مقاما فمن سنة الله تعالى مع أوليائه تشويش ذلك عليهم وهو من غيرته على قلوبهم لئلا تستأنس بغيره ولئلا تتقيد بسواه قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه ومن القاطع المشكلة السكون إلى استحلاء مايلاقيك به من فنون تقريبك وكأنه فى خلال ماينا جيك يناغيك فانه بكل لطيفة يصفيك و يطريك وتحتها خدع خافية ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله لا باثباته فى لطيف أحواله ومايخصه به من إفضاله و إقباله وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدود عندهم من الشهوة الخفية ومن هذا المعنى ماذكر عن سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه لما دخل على شيخه أبى محمد عبد السلام فى أوّل مالقيه وسأله عن حاله فقال له أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار فقال له الشيخ أبو الحسن أما شكواى من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه وأما شكواك من برد الرضا والتسليم

ـ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ـ الآية وقدورد أن لكل أحد من الناس شيطانا واضعا خرطومه على قلبه فاذا غفل عن ذكر الله تعالى وسوس له وإذا ذكر خنس أى تأخر واستتر (فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده) وهو الله تعالى عن الاعتصام والاحتماء به سبحانه وتعالى فانه يكفيك همه لقوله تعالى ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ـ وقوله تعالى ـ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ـ فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الايمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه والالتجاء والافتقار إليه والاستعاذة به كيف لاينصره على عدوه قال ذو النون المصرى إن كان هو يراك من حيث لاتراه فان الله يراه من حيث لايرى الله فاستعن بالله عليه وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال إبليس لربه عزّ وجلّ : بعزتك وجلالك لاأبرح أغوى بنى آدم مادامت الأرواح فيهم فقال له الله عزّ وجلّ وعزتى وجلالى لاأبرح أغفر لهم ما استغفرونى »

فلم أفهمه فقال أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله سبحانه . وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه : اللطف حجاب عن اللطيف يعنى السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به ، ولذلك قال سرى السقطى رضى الله عنه : لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ماخلق الله تعالى من الأشجار عليها من جميع ماخلق الله من الأطيار فخاطبه كل طائر منها بلغتـه وقال السلام عليك ياولى الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان فى أيديها أسيرا.وقال بعضهم لا يكون الصوفى صوفيا حتى لاتقله أرض ولاتظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق ويكون مرجعه فى جميع أموره إلى الحق وقيل الفقير من لادنيا له ولا آخرة فان عرض على مالك قال ليس من رجالى وإن سلم إلى رضوان قال لأهتدى إليه وليس من رجالى وإن قلت من هو وما الذى يدعى به قال ليس ممن يدعى بشىء وقال محمد بن الحسن رضى الله تعالى عنه : بينا أنا أدور فى جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقه السموم والرياح فلما نظر إلىّ ولى هاربا فتبعته وقلت له عظنى بكلمة فقال احذره فانه غيور لايحب أن يرى فى قلب عبده سواه. وكتب الجنيد رضى الله عنه إلى بعض إخوانه من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه فان انتبه وانقطع عمن سكن إليه ورجع إلى ماأشار إليه كشف الله مابه من المحن والبلوى وإن دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه وألبس لباس الطمع فتزداد رغبته فيهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم فتصير حياته عجزا وموته كمدا ومعاده أسفا ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره (إذا علمت أن الشيطان لايغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده) الشيطان عدوّ مسلط على الانسان ومقتضى ذلك أن لايوجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والاغواء والاضلال.قيل لبعضهم أينام ابليس فقال لونام لوجدنا راحة فاذا علمت أنه لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده وهو الله عزّ وجلّ وذلك بتحقيق عبوديتك له وتوكلك عليه وافتقارك فى كل أحوالك إليه واستعاذتك به من شر عدوّك وعدوّه فبذلك تخرج من سلطنته وتنجو من غائلته قال الله تعالى ـ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ـ وقال عزّ وجلّ ـ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ـ فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الايمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليـه والالتجا والافتقار إليه والاستعاذة والاستجارة به كيف يكون لعدوّ الله عليه سلطان والله حبيبه وولى حفظه ونصره ولولا ماأمرهم الله تعالى بالاستعاذة منه مااستعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه . قال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنـه فى قوله تعالى ـ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا ـ فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدوّ أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه . وقال أبو حازم رضى الله عنـه ومن الشيطان حتى يهاب والله لقد أطيع فما نفع ولقد عصى فما ضر . وقال بعضهم الشيطان منديل هذه الدار يعنى يمسح به أقذار النسب وهى نسبة الشرور وأنواع المعاصى والفساد إليه أدبا مع الله عزّ وجلّ وهذا سر إيجاده كما قال الله تعالى ـ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ـ وقوله تعالى ـ هذا من عمل الشيطان ـ وأما أنّ له حولا وقوّة يضربها أو ينفع فلا . قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه ماخلق الله عزّ وجلّ خلقا أهون عليه من إبليس ولولا أن الله أمرنى أن أتعوذ منه ماتعوذت منه أبدا وقيل لبعض العارفين كيف مجاهدتك للشيطان فقال وما الشيطان نحن قوم صرفنا همنا إليه فكفانا من دونه وسئل بعضهم بم تدفع ابليس فقال لاأدفع من لا أعرف فأما إن أهملت ذلك وغفلت عنه ولم تعبأ به غلبك لا محالة لثبوت

سلطنته

(جعله) الله (لك عدوا) قال تعالى ــ إن الشيطان لكم عدو ــ الآية (ليحوشك به إليه) لأنك إذا عرفت أنه لاطاقة لك على مقابلته بنفسك لما أنت عليه من غاية الضعف والعجز اضطررت لامحالة إلى الاستغاثة عليه بمولاك القوى المتين ووجد منك الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك فعداوة الشيطان هى التى ردتك الله بها إليه وجمعك بها عليه وهذا هو غاية المقصود وهذا فى حق غير المحبوبين الذين صرفوا همتهم إلى جناب الحق أما هم فلا يحتاجون إلى عدو يحوشهم لأن تعلقهم به كالطبيعى فيهم فلا يلتفتون إلى ابليس ولولا أمر الله تعالى لهم بالاستعاذة منه ما استعاذوا منه ومن هو حتى يستعاذ بالله منه (وحرك عليك النفس) بطلب متابعة الهوى والشهوة (ليدوم إقبالك عليه) لأنك لاتقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك وليس ذلك إلا مولاك فقد دعاك بهذا إلى دوام الاقبال عليه والعكوف بالهم عليه لاسيما وهى أعدى أعدائك إذ بواسطتها يتوصل إليك ولأنها عدو من داخل البيت وعداوة العدو الذى من داخل البيت أشد. ولذا سمى صلى الله عليه وسلم جهادها بالجهاد الأكبر (من أثبت لنفسه تواضعا) بأن خطر بباله أنه متواضع (فهو المتكبر حقا إذ ليس التواضع) أى ليس إثباته ناشئا (إلا عن) شهود (رفعة) كان يستحقها وأنه تنازل عنها إلى مادونها (فمتى أثبت لنفسك رفعة) فى ضمن إثبات التواضع (فأنت المتكبر حقا) ولاينتفى عنك التكبر إلا بوجود الضعة حقيقة بأن لاترى لنفسك مرتبة ولا قيمة، ثم قال:

سلطنته عليك ووصوله بالوسوسة إليك قال أهل العلم إن لكل أحد من الناس وسواسا موكلا به مستبطنا قلبه واضعا رأسه أوقال خرطومه عليه فاذا غفل العبد وسوس وإذا ذكر الله خنس أى تأخر واستتر. وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: الشيطان قديم وأنت حديث والشيطان كبير وأنت سليم الناحية والشيطان لاينساك وأنت لاتزال تنساه وله من نفسك عليك عون. وقيل صدر ابن آدم مسكن له ومجراه من ابن آدم مجرى الدم وأنت لاتقاومه إلا بعون الله تعالى. وقال مالك بن دينار رضى الله عنه إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله وفيه يقول القائل:

أشكو عدوا كيده برانى ... ولا أراه حيثما يرانى
وعند ما أنساه لاينسانى ... ياسيدى إن لم تغث سبانى

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فان الله يراه من حيث لايرى الله فاستعن بالله عليه. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قال ابليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لأبرح أغوى بنى آدم مادامت الأرواح فيهم قال له ربه وعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى» (جعله لك عدوا ليحوشك به إليه وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه) عداوة الشيطان لك نعمة عظيمة من الله عليك إذ من مقتضاها كما قلناه أن لايغفل عنك وأن يبذل جهده فى محاربتك ومقاتلتك بنفسه وبجنده وبخيله وبرجله ولا طاقة لك على مقاتلته بنفسك لأنك فى غاية الضعف والعجز فيضطرك الحال لامحالة إلى الاستغاثة عليه بمولاك القوى المتين فيوجد منك حينئذ الالتجاء إليه والانتصار به والتوكل عليه فى دفعه عنك فعداوة الشيطان هى التى ردتك الحق تعالى بها إليه وجمعك بها عليه وهذا هو غاية المقصود وكذلك حركة النفس بالحمل على متابعة الهوى والشهوة بما جعل فيها من الطبع والجبلة نعمة عظيمة أيضا وإن كانت أعدى الأعداء لك إذ بواسطتها يتوصلون إليك وبأمرها يعملون فيما يعود بالضرر عليك من قبل أنك لاتقدر على مجاهدتها وقمع هواها الممتزج بلحمك ودمك إلا بمن هو أقوى منك وليس ذلك إلا مولاك فقد دعاك بهذا إلى دوام الاقبال عليه والعكوف بالهم عليه وكأن المؤلف رحمه الله تعالى قصد فى هذه الكلمات إلى ذكر الأعداء الأربعة المذكورين فى قول الشاعر:

إنى بليت بأربع يرميننى ... بالنبل عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... يارب أنت على الخلاص قدير

وبين فى كلامه وجود عداوتهم ووجوه الاحتراز منها وتمم ذلك ببيان أن تلك العداوة وإن عظمت من أعظم الوسائل إلى أسنى المطالب لمن أريد بذلك ووفقله وأتى بجميع ذلك فى ألفاظ بديعة مختصرة وجيزة محررة فاعرف قدر هذا الفصل واعترف لواضعه بكمال النبل والفضل. وقال رضى الله عنه (من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا إذ ليس التواضع إلا عن رفعة فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر حقا) إثبات التواضع يقتضى وجود الرفعة لامحالة إذ لوكانت معدومة لكان ضدها وهو الضعة ثابتا موجودا ولاينتفى عن العبد التكبر إلا بوجود الضعة ووجود الضعة لايحتاج إلى الاثبات من

فوق ماصنع) أى أنه يستحق الجلوس فى صدر المجلس مثلا (ولكن المتواضع) هو (الذى إذا تواضع) أى فعل أفعال المتواضعين بأن جلس قريبا من صدر المجلس مثلا (رأى أنه دون ماصنع) وأنه يستحق أن يجلس فى أسفل المجلس مثلا . والحاصل أن المتواضع حقيقة هو الذى لايثبت التواضع لنفسه لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته مايمنعه من ذلك ومن كان متصفا بهذه الصفة لوفعل من أفعال المتواضعين ماشاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعا لأنه يرى نفسه دون ماصنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود عليه فان أثبته لنفسه ورأى نفسه فوق ماصنع مما يقتضى وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة ولذا قال الشبلى من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وقال ذلى عطل ذل اليهود . ومن علامة التحقق بهذا الخلق أن لايغضب إذا عوتب أو انتقص ولا يكره أن يذم أو يقذف بالكبائر ولا يحرص على أن يكون له عندهم قدر وجاه ولا يرى لنفسه موضعا فى قلوب الناس يتنظرون

العبد لأنه ثابت فى نفسه فالتواضع الذى أثبته العبد لنفسه لاينفى عنه وجود التكبر بالضرورة وأيضا فان لفظة التواضع تؤذن بذلك فان التواضع تفاعل من الضعة وأ كثر باب التفاعل موضوع لاظهار الصفة وليست كذلك كالتناوم والتناكر والتفارح والتماوت وغير ذلك فصيغة التواضع لاتقتضى حقيقة الضعة وعدم الرفعة ولا يلزم من وجودها ذلك والمطلوب من العبد إنما هو أن يتصف بذلك حقيقة لاإظهارا فقط بأن ينتفى عنه وجود الرفعة بالكلية وحينئذ يبرأ العبد من التكبر ولا يكون له وجود ألبتة (ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ماصنع ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ماصنع) هذا بيان آخر لما ذكره من أن العبد المتواضع حقيقة لايثبت التواضع لنفسه لأنه يشاهد من ضعة قدره وخمول ذكره وذلته ومهانته مايمنعه من ذلك وهذا هو التواضع الحقيق وهو شهوده لذلك ووجده به وظهور آثاره على ظاهره بل شهوده لذلك ووجده به مما يقدح فى حقيقة تواضعه كما قال الشيخ أبوعبد الله القرشى رضى الله عنه من وجد ذوق ذله فى ذله فهو متعزز وفيه بقية فهذا العبد المتصف بهذه الصفة لوفعل من أفعال المتواضعين ماشاء لم يثبت بذلك لنفسه تواضعا لأنه يرى نفسه دون ماصنع من ذلك لغلبة ذلك الشهود والوجد عليه فان أثبته لنفسه ورأى أن نفسه فوق ماصنع مما يقتضى وجود صفة التواضع له بزعمه فهو متكبر حقيقة ولذلك قال الشبلى رضى الله عنه يوما فى بعض كلامه ذلى عطل ذل اليهود وقال من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه لايتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد رضى الله عنه مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر قيل فمتى يكون متواضعا قال إذا لم يرلنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل أحد على قدر معرفته بربه و بنفسه . وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه لواجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ماقدروا عليه . وقال أبو يونس بن عبيد الله رضى الله عنه وقد انصرف من عرفات لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت فيهم وقيل لمحمد بن مقاتل ادع الله لنا فبكى وقال ياليتنى لم أكن أنا سبب هلاككم . ومن علامات التحقق بهذا الخلق أن لايغضب إذا عيب أوتنقص ولا يكره أن يذم و يقذف بالكبائر ومن علامات تحققه به أيضا أن يشتد حرصه على أن لا يكون له جاه وقدر عند الناس و يلتزم الصدق فى حاله بأن لايرى لنفسه موضعا فى قلوبهم وقد تقدم هذا المعنى عند قوله: ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه . وحكى عن أبى الحسين بن الكرنبى أستاذ الجنيد رضى الله عنهما أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله داره فى المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد ريضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيعود و يرمى له عظم فيجيب ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبتك . قال أبوطالب المكى رضى الله عنه وحدثت عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل وهو يأكل فدّ يده وقال إن كان ثم شىء لله تعالى فقال اجلس فكل فقال أعطنى فى كفى فأعطاه فى كفه فقعد فى مكانه يأكل فسأله عن امتناعه من الجلوس معه فقال إن حالى مع الله تعالى الذل فكرهت أن أفارق حالى قال وكان هذا ربما مدّيده إلى الهرّاس فيجعل فيها هريسة . ومن أغرب مارأيت فى التواضع ماذكره صاحب كتاب عوارف المعارف قال رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رءوس الأسارى من الأفرنج وهم فى قيودهم فلما مدت السفرة والأسارى

(التواضع الحقيقي هو ما) أي انكسار وانهضام (كان ناشئا عن شهود عظمته) تعالى (وتجلي صفته) يعني أن شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفاته على العبد هو الذي يوجب له وجود التواضع الحقيقي لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذهبها ويبطل أمانيها فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له فلا ينقطع من القلب شجرة الكبر وحب الرياسة إلا به وخرج بالحقيقي التواضع المتقدم وهو الذي ينشأ من النظر لنقص النفوس وعيوبها فانه ليس حقيقيا لأنه قد يكون مشوبا بشيء من الكبر والعجب ولذا قال الجنيد قدس الله سره التواضع عند أهل التوحيد تكبر قال

الغزالي ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها انتهى فهو غائب عن نفسه وحسه بما يشاهده من عظمة ربه . قال في عوارف المعارف لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه فعند ذلك تذوب النفس وعند ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب انتهى . ثم علل ما تقدم بقوله (لا يخرجك عن الوصف) أي عن أوصاف نفسك كالكبر والعجب (إلا شهود الوصف) أي شهود صفات ربك كعظمته فالوصف المذكور أولا هو وصف العبد والمذكور ثانيا هو وصف الرب وهذه قاعدة كلية شاملة لما تقدم ولغيره فلا خروج للعبد عن صفات نفسه إلا بشهوده لصفات ربه فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر ومن شهد غناه لم يبق له غنى ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة فيبقى بربه لا بنفسه فان من شهد أوصاف ربه لم يبق له خبر عن نفسه (المؤمن) الكامل (يشغله الثناء على الله) أي وصفه بالأوصاف الجميلة ونسبة الأوصاف الحميدة إليه (عن أن يكون لنفسه شاكرا) أي معظما لها بنسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها فاذا قال أنا صليت أو صمت ونسب الأفعال الجميلة إليه لم يكن مؤمنا لأن ذلك فعل الله تعالى والعبد مظهر لذلك فقط ظهر فيه الفعل فلا معنى للاشتغال بالثناء على المظهر عن الثناء على الفاعل المعطي المنان فالمؤمن الكامل لا ينسب الأفعال الحسنة والأحوال السنية إلى نفسه ولا يلتفت إليها فيكون لها شاكرا أي معظما بل يغيب عن ذلك بنسبتها إلى موجدها ومنشئها وهو الله تعالى

ينتظرون الأواني حتى تفرغ قال للخادم أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفا واحدا وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم وأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله تعالى والانكسار في نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله . وأغرب من هذا ما ذكره صاحب كتاب بغية الطالب ومنية الراغب أبو الحسن علي بن عتيق بن يوسف القرطبي رحمه الله عن أبيه أنه رأى الشيخ الفقيه أبا محمد بن عبد الله عبد الرحمن بن مفيد وكان من الفقهاء العلماء وهو يمشي في يوم شات كثير الطين فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها قال فرأيته قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقا ووقف ينتظره ليجوز وحينئذ يمشي هو فلما اقترب منه الكلب قال فرأيته قد ترك مكانه الذي كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشي فوقه قال فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة فقلت له ياسيدي إني رأيتك صنعت الآن شيئا استغربته كيف رميت بنفسك في الطين وتركت الكلب يمشي في الموضع النقي فقال لي بعد أن عملت له طريقا تحققت تفكرت فقلت ترفعت على الكلب وجعلت نفسي أرفع منه بل هو والله أرفع مني وأولى بالكرامة لأني عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لا ذنب له فنزلت عن موضعي وتركته يمشي عليه وأنا الآن أخاف المقت من الله إلا أن يعفو عني لأني رفعت نفسي على من هو خير مني (التواضع الحقيقي هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته وتجلي صفته) شهود عظمة الله تعالى وتجلي صفته هو الذي يوجب للعبد وجود التواضع الذي ذكرناه لأن ذلك هو الذي يخمد النفس ويذيبها ويبطل أمنيتها فما تجلى الله تعالى لشيء إلا خضع له فلا تنقلع من القلب شجرة الرياسة والكبر إلا به لا بما يتكلفه العبد ويتعاطاه بنفسه من أعمال وأحوال . قال الجنيد رضي الله عنه التواضع عند أهل التوحيد تكبر وقال الشيخ أبو حامد رضي الله عنه ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها وقال ذو النون المصري رضي الله عنه من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فانها تذوب وتصغر ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى . وفي كتاب عوارف المعارف واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه فعند ذلك تذوب النفس وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق والخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها (لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف) هذه عبارة مليحة موافقة لمعنى ما تقدم الآن والوصف المذكور أولا وصف العبد والوصف المذكور ثانيا وصف الرب تبارك وتعالى (المؤمن يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرا

وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا) شكر النفس رؤية نسبة الأفعال الجميلة والأحوال الحميدة إليها وذلك ثناء عليها وهو مضادّ للثناء على الله تعالى وذكر حظها من اعتقاد أنّ لها حقا على مايفعله من الطاعات وهو مضادّ للقيام بحقوق الله تعالى فالمؤمن الحقيق لايلتفت إلى نفسه فى نسبة شيء من المحاسن إليها وفى طلب حظ عليه لها بل يشغله الثناء على الله تعالى والحرص على توفية جميع حقوقه عن جميع ذلك (ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا أو يطلب منه غرضا فانّ المحب من يبذل لك ليس المحب من تبذل له) المحبة تقتضى من المحب بذل كلياته وجزئياته فى مرضاة محبوبه من غير طلب حظ يناله منه فهذا مما يلزم وجود المحبة كما قيل :

إنّ المحب إذا أحب حبيبه　　تلقاه يبذل فيه ما لايبذل

بل يرى مافعل من ذلك غاية الحظ وموافقة رضا محبوبه نهاية السعادة والبخت كما قال أبو حفص عمر بن الفارض رحمه الله تعالى :

مالى سوى روحى وباذل روحه　　فى حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى　　ياخيبة المسعى إذا لم تسعف

ولذلك قيل المحبة الايثار وهو أن لايدع لمحبوبه ميسورا إلا بذله ولا ممكنا إلا استعمله ولايبقى لنفسه ولالحظه نفسا ولا سكتة ولايستثنى من كل مالابد منه سمسمة ، وأنشدوا :

لئن بقيت فى العين منى قطرة　　فانى إذن فى العاشقين ذليل

وقال أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لايبقى لك منك شيء وقال أبو يعقوب السوسى رضى الله عنه حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله تعالى وينسى حوائجه إليه وقيل لبعض المحبين وكان قد بلغ المجهود فى بذل ماله ونفسه حتى لم يبق منه بقية ما كان سبب حالك هذه فى المحبة فقال كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت فىّ هذا البلاء قيل وماهى قال سمعت محبا خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبى كله وأنت تعرض عنى بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبنى فأىّ شيء تنفق علىّ فقال ياسيدى أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى أهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود فكان هذا سببه فهذا الذى ذكرناه من لوازم المحبة الحقيقية . وأما رجاء العوض وطلب الغرض فهذا حال من مقامه الرجاء وليس من مقام المحبة المخصوصة فى شيء ، قال الشاعر :

من لم يكن بك فانيا عن حظه　　وعن الهوى والأنس بالأحباب

فلأنه بين المراتب واقف　　لمنال حظ أو لحسن مآب

وقال آخر :

وما أنا بالباغى عن الحب رشوة　　ضعيف هوى يرجو عليه ثوابا

قال أبو محمد رويم من أحب العوض بغض العوض إليه محبوبه وقيل أوحى الله عز وجلّ إلى عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إنى إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبى وقال بعض المحبين كوشفت بأربعين حوراء رأيتهنّ يتساعين فى الهواء عليهنّ ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخشن ويتثنين فنظرت إليهنّ نظرة فعوقبت أربعين يوما قال ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهنّ فى الحسن والجمال وقيل لى انظر إليهنّ قال فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر إليهنّ وقلت أعوذ بك مما سواك لاحاجة لى بهنّ فلم أزل أتضرّع إلى الله تعالى حتى صرفهنّ عنى . وذكر الشيخ الحافظ أبو نعيم رضى الله عنه قال ميسرة الخادم غزونا

(وتشغله حقوق الله) أى الحرص على توفية حقوقه تعالى (عن أن يكون لحظوظه ذاكرا) أى ملتفتا لها بأن يعبد الله تعالى لذاته لا لطمع فى جنته أوهرب من ناره فانه (ليس المحب) الحقيقى (الذى يرجو من محبوبه عوضا) على عمل يعمله فلا يقصد بأعماله الصالحة جنة ولا نجاة من نار (أو يطلب منه غرضا) من الأغراض الدنيوية والأخروية (فانّ المحب) أى الحقيقى (من يبذل لك) أى يعطيك (ليس المحب) الحقيقى (من تبذل له) لأنّ المحبة الحقيقية أخذ خصال المحبوب لمحبه القلب فلا يصير عند المحب التفات لغير محبوبه فمن عبده تعالى لجنته فليس محبا له بل للجنة

فى بعض الغزوات فاذا فتى إلى جانبى و إذا هو مقنع بالحديد فحمل على الميمنة حتى ثناها وعلى الميسرة حتى ثناها وحمل على القلب حتى ثناه ثم أنشد يقول :

أحسن بمولاك سعيد ظنا هذا الذى كنت له تمنى
تنحى يا حور الجنان عنا مالك قاتلنا ولا قتلنا
لكن إلى سيدكن اشتقنا قد علم السرّ وما أعلنا

قال فحمل فقاتل حتى قتل منهم عددا كثيرا ثم رجع إلى مصافه فتكالب عليه العدوّ فاذا هو قد حمل على الناس وأنشأ يقول :

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب أن لا يضيع اليوم كدّى والطلب
يامن ملا تلك القصور باللعب لولاك ما طابت ولا طاب الطرب

فحمل وقاتل فقتل منهم عددا كثيرا ثم رجع إلى مصافه فتكالب عليه العدوّ فحمل الثالثة على الناس ثم أنشأ يقول :

يا لعبة الخلد قفى ثم اسمعى مالك قاتلنا فكفى وارجعى
ثم ارجعى إلى الجنان واسرعى لا تطمعى لا تطمعى لا تطمعى

فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى . ولأجل ماذكرناه من اقتضاء مقام المحبة بذل كلية البذل من المحب لزم وقوع الابتلاآت والمطالبات به حتى يحصل له توفية حقوق هذا المقام على التمام ولهذا قال بعضهم أوّل مايقول الله عز وجلّ للعبد اطلب العافية والجنة والأعمال وغيرذلك فان قال لا ما أريد إلا أنت قال له من دخل معى فى هذا إنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث وثبوت القدم وذلك يوجب له العدم وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك وقال بعض المريدين لأستاذه طولعت بشىء من المحبة فقال له يابنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرته عليه فقال لا قال لاتطمع نفسك فى المحبة فانه لايعطيها أحدا حتى يبلوه وقال بعض علمائنا رضى الله عنهم كل أهل المقامات يرجون أن يعفو عنهم و يسمح لهم إلا من ادّعى المعرفة والمحبة فانهم يطلبون بكل شعرة مطالبة وفى كل حركة وسكون ونظرة وخطرة لله ومع الله وقال ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه وكان له مقامات فى المحبة رفيعة قلت ذات يوم يارب إن كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ماتسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضرّ بى القلق قال فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه فقال يا ابراهيم أما استحييت منى أن تسألنى مايسكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن المشتاق دون لقاء حبيبه أم هل يستريح المحب إلى غير معشوقه قال فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى كيف أقول فقال قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمائك اه فللمحبين دقائق خطرات ولطائف ملاحظات يظهر لهم بذلك الشوق فى صفاء حبهم والبعد فى مواطن قربهم فهم يفرّون منها ويخرجون عنها مخافة أنّ تسترق بشىء من ذلك قلوبهم بأدنى ميل أو مساكنة فيوجب لهم ذلك السقوط من مقامهم الرفيع الذى أهل لهم وأهلوا له ولذلك قال محمد بن سهل بن عبدالله رضى الله عنه جناية المحب عند الله تعالى أشدّ من معصية العامة وهو أن يسكن إلى غير الله أو يستأنس بسواه وقيل أوحى الله تعالى إلى داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام ياداود إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى مع حب غيرى . ويحكى أنّ الله تعالى قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام نعم العبد برخ هو لى إلا أنّ فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء . ويروى

(لولاميادين النفوس) أى شهواتها وعاداتها ومألوفاتها الشبيهة بالميادين أى مواضع مرتكض الخيل بجامع الجولان فى كل فكما أن الخيول تجول فى الميادين كذلك النفوس تجول فى مشتهياتها والمعنى لولا هذه الشهوات التى تخوض فيها النفوس وتتعشقها (ما تحقق سير السائرين) أى ماتصور سير ولا سلوك إلى حضرة ملك الملوك لأنه تعالى أقرب لكل أحد من نفسه قال تعالى - ونحن أقرب إليه من حبل الوريد - فالبعد الذى يوجب السير إلى المحبوب وسلوك الطريق للوصول إليه قائم بك أيها العبد وهو شهواتك ولو عدمت منك لم تحتج إلى سير ولا سلوك لأن البعد الذى يحتاج إلى ذلك منفى عنه سبحانه وتعالى حسيا كان أو معنويا كما أشار إلى ذلك بقوله (إذ لا مسافة) حسية (بينك و بينه حتى تطويها رحلتك) أى ارتحالك لأن المسافة الحسية لا تكون إلا بين متماثلين يصل أحدهما إلى صاحبه (ولا قطعة) بضم القاف أى انقطاعا وعداوة (بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) لأن الانقطاع والعداوة لا يكونان إلا بين متضادين متعاديين فيحتاج أحدهما إلى الوصلة والمودة وأين أنت من الله حتى تعاديه . والحاصل أنك عند انتفاء الشهوات منك لا تحتاج إلى سير لأن السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثار دواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل إلى سعادة لقائه ولولا معاناة هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف والحق أقرب إليك من نفسك فالبعد الحسى وهو المسافة التى تطويها رحلتك والبعد المعنوى وهى القطعة التى تمحوها وصلتك محالان فى حقه تعالى لنفى المثلية فى الأوّل وعدم الضدّية فى الثانى فنفسك هى الحجاب الأعظم عن الله و بمجاهدتها وقمعها وموتها والموت تصل إلى الله . وقال أبو مدين من لم يمت نفسه لم ير الحق وقال الأستاذ أبو العباس لا يدخل على الله إلا من بابين باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعى و باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة . وعن حاتم الأصم من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت موت أحمر وهو مخالفة النفس وموت أسود وهو احتمال أذى الناس وموت أبيض وهو الجوع وموت أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض ولا بدّ للمريد فى هذه الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تأديب نفسه وتخلص من هواه فيسلم نفسه إليه و يلزم طاعته والانقياد إليه فى كل مايشير به عليه من غير ارتياب ولا تأويل ولا تردّد فقد قالوا من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه وقد استوفينا آداب المريد مع الشيخ و بينا من يصلح للمشيخة فى غير هذا الكتاب

أنّ عابدا عبد الله فى غيضة دهرا طويلا فنظر إلى طائر قد عشش فى شجرة يأوى إليها و يصفر عندها فقال لو حوّلت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت ذلك الطائر قال ففعل فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها منى بشىء من عملك أبدا (لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك و بينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك و بينه حتى تمحوها وصلتك) السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثارها ودواعيها وغلبة أحكام طبيعتها وجبلتها حتى تطهر من ذلك وتحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل إلى سعادة لقائه ولولا معاناة هذه الأشياء لم يتحقق السير والسلوك كيف والحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه فالبعد الحسى وهو المسافة التى تطويها رحلته والبعد المعنوى وهى القطعة التى تمحوها وصلته محالان فى حقه تعالى لنفى المثلية فى الأوّل وعدم العندية فى الثانى وهذه الألفاظ التى عبر عنها المؤلف رحمه الله تعالى من السير والميادين والرحلة والوصلة وفى معناها السير والسلوك والذهاب والرجوع هى عبارات استعملتها الصوفية فى أمور معنوية تجوّزوا بها عن أمور حسية ومرجع جميع ذلك كله إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لا غير وهذا الكلام الذى ذكره المؤلف ههنا وما تقدّم له ولنا غير مامرة من أنّ النفس هى الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى وأنّ بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى صحيح المعنى . قال بعضهم ما الحياة إلا فى الموت أى ماحياة القلب إلا فى إماتة النفس وقيل النعمة العظمى الخروج عن النفس لأنّ النفس أعظم حجاب بينك و بين الله تعالى . وقال سيدى أبو مدين رضى الله عنه من لم يمت لم ير الحق وقال سيدى أبو العباس رضى الله عنه لا يدخل على الله إلا من بابين من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعى ومن باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة . وعن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه قال من دخل فى مذهبنا هذا فليجعل فى نفسه أربع خصال من الموت موت أحمر وموت أسود وموت أبيض وموت أخضر فالموت الأبيض الجوع والموت الأسود احتمال أذى الناس والموت الأحمر مخالفة النفس

والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض . وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه للنفس سرّ ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون فقال أنا ربكم الأعلى، ولها سبعة حجب سماوية وسبعة حجب أرضية فكلما يدفن العبد نفسه أرضا أرضا سما قلبه سماء سماء فاذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش يعنى إذا خالفتها وفارقتها وسبيل المريد إلى الوصول إلى موت النفس إنما يكون بتقديم الافتقار والالتجاء والرغبة إلى مولاه فى أن يعينه ويقويه على أمر نفسه ويسهل عليه طريق سلوكه ويستعمل هذا فى كل حال ووقت وليجعله عمدته فيما هو سبيله وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك. وقال بعض العارفين لا يمكن الخروج من النفس بالنفس وإنما يكون الخروج من النفس بالله ثم يشتغل بمراعاة حدود الشريعة والطريقة فى ظاهره وباطنه والتزام آدابهما ولكل عبد عمل مخصوص يقتضى لامحالة حكما مخصوصا يقوم بحقه وذلك يختلف باختلاف أحوال الناس فحركات العبد وسكناته هى أعماله الظاهرة ومقصوده وهمه وإرادته هى أعماله الباطنة وكل واحد من القسمين ينبغى أن يأخذ فيه بعزائم الأمور ويجتنب الرخص التى هى من شأن العامة والجمهور حسبما تقدم عند قوله من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه فعمل الظاهر إن كان واجبا فليبادر إلى فعله ولا يتوان عنه وليقم بجميع آدابه اللازمة له ويلتحق بذلك ما كان مندوبا إليه إذا علم فى أى مرتبة هو وإنما اشترطنا هذا الشرط لأن المندوبات التى تعترضه يحتاج فيها إلى تقديم الأولى فالأولى والأهم فالأهم منها فان لم يعمل على هذا وقدم ماليس بأهم كان متبعا للهوى لا لموجب العلم وليأخذ فى ذلك بالقصد من غير إفراط ولا تفريط ولا غلوّ ولا تقصير وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اكلفوا من العمل ماتطيقون فان الله تعالى لا يمل حتى تملوا وإن أفضل العمل أدومه وإن قل» وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله علية وسلم «إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا» وإن كان حراما فليبادر إلى تركه واجتنابه وليقطع عن نفسه جميع أسبابه ويلتحق بذلك ما يكون مكروها وإن كان مباحا فهذا هو محل نظر المريد فعليه أن يأخذ بالعزيمة فيه وليقف على حدود الضرورة منه وليكن اجتنابه لما يشتد ميل النفس إليه ويعظم حرصها عليه أكثر من اجتنابه لما فقد منه ذلك ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص فرب شخص تميل نفسه إلى ما لا تميل إليه نفس شخص آخر فليشتغل المريد بقطع ذلك وزوال علاقته من قلبه بالرياضة والمجاهدة وليستمر على ذلك حتى يكون وقوفه على ما لابد له منه على وجه الطاعة والقربة لا على سبيل الهوى والشهوة ومما يشتدّ ميل نفوس أكثر الناس إليه ما يكون سبب تناوله واستعماله مراعاة نظر الخلق والجرى على عوائدهم السيئة ومراسمهم المذمومة ومجاهدة النفس فى مثل هذا عسيرة جدا لاسيما على من ابتلى بحب الجاه والرياسة وقبول الخلق فى ولاية حكم أو نشر علم أو غير ذلك فانها أشدّ الشهوات علاقة بالقلب وأضرها بالمريد فيجب عليه أن يعتنى بذلك ويبالغ فى تطهير ظاهره وباطنه منه مما يتعاطاه من أعمال وأحوال وقد نبهنا على هذا المعنى فى أول الكتاب عند قول المؤلف رحمه الله تعالى ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه . ويتعين على المريد فى رياضته ومجاهدته أن يمنع حواسه ويكف جوارحه عن التطلع والجولان فى مظان وجدان شهواته وسيء عاداته وأن لايجامعها ولا يتفق معها فان ذلك منشأ كل شر ومنبع كل فساد وضر كما قيل :

إن السلامة من سلمى وجارتها ... أن لا تمرّ على حال بواديها

فليراقب ربه وليحفظ جوارحه وقلبه فان الانسان قد يتحرك مثلا فى طلب الخير والعمل من أعمال

البرفيتفق أن يقع بصره على شيء له فيه هوى وشهوة فتميل نفسه إليه بالشره والمحبة فيتكدر عليه وقته ويظلم قلبه ويختل عليه فى لحظة ما كابد أمره فى سنة مثلا وكذلك سائر حواسه وقد شبه العلماء رضى الله عنهم النفس فى مثل هذا بدابة استعارها رجل من ربها ومالكها ليتصرف بها فى حاجاته وكانت دابة جموحة صعبة المراس فجاز بها المستعير فى بعض تصرفاته على دار مولاها فنزعت إلى دار سيدها فانه لامحالة يحتاج إلى صرف عنانها فان تقاعست ضربها بالسوط والعصا حتى يصرفها بذلك عما نزعت إليه وقد يكون عليه فى ذلك تعب ومؤنة ، وسبب ذلك إنما هو خطوره بها على دار مولاها الذى ألفته واعتادته ولو لم يمر بها عليه لسلم ولم يحتج إلى معاناة ولا مكابدة فان تغافل عنها حتى أدخلت يديها فى عتبة الباب واستمكنت منها ثم أراد منعها من الدخول لم تطعه بوجه بل اقتحمت به باب الدار كرها وربما جرحت رأسه وآلمته ، وسبب ذلك إنما هو تمكينها من العمل بمقتضى طبيعتها وموافقة جبلتها فكذلك حال النفس قال :

فالنفس إن أعطيتها هواها   فاغرة نحو هواها فاها

فلذلك كانت الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريد فان نفسه إذ ذاك تكون ساكنة هادئة قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها وبمداومته على ذلك يحصل له من التزكية والتحلية والاستقامة والطمأنينة ماهو المقصود بالرياضة والمجاهدة فان اعتراه شيء مما ذكرناه اختل عليه حاله واحتاج من أجل ذلك إلى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة وأنى له مع ذلك تلافى مافاته وقد قالوا وقفة المريد شر من فترته . قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه والفرق بين الوقفة والفترة أن الفترة رجوع عن الارادة وخروج منها والوقفة خروج عن السير باستيلاء حالات الكسل وكل مريد وقف فى ابتداء إرادته لايجيء منه شيء اه كلامه رحمه الله فبدايات الأمور هى التى يجب أن يراعيها المريد والله ولى التوفيق والتسديد ولا غنى للمريد فى هذا القسم عن تحصيل مايحتاج إليه من العلوم الشرعية على ماينبغى وعمل الباطن يرجع حاصله إلى أمر واحد وهو إخلاص التوحيد لله عز وجل باعتقاد العبودية له وذلك بأن يحمل نفسه على الاستسلام لأحكام الله تعالى وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه وهذا المعنى هو الذى ضمنه المؤلف رحمه الله كتابه التنوير فى إسقاط التدبير فليستعن المريد على ذلك به ولايقصد برياضته ومجاهدته التوصل إلى شيء من الكرامات وخرق العوائد وأنواع الاجابات فان ذلك فتنة وبلية قاطعة عليه طريق العبودية . قال أبو عثمان المغربى رضى الله عنه من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه وخاليا من جميع الارادات إلا رضا ربه وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب وإن لم يكن بهذه الصفة فان خلوته توقعه فى فتنة أو بلية . وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشيء حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية . قال صاحب كتاب عوارف المعارف من دخل الخلوة معتلا فى دخوله دخل عليه الشيطان وسوّل له أنواع الطغيان وامتلأ من الغرور والمحال وظنّ أنه حصل على حسن الحال قال وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزة عن الخلق ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة والوحدة فى جمع الهمّ لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقا فكل ماكان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب والزهد فى الدنيا وحلاوة الذكر والمعاملة لله بالاخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك وماكان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتج صفاء

فى

فى النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضية مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون وكلما أكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كلّ الركون ويظنّ أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة ، ولا يعلم أن هذا الفنّ من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة وليست هى المقصودة من الخلوة لقول بعضهم الحق يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة ، وقد يفتح على الصادقين بشىء من خرق العادات وصدق الفراسة وتبين مايستحدث فى المستقبل وقد لايفتح عليهم ذلك ولايقدح فى حالهم عدم ذلك وإنما يقدح فى حالهم الانحراف عن حدّ الاستقامة ومايفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعى لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة ومايفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق ولايزال به حتى يخلع ربقة الاسلام من عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ويظنّ أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى وترك متابعة الرسول ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نعوذ بالله من الضلال ، وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويسمونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك اه كلامه رحمه الله وهو فى غاية الحسن ونهاية التحقيق فبمداومة العبد على مثل هذه الأساليب التى ذكرناها مشاهدا لتوفيق ربه عز وجل وتأييده له يحصل له من الله مزيد كثير وعند ذلك يتطهر باطنه من جميع الآفات وخبائث الصفات وتستنير سريرته بأنوار المكاشفات والملاطفات . وقد عبر الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة فقال قتل النفس فى الحقيقة التبرى من حولها وقوّتها أو شهود شىء منها وردّ دواعيها إليها وتشويش تدبيرها عليها وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها وانسلاخها من اختيارها وإرادتها وامحاء آثار بشريتها عنها فأما بقاء الرسوم والهيا كل فلاخطر لها ولاعبرة اه فهذه هى السبيل إلى موت النفس المفضى إلى حضرة القدس لكونه جاريا على مقتضى الشريعة والحقيقة اللتين بأنوارهما يهتدى كلّ سالك ومريد ولابدّ للمريد فى هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلصه من هواه فليسلم نفسه إليه وليلزم طاعته والانقياد إليه فى كل مايشير به عليه من غير ارتياب ولاتأويل ولا تردّد ، فقد قالوا من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه ، وقد قال أبو على الثقفى رضى الله عنه: لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لايبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب نفسه ورعونات أعماله لايجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات ، وقال سيدى أبو مدين رضى الله عنه : من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه ، وقال المؤلف رحمه الله فى لطائف المنن : إنما يكون الاقتداء بولىّ دلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه فطوى عنك شهود بشريته فى وجود خصوصيته فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد يعرّفك برعونات نفسك فى كائنها ودقائقها ويدلك على الجمع على الله ويعلمك الفرار عما سوى الله ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك باحسان الله إليك فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب عنها وعدم الركون إليها ويفيدك العلم باحسان الله إليك الاقبال عليه والقيام بالشكر إليه والدوام على ممرّ الساعات بين يديه قال : فان قلت فأين من هذا وصفه لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب فاعلم أنه لايعوزك وجدان الدالين وإنما يعوزك وجدان الصدق فى طلبهم جد صدقا تجد مرشدا وتجد ذلك فى آيتين من كتاب الله تعالى

قال الله سبحانه ـ أمن يجيب المضطرّ إذا دعاه ـ وقال سبحانه ـ فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ـ فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء والخائف إلى الأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك ، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذافقدته لوجدت الحقّ منك قريبا ولك مجيبا ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك اه وفى كلامه رحمه الله تنبيه على أن الشيخ من منح الله وهداياه للعبد المريد الصادق إذاصدق فى إرادته و بذل فى مناصحة مولاه جهد استطاعته لاعلى ماقد يتوهمه من لاعلم عنده ، وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الآداب معه لما أشهده من عالى مرتبته ورفيع درجته . قال سيدى أبومدين الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرّك بالتعظيم ، الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك باطراقه وأنار باطنك باشراقه ، الشيخ من جمعك فى حضوره وحفظك فى مغيبه . وقال المؤلف رحمه الله فى لطائف المنن وليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذى أثرت فيك إشارته وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك و بينه الحجاب ، وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك الذى نهض بك حاله شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك نهض بك إلى الله فنهضت إليه وسار بك حتى وصلت إليه ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك فى أنوار الحضرة وقال ها أنت وربك اه ، وآداب المريد مع الشيخ والشيخ مع المريد كثيرة مذكورة فى كتب الأئمة الصوفية رضى الله عنهم ، ومن أبلغ ذلك وأوجزه ماذكره الامام أبوالقاسم القشيرى رضى الله عنه قال فشروط المريد أن لايتنفس نفسا إلا باذن شيخه ومن خالف شيخه فى نفسه سرا أوجهرا فسوف يرى عنه من غير مايحبه سريعا ومخالفة الشيوخ فيما يسرّونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهد وأكثر لأن هذا يلتحق بالخيانة ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق فان برز منه شىء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والافصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه إلى مافيه كفارة جرمه و يلتزم فى الغرامة مايحكم به عليه فاذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته فان المريدين عيال على شيوخهم فرض عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم ما يكون جبرانا لتقصيرهم اه وقال الشيخ العارف محيي الدين أبوالعباس البونى رحمه الله إياك أن تحقر فعلا يخطر لك أن لاتلقيه إلى الشيخ طاعة كان أومعصية على أى نوع برزلك ولو اختلف عليك ألف مرة فى ساعة واختلف إليه ألف ساعة فى الخاطر ليعلمك الدواء الذى تزعجه به أو يحمل عنك بهمته قال ولقد رأيت تلميذا من أصحاب شيخنا الامام تاج العارفين أبى محمد عبد العزيز بن أبى بكر القرشى المهدوى رحمه الله تعالى وكنت جالسا عنده فدخل عليه فقير وفى يده باقلاة فقال له ياسيدى إنى وجدت هذه الباقلاة فما أصنع بها فقال له اتركها حتى نفطر عليها فقلت ياسيدى حتى الباقلاة يعلم بها قال ياولدى لو خالفنى فى لحظة من خطراته لم يفلح أبدا فاذا جوهدت النفس بهذه المجاهدات وقوتلت بهذه المقاتلات رجعت عن جميع مألوفاتها الدنيئة وعاداتها الرديئة وزال عنها النفور والاستكبار ودانت لمولاها بالعبودية والافتقار وتزكت أعمالها وصفت أحوالها وهذه هى خاصيتها التى خلقت لأجلها ومزيتها التى شرفت من قبلها و إنما ألفت سوى هذه لمرض أصابها من الركون إلى هذا العالم الأدنى والأنس بالشهوات التى تزول وتفنى حتى امتنع عليها ماخلقت لأجله من موجب سعادتها دون غاية شرفها وافادتها فلما تعالجت بما ذكرناه عادت إلى الصحة و إلى طبعها الأصلى فألفت العبودية والتزمتها وصارت بذلك مطمئنة صالحة لأن يقال لها ـ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى

عبادى وادخلى جنتى ـ . قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه النفس المطمئنة هى التى تخلصت من السوء ولم يبق بينها و بين السوء نسبة وكانت مباديها فى الا كتساب الايمان والرضا المكتسب فاماصفت وتطهرت من جميع المخلوقات وزال عنها الحجاب الذى هو صفة الخلق سمعت النداء من مكان قريب فأجابت لعدم الحجاب فخرجت للمواهب والرضا الوضعى الوهبى الذى قال الله فيه ـ رضى الله عنهم ورضوا عنه ـ فدخلت فى رضا الله الطاوب الموهوب وفى عباده وجنته لا فى جنتها بوصف كسبها وأعمالها اهـ وعلامة وصول المريد إلى هذا المقام الحميد أن تستوى عنده الأحوال ولا يتأثر باطنه بما يواجه به من فتح الأفعال والأقوال لاستغراق قلبه فى مطالعة حضرة الكمال . قال أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء فى المنع والعطاء والعزّ والذل . وقال محمد بن حنيف رضى الله عنه قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل وكان به علة البطن فكنت أخدمه وآخذ منه الطشت طول مرضه فنفرت مرة فقال لى نمت لعنك الله فقيل له كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله فقال كقوله رحمك الله وحكى عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه قال ماسررت فى الاسلام إلا مرات معددودات كنت فى مركب يوما وكان به رجل يحكى الحكايات المضحكة فيضحك منه الناس وكان يقول رأيت وقتا فى معركة الترك علجا فقلت هكذا وكان يأخذ بلحيتى ويمر يده على حلقى هكذا والناس يضحكون منه ولم يكن فى ذلك المركب عنده أحد أصغر منى ولا أحقر فسررت بذلك وكان يوم آخر كنت جالسا فجاء إنسان وصفعنى من غير سبب و يوم آخر كنت جالسا فجاء إنسان و بال على وكان فى وقت حاتم الأصم رضى الله عنه رجل يسىء القول فيه وفى أصحابه و يواجههم كل يوم بالقبيح فوقع عليه جذع من السقف فى بعض الأيام فى حال مواجهة القوم بالسب والشتم فمات فقال الحمد لله فقيل له هذا خلاف ماتأمرنا به فقال ماحمدت الله شماتة بموته بل حمدت الله إذ لم أسر بنكبته . هذا وأشباهه من أحوالهم معلوم ضرورة وأبلغ من هذا كله محبة الموت وكراهية البقاء فى الدنيا شوقا إلى لقاء المولى قال بعضهم حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله تعالى فى كل نفس من غير اختيار حالة يكون المرء عليها فاذا وجد المريد هذه العلامات فى نفسه فقد خرج من عالم جنسه ووصل إلى حضرة قدسه وكان كما قال الشاعر :

لك الدهر طوع والأنام عبيـــد فعش كل يوم من زمانك عيد

وكما قال سيدى أبو العباس العريف رضى الله عنه فى هذا المعنى :

بدا لك سر طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فان غبت عنه حل فيه وطنبت على مركب الكشف المصون خيامه
وجاء حـــديث لا يمل سماعه شهى إليه نثره ونظامه
إذا سمعته النفس طاب نعيمها وزال عن القلب المعنى غرامه

وأنشدوا فى معناه أيضا رضى الله عنهم أجمعين .

قولى لآمالى ألا فابعــدى قد أنجز الأحباب لى موعدى
قد كنت قبل اليوم مستأنسا منك بحـــل مشفق مسعد
إذا نسيم الوصل من نحوهم هب فلى عندك ظل ندى
وحيث لاحت لى أعلامهم فليس لى فقـــر إلى مرشدى

و إن لم يجدها فى نفسه فليستمر على سلوكه ومجاهداته ولا يغتر بما قد يتراءى له من سنىّ حالاته فانه لم يصل

(جعلك) أيها الانسان (فى) زائدة (العالم المتوسط بين ملكه وملكوته) أى جعلك العالم المتوسط بين عالم الملك وهو عالم الشهادة وعالم الملكوت وهو عالم الغيب فالانسان ليس من عالم الملك محضا ولا من عالم الملكوت محضا بل هو متوسط بينهما حسا ومعنى أما حسا فلأن الله تعالى خلقه بين السماء والأرض وغيره من الحيوانات وغيرها مخلوق لأجل انتفاعه به؛ وأما معنى فلأن الله تعالى خلقه فى أحسن تقويم وجعله متضمنا لأسرار جميع الموجودات علويها وسفليها لطيفها وكثيفها فصار بذلك روحانيا جسمانيا سماويا أرضيا ولذا يقال له العالم الأصغر ويقال إنه نسخة من العوالم ففيه من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة ومن صفات الشياطين الإغواء والتمرد والطغيان ومن صفات الحيوانات أنه فى حالة الغضب يكون أسدا وفى حالة غلبة الشهوة يكون خنزيرا لا يبالى أين يلقى نفسه وفى حالة

الحرص على الدنيا والشره يكون كلبا وفى حالة الاحتيال والخداع يكون ذئبا ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون فى مبدئه غصنا طريا مترعرعا وفى آخره يابسا أسود ومن صفات السماء أنه محل الأسرار والأنوار ومجمع الملائكة ومن صفات الأرض أنه محل لنبات الأخلاق والطباع ومنه اللين والخشن ومن صفات العرش أن قلبه محل التجلى واللوح أنه خزانة العلوم والقلم أنه ضابط لها والجنة أنه إذا حسنت أخلاقه تنعم به جليسه والنار أنه إذا قبحت أخلاقه احترق به جليسه وإنما جعلك كذلك (ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته) وأنها كلها مسخرة إليك ومخلوقة لأجل انتفاعك بها فينبغى لك أن ترفع همتك عنها وتشتغل بمولاك قال أبو العباس المرسى (إنما الأكوان كلها عبيد مسخرة لك وأنت عبد الحضرة فهذا يتعلق بالتوسط الحسى على ما مر وأشار إلى ما يتعلق بالتوسط المعنوى بقوله (وأنت جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوّناته) أى أصداف هى مكوناته أو مكنوناته الشبيهة بالأصداف جمع صدفة وهى ما فيه الجوهرة وانطواؤها عليه من حيث إن صفات جميعها فيه على ما مر ولم يخلق على هذه الصفة إلا الانسان فلذا خلقه الله على صفاته وجعله خليفة فى تنفيذ أمره ونهيه وجعل له وجهتين وجهة إلى الحق ووجهة إلى الخلق. وأما الملائكة ومن فى معناهم من الروحانيين فليس لهم إلا الوجهة الأولى وهذا فى جملة كل إنسان لكن لا يظهر له إلا بعد الرياضة والمجاهدة ويسمى حينئذ الانسان الكامل وهذه أسرار لا تدرك إلا بالذوق ولا تفشى لغير أربابها . ثم أشار إلى خاصية أخرى لذلك الانسان بقوله

بعد ولم يحصل له من هوى نفسه فقد وليس طريق موت النفس بقطع جميع الإرفاق عنها وردها إلى الاجتزاء بالخشن والنخالة والمبالغة فى التقشف والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب وهممه وقصور إراداته وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم فذلك كله غلوّ وبدعة وقد غلط فى ذلك طوائف من الناس عملوا عليه فى رياضاتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم وانحلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة (جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوّناته) خلق الله تعالى الانسان فى أحسن تقويم وأتم تسوية وتعديل وجعل بنيته متضمنة أسرار جميع الموجودات علويها وسفليها لطيفها وكثيفها فصار لذلك روحانيا جسمانيا أرضيا سماويا ولذلك يقال له العالم الأصغر وهذا هو الذى يظهر لى فى معنى جعله فى العالم المتوسط بين عالم الملك وعالم الملكوت وعالم الملك هو عالم الشهادة وعالم الملكوت هو عالم الغيب فلا جرم لما كان الانسان بهذه المثابة من كونه نخبة جميع الموجودات الجسمانيات والروحانيات كانت الأكوان كلها له باعتبار إحاطتها وحفظها له بمنزلة القشر والصوان الذى يحفظ الشئ ويصونه وكان هو بمنزلة الجوهرة النفيسة التى تحويها الصدفة . والمقصود من هذا أن يعرف الانسان جلالة قدره وفخامة أمره فيعلو بهمته إلى المراتب السامية اللائقة به وذلك بإخلاص العبودية لربه عزّ وجلّ وقطع النظر عن كل ماسواه وينظر فى هذا المعنى إلى ما قاله الشاعر :

إذا كنت كرسيا وعرشا وجنة ... ونارا وأفلاكا تدور وأحراكا

وكنت من السر المصون سريرة ... وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا

ففيم التأنى فى الحضيض تثبطا ... مقيما مع الأسرى أما حان إسراكا

كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول الأكوان كلها عبيد مسخرة لك وأنت عبد الحضرة وقد ورد فى بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم أنا بدك اللازم فالزم بدك . وفى بعض الآثار المروية عن الله عزّ وجل يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له ؟ وقال الواسطى رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى ـ ولقد كرمنا بنى آدم ـ قال بأن سخرنا لهم الكون وما فيه لئلا يكونوا فى تخير شئ ويتفرغوا إلى عبادة ربهم

(إنما وسعك الكون) أى العالم السفلى وهو الأرض (من حيث جسمانيتك) بضم الجيم أى جسمك لأن جسمك بعض الكون ومحصور فيه ومصالحه غير خارجة عنه (ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) أى روحك لأنها ليست من هذا العالم ولامناسبة بينها و بينه فلا تصلح أن تتعلق بشىء منه بل لاتصلح أن تتعلق إلا بالمولى سبحانه . والحاصل أن الانسان مجموع شيئين جسم وروح و بين الجسم والكون مناسبة ومجانسة فهو متوقف على الكون فان تعاطى منه مايقوم به بقى فى هذا العالم و إلاهلك حسبما جرت به العادة الإلهية وليس بين الروح والكون مجانسة ولامناسبة فلا تصلح أن تكون متعلقة به بل بالمكوّن وهو المولى جلت قدرته وحينئذ فينبغى السعى فى تكميلها بالأذكار والرياضات حتى تزول عنها الكدورات البشرية وتصلح لتعلقها بحضرة الرب الذى هو شأنها الأعظم وأما الجسم فلا ينبغى الاهتمام بما يصلحه فان الله متكفل به ولا بد ولذا قيل :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته

وتطلب الربح مما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

(الكائن فى الكون) أى الموجود فى الدنيا (ولم تفتح له ميادين الغيوب) أى لم يفتح قلبه للعلوم والمعارف

(٧٣)

(إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك لوجود المناسبة والمجانسة ووسعه لك باعتبار ماذكرناه إنما هو باكتفائك به وقضاء أوطارك منه ووقوف أملك فى نيل حاجاتك عليه ولاخاصية لك فى هذا أيها الانسان لأن مرتبتك أجلّ من ذلك و إنما لم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك لعدم المناسبة فلايسعك حينئذ ولا يناسبك إلا التعلق بالمكوّن وهذه هى خاصيتك التى فيها سموك وعلوك ورفعة قدرك فلم تهملها وتنحط منها إلى أسفل سافلين . قال أبو عبد الله بن الجلاب رضى الله عنه : من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوّنها ومن وقف بهمته على شىء من الخلق فاته الحق لأنه أعزّ من أن يرضى معه شريكا . وسئل أحمد بن خضرويه رضى الله عنه أىّ الأعمال أفضل؟ فقال رعاية السر عن الالتفات إلى شىء سوى الله (الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته) فمن لازم الكون و بقى معه وقصر همته عليه ولم تفتح له ميادين الغيوب الملكوتية ولاخاض سيره إلى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته وهذه هى صفات أصحاب النار كما قال الله تعالى ــ أحاط بهم سرادقها ــ وليس فى جهنم عذاب أعظم من السجن والحصر والضيق والقهر كما قال الله تعالى ــ و إذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرّنين دعوا هنالك ثبورا ــ وماذكرناه هو حال من يبقى مع نفسه وعمل على نيل حظه كائنا ما كان . وفى بعض الآثار المروية عن الله عزّ وجلّ عبدى : اجعلنى مكان همك أكفك كل هم ما كنت بك فأنت فى محل العبد وما كنت بى فأنت فى محل القرب فاختر لنفسك (أنت مع الأكوان مالم تشهد المكوّن فاذا شهدته كانت الأكوان معك) فرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك فان كونك مع الأكوان يقتضى تقييدك بها وحاجتك إليها فأنت بذلك عبد لها ثم هى خاذلتك ومسلمتك أحوج ماتكون إليها وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكوّن وكون الأكوان معك يقتضى ملكك لها واستغناءك عنها فأنت حينئذ حرّ عنها وهى محتاجة إليك وخادمة لك ومتبركة بك حتى الجمادات والحيوانات . وقال الشبلى رضى الله عنه : ليس يخطر الكون ببال من عرف المكوّن انتهى وهذه حالة نفيسة يقتضيها شهودك للمكوّن . قال بعض المشايخ رضى الله عنهم : أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إلىّ وأنا عن جميعها حر . وعن المزين الكبير رضى الله عنه قال : كنت مع إبراهيم الخوّاص فى بعض أسفاره فاذا عقرب تسعى على فخذه فقمت لأقتلها فمنعنى وقال دعها كل شىء مفتقر إلينا ولسنا مفتقرين إلى شىء . وقال محمد بن المبارك الصوفى رحمه الله كنت مع إبراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس فنزلنا فى وقت القائلة تحت شجرة رمان فصلينا ركعتين فسمعت صوتا من أصل الرمان يا أبا اسحق أكرمنا بأن تأكل منا شيئا فطأطأ إبراهيم رأسه فقال ذلك

الشبيهة بالميادين (مسجون بمحيطاته) أى بشهواته ولذاته وعاداته المحيطة به من المآكل والملابس والمشارب (ومحصور فى هيكل ذاته) أى هيكل هو ذاته النفسانية والمراد شهواته ولذاته فهو مرادف لما قبله (أنت مع الأكوان) أى واقف معها ومستند إليها وهى مستعبدة لك (مالم تشهد المكوّن) فيها (فاذا شهدته) فيها (كانت الأكوان معك) أى كنت مستغنيا عنها ومالكا لها وهى محتاجة إليك وخادمة لك فاذا طلبت منها شيئا حصل و إذا قلت للشىء كن كان باذن الله تعالى ولذا كان بعض الأولياء يقول للسماء امطر فتمطر وللريح هبى فتهب وسبب ذلك غيبته عنها بشهود مكونها ومعلوم أن حالة الشهود يغيب فيها الولى عن حسه وعن بشريته ولايلزم من ذلك فناؤها ولذا قال

(لا يلزم من ثبوت الخصوصية) أى ما يخصك الله به من القوّة والقدرة على التصرف فى المكوّنات والكشف عن أحوالها وغير ذلك (عدم وصف البشرية) كفقر وضعف وعجز وذل وجهل لأن الوصف البشرى أمر ذاتى لازم للعبد والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها ثم ضرب لذلك مثالا من المحسوسات بقوله (إنما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار) أى كشمس النهار المشرقة (ظهرت فى الأفق) أى نواحى السماء (وليست منه) أى ليست من ذاتياته وكما أن شمس النهار إذا ظهرت على الآفاق المظلمة

استنارت وإذا غربت رجعت إلى حالها من الظلمة لأن النور ليس ذاتيا لها بل هو عرض والأمور العرضية لا تزيل الذاتيات كما مر، كذا الأوصاف البشرية القائمة بذاتك كالفقر والعجز والضعف شبيهة بالليل فاذا ظهر عليها شمس التجلى بأن تجلى الله عليك بصفة الغنى والقدرة استنارت ذاتك أى حصل لها نور بالغنى والقدرة وإذا قبض عنها ذلك رجعت إلى حالها وإلى هذا أشار بقوله (تارة تشرق شموس أوصافه) تعالى أى أوصافه الشبيهة بالشموس (على ليل وجودك) أى على أوصافك الذاتية الشبيهة بالليل فتظهر خصوصيتك فتكون قادرا بالله قويا به عالما به وهكذا فاذا تجلى عليك بصفة القدرة حدث فيك قوّة غطت

ثلاث مرات ثم قال يا محمد كن شفيعا إليه ليتناول منا شيئا فقلت يا أبا اسحق لقد سمعت فقام فأخذ منها رمانتين فأكل واحدة وناولنى الأخرى فأكلتها وفى غير هذه الحكاية أن الشجرة كانت قصيرة ورمانها حامض وأنها تطعم فى كل عام مرة فعلت وارتفعت وحلا رمانها وصارت تطعم فى كل عام مرتين وكانت السباع تجىء إلى سهل بن عبد الله رضى الله عنه فيدخلهم بيتا عنده ويضيفهم ويطعمهم اللحم وقال إبراهيم الخوّاص رضى الله عنه كنت فى البادية مرة فسرت فى وسط النهار فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء فنزلت فاذا أنا بسبع عظيم قد أقبل فلما قرب منى إذا هو يعرج فحمحم وبرك بين يدىّ ووضع يده فى حجرى فنظرت فاذا يده منتفخة فيها قيح ودم فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ومسحته وشددت على يده خرقة فمضى فاذا أنا به بعد ساعة جاء ومعه شبلان يبصبصان لى وحمل إلىّ رغيفا . وقال بعضهم أشرفت على إبراهيم بن أدهم وهو فى بستان يحفظه وقد أخذه النوم وإذا حية فى فيها طاقة نرجس تروّحه بها وحكى عن أبى اسحق الصعلوكى رحمه الله تعالى قال خرجت مرة إلى الحج فبينما أنا فى البادية إذ تهت فلما جنّ علىّ الليل وكانت ليلة قمراء فسمعت صوت شخص ضعيف يقول يا أبا اسحق قد انتظرتك من الغداة قال فدنوت منه فاذا هو شاب نحيف قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة منها ما عرفته ومنها ما لم أعرفه فقلت من أين أنت فقال من مدينة سميساط كنت فى عزّ وثروة فطالبتنى نفسى بالعزلة فخرجت وقد أشرفت على الموت فسألت الله تعالى أن يقيض لى وليا من أوليائه فأرجو أنك هو قال فقلت له ألك والدان قال نعم وإخوة وأخوات قلت هل اشتقت إليهم وإلى ذكرهم فقال لا إلا اليوم أردت أن أشم ريحهم فاحتوشتنى السباع والبهائم وبكين معى وحملن إلى هذه الرياحين قال فبينا أنا فى تلك الحالة برق له قلبى إذا بحية أقبلت فى فمها طاقة نرجس فقالت دع شرك عنه فان الله تعالى يغار على أوليائه قال فغشى علىّ فما أفقت حتى خرجت نفسه رحمة الله تعالى عليه ورضوانه ثم وقع علىّ سبات فانتبهت وأنا على الجادة قال فدخلت مدينة سميساط بعد ما حججت فاستقبلتنى امرأة فما رأيت أشبه بالشاب منها فلما رأتنى قالت يا أبا اسحق كيف رأيت الشاب فانى أنتظرك منذ ثلاث فذكرت لها القصة إلى أن قلت قال أردت أن أشم ريحهم فصاحت وقالت آه بلغ الشم الشم وخرجت نفسها فخرجت أتراب لها عليهن المرقعات والفوط فتكفلن أمرها وتولين شأنها رضى الله عنهم أجمعين فهكذا حال من يكون عظيم الهمة شريف الارادة والنية لا يساكن أحدا من المخلوقات ولا يوطن نفسه على شىء من المصنوعات فيتكفل الله تعالى بأمره ويجعل الكون خادما له بأسره رزقنا الله تعالى وإيا كم ما رزقهم ووفقنا كما وفقهم بجوده وكرمه (لا يلزمهم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية إنما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك فالنهار ليس منك وإليك ولكنه وارد عليك) ثبوت الخصوصية للعبد لا يلزم منه عدم وصف البشرية لأن الوصف البشرى أمر ذاتى لازم للعبد والأمور الذاتية اللازمة يستحيل عدمها وانقلابها وإنما اللازم من ذلك عدم غلبة أحكام ذلك الوصف على العبد فقط لأجل الوارد الغالب فان

عجزك أو بصفة العلم حدث فيك علم غطى جهلك وهكذا (وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك) من العجز والضعف والجهل وغير ذلك فلا تظهر خصوصيتك ولذا كان عليه الصلاة والسلام تارة يظهر عليه وصف القوّة والقدرة فيطعم ألفا من صاع وتارة يظهر عليه وصف العجز فيشد الحجر على بطنه من الجوع وكذا ورثته من الأولياء (فالنهار) وهو تلك الخصوصيات التى ظهرت عليك (ليس منك وإليك) أى ليس من أوصافك الذاتية (ولكنه وارد عليك)

قدر

من حضرة الحق سبحانه فان شاء الله أبقاه وأن شاء أزاله ولذا ترى بعض الأولياء فى بعض الأحيان عندهم قوة بطش وفى بعضها يكونون عاجزين ومع هذا شموس أنوارقلوبهم وهى المعارف والأسرار لا تغيب ولا تغرب كما مر وإنما الذى يغيب هو الخصوصيات التى تظهر على ظواهرهم وهى الشموس المرادة هنا فلا تعارض ثم قال (دل بوجود آثاره) أى مكوّناته ومصنوعاته المتقنة المحكمة (على وجود أسمائه) إذ لا يصدر ذلك إلا من قادر مريد عالم (و بوجود أسمائه على ثبوت أوصافه) من القدرة والارادة والعلم (و بثبوت أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه) وهذا حال السالكين فانّ أوّل ما يظهر لهم الآثار وهى الأفعال فيستدلون بها على الأسماء و بالأسماء على الصفات و بالصفات على وجود الذات وهم الذين يقولون ما رأينا شيئا إلا رأينا الله بعده وأما المجذوبون فبالعكس كما أشار إلى ذلك بقوله (فأرباب الجذب يكشف لهم) أوّلا (عن كمال ذاته) أى عن ذاته الكاملة فيدركونه عيانا إدراك ذوقى (ثم يردهم إلى شهود صفاته) بأن يشاهدوا ارتباطها بالذات (ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه) بأن يشاهدوا تعلقها بالآثار (ثم يردهم إلى شهود آثاره) أى صدورها عن الأسماء فأوّل ما ظهر لهم من حقيقة الذات المقدسة ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء ثم أنزلوا إلى شهود الآثار وهم الذين يقولون (٧٥) ما رأينا شيئا إلا رأينا الله قبله (والسالكون على عكس هذا) كما مرّ (فنهاية السالكين) وهى شهود الذات المقدسة والكشف عن كمالها (بداية المجذوبين و بداية السالكين) وهى التعلق بالآثار وشهود استنادها إلى الله (نهاية المجذوبين لكن لا بمعنى واحد) أى ليسا متحدين من كلّ وجه فانّ نهاية السالكين و إن كان فيها جذب لكنه مصحوب بالتمكن وعلم أحوال الطريق ومعرفة عقبات النفوس فانهم

قدّر ذهاب هذا الوارد الغالب بقى وصف البشرية غالبا قاهرا وكان العبد فى يديه أسيرا . ومثال ذلك من المحسوسات إشراق شمس النهار على الآفاق المظلمة لتزيل آثار ظلمانيتها فتستنير بذلك وتشرق فاذا غابت الشمس رجعت إلى حالها من الظلمة لأن النور ليس بذاتى لها وهو معنى قوله وليست منه ومعنى الخصوصية المذكورة هو ما يخص الحق تعالى به أولياءه من ظهور أوصافه العلية ونعوته القدسية عليهم ليغطى بذلك أوصاف نفوسهم الدنيئة الرديئة عنهم لئلا تظهر آثار كدوراتها فى صفاء أوقاتهم كما تقدّم من قوله إذا أراد أن يوصلك إليه ستر وصفك بوصفه وغطى نعتك بنعته فاذا أشرقت أنوار ذلك الوارد على ليل وجودهم ذهبت بظلمات نفوسهم و بقوا فى نهار الوصلة والقربة من غير حول منهم ولا قوّة وهو معنى قوله فالنهار ليس منك و إليك وان غابت عنهم تلك الأنوار المشرقة رجعوا إلى أصلهم ولزموا الوقوف على حدّهم وكانوا فى ليل القطيعة والحجبة كما كانوا قبل ذلك . والغرض من هذا الردّ على طوائف غلطت فى هذا الأمر وتغالت وزعمت أنّ القرب من الله تعالى والوصول إليه إنما يكون بعدم أوصافه البشرية وزوالها بالكلية واتصافه بصفات الربوبية بدلا منها وفسرت بهذا ما عبر به المشايخ من الفناء والبقاء فوقعوا من ذلك فى ضلال وتزندق نعوذ بالله من ذلك والمعنى الصحيح من ذلك إنما هو ماذكره المؤلف رحمه الله تعالى ورضى عنه ههنا (دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه و بوجود أسمائه على ثبوت أوصافه و بثبوت أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه فأرباب الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ثم يردّهم إلى شهود صفاته ثم يرجعهم إلى التعلق بأسمائه ثم يردّهم إلى شهود آثاره والسالكون على عكس هذا فنهاية السالكين بداية المجذوبين و بداية السالكين نهاية المجذوبين لكن لا بمعنى واحد فربما التقيا فى الطريق هذا فى ترقيه وهذا فى تدليه)

لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد معاناة وتعب ومشقة بخلاف بداية المجذوبين فانها ليس معها تمكن فلذا يحصل لهم الغيبة وتصدر منهم أفعال لا يدرون ماهى و يتركون الفرائض و يفعلون أفعالا منكرة فى الشرع ولا يعاقبون على ذلك لتغطية عقولهم التى عليها مدار التكليف بالأنوار و بداية السالكين ليس معها شهود لكمال الذات ولا الأسماء والصفات بخلاف نهاية المجذوبين فانهم لم يحصل لهم حالة الصحو إلا بعد مشاهدة ذلك فالسالكون عاملون فى ترقيهم على طريق الفناء والمحو والمجذوبون مسلوك بهم فى تدليهم طريق البقاء والصحو و إذا كان كذلك (فربما التقيا فى طريق هذا) أى السالك (فى ترقيه) من الخلق إلى الحق (وهذا) أى المجذوب (فى تدليه) من الحقّ إلى الخلق فربما اجتمعا فى تجلى الأسماء أو الصفات بأن يكون كلّ منهما مشاهدا لأسمائه تعالى مثلا لكن المجذوب إذا انتقل من ذلك ينتقل إلى الآثار والسالك إلى الصفات والسالك أفضل من المجذوب للانتفاع به بخلاف المجذوب فاذا أراد الله تكميل حاله أصحاه وكل من علم السالك والمجذوب وهبى ذوقى و إن كان مبدأ علم الأول استدلاليا كما يؤخذ من قوله دل بوجود آثاره الخ فالمجذوب مادام فى جذبه لا يصلح للمشيخة لعدم مروره على المقامات ومعرفته بغوائل النفوس ولاشتغاله بحاله عن حال غيره كما أنّ السالك إذا لم يصل إلى درجة المشاهدة والتجلى لا يصلح للمشيخة لنقصه و إنما يصلح لها من جمع بينهما سواء تقدّم سلوكه على جذبه أو بالعكس وقد يمرّ المجذوب على المقامات بسرعة و يعرف غوائل النفوس كذلك فيصلح للمشيخة مع

جذبه لكن هذا فى بعض المجاذيب كالسيد أحمد البدوى نفعنا الله به لا فى كل مجذوب (لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار) أى السرائر أى الأنوار المشرقة عليها وهى العلوم والمعارف اللدنية وما هو مودع فيها من أنوار الحق (إلا فى غيب الملكوت) أى الملكوت الغائب عنا وهو عالم الآخرة فمن آمن بالغيب وسعى فى تهذيب نفسه حتى حصلت عنده تلك الأنوار شاهد الحظ الأوفر هناك و إن كان مهانا فى الدنيا غير معتنى به فيها (كما لا تظهر أنوار السماء) وهى أنوار الكواكب (إلا فى شهادة الملك) أى الملك المشاهد وهو عالم الدنيا لحصول المناسبة بين هذه الأشياء (وجدان ثمرات الطاعات) وهى الأنوار التى تحصل فى قلوبهم وتشرق على ظواهرهم والتلذذ بها فى حال فعلها (عاجلا) أى فى الدنيا (بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها عاجلا) أى بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها فى الدار الآخرة وأنها مقبولة عند الله وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول ولما كان يفهم من هذا أن العمل قد يكون لقصد الجزاء وأنه ممدوح دفع ذلك بقوله (كيف تطلب العوض) أى الجزاء (على عمل هو متصدق به عليك) أى أن هذا غير لائق منك لأن الانسان لا يطلب الجزاء من الغير إلا إذا فعل معه فعلا يعود نفعه على ذلك الغير وذلك مفقود هنا لأن نفع تلك الأعمال عائد عليك لا على الرب سبحانه لأنه غنى عنك وعن أعمالك وكما أن الجزاء يكون على العمل أيضا على الصدق أى الاخلاص فيه وهو غير لائق أيضا ولذا قال (أم كيف تطلب الجزاء على صدق) أى إخلاص فى العمل (هو مهديه إليك) وعبر بالتصدق والاهداء تنبيها على ما ذكر وهو أن ذلك العمل والاخلاص فيه لم يكن إلا لمنفعتك فطلب العوض والجزاء إذن على ذلك فى غاية القبح ولذا صدر الكلام بكيف المفيدة للاستفهام التعجبى تقبيحا لذلك الوصف واستعمل لفظ الصدقة فى الأعمال الظاهرية والهدية فى الصدق الذى هو من الأعمال الباطنة وعليه مدار قبول الأعمال الظاهرة إشعارا بتباينهما فى الشرف كتباين الصدقة والهدية فان الأولى يقصد بها الفقراء والثانية الأغنياء فتدل على شرف المهدى إليه

(٧٦)

عباد الله المخصوصون بالقرب منه والوصول إليه ينقسمون إلى قسمين سالكين ومجذوبين فشأن السالكين الاستدلال بالأشياء عليه وهم الذين يقولون ما رأينا شيئا إلا ورأينا الله بعده وشأن المجذوبين الاستدلال به على الأشياء وهم الذين يقولون ما رأينا شيئا إلا رأينا الله قبله ولا شك أن الدليل أبدا أظهر من المدلول فأول ما ظهر للسالكين الآثار وهى الأفعال فاستدلوا بها على الأسماء و بالأسماء على الصفات و بالصفات على وجود الذات فكان حالهم الترقى والصعود من أسفل إلى أعلى وأول ما ظهر للمجذوبين حقيقة كمال الذات المقدسة ثم ردوا منها إلى مشاهدة الصفات ثم رجعوا إلى التعلق بالأسماء ثم أنزلوا إلى شهود الآثار فكان حالهم التدلى والتنزل من أعلى إلى أسفل فما بدأ به السالكون من شهود الآثار إليه انتهاء المجذوبين وما ابتدأ به المجذوبون من كشف حقيقة الذات إليه انتهاء السالكين لكن لا بمعنى واحد فان مراد السالكين شهود الأشياء لله ومراد المجذوبين شهود الأشياء بالله فالسالكون عاملون على تحقيق الفناء والمحو والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصحو ولما كان شأن الفريقين النزول فى تلك المنازل المذكورة لزم التقاؤهما فى طريق سفرهما السالك مترق والمجذوب متدل (لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك) أنوار القلوب والأسرار المشرقة عليها من سماء التوحيد والمعرفة لا يعرف قدرها إلا فى غيب الملكوت وهو عالم الآخرة وهناك يحصل تمام هذه الأنوار فمن آمن بالغيب كان له من ذلك الحظ الأوفر كما أن أنوار السماء المشرقة على ظواهر الأجرام لا تظهر إلا فى شهادة الملك وهو عالم الدنيا وذلك لحصول المناسبة بين هذه الأشياء (وجدان ثمرات الطاعات عاجلا بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها عاجلا) ما يجده العاملون بطاعة الله تعالى فى أعمالهم عاجلا من مزيد الايمان واليقين وتنسم روح الأنس ولذيذ القرب ولطيف الوصل بشائر من الله تعالى عاجلة بوجود الجزاء عليها فى الدار الآخرة لأنها مقبولة عند الله تعالى وقد تقدم هذا المعنى عند قوله من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول (كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك) العمل الذى يصح طلب العوض والجزاء عليه هو ما عملته لينتفع به غيرك ولم يحصل لك بذلك منفعة ولم يندفع عنك بسببه مضرة والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهرا و باطنا بخلاف هذا كله إذ هى مسلوبة عنك منسوبة إلى ربك خلقها واختراعها، عائد ثمرة ذلك ومنفعته عليك فى ظاهرك وباطنك وهو غنى عنك وعنها ولذلك عبر عنها بالتصدق والاهداء تنبيها على أن ذلك لم يكن إلا لمنفعتك فطلب العوض والجزاء إذن على عمل هذه صفته فى غاية القبح ولذلك صدر المؤلف رضى الله تعالى عنه كلامه بكيف ليعجبك من ذلك الوصف قال الواسطى رضى الله تعالى عنه مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل. وسئل أبو العباس بن عطاء الله رضى الله عنه عن أقرب شىء إلى مقت الله تعالى

فقال

(قوم تسبق أنوارهم أذكارهم) وهم المجذوبون المرادون فلما واجهتهم الأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمل بل بسهولة وخفة (وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم) وهم المريدون السالكون وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة فيأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمل ليحصل بها الأنوار فالأولون وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله ويصدق عليهم قوله تعالى ـ يختص برحمته من يشاء ـ والآخرون وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله ويصدق عليهم قوله تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ الآية ثم ذكر عبارة أخرى لبيان حال الفريقين بقوله (ذاكر ذكر ليستنير قلبه) وهو السالك (وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا) وهو المجذوب فالذكر له كالنفس الطبيعي بل أسهل بخلاف الأول وتقدم أن السالك أتم من المجذوب لأن الأول عرف طريقا توصل بها إلى الله وناله فيها غاية التعب والمشقة والمجذوب ليس كذلك وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له وهو كذلك بالنسبة لأغلب المجاذيب وإلا فبعضهم له طريق طوتها عناية الله تعالى له فسلكها مسرعا إلى الله عاجلا كامر فلم تفته الطريق وإنما فاته متاعبها وطول أمدها. ثم أشار إلى ما يتعلق بالمجذوب والسالك جميعا بقوله (ما كان ظاهر ذكر) أي ذكر ظاهر (إلا عن باطن شهود وفكر) أي إلا عن شهود للولي باطنا وفكر فيه فكل من المجذوب والسالك لم يذكر ظاهرا إلا بعد مشاهدة الرب باطنا وفكر فيه وإن كان المجذوب يدرك ذلك والسالك قد لا يدركه لغلظ بشريته فلم يفقد النور السابق بالكلية وإلا لما أمكن منه الذكر وقد تقدم قوله لولا وارد ما كان ورد ولولا التحلي لم يمكن التخلي والمراد بالذكر هنا سائر الأعمال الظاهرة وعبر به عنها لأنه روحها ولاشتمالها عليه فكل من الشهود والفكر يرجع للمجذوب والسالك ويحتمل رجوع الأول للأول والثاني للثاني ثم بين ذلك المعنى بقوله (أشهدك) أي تجلى لقلبك فشهدته على حسب قدرك (من قبل أن يستشهدك) أي يطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك فان الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المعبود والمذكور واعتراف بوحدانيته (فنطقت بالهيته) أي بما يدل على ألوهيته (الظواهر) أي الجوارح الظاهرة وهذا راجع للثاني وهو الاستشهاد وقوله (وتحققت بأحديته القلوب والسرائر) راجع للأول وهو الاشهاد ويحتمل

فقال رؤية النفس وأفعالها وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها واستعمال المؤلف رحمه الله تعالى لفظ الصدقة في الأعمال الظاهرة ولفظ الهدية في الصدق وعليه مدار الأعمال الباطنة إشعار بتباينهما في الشرف كتباين الصدقة والهدية (قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم وقوم لا أذكار ولا أنوار نعوذ بالله من ذلك، ذاكر ذكر ليستنير به قلبه فكان ذاكرا وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرا والذي استوت أذكاره وأنواره فبذكره يهتدي وبنوره يقتدي) سبقية الأذكار للأنوار هو حال المريدين السالكين وذلك لأن شأنهم المجاهدة والمكابدة فهم يأتون بالأذكار في حال تكلف منهم وتعمل ليحصل لهم بذلك زوائد الأنوار وإلى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ وسبقية الأنوار للأذكار هو حال المريدين المجذوبين لأنهم مقامون في السهولة والخفة فهم لما واجهوا بالأنوار حصلت منهم الأذكار بلا تكلف ولا تعمل قال في لطائف المنن حاكيا عن شيخه أبي العباس المرسي وقال رضي الله تعالى عنه الناس على قسمين قوم وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله قال الله سبحانه وتعالى ـ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ـ قال ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فسار يطوي مهامه نفسه وبيداء طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه ويصدق على هذا قوله سبحانه ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ ومن الناس من فاجأته عناية الله تعالى من غير طلب ولا استعداد ويشهد لذلك قوله تعالى ـ يختص برحمته من يشاء فالأول حال السالكين والثاني حال المجذوبين فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة ولا تظن أن المجذوب لا طريق له بل له طريق طوتها عناية الله تعالى له فسلكها مسرعا إلى الله تعالى عاجلا وكثيرا ما تسمع عند مراجعة المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب لأن السالك عرف طريقا بها توصل إليه والمجذوب ليس كذلك وهذا بناء على أن المجذوب لا طريق له وليس الأمر كما زعموا فان المجذوب طويت الطريق له ولم تطو عنه ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه وإنما فاته متاعبها وطول أمدها والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا اهـ ما ذكره في حال الجذب والسلوك وهو حسن قل أن يوجد لغيره فلذلك أوردته هنا بكماله (ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود وفكر) أعمال الظاهر تكون تبعا لما يكون في الباطن وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر فالذكر الظاهر لا محالة ثمرة باطن الشهود والفكر ثم بين هذا المعنى بقوله (أشهدك من قبل أن يستشهدك فنطقت بالهيته الظواهر وتحققت بأحديته القلوب والسرائر) كاشف الله تعالى القلوب والأسرار في غيب الغيب بحقائق

أن معنى ذلك أن الله تعالى كشف للأرواح فى عالم الغيب عن ألوهيته وأحدية ذاته و إحاطة قيوميته ثم لما أظهرها فى عالم الشهادة بأن ركبها فى الأجسام طلب منها على لسان الأنبياء الشهادة له بالألوهية فشهدت بلسان حالها ومقالها فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعا لشهودها لما أشهدت فقوله أشهدك أى فى عالم الأرواح وقوله من قبل أن يستشهدك أى يطلب منك الشهادة بعد أن ركبها فى الأجسام فنطقت بألوهيته الظواهر أى الجوارح الظاهرة نطقا حقيقيا فى اللسان وحاليا فى غيره وقوله فنطقت مفرع على محذوف أى فلما طلب منها الشهادة على لسان الأنبياء نطقت وتحققت بأحديته أى جزمت بكونه واحدا لا شريك له القلوب والسرائر جمع سريرة كما مر (أكرمك) أيها العبد الذى أشهدك مولاك ثم استشهدك فذكرته بلسانك وعبادتك ووحدته بقلبك وسرك (بكرامات ثلاث) جمع لك بها كل المفاخر والمحامد : الأولى أنه (جعلك ذاكرا له) بلسانك وعباداتك الظاهرية والباطنية (ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك) لأنك مجبول على النقص والكسل والفتور لحصول ذلك منة وفضل عليك ومن أين أنت حتى تكون محلا لذكره وموضعا لطاعته والتعلق به (و) الثانية أنه (جعلك مذكورا به) بأن يقال هذا ولىّ الله وصفيه ومختاره وذاكره (إذ حقق) أى أثبت (نسبته) أى خصوصيته (لديك) وهى ما أظهره عليك من أنوار الذكر التى استنار بها ظاهرك وباطنك فتحقيق الخصوصية لديك سبب فى ذكرك به أى انتسابك له ومن كانت له أدنى نسبة عند ملك من ملوك الدنيا تراه يصونها و يحفظها و يفرح بها و يجد فى نفسه انبساطا عند تذكرها فكيف بهذه النسبة العظيمة التى صرت تذكر بها فى الملأ الأعلى وعند المؤمنين إلى آخر الدهر فان من مات من العلماء والصالحين الذين كثر ذكرهم لله تعالى يبقى الثناء عليه ولا ينقطع ذكره والدعاء له ومن مات من غيرهم مات ذكره معه ويحتمل أن قوله إذ حقق فى قوة التفريع على ماقبله والمعنى جعلك مذكورا به فحقق نسبته لديك أى انتسابك له فيكون ذكرك به تحقيقا لنسبتك له (و) الثالثة أنه (جعلك مذكورا عنده) لحديث « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه » (فتمم نعمته عليك) بذكرك عنده قال تعالى ـ ولذكر الله أكبر ـ قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله

وحدانيته و إحاطة قيوميته فلما أشهدها ذلك اضمحلت وتدكدكت وتلاشت فتحققت بذلك الأحدية فلما أظهرها فى عالم الشهادة ملتبسة بالأجسام والهياكل طلب منها الشهادة له بالالهية فشهدت بلسان حالها ومقالها فكانت الشهادة منها لما استشهدت تبعا لشهودها لما أشهدت فالعبد من حيث سره وقلبه بوصف الجمع ومن حيث ظاهره وجسمه بنعت الفرق ولابد فى هذا الطريق من وجود الجمع والفرق وقد قالوا كل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل وقال الجنيد رضى الله عنه فى معنى الجمع والتفرقة

فتحققتك فى سرى فناجاك لسانى ... فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى ... فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

وذهب الجنيد رضى الله عنه إلى أن قربه بالوجد جمع وغيبه فى البشرية تفرقة (أكرمك بكرامات ثلاث جعلك ذاكرا له ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك وجعلك مذكورا به إذ حقق نسبته لديك وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك) أكرم الله تعالى عبده المؤمن بثلاث كرامات جمع له فيها كل المفاخر والمحامد أولها كونه ذاكرا له بأن أجرى ذكره على قلبه ولسانه ومن أين له ذلك وبأىّ وسيلة ناله لولا فضل الله تعالى وكرمه. وثانيها كونه مذكورا به فيقال هذا عبد الله ووليه وصفيه ومختاره وذلك بما أكرمه الله به من تحقيق النسبة إليه وهى إثبات الخصوصية له وقد تقدّم معنى الخصوصية. وثالثها كونه مذكورا عنده وهذه هى غاية الاكرام ومنتهى الفضل والانعام قال الله تعالى ـ ولذكر الله أكبر ـ قيل معناه ذكر الله عبده أكبر من ذكر العبد لله وفى حديث أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقرأ عليك القرآن قال قلت يارسول الله سمانى لك ربك قال نعم فقرأ علىّ ـ قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ـ» وفى حديث أبى حية البدرى رضى الله عنه قال لما نزلت ـ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ـ إلى آخرها . قال جبريل عليه السلام إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيا فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبىّ إن جبريل عليه السلام أمرنى أن أقرئك هذه السورة فقال أبىّ أوذكرت ثم يارسول الله قال نعم فبكى أبىّ وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى أنا عند ظنّ عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى و إن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه وان تقرّب منى شبرا تقربت منه ذراعا وان تقرّب منى ذراعا تقربت منه باعا وان أتانى يمشى أتيته

(رب عمر اتسعت آماده) أى غاياته وأزمنته (وقلت أمداده) بفتح الهمزة أى فوائده وذلك كأعمال الغافلين عن الله المشتغلين بشهوات نفوسهم فانها و إن كانت طويلة فى الحس فهى قصيرة فى المعنى لقلة أمدادها (ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده) وذلك كأعمار الذاكرين فانها و إن كانت قصيرة حسا فهى طويلة معنى لكثرة أمدادها وذلك هو معنى البركة فى العمر كما يأتى للصنف ففوائد العمر لا يلزم أن تكون على قدر آماده أى أزمنته و بحسبها بل قد يحصل لصاحب العمر القصير من الفوائد ما لا يحصل لمن هو أطول منه بأضعاف مضاعفة (من بورك له) أى من أراد الله أن ينزل البركة (فى عمره) رزقه الاقبال على مولاه ف(أدرك فى يسير من الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة) أى تحت العبارة الشبيهة بالدوائر بجامع الإحاطة بما يحويه (ولا تلحقه الإشارة) أى لا تصل إليه. والمعنى إذا أراد الله تعالى أن يبارك فى عمر ولى من أوليائه رزقه من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته فيبادر إلى الأعمال الصالحة فى جميع ساعاته فيدرك فى يسير من الزمان مما يمتن به المولى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة أى ما لا تحيط به العبارة لكثرته وشرفه فتعجز عنه العبارة ولا تلحقه الإشارة أى لا تصل إليه لرقته وغاية صفائه فيرتفع له فى شهر مثلا ما لا يرتفع لغيره فى ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر قال بعضهم كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر . وكان أبو العباس المرسى قدس الله سره يقول أوقاتنا كلها ليلة قدر قيل وهذا معنى ما روى البر يزيد فى العمر (الخذلان) هو عدم التوفيق والمعونة (كل الخذلان) أى الخذلان التام (أن تتفرغ من الشواغل) الدنيوية بأن يكون عندك ما يكفيك من الدنيا ثم لا تتوجه إليه بالاشتغال بما يقرب من حضرته العلية (وتقل عوائقك) التى تمنعك من الاشتغال بما يقرب من مولاك بأن يكون عندك ما يكفيك من القوت ولومع الضيق (ثم لا ترحل إليه) بالاشتغال بما يقرب منه فهو بمعنى ما قبله ومقتضاه أن من لم يكن عنده ما يكفيه من الدنيا وكان يحتاج إلى التكسب فاشتغل به ولم يتوجه إلى الله ولم يرحل إليه فليس عنده كل الخذلان بل بعضه وهو كذلك لأن التوجه إلى الله والرحلة إليه مطلوب من كافة الخلق ــ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ــ فالواجب على كل أحد أن يرمى بالعوائق والشواغل خلف ظهره و يقبل على مولاه وقد قيل سيروا إلى الله عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فان انتظار الصحة بطالة وقال تعالى ــ انفروا خفافا وثقالا ــ

أتيته هرولة» وعن أبى هريرة وأبى سعيد يشهدان به على النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما جلس قوم مسلمون مجلسا يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده» قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه ياغفول ياجهول لو سمعت صرير القلم حين يجرى فى اللوح المحفوظ بذكرك لمت طربا (رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده) الأمداد الإلهية التى يمد الحق تعالى بها عباده المؤمنين زيادة فى إيمانهم وتقوية لايقانهم لا أثر فيها لطول العمر ولا قصره فلا تنقص بذلك ولا تزيد به ولا تقل ولا تكثر و إنما ترد عليهم من خزائن الفضل والكرم بحسب قوة استعدادهم وكمال قابليتهم و يختلف هذا باختلاف تراكيب خلقهم ومجبول فطرهم ولا مدخل للزمان فى هذا إلا بالعرض و بهذا فضلت هذه الأمة على سائر الأمم على قصر أعمارهم وطول أعمار غيرهم . قال أحمد بن أبى الحوارى رضى الله عنه قلت لأبى سليمان الدارانى رضى الله عنه قد غبطت بنى إسرائيل قال بأى شىء قلت بثمانمائة سنة حتى يصيروا كالشنان البالية وكالحنايا وكالأوتار قال ماظننت إلا وقد جئت بشىء لا والله مايريد الله لنا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية فما عنده هذا إذا صدق فى عشرة أيام نال مانال ذلك فى عمره (من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة) البركة فى العمر أن يرزق العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على اغتنام أوقاته وانتهاز فرصة إمكانه خشية فواته فيبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية و يستفرغ فى ذلك مجهوده بالكلية وفى أثناء ذلك يصل إليه من المنح الإلهية و يشرق عليه من الأنوار الربانية ما تعجز العبارة عنه ولا تنتهى الإشارة إليه وكل ذلك فى زمن يسير وعمر قصير فيرتفع له فى شهر مثلا ما لا يرتفع لغيره فى ألف شهر بمنزلة ليلة القدر العمل فيها لمن صادفها خير من العمل فى ألف شهر قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. كان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول أوقاتنا والحمد لله كلها ليلة القدر فهذا هو البركة فى العمر لا تطويله وزيادة مدته وقيل هذا المعنى فى تأويل ما روى فى الخبر « البر يزيد فى العمر » (الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه) من الخذلان أن تصدك العوائق والشواغل عن التوجه إلى الله تعالى والرحيل إليه بل الواجب عليك أن تبادر إلى ذلك

(الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار) أى فى الأغيار وهى مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته من السماء والأرض وغيرهما الشبيهة بالميادين وفى نسخة ميادين الاعتبار أى جولان القلب فى صنوف المخلوقات وأنواع المكونات لاستخراج مافيها من العلوم وما انطوت عليه من العبر والآيات الموصلة إلى العلم بالله تعالى وماله من صفات الكمال ونعوت الجمال وغير ذلك فاذا تفكر فى وجود المخلوقات هداه ذلك التفكر إلى وجود موجدهم وهذا تفكر العامة وإذا تفكر فى الحسنات ومايترتب عليها من الثواب والقرب من المولى فعلها وازداد رغبة فيها أو فى السيئات ومايترتب عليها من أنواع العذاب تركها ولم يقربها وهذا تفكر العابدين وإذا تفكر فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها ازداد زهدا فيها وهذا تفكر الزاهدين وإذا تفكر فى الآلاء والنعماء ازداد محبة فى المنعم بها جل جلاله وهذا تفكر العارفين وخرج (٨٠) بالتفكر فى مصنوعات الله التفكر فى ذاته فانه منهى عنه قال صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره » (الفكرة سراج القلب) أى كالسراج الحسى أى المصباح الذى يضيء فيه فيستنير به وبالنور تنجلى حقائق الأمور فيظهر به الحق حقا والباطل باطلا فيعرف به عظمته تعالى وجلاله ويطلع على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويعرف وجوه الحيل فى التحرز عنها إلى غير ذلك (فاذا ذهبت فلا إضاءة له) فالقلب الخالى عن الفكرة خال من النور كالبيت المظلم ولا يكون فى القلب المظلم إلا الجهل والغرور (الفكرة) وهى السير فى ميادين الأغيار (فكرتان وهو فكرة تصديق وإيمان) أى فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذى هو الايمان بأن يكون المتفكر عنده ذلك وقصده بالفكرة الترقى وزيادة اليقين ولذا تسمى فكرة الترقى وتكون للسالكين (وفكرة شهود وعيان) أى فكرة ناشئة عن ذلك وتسمى فكرة التدلى وتكون للمجذوبين (فالأولى لأرباب الاعتبار) المستدلين بالآثار على المؤثر وهم السالكون فى حال ترقيهم فان فكرتهم ناشئة عن التصديق والايمان (والثانية لأرباب الشهود والاستبصار) أى المستدلين بالمؤثر على الآثار وهم المجذوبون فى حال تدليهم فان فكرتهم ناشئة عن الشهود والعيان وهذا لمن أراد الله تكميل حاله منهم كامر وإلا فبعضهم يدوم جذبه وعدم صحوه بل هو الأغلب فيهم وقد تقدم هذا عند ذكر المجذوب والسالك والنوعان المذكوران بالنسبة للمشتغلين بالله أما غيرهم وهم العامة ففكرتهم لتحصيل التصديق والايمان لا لزيادته

وترمى بالعوائق والشواغل خاف ظهرك كما قيل سيروا إلى الله عز وجل عرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة فان انتظار الصحة بطالة قال الله تعالى ـ انفروا خفافا وثقالا ـ وقد تقدم هذا المعنى عند قوله أحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس فان زالت شواغلك وقلت عوائقك ثم قعدت عن التوجه والرحيل فهذا هو الخذلان كل الخذلان أعاذنا الله منه . قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة فاذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجر فى قياد الشهوات شوش الله عليه نعمة قلبه وسلبه ما كان يجد من صفاء لبه (الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار) الفكرة التى ألزمها العبد وخص عليها هى سير القلب فى ميادين الأغيار فقط وهى مخلوقات الله تعالى ومصنوعاته . وأما الفكرة فى ذات الله تعالى فلا سبيل إليها يعتبر المتفكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصر قوما فقال مالكم فقالوا نتفكر فى الخالق قال : تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره» قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه التفكر نعت كل طالب وثمرته الوصول بشرط العلم فاذا سلم الفكر من الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهدا فيها وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطا عليه ورغبة فيه وفكر العارفين فى الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للخالق سبحانه . وقال الجنيد رضى الله عنه أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد وفى بعض النسخ الفكرة سير القلب فى ميادين الاعتبار ومعناه ظاهر (الفكرة سراج القلب فاذا ذهبت فلا إضاءة له) القلب الخالى من الفكرة خال من النور مظلم بوجود الجهل والغرور وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها فى ميادين فكرة (الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان وفكرة شهود وعيان فالأولى لأرباب الاعتبار والثانية لأرباب الشهود والاستبصار) تقدم الآن أن الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار وسيره على وجهين صعود ونزول فالصعود لأرباب الاعتبار وهى فكرة ناشئة عن التصديق والايمان وهذا للسالكين وهو حال ترقيهم

(وقال رضى الله عنه مما كتبه لبعض إخوانه) وحاصل هذا الكتاب أنه يتضمن حال السالك فى أوّل ابتداء سفره إلى انتهائه وحصوله فى مستقرّه وذكر آداب السلوك والوصول (أما بعد فانّ البدايات) أى بدايات الأمور (مجلات النهايات) أى يظهر فيها حال النهايات والمجلات بفتح الميم والجيم وتشديد اللام جمع مجلة كذلك أى محل التجلى والظهور كالمرآة والمجالى المظاهر التى تتجلى فيها الأمور . والمراد أنّ بداية المريد تعرف منها نهايته فاذا كان عنده فى بدايته قوّة توجه واجتهاد فى العبادات والرياضات كان دليلا على أنه ينتهى إلى فتح عظيم وأنه يصل إلى مقصوده فى أقرب مدّة

ومن كان عنده ضعف فى ذلك كان فتحه ووصوله على حسب حاله (وإنّ من كانت بالله بدايته) بأن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه (كانت إليه نهايته) أى كانت نهايته إلى الوصول إلى الله تعالى بأن ينكشف له انفراد الله بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله وقد تقدّم هذا المعنى فى قوله من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات (والمشتغل به هو الذى أحببته) أيها المريد الصادق (وسارعت إليه) وهو الأعمال الصالحة التى تقرّبك من مولاك وتوصلك إلى معرفته أى فلا تحتقر ذلك الشغل بل كن قرير العين به فانه لاينبغى الاشتغال إلا به (والمشتغل عنه) أى الذى ينبغى الاشتغال عنه وعدم التوجه إليه (هو المؤثر عليه) أى هو حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة التى تركتها وآثرت عليها غيرها وهو إقبالك على مولاك واشتغالك بخدمته فينبغى لك أن تطيب نفسك عنه ولا تندم على مفارقته لأنه لاينبغى الاشتغال به فهذا الكلام القصد منه تهييج السالك وإنهاض همته بمدح ما أقبل عليه وذم ما أعرض عنه (وأن من أيقن أن الله يطلبه) للقيام بخدمته والاقبال على وظائف عبوديته (صدق الطلب) أى صدق فى الطلب (إليه) أى توجه إليه بصدق واجتهاد فى الاقبال على مايرضيه أتم اجتهاد

وهو نعت المستدلين بالآثار على المؤثر والنزول لأرباب الشهود والاستبصار وفكرتهم فكرة ناشئة عن الشهود والعيان وهذا للمجذوب بين وهو حال تدليهم وهو وصف المستدلين بالمؤثر على الآثار وقد تقدّم هذا المعنى عند ذكر المجذوب والسالك .

(وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه) هذا كتاب يتضمن ذكر حال السالك من أوّل ابتداء سيره إلى انتهائه وحصوله فى مستقرّه وذكر آداب السلوك والوصول وقد أتى رحمه الله تعالى فى ذلك بعبارات صحيحة فصيحة واستعارات حسنة مليحة على طريقة وعظية إذا سمعها السامع طرب لها قلبه وهام فيها عقله ولبه وماذاك إلا لما علق بها من أنوار قلب المتكلم وقد قال فيما تقدّم كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز (أما بعد فانّ البدايات مجلات النهايات) المجلات محل التجلى والظهور فالسالك فى ابتداء سلوكه يتجلى له أمر نهايته (وأن من كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته) هذا بيان ماذكره ومعنى كون بدايته بالله أن تكون مجاهداته ومكابداته وأنواع رياضته مصحوبة بالاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه والانقطاع إليه فبذلك يصح له وينفذ فى توجهه وسلوكه كما تقدّم عند قوله ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك ومعنى كون انتهائه إلى الله أن يكشف له انفراد الله تعالى بالقيومية وتوحده بالديمومية وأنه هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن انكشافا يظهر له به عدمية ذاته وتلاشيه وتدكدكه واضمحلاله قال الله تعالى ـ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ فاذا صحت للمريد تلك البداية بما ذكرناه وصل إلى هذه النهاية وقد تقدّم هذا المعنى فى قوله من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله تعالى فى البدايات (والمشتغل به هو الذى أحببته وسارعت إليه والمشتغل عنه هو المؤثر عليه) المشتغل به أيها المريد السالك إنما هو عملك على التقرّب من ربك عز وجلّ والتوسل إليه بالطاعة والعبودية له وهو الذى أحببته وسارعت إلى إجابة دعوته فيحق عليك أن لاتستقل ذلك الشغل بل تكون به قرير عين والمشتغل عنه إنما هو متابعة حظوظك العاجلة ومراداتك الزائلة وهو الذى يستحق الايثار عليه إذ هو فان مضمحل لاحقيقة له فلتطب عنه نفسا ولا تعمل فيه عقلا ولا حسا وهذا الكلام تهييج للسالك وإنعاش لقوّته وإنهاض لهمته قال الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلى رضى الله عنه سمعت عبد الله بن اسحاق الغافقى يقول ما انتفعت إلا بدعاء رجل بمكة مررت إلى المسجد الحرام بالسحر فاذا رجل يسفّ التراب فقلت مجهود أومجنون ثم قلت له ياهذا أتسفّ التراب قال فقال لى أوتراب هو ثم ناولنى قال فما شككت أنه سويق أوقند أنا أشك أيهما قال فقلت ولىّ لله وجثوت على ركبتى وقلت ادع الله لى فقال لى عرّفك الله قدر ماتطلب حتى يهون عليك ماتترك (وأن من أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه

لأن ثمرة ذلك الطلب عائدة عليه لاعلى المولى سبحانه فلم لايصدق فى طلبه واجتهاده و يترك حظوظ نفسه ومراداته إن كان من أهل العقل والمعرفة (ومن علم أن الأمور بيد الله) ومنها مايحاوله من القيام بخدمة المولى (انجمع) قلبه علمه (بالتوكل عليه) أى توكل عليه فى تيسير أمره وتسهيل مايقربه إلى حضرته فان ذلك لا يكون إلا منه سبحانه لأن الأمور كلها بيده وليس للعبد مدخل فيها فالقسم الأول وهو قوله صدق الطلب إليه قيام بمقتضى الشريعة والثانى وهو كون الأمور بيد الله وأنه ينبغى التوكل عليه قيام بحق الحقيقة فقوله عليه تنازع فيه كل من الفعل والمصدر (و إنه) بكسر الهمزة عطفا على أن البدايات وفتحها عطفا على أن الأمور الخ (لابد لبناء هذا الوجود) أى لمبنى هو هذا الوجود (أن تنهدم دعائمه) أى أركانه فشبه الوجود بقصر له أركان وهى تخييل (وأن تسلب كرائمه) أى نفائسه وما يعزّ منـه والقصد بهذا تسليته عما يفوته فى حال سلوكه من حظوظه وشهواته لأنه إذا علم أن الدنيا لا تدوم لأحد بل لابد أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين وكل ماهو آت قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه (فالعاقل من كان بما هو أبقى) وهو الدار الآخـرة (أفرح منه) أى أشد فرحا من نفسه (بما هو يفنى) وهو الدنيا فاذا كانت الدنيا فانية والآخرة هى الدائمة الباقية فلاينبغى الفرح بالأولى لفنائها ومن فـرح بالفانى فنى فرحه ولا عبرة بفرح يفـنى ويزول ومن فـرح بالباقى دام فرحـه وذلك هـو الفـرح المعتبر . وحاصله أن العاقل هو الزاهد وأما الراغب فى الدنيا فليس بعاقل بل هو جاهل وفى قوله افرح

(٨٢)

ومن علم أن الأمور بيد الله انجمع بالتوكل عليـه) العبد مطلوب لربه عز وجل باقامة وظائف العبودية له وذلك بما اختصه به عز وجل من العقل والفهم وما رزقه من المعرفة والعلم وثمرة ذلك الطلب عائدة إلى العبد فلم لايصدق العبد فى طلبه واجتهاده إذا أيقن بذلك والأمور كلها بيـد الله تعالى ومن ذلك سعيه وكدحه فلم لا يتوكل عليه فى ذلك فيجتمع همه و يتيسر أمره إذا علم بذلك فالقسم الأوّل قيام بمقتضى الشريعة والقسم الثانى وفاء بحق الحقيقة (وأنه لابد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه وأن تسلب كرائمه) ذكر هـذا المعنى تسلية للعبد عما يفوته فى حال سلوكه من حظوظه وشهواته لأنه إذا علم أن هذه الأشياء لابد أن تزال عنه أو يزال عنها ولو بعد حين وكل ماهو آت قريب لم يغتبط بما يكون مآل أمره إلى ذلك ويكون طيب النفس بتركه وتهديم الدعائم وسلب الكرائم من الاستعارات البديعة (فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى قد أشرق نوره وظهرت تباشيره) فرح العبد بالأشياء الفانية هوموجب للزيادة فى همه وغمه إذا فقدها قال سيدى سهل بن عبد الله رضى الله عنـه من فرح بغير مفروح به استجلب حزنا لاانقضاء له وقد تقدم هذا المعنى عند قوله ليقلّ ماتفرح به يقلّ ماتحزن عليه فالعاقل لايفرح بذلك ولا يحبه بل يكرهه و يبغضه و إنما يكون فرحه بالأمور الباقيـة التى لا تفنى قد أشرق نور ذلك فى قلبـه وظهرت تباشيره على وجهه و إشراق النور وظهور التباشير نتائج تحققه فى مقام الزهد (فصرف عن هذه الدار مغضيا وأعرض عنها موليا فلم يتخذها وطنا ولا جعلها سكنا) فلما كان العبد على هذا الوصف صرف عن هذه الدار الدنيوية أى مال عنها مغضيا جفنه عن أقذائها من غير مبالاة بذلك معرضا عنها بوجه قلبه قد ولاها دبره من غير التفات إليها وهذا مبالغة فى نبذها واطراحها فلم يستوطنها بظاهره على سبيل التمتع بها والاستبشار ولم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها والايثار بل نزلها منزلة السجن والمضيق ووطن نفسه فيها على تحمل مايطيق وما لايطيق وهذه علامات على تحققه بالزهد فى الوجود الفانية التى هى بغيضة له فلما وصل إلى ذلك حصل له من طهارة قلبه وصفاء لبه ماحمله على التعلق بمولاه الباقى الدائم فجعل دنياه معبرا يعبره إليه كما سيقوله المؤلف الآن (بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى وسار

إشعار بأن المطلوب كون الفرح بهذا أشدّ لأن الفرح بالآخر ينتفى بالكلية لأنه أمر طبيعى . ثم أشار إلى ثمرة التحقق فى مقام الزهد بقوله (قد أشرق نوره) أى أشرق نور زهد ذلك العاقل فى قلبه (وظهرت تباشيره) على وجهه فان النور إذا أشرق فى القلب ظهر على الجوارح وكان ذلك مبشرا له بالقبول (فصرف) أى فبسبب ذلك النور الذى أشرق فى قلبه وتبين له به ماهو حق صرف أى أعرض (عن هـذه الدار مغضيا) أى غير ملتفت إليها بقلبه وأبى بذلك لأن الاعراض قد يكون معـه التفات وقوله (وأعرض عنها موليا) تفسير لما قبله (فلم يتخذها وطنا) أى لم يستوطنها بظاهره على جهة التمتع والتلذذ (ولا جعلها سكنا) أى لم يساكنها بباطنه على جهة المحبة لها ويحتمل أن يجعل الوطن والسكن بمعنى واحد (بل أنهض الهمة فيها إلى الله) أى أسرع وحرك الهمة إلى الوصول إليه

(وسار فيها) أى فى الدنيا (مستعينا به) أى بالله لا بأعماله المدخولة (فى القدوم عليه) أى الاقبال عليه والوصول إلى حضرته قال بعضهم من توهم أن عملا من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضل عن طريقه لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لن ينجى أحدا منكم عمله» فما لاينجى من المخوف كيف يوصل إلى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذى يرجى له الوصول اه (فما زالت مطية عزمه) أى عزمه الشبيه بالمطية (لايقر قرارها) لعدم مايعوقها وهو التعلق بغير الله سبحانه من الدنيا وكل ما يعوق السالك عن الوصول من الكرامات والمكاشفات والأحوال والمقامات فان ذلك يوقف مطيته عن السلوك والقرار موضع الاستقرار ومعنى كون قرارها لايقر أنها إذا نزلت فى موضع ترتحل عنه ولا تجعله وطنا فلا يسكن قلبه إلى شئ من ذلك كما هو مقتضى التحقق فى مقام الزهد وقوله (دائما تسيارها) أى سيرها كالتفسير لما قبله (إلى أن أناخت) أى حصلت واستقرت (بحضرة القدس) أى التنزيه وهى حضرة الرب سبحانه (و بساط الأنس) أى البساط الذى كل من جلس عليه حصل له الأنس وهو تلك الحضرة فشبهها بحضرة ملك عظيم يستريح الوفود إذا وصلوا إليه وجلسوا على بساطه ثم بين صفات تلك الحضرة بقوله (محل المفاتحة) أى الفتح عن القلوب (والمواجهة) أى الاقبال من الله سبحانه (والمجالسة) بأن يصير الله سبحانه حاضرا معه (والمحادثة) بأن يكلمه فى سره بالمعارف والأسرار (والمشاهدة) بأن يشاهده بباطنه بعد غيبته عن حسه (والمطالعة) أى بأن يتمكن من المشاهدة و يطلع على علوم الغيب فان الشخص اذا دخل إلى حضرة ملك عظيم من ملوك الدنيا يحصل له أولا المفاتحة بأن يفاتح ذلك الملك بالسلام و يفاتحه بالرد

وسار فيها مستعينا به فى القدوم عليه) هذا ابتداء سفره بقلبه إلى الحضرة العلية و بدأ بانهاض الهمة إلى ربه والاستعانة به فى القدوم عليه وهو أساس أمره كما تقدم قال الشاعر:

إذا لم يعنك الله فيما تريده   فليس لمخلوق إليه سبيل
و إن هو لم يرشدك فى كل مسلك   ضللت ولو أن السماك دليل

قال أبو محمد الجريرى رضى الله عنه من توهم أن عملا من أعماله يوصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضل عن طريقه لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لن ينجى أحدا منكم عمله» فما لاينجى من المخوف كيف يوصل إلى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله فذلك الذى يرجى له الوصول (فما زالت مطية عزمه لايقر قرارها دائما تسيارها إلى أن أناخت بحضرة القدس و بساط الأنس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة فصارت الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون) هذه استعارات مليحة استعملها فى سفر القلب إلى حضرة الرب وقد تقدم معنى ذلك عند قوله لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين وحضرة القدس و بساط الأنس هما موضع محط الرحال و بلوغ الأوطار والآمال من قبل أن السالك تمحى عنه رسوم بشريته وتبطل أحكام آنيته وتنكشف له إذ ذاك أوصاف معروفة كرأى العين و يكون سره مع الله تعالى بلا أين فلما وصل إلى هذه الحضرة العلية ونال هذه المنقبة السنية قوبل بأنواع من الكرامات والألطاف وفنون من تحف السادات والأشراف وهى معانى هذه الألطاف الستة التى ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى ولا تعرف إلا بالذوق وكذلك التفرقة بين معانيها فحينئذ ألقى السائرون عصا سيرهم وحمدوا عاقبة أمرهم وصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم فى ذهابهم و إيابهم إلى ظلها يأوون إذا صلى

ثم المواجهة بأن يقبل عليه بوجهه فقد يكون حال السلام معرضا عنه ثم المجالسة بأن يجالسه بين يديه ثم المحادثة أى التكلم معه لأن ذلك ثمرة المجالسة ثم المشاهدة وذلك أن الملك قد يكون صاحب جلال فلا يلزم من الجلوس بين يديه والمحادثة معه مشاهدته بل يطرق جليسه رأسه من هيبته ثم المطالعة التى هى تمكن المشاهدة أو يراد بالمشاهدة مشاهدة الأحوال الظاهرة و بالمطالعة مشاهدة الأحوال الباطنة فانه لايعرف حال الملك باطنا إلا بعد شدة التأمل فهذا حال من وصل إلى حضرة ملك من ملوك الدنيا وكذلك السالك إذا وصل إلى حضرة المولى سبحانه فانه يقابله بأنواع من الفتوحات والكرامات والتحف السنية والعلوم والمعارف الربانية التى لايعرف تفاصيلها إلا من وصل هناك وذاق مذاق أهل القرب والتمكين جعلنا الله و إياكم منهم بمنه وكرمه آمين (فصارت الحضرة) أى حضرة الرب سبحانه (معشش قلوبهم) أى الموضع الذى تسكن فيه قلوبهم كعش الطير (إليها يأوون) وقوله (وفيها يسكنون) كالتفسير لما قبله أى فصارت حضرة محبوبهم معشش قلوبهم ومستوطنهم فى ذهابهم و إيابهم وههنا حصل لهم التحقق بمقام الفناء والمحو وهذا مقام الجمع هذا هو انتهاء سفرهم وصعودهم ثم بعد يتحققون بمقام ذلك الفرق و يؤمرون بمخاطبة الخلق وهو المراد بقوله البقاء وهو مقام

(فاذا نزلوا إلى سماء الحقوق) أى الحقوق الواجبة عليهم عند مخالطة الخلق الشبيهة بالسماء بجامع صعوبة الارتقاء إلى كل
(أوأرض الحظوظ) أى حظوظ أنفسهم التى تلابسهم و يحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالأرض بجامع سهولة الاستقرار على كل
(فبالاذن والتمكين) أى لابشهوتهم ومرادهم و إلافلو خيروا بين مقامهم فى تلك الحضرة والخروج منها إلى مخالطة الخلق لم يختاروا
إلا بقاءهم فيها ولذا لما أمر الله أبايزيد بالخروج إلى إرشاد الناس صاح صيحة عظيمة فقال الله تعالى لملائكته ردّوا علىّ عبدى
فانه لاطاقة له على مفارقتى قال بعضهم وكان فى ذلك الوقت لم يحصل له قوّة ورسوخ فى مقام الفرق ثم بعد ذلك
قواه وأخرجه ولذا قال المصنف فبالاذن والتمكين إذ لايلزم من مجرد الاذن التمكين أى التمكين فى مقام البقاء بأن يحصل لهم القوّة على مخالطة الخلق وتحمل أذاهم (والرسوخ فى اليقين) أى و بعد رسوخهم فى اليقين بالله ومعرفتهم به معرفة ذوقية (فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة) أى فلم يخالطوا الخلق إلا مع التأدب التام لأنهم يرون الله فيهم ومع التيقظ وعدم الغفلة عن موجدهم فاذا أذاهم شخص تحملوه لله الذى أوجده ورأوا أن الذى سلطه عليهم هو مولاهم لذنب فعلوه لايليق بمقامهم و إذا أكرمهم شخص شكروه مع رؤيتهم أن
الذى حرك قلبه للاكرام هو مولاهم فهذه وشبهها هى الحقوق الواجبة عليهم عند النزول ومخالطة
الخلق (ولاإلى) أى ولم ينزلوا إلى (الحظوظ) و يتعاطوها (بالشهوة والمتعة) بضم الميم أى على سبيل شهوة نفوسهم لها وتمتعهم
بها (بل دخلوا فى ذلك كله) من الحقوق والحظوظ (بالله) أى مستعينين به (ولله) أى لالحظ أنفسهم (ومن الله) أى من عنده
لامن عند أنفسهم (و إلى الله) أى متوسلين إليه فى نيل مرادهم. ثم السفر الأول وهو السير إلى حضرة المولى يقال له سفر الترقى
والثانى وهو النزول منها إلى مخالطة الخلق يقال له سفر التدلى و إلى ذلك أشار المصنف بقوله (وقل ربّ أدخلنى مدخل صدق
وأخرجنى مخرج صدق) المدخل والمخرج فى الأصل بمعنى الادخال والاخراج وقد عبر بهما هنا عن السفرين المذكورين فالمدخل

غيرهم بنيران هواه وفى دار المقامة يسكنون حين يزعج سواهم عن متعة دنياه ، وههنا حصل لهم
التحقق بمقام الفناء والمحو وهذا هو انتهاء سفرهم بمعنى الصعود والترقى (فاذا نزلوا إلى سماء الحقوق
أوأرض الحظوظ فبالاذن والتمكين والرسوخ فى اليقين فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة
ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة بل دخلوا فى ذلك بالله ولله ومن الله و إلى الله) هـذا هو سفر
التدلى والنزول و به يتحققون بمقام البقاء والصحو ، فاذا نزلوا من سدرة منتهاهم إلى سماء الحقوق
وهى حقوق الله عليهم مما أمرهم به أونهاهم عنه ليقوموا بذلك فعلا أو تركا أو إلى أرض الحظوظ وهى
حظوظ نفوسهم التى تلابسهم ويحصل لهم الارتفاق بها فانما يكون نزولهم إلى ذلك بالاذن والتمكين
والرسوخ فى اليقين ومعنى ذلك أن يدخلوا فى الأشياء بمراد الله تعالى لابمراد أنفسهم و يجدون الاذن
من الله تعالى لهم بمايشرق فى قلوبهم من النور الذى يجعله الله علما على ذلك ، وقد ذكره سيدى
أبو الحسن فى بعض كلامه قال رضى الله عنه ومعنى الاذن للولى نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه
وعليه فيمتدّ ذلك النور على الشىء الذى يريده فيدركه نور مع نور أوظلمة تحت ذلك النور ينبئك أن
تأخذ إن شئت أوتترك أوتختار أوتدبر أو تعطى أوتمنع أوتقوم أوتجلس أو تسافر أوتقيم هذا باب المباح
المأذون فيه بالتخيير فاذا قارنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى فان قارنته نية صحيحة لفعل زال
عنه حكم المباح وصار مندوبا و إن ظهرت الظلمة تحت النور الممتدّ من القلب فلايخلو أن يلوح عليه
لائح الغضب بانقباض القلب فاحذر ذلك وتجنبه فانه المحظور أو يكاد ولاتقطع ذلك إلا ببينة من كتاب
الله تعالى أوسنة أو إجماع أو خلاف لمقلد قلدته كمالك والشافعى أو غيرهما من العلماء الراسخين فاحكم
إذن على أصل صحيح وان تكن الظلمة شبه غيم لايتصدّع معه القلب ولايتفزع به الذهن فتباعد عنه
فانه يكاد أن يكون مكروها ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من ههنا خلق كثير ولاتفت أحدا و إن
استفتاك وأعط الورع حقه ـ ولاتقف ماليس لك به علم ـ فان تأدّبت ههنا فعن قريب تأتيك البينة
من ربك والشاهد يتلوها منه اهـ كلام سيدى أبى الحسن وهو مناسب لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى
إلا أن مافيه من التفصيل لم يتعرض له المؤلف بل بقى الأمر فى ذلك مجملا كما تراه وتقديره فاذا نزلوا إلى
الحقوق واستعملوا فيها لم ينزلوا إليها بسوء أدب ولا غفلة وهو أن لايشهدوا قيامهم بها من أنفسهم
أو يطلبوا ثوابا عليها من ربهم و إن نزلوا إلى الحظوظ لم ينزلوا إليها بشهوة غالبة قاهرة لهم ولامنفعة
يقصدون إلى نيلها فى دنياهم بل دخلوا فى ذلك بالله مستعينين ولله عابدين ومن الله آخذين و إلى الله
متوسلين قد تولى الله تعالى إدخالهم فى الأشياء و إخراجهم منها وأوجدهم ذلك وعزل عنهم ملكية
نفوسهم لهم وصاروا أحرارا كراما (وقل ربّ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق

ليكون

هوسفر الترقى لأنه دخول على الله عزّوجل فى حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج هوسفر التدلى لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتى الارشاد والهداية فى حال بقائه بربه وتحققه فى هذين المقامين أعنى مقام الفناء والبقاء هو معنى صدقية مدخله ومخرجه فالمدخل الصدق أن يشاهد حول الله وقوّته فى سفر الترقى فتنتفى عنه بذلك نسبة الأعمال إلى نفسه والمخرج الصدق أن يستسلم لربه و ينقاد إليه فى سفر التدلى فيرضى بما نقله إليه ولا تتشوف نفسه إلى البقاء مع مانقل عنه ولذا قال (ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى واستسلامى وانقيادى إليك إذا أخرجتنى) أى ليحصل ذهابى عن رؤية نفسى فى النسبة والوقوف مع الحظ ففى المدخل أشاهد حولك وقوتك فتنتفى عنى بذلك النسبة إلى نفسى وفى المخرج أستسلم إليك فينتفى عنى بذلك مراعاة حظى (واجعل لى من لدنك) أى من عندك بلا واسطة ولا علة من نفسى (سلطانا) أى حجة قاهرة (٨٥) (نصيرا) أى مقويا ومعينا وهو

ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى واستسلامى وانقيادى إليك إذا أخرجتنى) المدخل والمخرج الادخال والاخراج وقد عبر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين فالمدخل هوسفر الترقى لأنه دخول على الله عز وجل فى حالة فنائه عن رؤية غيره والمخرج هوسفر التدلى لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتى الارشاد والهداية فى حال بقائه بربه وتحققه فى هذين المقامين أعنى مقام الفناء والبقاء هو معنى صدقية مدخله ومخرجه وإنما طلب هذا ليحصل له به ذهابه عن رؤية نفسه فى النسبة والوقوف مع الحظ ففى المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوته فينتفى عنه بذلك النسبة إلى نفسه وفى المخرج يستسلم لربه و ينقاد إليه فينتفى عنه بذلك مراعاة حظه (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ينصرنى و ينصربى ولا ينصر علىّ ينصرنى على شهود نفسى و يفنينى عن دائرة حسى) طلب من الله تعالى النصرة له ليستقيم أمره وطلب منه النصرة به ليكمل حاله فالنصرة له هى ملاك أرباب البدايات من السالكين إذ بذلك يتيسر عليهم قطع عقبات النفس ومحو دواعى الهوى والحس والنصرة به هى مقتضى حال أرباب النهايات من المجتهدين لأن بذلك يحصل لهم مرتبة الأمانة ومقام الإرشاد والهداية وكلّ واحد من القسمين نصرة على شهود النفس وفناء عن دائرة الحس وأخرج النصرة عليه من السؤال والطلب لأن ذلك من الخذلان وعدم التوفيق وهو غلبة أحكام نفسه و بقاؤه مع دائرة حسه . وقال رضى الله تعالى عنه مما كتب به لبعض إخوانه (إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد فى منته فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته) إذا أوصل الحق تعالى اليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية أو دنيوية فعليك فى ذلك وظيفتان إحداهما أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا ترينّ النعمة إلا منه وحده وترى من سواه ممن أجراها على يديه مقهورا مجبورا على ذلك مسلطا عليه الدواعى والبواعث حتى لم يجد انفكاكا عنه وهذا هو حق التوحيد والثانية أن تشكر من وصلت اليك على يده بأن تدعو له وتثنى عليه امتثالا لأمر الله تعالى وعملا بما جاءت به الشريعة قال الله تعالى ـ أن اشكر لى ولوالديك ـ وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » وفى حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أشكر الناس لله أشكرهم للناس» ولأن الله تعالى اختصه بأن أقامه

مدد إلهى يأتى من حضرة الحق سبحانه فلا يصادمه شئ إلا دمغه وذهب به (ينصرنى) على نفسى (وينصربى) أحبابى ومن تعلق بأذيالى من الاخوان والرفقاء (ولا تنصر على) نفسى ولا أحدا من أعدائى الباطنة والظاهرة ثم فسر النصرة المطلوبة فى حقّ نفسه بقوله (ينصرنى على شهود نفسى) بأن لا أشاهد لها فعلا ولا حركة ولا سكونا بل أشاهد أن المحرك المسكن هو أنت (ويفنينى عن دائرة حسى) أى عما يدوربه حسى ويدركه وهو المكونات فلا أتعلق بها ولا أشاهد منها نفعا ولا ضرا بل أشاهد أن النافع الضارّ هو أنت وهؤلاء الذين نصرهم الله تعالى ونصربهم ولم ينصر عليهم هم الضنائن الذين إذا ظهر واحد منهم فى عصر حصل به النفع التام لأهله وأمدهم الله بسببه وهم لايشعرون . ومما كتب به إلى بعض الاخوان أيضا (إن كانت عين القلب) وهى البصيرة المشابهة للعين الباصرة (تنظر إلى أن الله واحد فى منته) أى نعمته أى هو المعطى لها وحده (فالشريعة تقتضى أنه لابدّ من شكر خليقته) فاذا أوصل الحقّ إليك نعمة على يد إنسان سواء كانت دينية كالعلوم والمعارف أو دنيوية فعليك فى ذلك مراعاة الحقيقة بأن ترى أن تلك النعمة من الله وحده وأن من أجراها على يديه مقهور مجبور على إيصالها إليك فتحمد الله سبحانه على ذلك ومراعاة الشريعة بأن تشكر من وصلت إليك على يده فتدعو له وتثنى عليه امتثالا لأمر الله وعملا بما جاءت به الشريعة ففى الحديث «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» ولأن الله اختصه بأن أقامه فى ذلك وأهله له

(وأن) أى وأخبرك أن (الناس فى ذلك) أى فى حال ورود النعمة عليهم على يد أحد (على ثلاثة أقسام غافل) عن الله (منهمك فى غفلته) أى متناه فيها (قويت دائرة حسه) يعنى أن ملاحظه ومنظره المكونات فقط مع الغفلة عن الرب (وانطمست حضرة قدسه) أى حضرة التنزيه والمراد بها بصيرته التى هى منبع تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به (فنظر الاحسان) صادرا (من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين إما اعتقادا) بأن يعتقد أن المؤثر والمعطى هو العبد حقيقة (فشركه جلى) يخرجه من دائرة الايمان إلى دائرة الكفر (و إما استنادا) بأن يعتقد أن المعطى هو الله تعالى ولكن أسند ذلك إلى المخلوقات على جهة كونها أسبابا غير مؤثرة ولولاهم لم يحصل الاعطاء . فاذا قيل له من الذى أعطاك مثلا قال الله ولكن لولا فلان الذى جاء من قبله لم يحصل إعطاء إذ لولا الأسباب ما كانت المسببات (فشركه خفى) لأنه أشرك مع الله غيره وهو المخلوق ولم يغب عن الله تعالى فهو مؤمن لكن يخشى عليه الكفر والعياذ بالله تعالى (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق) فلم يشعر ولم يلتفت إليهم (وفنى عن الأسباب) وهم المخلوقات فلم ير لهم فعلا (بشهود مسبب الأسباب) وهو الله تعالى (فهو عبد مواجه بالحقيقة) هى حضرة الرب سبحانه لشهوده لها (ظاهر عليه سناها) أى نورها وضياؤها (سالك للطريقة) أى طريقة القوم وسلوكه لها باعتبار الأصل و إلا فمواجهته بالحقيقة لاتكون إلا بعد سلوكه لها ولذا قال

فى ذلك وأهله له ومن أسمائه تعالى الشكور فليتخلق العبد بذلك وهذا هو حق الشرع (وأن الناس فى ذلك على ثلاثة أقسام غافل منهمك فى غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه فنظر الاحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين إما اعتقادا فشركه جلى و إما استنادا فشركه خفى) هذا هو بيان أحوال الناس بالنسبة إلى مشاهدة التوحيد ورؤية الوسائط والعبيد فبدأ بذكر عامة الناس وهم الغافلون المنهمكون فى غفلتهم أصحاب الظواهر والرسوم الذين قويت دائرة حسهم فقيدتهم ووقفوا معها وانطمست حضرة قدسهم فأبعدتهم ولم يحلوا بها فنظروا الاحسان من المخلوقين فتعبدوا لهم وطمعوا فيهم ولم يشهدوه من رب العالمين فكفروا نعمته واستوجبوا سخطه ونقمته ثم هم فى ذلك على قسمين أحدهما أن يعتقدوا ذلك بقلوبهم أنه منهم ومن قبلهم وهذا هو الشرك الجلى الذى يخرج صاحبه عن دائرة الاسلام و يوقفه فى الكفر والعياذ بالله . والثانى أن يحصل ذلك منهم استنادا أى اعتمادا على غير الله وسكونا إلى سواه مع سلامة عقدهم وصدورهم وهذا هو الشرك الخفى الذى يخرج صاحبه من حقائق الايمان و يدخله أبواب النفاق ونعوذ بالله من الشرك جليه وخفيه (وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب فهو عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريقة قد استولى على مداها غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره) هذا هو حال الخاصة من أرباب الحقائق وهم الذين غابوا عن الخلق بشهود الملك الحق فلم يقع لهم شعور بهم ولا التفات إليهم وفنوا عن الأسباب برؤية مسبب الأسباب فلم يروا لها فعلا ولا جعلا فهم مواجهون بحقيقة الحق ظاهر عليهم سناها أى نورها وضياؤها سالكون طريقة الحق قد استولوا على مداها أى وصلوا إلى غايتها ومنتهاها إلا أنهم غرقوا فى بحار أنوار التوحيد مطموس عليهم آثار الوسائط والعبيد أى مغلق عليهم رؤية ذلك والشعور به قد غلب سكرهم وهو عدم إحساسهم بالأغيار على صحوهم وهو وجود إحساسهم بها وجمعهم وهو ثبوت وجود الحق فردا على فرقهم وهو ثبوت وجود الخلق وفناؤهم وهو استهلاكهم فى شهود الحق على بقائهم وهو شعورهم بالخلق وغيبتهم وهو ذهاب أحوال الخلق عن نظرهم على حضورهم مع الخلق ومعانى هذه الألفاظ كما تراه متقاربة وهى ألفاظ تداولها الصوفية المحققون بينهم وعبروا.

(قد استولى على مداها) أى غايتها ونهايتها ثم هذا المستغرق فى الحقيقة على الوجه المذكور و إن كان كاملا بالنسبة لأهل الغفلة فهو ناقص بالنسبة لأكمل منه من أهل المعرفة ولذا قال (غير أنه غريق الأنوار) أى غريق فى بحار التوحيد (مطموس الآثار) أى مطموسة بصيرته عن رؤية الآثار والوسائط والعبيد أى غائب عن رؤية ذلك والشعور به (قد غلب سكره) وهو عدم إحساسه بالآثار (على صحوه) وهو وجود إحساسه بها (وجمعه) وهو رؤية الحق وحده (على فرقه) وهو رؤية الخلق مع الحق فهو فى مقام الجمع لا فى مقام الفرق (وفناؤه) وهو استهلاكه فى وجود الحق (على بقائه) وهو شعوره بالخلق فهو فى مقام الفناء الذى هو مقام الجمع لا البقاء الذى هو مقام الفرق وقوله (وغيبته على حضوره) كالتفسير لما قبله

(وأكمل منه عبد) جمع بين الأمرين كالنبي صلى الله عليه وسلم وكامل ورثته وسبب ذلك أنه (شرب) من المدد الالهى ومن كؤوس التوحيد (فازداد صحوا) بعد سكره (وغاب) عن رؤية الأغيار (فازداد حضورا فلا جمعه) وهو رؤية الحق (يحجبه عن فرقه) وهو رؤية الخلق (ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطى كلّ ذى قسط قسطه) فيشكر الحقّ والخلق ولا يغيب عن الرب فى حال مخالطة الخلق وقوله (ويوفى كل ذى حقّ حقه) بمعنى ماقبله وهؤلاء هم خاصة الخلق الذين حازوا رتبة الأكملية وتمكنوا فى المقامات وملكوا أحوالهم ومنهم أبو بكر رضى الله عنه ولذا قال المصنف (وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الافك) أى الكذب (على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم) أى فى القرآن العظيم (ياعائشة اشكرى رسول (٨٧) الله صلى الله عليه وسلم)

وعبروا بها فى كتبهم ووضعوها على معان اختصوا بفهمها ليتعرف بعضهم من بعض مايتخاطبون به ولهم ألفاظ كثيرة غيرها وكأن المؤلف رحمه الله تعالى أراد أن لا يخلو كتابه عن ذكر شئ منها (وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوا وغاب فازداد حضورا فلاجمعه يحجبه عن فرقه ولافرقه يحجبه عن جمعه ولافناؤه يصده عن بقائه ولابقاؤه يصده عن فنائه يعطى كل ذى قسط قسطه ويوفى كل ذى حقّ حقه) هذا هو حال خاصة الخاصة الذين حازوا رتب الأكملية وهم قوم شربوا كؤوس التوحيد فازداد صحوهم وغابوا عن الأغيار فازداد حضورهم وقدملكوا الأحوال وتمكنوا فى مقامات الرجال فلم يغلبهم محو عن طىّ ولم يحجبهم شئ عن شئ بل وفوا حقوق جميع المراتب وأعطوها مالها من قسط واجب وذلك لاتساع نظرهم ونفوذ بصرهم وهذه هى صفة الصديق رضى الله تعالى عنه فى القصة التى يذكرها الآن (وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الافك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة اشكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله لاأشكر إلا الله دلها أبو بكر رضى الله تعالى عنه على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لاثبات الآثار وقد قال الله تعالى ـ أن اشكر لى ولوالديك ـ وقال صلى الله عليه وسلم «لايشكر الله من لايشكر الناس» وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار) هـذا مثال هذين القسمين وقد أشبع المؤلف رحمه الله تعالى الكلام فيه والمعنى فى ذلك بين لاحاجة بنا إلى مزيد تنبيه إلا قوله وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة أى منقطعة عن شاهدها وهو حكم بشريتها مستوفاة عن إحساسها بالكلية والاصطلام نعت الحيرة ومحل القهر وصفة الدهشة وفى قوله وكانت هى فى ذلك الوقت إشعار بأن ذلك لم يكن حالا لازما فى جميع أوقاتها بل كان ذلك فى وقت مخصوص وواقعة مخصوصة وذلك صحيح إذ حالها رضى الله عنها هو حال الكمال فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته كنحو حال أبيها رضى الله عنهما وذلك معلوم من أخبارها وسيرها رضى الله تعالى عنها وقال رضى الله عنه لما سئل عن قوله صلوات الله عليه وسلامه وجعلت قرة عينى فى الصلاة هل ذلك خاص به أم لغيره منه شرب ونصيب

لأن براءتك سببها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تحصل إلا ببركته فيستحقّ الشكر منك (فقالت والله لاأشكر إلا الله) لأنها فى ذلك الوقت غائبة عن إحساسها منغمسة فى الأنوار لم تر غير الله (دلها أبو بكر رضى الله عنه على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لاثبات الآثار) أى النظر للخلق ومن جملتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتضى النظر إليهم شكرهم ثم استدلّ على أنه ينبغى شكرهم بقوله (وقد قال تعالى ـ أن اشكرلى ولوالديك ـ

وقال صلى الله عليه وسلم لايشكر الله) بالنصب وفاعل الشكر هو العبد والرفع أى لا يثيب الله (من لايشكر الناس) ولا يرضى له ذلك فينبغى شكر الله لأنه الذى حرك قلب العبد وشكر العبد لأنه واسطة والضارّ هو الوقوف معه والغيبة عن الربّ (وكانت هى) أى عائشة (فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها) أى مأخوذة عن إحساسها غائبة عن حكم بشريتها والاصطلام حالة تعترى العبد من تجلى الله عليه بصفة القهر فتغيبه عن إحساسه (غائبة عن الآثار) وهم المخلوقات (فلم تشهد إلا الواحد القهار) وفى قوله وكانت فى ذلك الوقت إشارة إلى أن ذلك ليس حالا لازما لها فى جميع أوقاتها بل ترقت عنه إلى مقام الفرق وهو رؤية الخلق مع الحق وقال رضى الله عنه لما سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عينى فى الصلاة قرة العين كناية عن غاية الفرح والسرور واللذة فكأنه يقول وجعلت غاية فرحى وسرورى ولذتى فى الصلاة لمشاهدة الرب فيها هل ذلك خاص به أم لغيره من أمته منه شرب بكسر الشين وقوله ونصيب تفسيره له

فأجاب (ان) بكسر الهمزة إن كانت من كلام المصنف وفتحها إن كانت من كلام غيره (قرة العين) أى غاية الفرح والسرور (بالشهود) أى شهود جلال الحق سبحانه وجماله (على قدر المعرفة بالمشهود) وهو الحق سبحانه (فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس معرفة أحد) هناك (كمعرفته فليس قرة عين كقرته) وحاصل الجواب أن قرة العين ليست خاصة به صلى الله عليه وسلم بل كما تكون له تكون لغيره لكن قرة عينه أعظم من قرة عين غيره ومعلوم أن قرة العين لا تحصل إلا لمن ذهبت عنه الوساوس النفسانية والشيطانية أما من كان مغمورا فيها فقليل أن تحصل له قرة عين أو حضور قلب بين يدى الحق سبحانه وتعالى (وإنما قلنا إن قرة عينه) صلى الله عليه وسلم (فى صلاته بشهوده جلال مشهوده) وهو الحق (لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله فى الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو) صلى الله عليه وسلم لا تقرّ عينه بغير ربه) ومن الغير الصلاة (وكيف) تقرّ عينه بغير ربه (وهو) أى والحال أنه (يدلّ على هذا المقام) وهى المرتبة الأولى من مراتب الاحسان (ويأمر به من سواه بقوله صلى الله عليه وسلم : اعبد الله

فأجاب (إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود فالرسول صلوات الله عليه وسلامه ليس معرفة غيره كمعرفته فليس قرّة عين كقرته وإنما قلنا إن قرّة عينه فى صلاته بشهوده جلال مشهوده لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله فى الصلاة ولم يقل بالصلاة إذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تقرّ عينه بغير ربه وكيف وهو يدل على هذا المقام ويأمر به من سواه بقوله صلوات الله عليه وسلامه: اعبد الله كأنك تراه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه . فان قال قائل قد تكون قرّة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين منة الله فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال سبحانه ـ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ـ الآية فاعلم أن الآية قد أومأت إلى الجواب لمن تدبر سرّ الخطاب إذ قال فبذلك فليفرحوا وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم فليفرحوا بالاحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال فى الآية الأخرى ـ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ـ) الصلاة هى أجلّ ما يتحف الله تعالى به عباده ويهديه إليهم وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما أوتى عبد فى الدنيا خيرا من أن يؤذن له فى ركعتين يصليهما ففيها يحصل لهم الخلوة معه والانفراد بالمجالسة له والانقطاع إليه وفيها يرتفع عن قلوبهم الحجب والأستار ويتجلى فيها حقائق الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار وفيها تكون المناجاة والمصافاة كما تقدّم وهى صلة بين العبد وبين ربه عز وجل قال محمد بن على الترمذى رحمه الله الصلاة عماد الدين وأوّل شئ فرضه الله على المسلمين وفى الصلاة إقبال الله على العبد ليقبلوا إليه فى صورة العبيد تذللا وتسليما وتبذلا وتخضعا وتخشعا وترغيبا وتملقا فالوقوف تذلل والتكبير تسليم والثناء والتلاوة تبذل والركوع تخضع والسجود تخشع والجلوس ترغب والتشهد تملق فأقبل العبيد إلى الله بهذه الصورة ليقبل الله عليهم بالترحم والتعطف والتقبل والتكرم والتقرب فليس شئ من أمر الدين أعظم من هذه ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلاة عماد الدين» وقال فى حديث آخر الصلاة نور وقال لا يزال الله مقبلا على العبد بوجهه ما دام فى صلاته وإن الله لينصب إلى أحدكم وجهه ما دام مقبلا

كأنك تراه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه) ومن السوى صلاته فيغيب عن نفسه وحسه وعن أفعاله ولا يراها صادرة منه بل يرى الفاعل لها هو الله تعالى (فان قال قائل قد يكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين منة الله تعالى) أى لا لعلة وجعلها بارزة من نفس المنة مبالغة وإلا فهى بارزة من الله بمنته لا لعلة (فكيف لا يفرح بها وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال الله سبحانه وتعالى قلّ بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) ففى ذلك إشارة إلى أنه لا مانع أن يفرح الانسان بالصلاة ويكون قرة عينه بها فما المانع من كون فرحه صلى الله عليه وسلم بها (فاعلم) مرتب على ما تقدم وهو قوله فان قال قائل فى بعض النسخ حذف قوله فان قال قائل فيحتاج إلى تقديرها وترتب الجواب عليها كأنه قال إن قيل ذلك فاعلم (أن الآية قد أومأت) أى أشارت إشارة خفية (إلى الجواب لمن تدبر سرّ الخطاب) وهو المعنى الذى يخفى على كثير من الناس (إذ قال) الله تعالى (فبذلك فليفرحوا) أى الأمة (وما قال فبذلك فافرح يا محمد قل لهم فليفرحوا بالاحسان والتفضل وليكن فرحك أنت بالمتفضل) وهو الله تعالى (كما قال الله تعالى فى الآية الأخرى قل الله) معناه المطابقى قل الله أنزله أى القرآن ومعناه الاشارى المراد هنا قل الله أى افرح به لا بغيره (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) وهو فرحهم بغير الله سبحانه ويؤخذ من ذلك أن قرة العين قد تكون بنفس الصلاة للعلة السابقة لكن ذلك لغيره صلى الله عليه وسلم لا له فان قرّة عينه إنما تكون بمشاهدة محبوبه وغيره يشاركه فى ذلك على حسب مقامه كما مر . وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه

مقبلاعليه اهـ ولأجل هذه الفوائد كانت الصلاة مفزع ذوى الفاقات والضرورات من أرباب القلوب فيغنيهم وجودها عن كل مرغوب ويتسلون بها عن كل محبوب قال الله تعالى ـ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا ـ الآية فواجب إذن أن تكون قرّة أعين عباد الله فيها وبها، وقرّة العين عبارة عن الروح والراحة وكمال النعيم واللذة التى تحصل من غاية الموافقة والملاءمة إلا أنها تختلف باختلاف أحوال الناس فى مراتبهم ومقاماتهم فمن عظمت منزلته وعلت مرتبته كانت ملاءمته وموافقته فى شهود التوحيد وكمال التجريد والمشار إليه فى قوله صلى الله عليه وسلم أن تعبد الله كأنك تراه إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه كما قال المؤلف رحمه الله تعالى وفيما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى قوله لعروة بن الزبير رضى الله عنهما إنا كنا نتراءى الله بين أعيننا وكان هذا لما خطب إليه عروة بن الزبير ابنته وهو فى الطواف فلم يكلمه ابن عمر ولم يرجع إليه بشىء ثم اعتذر له بعد ذلك بهذا الكلام فصاحب هذه الحال تكون قرّة عينه فى الصلاة لابها لما تتضمنه من التجلى التام والشهود الحقيقى ومن كانت منزلته دون ذلك كانت ملاءمته وموافقته فى شهود النعم ووجود الفضل والكرم وكانت قرّة عينه بها لافيها لأنها فضل من الله وبارزة من منة الله كما قال المؤلف رحمه الله تعالى فلاشك أنّ معنى قرّة العين فى الوجه الأوّل أحق وبه أنسب وأليق لأن صاحبه فان عن نفسه باق بربه ومن كان على هذا الوصف فهو من المخلصين الذين لاسلطنة عليهم للعدوّ اللعين ومن زالت سلطنته عنه فى صلاته لم يحتج إلى مدافعته ومراجعته وكانت صلاته ملزومة بالحضور والخضوع والدوام والخشوع وعند فقدان العبد لحديث نفسه ووسوسة عدوّه يحصل له غاية النعيم واللذة ويتحقق فى حقه معنى قرّة العين بخلاف الوجه الآخر فان صاحبه لم يفن عن نفسه فضلا عن أن يرتقى إلى درجة البقاء بربه فلم ينقطع عنه حديث النفس ولاوسواس العدوّ فيحتاج لامحالة إلى مجاهدة ومدافعة فيتشوّش نعيمه وتتكدّر لذته فيضعف معنى قرّة العين فى حقه قال الشيخ العارف أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه وقرّة العين لاتكون لمجاهد ولا لمن يدفع الشيطان عنه بل هى لمن استراح من المجاهدة والدفع ولما كانت منزلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربه عزّ وجلّ أشرف المنازل ومرتبته فى المعرفة به أرفع الرتب بحيث لايتصوّر أن يشاركه فى ذلك غيره أو يحلّ به سواه كانت قرّة عينه فى صلاته على حسب ذلك فمن قال إن ذلك خاص به لانفراده بالمرتبة العليا والخاصية الكبرى فقوله صحيح وعليه يدلّ ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرّة عينى فى الصلاة» بعد قوله «إنما حبب إلىّ من الدنيا الطيب والنساء» ولاشك أن حبه لهذين الأمرين ليس على قياس حبّ غيره لهما وإنما ذلك لوجود الخاصية التى اقتضت منه ذلك ألا ترى أنه أبيح له مالم يبح لغيره من عدد الحرائر وأمن لأجل ذلك من وقوع مفسدة التباغض والتشاجر بسبب اجتماع الضرائر واستعماله صلى الله عليه وسلم الطيب وحبه له إنما هو للقائه الملائكة التى تناجيه وإلا فهو فى ذاته غنى عن الطيب واستعماله كما قال أنس ابن مالك رضى الله عنه : مامسست حريرا ولاخزا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاشممت رائحة قط مسكا ولا عنبرا أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا كان حاله فى هذين الأمرين على ماذكرناه مع أنه لم يذكر فيهما سوى لفظ الحب وهما من لذات الدنيا فكيف يكون حاله فى الأمر الثالث مع أنه عبر فيه بقرّة العين وهى غاية المحبة وهو من أعمال الآخرة . وقيل معنى قوله من الدنيا أى فى الدنيا ومن قال إن لغيره منه شربا ونصيبا على المعنى الذى يليق بهذا الغير فلقوله وجه وجواب المؤلف رحمه الله تعالى محتمل لهذين الوجهين

(الناس فى) حال (ورود المنن) أى النعم عليهم من الله تعالى (على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لامن حيث مهديها ومنشئها) وهو الله (ولكن) فرحه (بوجودمتعته فيها) أى بسبب تمتعه وقضاء وطره ونيل غرضه بها (فهذامن الغافلين) شبيه بالبهائم الذين يأكلون ويشربون غافلين عن مولاهم (يصدق عليه قوله تعالى ــ حتى إذافرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) يعنى أنهم بما

والله أعلم بما أراد منهما أومن غيرهما . وقال المؤلف رضى الله عنه فيما كتب به لبعض إخوانه (الناس فى ورود المنن على ثلاثة أقسام فرح بالمنن لامن حيث مهديها ومنشئها ولكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين يصدق عليه قوله تعالى ــ حتى إذافرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ــ وفرح بالمنن من حيث إنه شهدهامنة ممن أرسلهاونعمة ممن أوصلهايصدق عليه قوله تعالى ــ قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ــ وفرح بالله ماشغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها بل شغله النظر إلى الله عماسواه والجمع عليه فلايشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى ــ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ــ) تضمن هذا الفصل بيان مايحمد من أحوال الناس ومايذم عند ورود النعم عليهم وحصول الفرح إذ ذاك لهم و ينبنى عليه ما يكون من ذلك شكرا لها وما لا يكون وقد قسمهم المؤلف ثلاثة أقسام وجعلهم طرفين و واسطة قسم فى غاية الدناءة والخسة وهم الذين فرحوا بالنعم من حيث إنّ فيها قضاء أوطار نفوسهم ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم فأحوال هؤلاء مذمومة جدا أشبه شئ بهم الأنعام والبهائم وهذه أحوال أهل الطرد والبعد والاستدراج والمكر حسبما أشار إليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله فى هذا القسم وهذه الأحوال بعيدة من الشكر منافية له وقسم فى غاية الشرف والجلالة وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم لأجل أنّ فيها متعتهم ولذاتهم ولا إلى بواطنها من كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث منّ بها عليهم فأحوال هؤلاء محمودة جدّا لأنهم غابوا عن الأغيار العدمية وتحققوا بحقائق الوحدانية كما أشار إليه فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله فى هذا القسم وحال هؤلاء هى الشكر الحقيقى الخالص الخالى من المزج والشوب لأنه الشاهد للمنعم فان عن حظوظ نفسه فهو يرى الأشياء كلها نعما فلا تفرقة عنده بين وجود ولاعدم ولاعطاء ولامنع ولايخاف عليه من التغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب مايخاف على غيره لبقاء حظه قال أبو محمد الجريرى رضى الله عنه من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكر وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه كل من لم يشاهد المنعم فى النعمة كانت النعمة فى حقه استدراجا لأنه يؤديه إلى أن يسكن إليها فاذا نزعت منه لزمه أن يتغير عليها ومنهم من حصل له نصيب من الشرف والجلالة وحظ من الدناءة والرذالة وهم الذين فرحوا بالنعم لكونها منة من الله تعالى عليهم فمن حيث شهودهم للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة وهى شكر منهم لائق بهم ومن حيث نظرهم لأنفسهم و بقاؤهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين وارتقوا بالوصف الأوّل عن أحوال الأدنين فخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين وأوساطهم فى الآية الكريمة التى ذكرها المؤلف رحمه الله فى هذا القسم وقد ضرب الامام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الشكر لهذه الأقسام الثلاثة مثلا فقال الملك الذى يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وأنه مال ينتفع به وأنه مركوب يوافق غرضه وأنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له فى الملك بل غرضه فى الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه به مثل

كان توارد النعم استدراجا من الله تعالى كلما أعطى نعمة ازداد غفلة ولم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر (وفرح بالمنن) أى النعم (من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها) وهو الله تعالى فيشكره سبحانه عليها ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث إنه ملتفت إلى النعمة وعنده فرح بها و إن كان ذلك من حيث بروزها عن الحق (يصدق عليه قوله تعالى ــ قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ــ وفرح بالله) عز وجلّ (ماشغله) عنه (من المنن ظاهر متعتها) أى التمتع بها (ولا باطن منتها) أى لم يلتفتوا إلى ظاهر النعم من أجل أنّ فيها لذاتهم ولا إلى باطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث منّ بها عليهم كما هو حال القسمين الأوّلين فان القسم الأوّل التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أنّ فيها لذتهم وغابوا عن المنعم بها والقسم الثانى التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله عزوجلّ وأنّ فى حصولها لهم اعتناء منه تعالى بهم (بل شغله النظر إلى الله) تعالى (عماسواه والجمع عليه) أى جمعية قلبه عليه (فلايشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى ــ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ــ

مثل هذا الفرح.الوجه الثانى أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من جهة مايستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هـذا الفرس فى صحراء أو أعطاه له غير الملك لكان لايفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصـلا ولا ستحقاره له بالاضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك.الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه فيخرج به فى خدمة الملك و يتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه و يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك محل من يعطيه فرسا و يعتنى به هذا القدر من العناية بل هوطالب لأن لاينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة نفسها بل مشاهدة الملك والقرب منه حتى لوخير بين القرب دون الوزارة و بين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات فالأولى لايدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لابالمعطى وهذه حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانى داخل فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولـكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل وهذه حال الصالحين الذين يعبدون الله تعالى و يشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه و إنما الشكر التام فى الفرح الثالث وهو أن يكون فرح العبد بنعم الله عزّ وجلّ من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذه هى المرتبة العليا وأماراته أن لايفرح من الدنيا إلا بماهومزرعة الآخرة و يعينه عليها و يحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصـدّه عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلى رضى الله عنه الشكر رؤية المنعم لارؤية النعمة ولذلك قال الخوّاص رضى الله عنه شـكر العامـة على المطعم والملبس وشـكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لايدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لايلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه و إنما يلتذ بغـيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتـذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة و يستحلى الأشياء المرة كما قيل :

ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجـد مرا به الماء الزلالا

فاذن هو شرط الفرح بنعمة الله عزّ وجلّ فان لم تـكن له إبل فمعز وان لم يكن هذا فالدرجة الثانية أما الأولى فخارجة عن كل حساب فـكم فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله عزّ وجلّ لينعم عليه و بين من يريد نعم الله تعالى ليصل بها إليه اه كلام الامام أبى حامد الغزالى وهو فى غاية البيان والوضوح وهو كالتفسير لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى ولذلك أوردته ههنا بكماله (وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ياداود قل للصدّيقين بى فليفرحوا و بذكرى فليتنعموا) بهذا تحققت صديقيتهم وعلا ارتفاع رتبتهم على من دونهم.قيل إن عتبة الغلام دخل فى بعض الأيام على رابعة العدوية رضى الله عنها وعليه قميص جديد وهو يتبختر فى مشيته بخلاف ماسبق من عادته فقالت له ياعتبة ماهذا التيه والعجب الذى لم أره فى شمائلك قبل اليوم فقال يارابعة ومن أولى بهذا التيه منى وقد أصبح لى مولى وأصبحت له عبدا . وقال بعضهم كنت مسافرا إلى مكة فبينما أنا أمشى إذ رأيت شيخا بيده مصحف وهو ينظر فيه و يرقص فتقدمت إليـه فقلت ياشيخ ماهذا الرقص قال دعنى عنك قلت فى نفسى عبد من أنا

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسـلام ياداود قل للصدّيقين) أى كثيرى الصدق فى أقوالهـم وأفعالهم وأحوالهـم (بى فليفرحوا) أى فليفرحوا بى لا بغيرى حيث كنت ربا وكانوا لى عبيدا خالصين من حكم بشريتهم ولذا قيل إن عتبة الغلام دخل يوما على رابعة العدوية وعليه قميص جديد وهو يتبختر فى مشيته على خلاف عادته فقالت له ياعتبة ماهذا التيه والعجب الذى لم أره فى شمائلك قبل هذا اليوم فقال يارابعة ومن أولى بهذا التيه منى وقـد أصبح لى مـولى وأصبحت له عبـدا (و بذكرى فليتنعموا) أى لايتنعـمون إلا بذكرى لا بلذات الدنيا وشهواتها فان المشتغل بذكر الله يحصل عنـده من اللـذة والأنس بالله مالا يوازيه لذة من لذات الدنيا

(والله تعالى يجعل فرحنا و إياكم) أيها الأحباب الناظرون فى هذا الكتاب (به) تعالى (و بالرضا منه) أى الانعام بدوام المشاهدة (وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه) وهم الذين يفهمون عن الله مراده منهم وهو إقبالهم عليه واشتغالهم بخدمته و يفهمون عنه أنه حاضر معهم فيراقبونه فى حركاتهم وسكناتهم و يفهمون عنه أنه قائم بالأشياء وأنها عدم محض فلا يلتفتون إليها فى جلب نفع ولا دفع ضرر و يفهمون عنه أنه معهم بذاته لا بعلمه كما يفهمه المحجو بون أهل الدليل والبرهان إلى غير ذلك مما هو مقرر عند أهل الشهود والعيان (وأن لا يجعلنا من الغافلين) الذين اشتغلوا بالأكوان عن المكوّن ولم يفهموا مراد الله منهم فلم يقبلوا على طاعته و إن أقبلوا عليها فبظاهرهم دون قلوبهم (وأن يسلك بنا مسالك المتقين) الذين يتقون ماسواه سبحانه فلا يلتفتون إلى غيره فى جلب ولا دفع ولا يغيبون عنه طرفة عين وهذه أعلى مراتب التقوى ودون ذلك اتقاء معاصى الجوارح وشهوات النفوس ودون ذلك اتقاء الشرك (بمنه وكرمه) أى لا بعلة تحمله على ذلك كأعمالنا المدخولة . وقال رضى الله عنه وفى بعض النسخ ومن مناجاته (إلهى أنا الفقير فى) حال (غناى فكيف لا أكون فقيرا فى) حال (فقرى) يعنى أن صفتى الذاتية هى الفقر والاحتياج والغنى أمر عارض والعارض بصدد الزوال (إلهى أنا الجاهل فى) حال (علمى) لأن ما عندى من العلم قليل فهو فى حكم العدم وأيضا فهو عارض عليها والعارض بصدد الزوال كما مر (فكيف لا أكون جهولا) أى كثير الجهل (فى) حال (جهلى) وأتى بصيغة المبالغة لما فى ذلك من ضم جهل إلى جهل . وحاصله أن العبد صفته الذاتية هى النقص والكمال عارض له والعارض نقصان فى التحقيق

(٩٢)

وكلام من أنا و بيت من أنا قاصد فاستغرقنى الوجد فرقصت وأنشد فى هذا المعنى :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له ياحسن رؤيتهم فى حسن ماتاهوا

و يجوز أن يكون المراد بقوله و بذكرى فليتنعموا أى بذكرى إياهم فى الأزل حيث لا وجود لهم و إلا فان الذكر المنسوب إليهم محل الآفات والعلل وهم أجلّ رتبة من أن يكون نعيمهم بشئ ملتبس بهم (والله تعالى يجعل فرحنا و إياكم به و بالرضا منه وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه وأن لا يجعلنا من الغافلين وأن يسلك بنا مسالك المتقين بمنه وكرمه) هذا دعاء حسن موافق لمعنى ماتقدم وهو بين لا يحتاج إلى تبيين ولا تنبيه عليه فالله تعالى يحقق لنا ذلك بفضله و إحسانه إنه أرحم الراحمين . وقال رضى الله عنه (إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ، إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولا فى جهلى) العبد موصوف بصفات النقص وهى ذاتية له والكمال العارض له والمنسوب إليه نقصان على التحقيق ومن ثم كان ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من كونه فقيرا فى غناه وجاهلا فى علمه صحيحا مستقيما وكأنه قصد رضى الله عنه بهذا الاعتراف بدوام الاضطرار ولزوم الفاقة والافتقار وأنه لا استغناء له عن مولاه عزّ وجلّ ولا ينفك من الاحتياج إليه والتعلق به والسؤال والطلب منه فى كل حال من أحواله كما قال بعضهم :

إنى إليك مدى الأنفاس محتاج لو كان فى مفرق الاكليل والتاج

وهذا منه دليل على تحققه فى مقام العبودية التى اقتضتها عظمة الربوبية وتقديمه لهذه المعانى بين يدى دعائه ومناجاته فى غاية الحسن قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه ماطلبت من الله شيئا إلا وقدّمت إساءتى أمامى يريد رضى الله عنه لا يطلب من الله شيئا بوصف يستحق به العطاء بل لا يكون طلبه وجود فضله إلا بفضله وقال أبو عثمان رضى الله عنه فى قوله تعالى ـ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ـ التضرع فى الدعاء أن لا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقيامك وقراءتك ثم تدعو على أثره إنما التضرع أن تقدم إليه افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلة حيلتك ثم تدعو بلا علاقة ولا سبب فيرفع دعاؤك . وقال الواسطى رضى الله عنه تضرعا بذل العبودية وخلع الاستطالة وقال سهل ابن عبد الله رضى عنه ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى فى وقت الدعاء فى شئ يحل به إلا قال لملائكته لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبته لبيك (إلهى إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين

وتقديمه هذا التضرع والافتقار بين يدى دعائه ليكون ذلك أرجى للاجابة قال سهل بن عبد الله ما أظهر عبد فقره إلى الله فى وقت الدعاء فى شئ يحل به إلا قال لملائكته لولا أن لا يحتمل كلامى لأجبته لبيك اه (إلهى إن اختلاف تدبيرك) فقد يكون العبد فقيرا فيدبر الله له الغنى و بالعكس ويكون مريضا فيدبر الله له الصحة و بالعكس فالمراد بالتدبير المدبر أى المقدر ولذا عطف عليه التفسير قوله (وسرعة حلول مقاديرك) أى المقدرة على العبد (منعا عبادك

العارفين بك عن السكون) منك (إلى عطاء) أى عن سكونهم إلى عطاء يصدر منك فاذا أفيضت عليهم العطايا الدنيوية كالأموال أو الدينية كالمعارف والأسرار والمكاشفات لايلتفتون إليها لأنها بصدد الزوال يمكن زوالها و إتيان ضدها كما وقع لكثير فى غابر الزمان بل لايلتفتون إلا إلى الولى ولا يغيبون عنه ويكون بقاء ذلك وزواله عندهم على حد سواء (واليأس منك فى بلاء) فاذا قام بهم بلية بدنية كمرض أو فقر أو دينية كمعصية لاييأسون من زوالها باتيان ضدها كما وقع لغيرهم (إلهى منى) أى يصدر منى (مايليق بلؤمى) الذى ركبت عليه وهو مبارزتى إياك بالمعاصى التى تليق بى فان شأن الانسان عدم الوفاء بحقوق الرب (ومنك) أى ويصدر منك (ما يليق بكرمك) وهو التجاوز والعفو عنى وقبول أعذارى والتفضل والاحسان ودفع الآلام (إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة) أى شدة الرحمة (٩٣) (بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما) أى من قيام أثرهما بى وحصوله لدىّ (بعد وجود ضعفى) فاللطف والرأفة صفتان لله عز وجل اتصف بهما فى الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود أثرهما فيما لايزال بعد وجود ذات العبد وصفاته وهو إسباغ نعمه عليه وإيصال إفضاله إليه فكيف يتصور إذ ذاك منعه إياها واللطف يرجع للعلم والرأفة للارادة (إلهى إن ظهرت المحاسن منى) وهى أنواع الطاعات والصفات المحمودة (فبفضلك) لابحولى ولا قوتى (ولك المنة) أى الامتنان (علىّ) لعدم استحقاقى لذلك والامتنان مذموم إلا من الله أو الرسول أو الوالد أو الشيخ (و إن ظهرت المساوى منى) وهى ضروب المعاصى والصفات المذمومة (فبعدلك) لابطريق الظلم لأن المالك يفعل فى ملكه مايشاء (ولك الحجة علىّ) بأن تقول لى لم فعلت ذلك ياعبدى وليس لى حجة أقيمها عليك كأن أقول لك إن ذلك بتقديرك وحكمك لأن ذلك شأن الجاهل بك أما العالم فيقول المالك يفعل فى ملكه مايشاء ولا يسئل عما يفعل (إلهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت لى) ومن كنت وكيله لا نحوجه إلى غيرك (وكيف أضام) أى يحصل لى ضيم وذل (وأنت الناصر لى أم كيف أخيب) بعدم الظفر بآمالى (وأنت الحفىّ بى) أى اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفيات مآربه و إيصال ذلك إليه برفق فالوكيل والناصر والحفى من أسماء الله تعالى وهى مقتضية لوجود آثارها من الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصور انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم فى اللطف والرأفة

العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء) تلوين الأحكام على العباد يقتضى أن لاييأسوا كنوا حالا سارّة يكونون عليها ولا ييأسوا فى حال ضارة تنزل بهم من وجود الراحة والفرح وهذا محض تعلق بالله عز وجل وهو نعت العارفين (إلهى منى مايليق بلؤمى ومنك مايليق بكرمك) لؤم العبد الذى ركب عليه يقتضى منه مبارزة مولاه بالعظائم والكبائر وكرم المولى الذى هو متصف به يقتضى منه التجاوز والعفو عن عبده وقبول عذره وهذا الكلام من ألطف وجوه للسؤال والرغبة وهو من آداب الدعاء. يحكى أن رجلا قال لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قل له كم أخالفه وأعصيه وهو لايعاقبنى فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبى قل لفلان لتعلم أنى أنا وأنت أنت (إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى) اللطف والرأفة وصفان لله عز وجل اتصف بهما فى الأزل قبل وجود ضعف العبد وفاقته وحاجته وهما مقتضيان لوجود آثارهما فيما لايزال بعد وجود ذات العبد وصفاته وهى إسباغ نعمه عليه و إيصال إفضاله إليه فكيف يتصوّر إذ ذاك منعه إياها (إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ و إن ظهرت المساوى فبعدلك ولك الحجة علىّ) ظهور المحاسن على العبد وهى أنواع الطاعات والحسنات والصفات المحمودات فضل من الله تعالى والمنة له عليه لعدم استحقاقه لذلك وظهور المساوى منه وهى ضروب المعاصى والسيآت والأوصاف المذمومات عدل من الله تعالى إذ له أن يفعل بعبده مايشاء والحجة له عليه لأنه رب وهو عبد ومناجاة العبد لمولاه بهذا الكلام من أحسن المناجاة وهى مقتضية لوجود إسعافه له وموالاة ألطافه عليه لما فيها من الثناء على الله تعالى على بساط قربه وذكر صفاته العلية والتعلق بها والاعتراف له بالنعم الظاهرة والباطنة ولما فيها أيضا من رؤية ضعف النفس والاقرار عليها بالنقص والقصور و إنزالها منزلتها من الذلة والمهانة وقد قال بعضهم تعلق شاب بأستار الكعبة وقال إلهى لا لك شريك فيؤتى ولا وزير لك فيرشى إن أطعتك فبفضلك ولك المنة علىّ و إن عصيتك فبعدلك ولك الحجة علىّ فباثبات حجتك علىّ وانقطاع حجتى لديك إلا ماغفرت لى فسمع هاتفا يقول الفتى عتيق من النار (إلهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت لى وكيف أضام وأنت الناصر لى أم كيف أخيب وأنت الحفىّ بى) الوكيل والناصر والحفى أسماء لله عز وجل وهى مقتضية لوجود آثارها من وجود الكفاية والمنفعة والظفر بغاية المقصود والبغية فكيف يتصوّر انفكاك ذلك عن العبد عند وجود حاجته كما تقدم فى اللطف والرأفة والضيم

(ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك) أي أجعل فقري إليك وسيلة أتشفع به عندك في القبول لا بأعمالي المدخولة وأحوالي المعلولة ولذا سئل أبو حفص بما ذا يقدم الفقير على ربه فقال وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره وقال أبو يزيد نوديت في سري خزائننا مملوءة من الخدمة فان أردتنا فعليك بالذلة والافتقار ، ثم رجع عن جعل الفقر وسيلة يتشفع بها إلى المولى فقال (وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك) وهو الفقر المذكور فكأنه يقول إن كان الفقر يتوسل به إليك فأنا أتوسل به لكنه لا يتوسل به إليك لأن المتوسل به يكون بينه وبين المتوسل إليه علاقة ومناسبة كالوزير والسلطان ولا مناسبة بين الفقر الذي هو نعت العبد وبين الرب الذي له الغنى الأكبر وأيضا توسل العبد بفقره يقتضي شهوده له واعتماده عليه فيكون حينئذ من الأحوال المعلولة وهي لا تصل إلى الله بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها ولذا قيل إن أبا الحسن الشاذلي قدس سره لما دخل على شيخه عبد السلام قال له يا أبا الحسن بماذا تلقى الله قال بفقري فقال له والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الأعظم ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر وإلا كنت غنيا بفقرك اه فاذن لا وسيلة إلى الله بسواه (أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك) وشكوى الحال لا تصلح إلا لمن لا يعلمها والله تعالى لا يخفى عليه شيء ولذا قال الخليل عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي وقولهم لا شكوى إلا لله شأن الغافلين المحجوبين (أم كيف أترجم لك بمقالي) أي أعبر عما في ضميري بأن أقول أعطني كذا والترجمة في الأصل التعبير باللسان عما في الضمير لتفهيم المخاطب (وهو منك برز إليك) أي أنت الذي أنطقت اللسان (أم وأطلقته بذلك فالترجمة برزت منك وترجع إليك لأنك المسئول والعبد لا مدخل له في ذلك فكيف تنسب إليه الترجمة وأيضا فهو تعالى عالم بأحوال العبد والترجمة لا تكون إلا لمن لا يفهم حال المترجم والمراد بالترجمة هنا مطلق السؤال (أم كيف تخيب آمالي) أي ما أؤمله وأرجوه (وهي قد وفدت إليك) أي توجهت بالسير إليك كما يتوجه الوافدون بالسير إلى الكرام وفي بعض النسخ عليك ولا شك أنه تعالى كريم جواد متفضل لا يخيب من قصده فليكن العبد على يقين بحصول مطلوبه وإن لم يسأل ولم يطلب . ولما كانت هذه التعجبات تقتضي نسبة النقص إلى نفسه وذلك غير لائق بالعارفين المحققين لما فيه من رؤية النفس وملاحظة حالها والبقاء معها والمحقق لا يرى غير الله والأحوال كلها حسنة من حيث نسبتها إليه أتى بقوله

في اللغة معناه انتقاص الحق والحق هو اللطيف ولطفه بعبده علمه بدقائق مصالحه وخفيات مآربه وإيصال ذلك إليه برفق قال الله تعالى - الله لطيف بعباده (ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك) التوسل التقرب والوسيلة ما يتقرب به وأعظم وسائل العبد إلى مولاه هو تحققه بما توجبه عبوديته وهو فقره إليه في كل حال من أحواله فلا يرى لنفسه حسنة يقتضي بها ثوابا ولا يدلي بحجة يستدفع بها عن نفسه عقابا قال أبو يزيد رضي الله عنه نوديت في سري فقيل لي خزائننا مملوءة من الخدمة فان أردتنا فعليك بالذلة والافتقار وسئل أبو حفص رضي الله عنه بما ذا يقدم الفقير على ربه فقال وما للفقير أن يقدم به على ربه سوى فقره (وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك) بين المتوسل به والمتوسل إليه نسبة تامة ووصلة حقيقية وهي التي اقتضت له وجود التوسل ولا نسبة ولا وصلة بين الفقر الذي هو نعت العبد وبين الرب الذي له الغنى الأكبر وأيضا توسل العبد بفقره يقتضي شهوده له وامتداده به واعتماده عليه ورؤية العبد لأحواله وسكونه إليها علة فيها والأحوال المعلولة لا تليق بالحضرة الإلهية ولا تصل إلى الله تعالى بمعنى أنه لا يرضاها ولا يقبلها فالفقر لا يصح التوسل به من هذا الوجه أيضا وإلى هذا المعنى يشير ما يحكى عن سيدي أبي الحسن الشاذلي حين دخل على شيخه أبي محمد عبد السلام رضي الله عنهما فقال له يا أبا الحسن بما ذا تلقى الله تعالى قال له بفقري قال له الشيخ والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الأعظم ولا تصح حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر وإلا كنت غنيا بفقرك اه فاذن لا وسيلة إلى الله بسواه (أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك) شكوى الحال لا تصح إلا لمن هي غائبة عنه وهو غير عالم بها والله تعالى لا يخفى عليه شيء وقد قال إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام حسبي من سؤالي علمه بحالي (أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك) الترجمة بالمقال هي التعبير باللسان عما في الضمير ليقع التفهيم بذلك للمترجم له والله تعالى هو الذي أنطق اللسان وأطلقه بذلك فالترجمة من الله تعالى برزت وإليه مآل أمرها والعبد لا مدخل له في ذلك فكيف ينسب إليه الترجمة ونسبة ذلك إلى الله تعالى دليل على إحاطة علمه بأحوال العبد فكيف يصح في حقه معنى الترجمة (أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك) الآمال الوافدة إلى الله تعالى لا يخيبها من قبل أنها فارة إليه ومتعلقة به ومنقطعة عما سواه والله تعالى كريم جواد متفضل منعم فليثق العبد بذلك وليكن على يقين منه وإن لم يسأل ولم يطلب

(أم كيف لاتحسن أحوالى) الباطنية والظاهرية وهى الأعمال الصالحة (وبك قامت وإليك) أى صدرت منك ورجعت إليك لأنك المقصود بها فمن تحقق فى مقام المعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه (إلهى ماألطفك) أى أكثر لطفك أى رفقك (بى مع عظيم جهلى) بعواقب الأمور فقد يكون فى نزول الأمراض والبلايا بى أنواع من اللطف وأنا جاهل بعاقبة ذلك فلذا أطلب الصحة والعافية (وما أرحمك بى) أى أكثر إحسانك لى (مع قبيح فعلى) أى مع أفعالى القبيحة المقتضية عدم الاحسان فهذا أمر يتعجب منه (إلهى ماأقربك منى) بذاتك كما يقوله أهل المعرفة والشهود أو بعلمك كما يقوله غيرهم من أهل الجحود (وما أبعدنى منك) بصفاتى التى اقتضت عدم شهودى إياك وهذا تواضع منه قدس الله سره ثم ترقى فقال (إلهى ماأرأفك) أى أشد رأفتك أى رحمتك (بى فما الذى يحجبنى عنك) فان من شاهد رأفة ربه غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفاتها فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه (إلهى قد علمت باختلاف الآثار) وقوله (وتنقلات الأطوار) مرادف لما قبله أى قد علمت باختلاف الآثار علىّ وهى تنقلات أطوارى من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والبسط والقبض والوجد والفقد وغيرذلك من شؤونك التى تنزلها بى (أن مرادك منى) بذلك (أن تتعرف إلىّ) أى أن أعرفك (فى كل شىء) معرفة خاصة (حتى لاأجهلك فى شىء) ولو كان الأمر على خلاف هذا وألزمتنى حالة واحدة أرتضيها لنفسى وأختارها لكانت معرفتى ناقصة ومشاهدتى قاصرة، بيان ذلك أن الله تعالى إذا أنزل بى مرضا أوفاقة عرفت فى ذلك الوقت أنه لايقدر على دفعه إلا هو وأنه الذى أمرضنى وأفقرنى فأصبر على ذلك وإذا أنزل بى صحة أو غنى عرفت أنه المنعم على والمعطى لى فأشكره وهكذا ولو فرض أنه أدام لى حالة واحدة كالصحة والغنى لم أعرف المولى فى حالة المرض أو الفقر فكنت جاهلا به من حيث المرض أوالفقر أى لم أعرف بطريق الذوق أنه لايقدر على كشف الكربة إلا هو فتكون معرفتى ناقصة فينبغى للعبد أن لايغفل عن مولاه فى عطاء ولامنع ولاعز ولاذل ولاغنى ولا فقر ولا قبض ولا بسط ولافقد ولا وجد إلى غير ذلك

(أم كيف لاتحسن أحوالى وبك قامت وإليك) من تحقق بالمعرفة رأى أحواله كلها حسنة لوجود قيامها بالله ورجوع أمرها إليه وهذه كلها أنواع من التعجب عجب بها المؤلف رحمه الله نفسه من نفسه فما هو بصدده من سؤاله وطلبه بسبب ترقيه فى المعرفة التى أوجبت له رؤية نفسه وقصوره فى أحواله الأولى (إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى وما أرحمك بى مع قبيح فعلى) شهود العبد لهذا المعنى مزيد عظيم يوجب له الحياء والانكسار فيستحسن منه حينئذ الاعتراف بالنعم فقط (إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك) شهود المؤلف رحمه الله تعالى شدة قرب الله تعالى منه لما رأى من بعد الأغيار عنه ودفعها له إليه كما سيأتى فى قوله قد دفعتنى العوالم إليك وشهوده لبعده من الله عز وجل من حيث أقيم فى الطلب له والطلب للشىء دليل على فقد الطالب له وبعده عنه فالمشاهدة الأولى أوجبت له ملازمة باب مولاه وانقطاع طمعه عن كل ماسواه والمشاهدة الثانية أوجبت له التلطف فى سؤاله التقريب والاستغناء عن طلب القرب. ومن دعاء سيدى أبى العباس المرسى رضى الله عنه ياقريب أنت القريب وأنا البعيد قربك آيسنى من غيرك وبعدى منك ردنى للطلب لك فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك ياقوى ياعزيز (إلهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك) الرأفة أشد من الرحمة ولما شاهد رأفة ربه به غاب بهذا الشهود عن رؤية نفسه وصفتها فلذلك لم يظهر له سبب لوجود حجابه عنه (إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء) كأن المؤلف رحمه الله يقول اختلاف الآثار علىّ وتنقلات الأطوار بى من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل والقبض والبسط والطاعة والعصيان والفقد والوجد وغيرذلك من مختلفات أحوالى التى هى من شؤونك التى تنزلها بى علمت منها أن إرادتك بى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء تعرفا خاصا فى حالة خاصة حتى أشاهد وحدانيتك وعظمتك وجمالك وكمالك وجلالك بحيث لايتصور منى جهل بما أنا فيه قابل لمعرفته من جميع ذلك ولو كان الأمر على خلاف هذا وألزمتنى حالة واحدة أرتضيها لنفسى وأختارها لكانت معرفتى ناقصة ومشاهدتى قاصرة فأنا الآن أتقلب فى جنة معجلة أتبوأ منها حيث أشاء فقد استغرقنى ما أنا فيه من عظيم النوال وشغلنى ذلك عن الدعاء والسؤال وطلب السكون على ماأرتضيه من الأحوال فلك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة والخفية والجلية قال بعضهم فى الدنيا جنة معجلة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ولا إلى شىء ولم يستوحش من شىء قيل وما هى قال معرفة الله تعالى. وقال مالك بن دينار رضى الله عنه خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الأشياء قيل وماهو قال المعرفة ثم قال:

(إلهى كلما أخرسنى لؤمى) أى تخالفى وعصيانى فان ذلك يقتضى عدم انطلاق لسانى بالطلب منك لأن الطلب لا يكون إلا بعد التودد والتودد إلى المولى بطاعته وذلك مفقود عندى لكن كلما خرست (أنطقنى كرمك) فانى إذا لاحظت أنك كريم والكريم لا يتوقف إعطاؤه على التودد إليه انطلق لسانى بالطلب منك (وكلما آيستنى) أى أوقعتنى فى اليأس من الاستقامة (أوصافى) الذميمة التى اقتضتها الطبيعة والجبلة فانها تقتضى اليأس من الاستقامة على طريق الحق ومن القيام بحقوق الربوبية (أطمعتنى) أى جعلتنى طامعا فى ذلك (منتك) أى امتنانك وإحسانك الذى شمل البار والفاجر (إلهى من كانت محاسنه) أى أعماله الصالحة (مساوى) لعدم خلوها من دقائق العجب والرياء فهى محاسن بحسب الظاهر وعند الناس ومساوى فى الواقع وعند الله (فكيف لا تكون مساويه) أى عيوبه وأعماله السيئة (مساوى) أى عيوبا تامة عظيمة فقد اختلف الخبر والمبتدأ بهذا الاعتبار ويحتمل أن المعنى فكيف لا تكون مساويه فى الواقع ونفس الأمر مساوى عنده فهو لا يعتقد الكمال من نفسه ولا ينظر إلى عيوبه بعين الاحتقار فلا يعدها عيوبا كما هو حال الغافلين (ومن كانت حقائقه) أى علومه ومعارفه التى يعرفها الناس منى (دعاوى) عندى وفى اعتقادى (فكيف لا تكون دعاويه ولا دعاوى) فيه ما تقدم وكأنه يقول أنا فى جميع الأحوال معتقد للتقصير من نفسى ومترج العفو من الله وليس لى حالة أعتقد بها الكمال وهذا مثل ما تقدم من أن الكمال المنسوب إلى العبد نقصان على التحقيق فما ظنك بنقصانه (إلهى حكمك) أى قضاؤك (النافذ) وقوله (ومشيئتك القاهرة) تفسير لما قبله ووصف المشيئة بذلك لأنها إن تعلقت بحصول نقمة و بلية كانت قاهرة أو بحصول نعمة وعطية كانت غير قاهرة (لم يتركا لذى مقال مقالا) فاذا كان ذا قول سديد بأن كان ينطق بالحقائق و يتكلم فى العلوم العرفانية

إن عرفان ذى الجلال لعز ... وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضا بهاء ... وعليهم من المحبة نور
فهنيئا لمن عرفك إلهى ... هو والله دهره مسرور

وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتعبدين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها مكتوب إذا أحسنت كل شىء فلا تظن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله عزوجل ، وفى يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله عز وجل أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب قال فى التنوير بعد كلام ذكره وإنما قلنا إن الحالة زائلة عنك لا محالة فان مراده أن ينقلك فى الأطوار و يخالف عليك الآثار ليتعرف إليك فى كل حالة خاصة بتعرف خاص فاذا أردت أن يديمك على حالة واحدة فقد أردت أن يسلك بك غير الكمال فكأنه يقول لك لا تطلب منى أن أقيمك فى حالة واحدة لأنى لا أفعل ذلك معك أريد أن تبقى ربوبيتى معطلة الآثار ولكن سلنى أن أشعرك لطفى حيثما أردتك وحيثما أقمتك حتى تكون بى ولى قال الله سبحانه وتعالى ـ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ـ أى يمنع و يعطى ويضع ويعلى ويقبض و يبسط و يعز ويذل إلى غير ذلك من مختلفات آثاره فكأنه سبحانه وتعالى يقول لك ياعبدى لا تأس على شىء مادمت لك ولا تفرح بشىء وأنا لست لك فأنا العوض لك عما سواى وما سواى لا يغنيك عنى ولا تكن ممن يعبدنى بالعلل فتكون من عبيد الحروف بل اعبدنى لى فانى بكمال الغنى موصوف و بدوام الافضال معروف قال الله عزوجل ـ ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ـ لأن الذى طلبه عزلناه عنه فما دام له وهو ما طلبنا حتى تكون له ومن عبده لما سواه فهو عبد ماسواه ومن عبده لأجل جوده ونعمائه فهو عبد جوده ونعمائه لأن من أحب شيئا فهو عبد ما أحبه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس وانتكس و إذا شيك فلا انتقش» فكن عبد الله فى كل شىء عطاء ومنعا وعزا وذلا وغنى وفقرا وقبضا و بسطا وفقدا ووجدا وشدة ورجاء وفناء و بقاء إلى غير ذلك من مختلفات الآثار وتنقلات الأغيار انتهى كلامه رحمه الله ، وقد أحسن فيه غاية الإحسان كله فجزاه الله تعالى خيرا (إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى منتك) لؤم العبد ومخالفته وعصيانه يخرس لسانه عن السؤال والطلب وكرم المولى وفضله واحسانه ينطقه بذلك وأوصاف العبد الذميمة متى اقتضتها طبيعته وجبلته تؤيسه من حصول الاستقامة على طريق الحق ومنن الله تعالى التى شملت البر والفاجر تطمعه فى ذلك (إلهى من كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى) هذا مثال ما تقدم من أن الكمال المنسوب إلى العبد نقصان على التحقيق فما ظنك بنقصانه (إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالا

لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كبلعام بن باعوراء (ولا لذى حال حالا) فاذا كان ذا حال حميد بأن كان يحصل له كشف عن أمور تحصل فى الكون أو تطيعه بعض الجمادات والعناصر لم يغتر بذلك فقد حكم الله ونفذت مشيئته بسلب غيره كاهو مشاهد كثيرا فهذا المعنى يوجب للعبد التحقق فى مقام الخوف وعدم الاغترار بشىء من أقواله وأحواله لنفوذ حكم الحق تعالى وقهرمشيئته (إلهى كم من طاعة) ظاهرية (بنيتها) أى أقمتها على الوجه المأمور به فى الظاهر بأن وفيت بجميع شروطها وأركانها وآدابها (وحالة شيدتها) أى زينتها وصنتها عما يكدّر صفاءها بأن أخلصت فيها إخلاصا تاما والحالة هى الطاعة فعطفها عليها من عطف المرادف أى ولما فعلت هذين الأمرين من البناء والتشييد رأيت أنى تحصنت بحصن حصين وأويت إلى ركن متين ولكن (هدم اعتمادى عليها) فى النجاة من العذاب ودخول الجنة دار الثواب (عدلك) أى النظر إلى عدلك فان مقتضاه أنك تفعل ماتشاء ولاتبالى بأعمال العاملين فمن الجائز أنك تعاقبنى على تلك الطاعة (بل أقالنى منها) أى من الاعتماد عليها والتعلق بها (فضلك) أى النظر إلى فضلك وكرمك و إحسانك فصرت معتمدا عليه ومتعلقا به

ولالذى حال حالا) شهود هذا المعنى يوجب للعبد مقام الخوف والتحقق فيه فان كان ذاقول سديد وحال حميد لم يقطع ببقاء ذلك ولم يغتر بماهنالك لنفوذ حكم الحق تعالى وقهرمشيئته (إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالنى منها فضلك) الطاعة صفة ظاهر العبد والحالة صفة باطنه و بناؤه للطاعة هو إقامتها على الوجه المأمور به من الوفاء بجميع أركانها وشرائطها ومايتعلق بها من حقوق وآداب وتشييده للحالة هو تزيينها وتطهيرها وصيانتها عما يكدّر صفاءها و يكسف ضياءها وكأنه لما فعل هذين الأمرين رأى أنه تحصن بحصن حصين وأوى الى ركن متين لكن لماشاهد عدل الله تعالى هدم عليه ذلك لأن مقتضاه أن يفعل مايشاء ويحكم مايريد ولايبالى بأعمال العاملين فلماشاهد فضله وكرمه أقاله من ذلك بأن جعل له من التعلق به والاعتماد عليه بدلا منه وعوضا عنه ونعم البدل والعوض فسبحان المتفضل المنان (إلهى أنت تعلم وان لم تدم الطاعة منى فعلا جزما فقد دامت محبة وعزما) جعل عزمه على الطاعة ومحبته لها وان لم يدم عليها فعلا احدى وسائله وذلك صحيح وكم من شخص قد طرد وأبعد لم يكن عنده عزم ولا فعل جزم (إلهى كيف أعزم وأنت القاهر وكيف لا أعزم وأنت الآمر) استبعد من نفسه وقوع العزم منه وجعل مستند ذلك شهود القهر لأن من شهد قهره بطل عزمه لأنه الغالب واستبعدأيضا عدم العزم وجعل مستند ذلك شهود الأمر لأن من شهدأمره بادر الى امتثاله وتحرز من إغفاله و إهماله (إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعدالمزارفاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك) شكا إلى مولاه عزوجل طول تردده فى الآثاروهى الأكوان وأخبرأنه يوجب له بعدالمزاروهوالبعد عن شهودالتوحيد وكمال المعرفة وقدتقدم هذاالمعنى عندقوله لاترحل من كون إلى كون ثم سأله وطلب منه أن يختصرله طريق سلوكه و يقربه عليه و يجمعه من مفترقات الآثار بخدمة تظهرفيها عبوديته و يصل بها إلى مولاه من غيرتردد

لا بطاعتى فصار التعلق والاعتماد على الاحسان والفضل لا على الطاعة ونعم البدل والعوض (إلهى أنت تعلم و إن لم تدم الطاعة منى فعلا جزما) أى إن عدم دوامها فعلا مجزوم به لعجزى عن ذلك ومقتضى العبودية أن أداوم عليها فأنامقصر (فقد دامت محبة وعزما) أى أنا مداوم عليها من حيث محبتى لها وعزمى عليهاوأنت تعلم بذلك فلا تؤاخذنى بتقصيرى بل مداومتى على هذا الوجه فضل عظيم وإلا فكم من شخص محروم ليس عنده فعل ولامحبة ولا عزم فالواو الداخلة على أداة الشرط زائدة ومتعلق العلم هو جواب الشرط كما تقرر ثم تردّد فى وقوع العزم منه بقوله (إلهى كيف أعزم) أى يقع منى عزم على فعل الطاعات وترك المنهيات (وأنت القاهر) فيمكن أن يقع منى عزم على ذلك ثم يصدّنى عنه قهرك فيكون العزم لافائدة فيه ولا يعتد به (وكيف لا أعزم وأنت الآمر) لى بالعزم على ذلك ومقتضى الأمر المبادرة إلى العزم فأنا متحير وعاجز عن تدبير أمرى ولايسعنى إلا التسليم إليك والاعتماد عليك ، ولذا كان العارفون لايجزمون بشىء من الأشياء بل يفوضون الأمر إلى الله تعالى ، فقد قالوا العارف لاقلب له (إلهى ترددى فى الآثار) أى المكونات على سبيل التعلق بها والاستناد إليها أو على سبيل الاستدلال بها على الله تعالى (يوجب بعد المزار) أى الوصول إليك ومشاهدتك (فاجمعنى عليك) أى أوقفنى بين يديك (بخدمة) أى طاعة من أذكار ورياضات ومجاهدات (توصلنى إليك) وبقطع التعلق بالآثار عن قلبى فلا أتعلق بمكاشفات ولا أحوال ومقامات كما تقدم فى قوله لا ترحل من كون إلى كون الخ ولا أستدل بها على موجدها كما قال

(إلهى كيف يستدلّ عليك بما هو فى وجوده) أى ثبوته وتحققه خارجا (مفتقر إليك) وهو المكونات فانها فى ذاتها عدم محض كامن (أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك) فان الدليل يكون أظهر من المدلول حتى يستدلّ به عليه فأصحاب النظر والاستدلال حالهم قبيح بالنسبة إلى أصحاب الشهود والعيان و يقال لهم عوام بالنسبة لهم كما تقدّم عند قوله شتان بين من يستدلّ به ومن يستدلّ عليه . ثم ترقى فى نفى الاستدلال بقوله (متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار) أى المكونات (هى التى توصل إليك) أى إلى معرفتك ولذا قال مريد لشيخه يا أستاذ أين الله فقال ويحك وهل يطلب مع العين أين (إلهى عميت عين) المراد بها عين البصيرة وهذا يحتمل أن يكون إخبارا وأن يكون دعاء بدوام العمى لأن أصله حاصل (لا تراك عليها رقيبا) أى حفيظا مراقبا لها فمن رأى الله رقيبا عليه يعلم جميع أحواله لايخفى عليه منها شئ استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه ومن لم يكن على هذا الوصف عميت عين بصيرته فبارز مولاه بأنواع القبائح من غير اكتراث ولا مبالاة ولذا ورد فى الحديث «أفضل إيمان المرء أن يعلم أنّ الله معه حيث كان» (وخسرت صفقة) أى تجارة (عبد لم يجعل له من حبك نصيبا) أى حبك له أوجبه لك عباده

ولاطول (إلهى كيف يستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك) هذا تقبيح لأحوال المستدلين على ربهم وهم أصحاب النظر والاستدلال بالنسبة إلى أهل المقام الآخر وهم أرباب الشهود والعيان قال أبو بكر محمد بن على الكتانى رضى الله عنه وجود العطاء من الحق شهود الحق بالحق لأنّ الحق دليل على كل شئ ولا يكون شئ دونه دليلا عليه قال فى لطائف المنن وأرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان قدّسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل عليه وكيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل وكيف يكون معرفا به وهو المعرف له قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف أم كيف يعرف بشئ من سبق وجوده وجود كل شئ وقال مريد لشيخه يا أستاذ أين الله فقال له و يحك أيطلب مع العين أين وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله شتان بين من يستدلّ به و يستدلّ عليه (إلهى عميت عين لاتراك عليها رقيبا) الرقيب الحفيظ فمن رأى الله تعالى رقيبا عليه يعلم جميع أحواله ولايخفى عليه منها شئ استحيا منه وهابه أن يراه على ما يكرهه منه وقد قيل إذا عصيت مولاك فاعصه بموضع لايراك ومن لم يكن على هذا الوصف وغفل عن نظر الله تعالى إليه عميت عين بصيرته فبارز الله تعالى بأنواع القبائح والفضائح من غير اكتراث ولامبالاة وقد سئل بعضهم بم يستعين الرجل على حفظ بصره من المحظورات قال بعلمه بأنّ رؤية الحق سبحانه له تسبق نظره إلى تلك المحظورات وقال الله عزّ وجلّ ـ وماتكون فى شأن وماتتلوا منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ـ قال الامام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه خوفهم بما عرفهم من اطلاعه عليهم فى جميع أحوالهم ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم والعلم بأنه يراهم يوجب استحياءهم منه وهذا هو حال المراقبة فالعبد إذا علم بأن مولاه يراه استحيا منه وترك متابعة هواه ولايحوم حول مانهاه عنه وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان» (وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبا) حب الله تعالى لعبده هو رحمته له وثناؤه عليه واحسانه إليه وحب العبد لربه عزّ وجلّ طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته والحب المضاف إلى الكاف فى قوله من حبك يحتمل أن يضاف إلى الفاعل و إلى المفعول والظاهر كونه مضافا إلى الفاعل لأنه أبلغ وأمدح ولأن محبة الله تعالى لعبده أصل محبة العبد له قال الله تعالى ـ يحبهم ويحبونه ـ فمن أعطاه الله تعالى من الحب المذكور نصيبا فقد حاز ربح الدارين وفاز بقرّة العين ومن حرمه ذلك فقد خسرت صفقته وبان عيبه وخيبته وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ياعبدى أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبا حكى عن بعضهم أنه قال اشتريت جارية فسمعتها فى شطر الليل وهى تقول إلهى بحبك إياى إلا ماغفرت لى فقلت لها لاتقولى هكذا ولكن قولى بحبى إياك فقالت ياسيدى بمحبته إياى منّ على بالاسلام وأيقظنى لعبادته وكثير من

والأوّل هو الأصل فى الثانى قال تعالى ـ يحبهم و يحبونه ـ وحب الله لعبده إحسانه إليه وثناؤه عليه وحب العبد لله طاعته وموافقة أمره وتعظيمه وهيبته وانجذابه بقلبه إليه فمن أعطاه الله من ذلك الحب نصيبا فقد فاز ومن حرمه منه وشغله بالدنيا فقد خسرت تجارته وهى تلك الأمور الدنيوية التى يتقلب فيها أى خسر فى تجارته وكانت تجارته خاسرة لاعبرة بها

(إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار) أى المكونات من الأموال والعيال وغيرهم أى ملابستها ومخالطتها بعد غيبتى عنها بالوصول إليك ومشاهدتك فانّ المريد إذا وصل إلى المولى غاب عن الأكوان ثم إذاخالطها بمقتضى الأمر ربما شغلته عن مولاه واحتجب بهاعنه فلذا قال (فارجعنى إليها) مكسوّا (بكسوة الأنوار) أى بكسوة هى الأنوار الإلهية التى تمنع من تعلق بهاواحتجابى عنك (وهداية الاستبصار) أى هداية ناشئة عن الاستبصار أى الشهود بعين البصيرة (حتى أرجع إليك منها) أى أشاهدك فيها وفى بعض النسخ فيها وهى بمعنى ماقبلها (كما دخلت إليك منها) بالاستدلال بهاعليك والاعتبار بها فانّ المريد حينئذ محجوب عن مولاه فينتقل فى الآثار حتى يصل إليه والضمير فى الموضعين للآثار لا بالمعنى المتقدم بل بمعنى الموجودات من السماء والأرض وما بينهما

عباده نيام قال زيد بن أسلم إنّ الله عز وجلّ ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له اصنع ماشئت فقد غفرت لك (إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السرّ عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شئ قدير) الآثار التى أمر العبد بالرجوع إليها بعد وصوله إلى صريح المعرفة وخالص التوحيد هى المكوّنات التى يلزمه إذا تلبس بها حق أو يكون له فيها منفعة وحظ فسأل الله تعالى أن يرجعه إليها على حالة شريفة مضادّة للحالة التى كان عليها قبل السلوك وهو كونه مكسوّا بكسوة الأنوار وهى أنوار اليقين ومؤيدا بهداية الاستبصار وهى العلم الراسخ المتين فاذا رجع العبد إلى الآثار على هذا الأسلوب والعيار لم تؤثر فيه ولم تأخذ منه لكمال حرّيته عنها وكان رجوعه إلى مولاه فى مآل أمره فى مثل دخوله فيها عليه فى ابتداء أمر سلوكه مصون السرّ عن النظر إليها بعين الاستحسان مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها فى نوال أو إحسان وقد تقدّم هذا المعنى عند قوله فان نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ إلى آخره . وقال رضى الله عنه (إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك وهذا حالى لا يخفى عليك) هذا اطّراح منه على مولاه ومبالغة فى بثّ شكواه وتلطف فى سؤال رحماه و بمثل هذا يرجى إجابة الدعاء واستحقاق جزيل العطاء وقد قالوا أبواب الملوك لا تقرع بالأيدى بل بنفس المحتاج . وقال بعضهم قلت للنهرجورى أجد فى قلبى قسوة وقد شاورت فلانا فأشار علىّ بالصوم فلم تزل وشاورت آخر فأشار علىّ بالسهر فلم تزل فقال النهرجورى رضى الله عنه خلطابك احضر الملتزم إذا نام الناس وتضرّع وقل تحيرت فى أمرى خذ بيدى ففعل فزالت القسوة وقال الشاعر :

ومارمت الدخول عليه حتى … حللت محلة العبد الذليل
وأغضيت الجفون على قذاها … وصنت النفس عن قال وقيل
وذلّ العبد للمولى غناه … وغايته إلى العزّ الطويل

فذلّ العبد لمولاه غاية العزّ والفخر وقال ذوالنون المصرى رضى الله عنه ما أعزّ الله عبدا بعز هو أعزّ له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه (منك أطلب الوصول إليك) هذه صفة العارفين المحققين لا يسبق نظرهم إلا إلى الله ولا يطلبون إلا منه ولا يكون مطلبهم إلا الوصول إليه لا غير (و بك أستدل عليك) أى لا بغيرك لأنك الظاهر قبل وجود كل شئ ظاهر بل بظهورك خفيت المظاهر وقيل لبعض العارفين بم عرفت ربك فقال عرفت ربى بربى ولولا ربى

ولو حذف ذلك هنا لكان أولى (مصون السرّ عن النظر إليها) أى التعلق بهافى اعتقاد نفع أو دفع ضرر وقوله (ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها) بمعنى ماقبله ويحتمل أن صون السرّ عن النظر إليهاهو عدم استحسان شئ منهافى نظره ورفع الهمة فى الاعتماد عليها هو عدم التعلق بها فيما ذكر . والحاصل أنه سأل المولى أنه إذا أرجعه إلى الأكوان والتلبس بها يرجعه إليها على حالة شريفة مضادّة للحالة التى كان عليها قبل السلوك وهى كونه مكسوّا بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار فانه إذا رجع إليهاعلى هذه الحالة لم تؤثر فيه ولم تحجبه عن مولاه وهذا المعنى غير ما تقدّم فى قوله فاذا نزلوا إلى سماء الحقوق الخ كما هو ظاهر مما قرّرناه سابقا (إنك على كل شئ قدير) ومنه تحصيل تلك المطالب السنية (إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك) وهو فى الحقيقة عين العز والفخر قال ذوالنون المصرى ما أعز الله عبدا بعز هو أعزله من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذل هو أذله من أن يحجبه عن ذل نفسه اه وقوله (وهذا حالى لا يخفى عليك) بمعنى ماقبله والقصد بذلك طلب حصول مطالبه من مولاه (منك أطلب الوصول إليك) أى أطلب منك لا من غيرك الوصول إليك لا غيره من المطالب الدنيوية والأخروية وهذا مطلب العارفين كما مر (و بك أستدل عليك) أى أستدل عليك وأعرفك بك لا بغيرك من الدليل والبرهان. قيل لبعض العارفين بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى وقال بعضهم لا دليل على الله سواه و إنما العلم يطلب لآداب الخدمة

(فاهدنى بنورك) أى بنورتقذفه فى قلبى أهتدى به (إليك) أى إلى معرفتك معرفة خاصة (وأقمنى بصدق العبودية بين يديك) أى أقمنى بين يديك بأن تجعلنى حاضر القلب معك حال كونى مصاحبا لصدق العبودية أى للعبودية الصادقة بأن لايظهر علىّ شىء من أوصاف الربوبية بل أكون متصفا بغاية العجز والذل والضعف والفقر ولايظهر علىّ شىء من قوّة أوعز أوقدرة أوغنى (إلهى علمنى من علمك المخزون) إضافة ذلك العلم إليه إضافة تشريف والعلم المخزون هوالعلم اللدنى الذى اختزنه عنده فلم يؤته إلا للمخصوصين من أوليائه قال تعالى فى شأن الخضر عليه السلام ـ وعلمناه من لدنا علما ـ وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله فاذا نطقوا به لاينكره إلا أهل العزة بالله» وقال بعضهم هوأسرار الله يبديها إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة اه (وصنى) أى احفظنى عن رؤية الأغيار أو عن إباحة تلك العلوم والأسرار (بسرّ اسمك المصون) أى أسمائك المصونة أى المحفوظة عن الابتذال والاهانة فانه لايجوز أن يدخل بها فى بيت الخلاء مثلا أوعن أن يسمى بها غيره سبحانه وسرها أنوار وتجليات تحصل لمن يذكرها (إلهى حققنى بحقائق أهل القرب) أى أعطنى مقامات أهل القرب منك الذين تحققوا فى مقام الفناء فبطل فى حقهم رؤية الأسباب وزال عنهم كل حجاب فلم يروا غيرك واكتفوا بتدبيرك عن تدبير أنفسهم و بعلمك عن شكوى لغيرك (واسلك بى مسالك أهل الجذب) وهم المحبوبون المرادون فكأنه يقول اجذبنى إليك حتى يسهل علىّ سلوك الطريق والاقتدار وأصل إليك فى أقرب مدة وأجد لذة وحلاوة فى الأعمال كما هوحال أهل الجذب الذين أخرجتهم عن حكم أنفسهم وتوليتهم بحفظك ورعايتك من غير مجاهدة ولامكابدة (إلهى أغننى بتدبيرك) لى (عن تدبيرى و باختيارك لى عن اختيارى) فان فى تدبيرى أحوال نفسى واختيارى شيئا من الأشياء بمقتضى شهوتى وميلى منازعة لك فى ربوبيتك لأنك المنفرد بالتدبير والاختيار (وأوقفنى على مراكز اضطرارى) المراكز جمع مركز وهو موضع الاستقرار والثبوت أى مواضع اضطرارى كالذلّ والعجز والفقر شبهت بالمواضع التى يستقرّ فيها فهى مواضع اعتبارية ينبغى للعبد أن لايفارقها بل يلازمها كما يلازم الشخص مكانه الذى يستمر فيه ومعنى وقوفه عليها ملاحظتها وعدم غيبته عنها أى اجعلنى ملاحظا لفقرى وعجزى وذلى التى هى مواضع اضطرارى أوملازمتها وتحققه بها أى اجعلنى ملازما لها ومتحققا بها واضافتها لاضطرارى باعتبار كونها يحصل عندها اضطرار العبد للمولى واحتياجه له

ماعرفت ربى وقال أبو القاسم النصراباذى رضى الله عنه الأشياء أدلة منه ولادليل عليه سواه وقال أحمد ابن أبى الحوارى رضى الله عنه لادليل على الله سواه و إنما العلم يطلب لآداب الخدمة (فاهدنى بنورك إليك) وهو نور الايمان واليقين (وأقمنى بصدق العبودية بين يديك) حتى أكون ممتثلا لأمرك مستسلما لقهرك (إلهى علمنى من علمك المخزون) إضافة العلم إلى الله ههنا إضافة تشريف والعلم المخزون هوالعلم اللدنى الذى اختزنه عنده فلم يؤته إلا للمخصوصين من الأولياء كما قال الله تعالى فى شأن الخضر عليه السلام ـ وعلمناه من لدنا علما ـ وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله تعالى فاذا نطقوا به لاينكره إلا أهل العزة بالله» قال بعضهم هى أسرار الله تعالى يبديها الله أنبياءه وأولياءه وسادات النبلاء من غير سماع ولادراسة وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها أحد إلا الخواصّ وقال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه فى قوله تعالى ـ والراسخون فى العلم ـ هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر فعرفهم ماعرفهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادة فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النظر فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة (وصنى بسر اسمك المصون) الصون المطلوب هوصيانته عن رؤية الأغيار بما يتجلى لقلبه من سر الأسرار (إلهى حققنى بحقائق أهل القرب) حقائق أهل القرب هى الفناء فى التوحيد والتحقق بالتجريد فتبطل فى حقهم رؤية الأسباب ويزول عن مطمح نظرهم كل ستر وحجاب كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه فى حزبه الكبير واقرب منى بقدرتك قربا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك عن نار عدوّه وكيف لايحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء كلا إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى حتى لاأرى ولاأحس بقرب شىء ولا ببعده عنى إنك على كل شىء قدير (واسلك بى مسالك أهل الجذب) أهل الجذب هم المحبوبون ومسالكهم فى غاية السهولة لاتعب عليهم فيها ولامشقة بل يجدون اللذة والحلاوة فى أعمالهم وذلك من قبل أنه أخرجهم من أسر نفوسهم وتولاهم بكلاءته ورعايته من غير مجاهدة منهم ولا مكابدة (إلهى أغننى بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى وأوقفنى على مراكز اضطرارى) المنفرد بالتدبير والاختيار والمشيئة

(إلهى أخرجنى من ذل نفسى) من إضافة المصدر للمفعول أى من كونى أذل نفسى لغيرك بالطمع والحرص أوللفاعل أى من كون نفسى تذلنى و توقعنى فيما لايليق (وطهرنى من شكى وشركى) الشك ضيق الصدر عند إحساسه بأمر مكروه فاذا ضاق أظلم القلب وأصابه الهم والحزن وطهارته منه بوجود ضده وهواليقين إذبه يتسع الصدر و ينشرح فيستنير القلب و يجد الروح والفرح بالله تعالى و بقدر مايصيبه من نور اليقين يكون انشراحه واتساعه والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن السبب ونسيانه له ومبدأ ذلك هيجان الشهوة عن استيلاء ظلمة الشك على القلب فيفزع حينئذ إلى الأسباب التى يتوصل بها إلى بغيته إذ لايرى غيرها وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذى يقذفه الحق فى قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذى أصابها وكلما قوى نور التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر (قبل حلول رمسى) أى قبرى إذ ليس بعده تطهير إلا بالنار (بك أستنصر) أى أطلب النصرة على نفسى وشيطانى وهواى (فانصرنى) عليها (وعليك أتوكل) فى تحصيل مطالبى (فلا تكلنى) إلى غيرك وإن كنت لست صادقا فى توكلى (و إياك أسأل فلا تخيبنى) و إن كنت أهلا للخيبة (وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى) و إن كنت أهلا للحرمان أى أرغب فى فضلك لافى فضل غيرك وقولنا و إن كنت الخ جواب عما يقال من توكل على الله وحده كفاه فلا حاجة لقوله فلاتكلنى ومن سأله وحده لم يخيبه ومن رغب فى فضله وحده لم يحرمه فلاحاجة لقوله فلاتخيبنى ولاتحرمنى (ولجنابك) أى ذاتك والاضافة للبيان (أنتسب) لالغيرك (فلاتبعدنى) عن بابك (وببابك أقف) بالسؤال وفيه تشبيه المولى بملك عظيم يقف الطالبون ببابه (فلاتطردنى) عنه (إلهى تقدس) أى تنزه (رضاك) وهوالاحسان أو إرادته (عن أن تكون له علة) ناشئة (منك) و إلا لكنت محتاجا إلى تلك العلة لتتكمل بها (فكيف تكون له علة منى) كأعمالى وأحوالى فرضا المولى لايتوقف على سبب ولاعلة بل

والاقتدار هوالله عز وجل فمن كان له دعوى فى شىء من ذلك فقد نازع الله تعالى فى ربوبيته وخلع عن عنقه ربقة عبوديته فلذلك سأله وطلب منه أن يغنيه عن تدبيره واختياره وأن يوقفه على مراكز اضطراره ليكون متحققا بصفاته ومتعلقا بصفات مولاه وقد تقدم هذا المعنى غير مرة والمراكز مواضع الاستقرار والثبوت وهى استعارة حسنة (إلهى أخرجنى من ذل نفسى) ذل النفس الذى طلب الاخراج منه هو ذلها لغير الله تعالى بالطمع والحرص وقد تقدم هذا المعنى عند قوله مابسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع (وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى) الشك والشرك هما سبب وجود الطمع والحرص الموجبين لوقوع الذل والهوان وهذه الأوصاف كلها مجانبة لحقائق الايمان والتوحيد عافانا الله منها والشك ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها فاذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهواليقين فبه يتسع الصدر وينشرح و يزول عنه الحرج والضيق وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى و بفضله وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » والشرك تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن السبب ونسيانه له تعلق الصيد بالشرك و يكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب فيحاوله حينئذ الهوى فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التى يتوصل بها إلى بغيته إذ لايرى غيرها فيرتبك من أجل ذلك فى حبائل الشرك وطهارته منه بضده وهو نور التوحيد الذى يقذفه الحق تعالى فى قلبه فتطمئن بذلك نفسه وتسكن عن الشره والطيش الذى أصابها وكلما قوى نور التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر فتمحى عنه الأسباب و يثبت فيه خالص التوحيد فاذا تطهر العبد من الشك والشرك تولاه الله تعالى بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد وفى أخبار داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إن الله أوحى إليه يا داود هل تدرى متى أتولاهم إذا طهروا قلوبهم من الشرك ونزعوا من قلوبهم الشك (بك أستنصر فانصرنى وعليك أتوكل فلا تكلنى و إياك أسأل فلا تخيبنى وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ولجنابك أنتسب فلاتبعدنى وببابك أقف فلاتطردنى) تعلق بالله تعالى فى كل مطلب من هذه المطالب وأضرب عن الوسائط والأسباب وذلك من تحققه بالتوحيد الذى سأل من مولاه أن يحققه به بتطهيره من أضداده ومعانى هذه الكلمات قريب بعضها من بعض قال أبو الحسن على بن هند الفارسى رضى الله عنه اجتهد فى أن لاتفارق باب سيدك بحال فانه ملجأ الكل فمن فارق تلك السدة لايرى بعدها لقدميه قرارا ولامقاما (إلهى تقدس رضاك عن أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة منى)

رضاه وسخطه هما سبب لأعمال العاملين حسنها وسيئها رضى عن قوم فاستعملهم فى خدمته وسخط على قوم فشغلهم بما
يبعد عن حضرته (أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لاتكون غنيا عنى) هذا كالتعليل لما قبله وقصد
للصنف بهذه المناجاة الاسترضاء والاستعطاف وطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة (إلهى إن القضاء)
وهو إرادة الله مع التعلق (والقدر) وهو إيجاد الله الأشياء على قدر معلوم ومقدار معين (غلبنى) فكلما أعزم على طاعة
أوترك معصية لايتيسرلى ذلك (و إن الهوى) أى ميل النفس إلى مرادها ومشتهياتها (بوثائق الشهوة)
أى بالشهوة الشبيهة
بالوثائق أى القيود
(أسرنى) أى قيدنى
(فكن أنت النصير لى
حتى تنصرنى) على
أعدائى أى النفس
وجنودها (وتنصربى)
أى تنصر أحبابى
وأصحابى على أعدائهم
بسببى . قال الشاذلى
قدّس الله سره واجعلنا
سبب الغنى لأوليائك
و برزخا بينهم و بين
أعدائك (وأغننى
بفضلك) أى شهودك
(حتى أستغنى بك)
أى بشهودك (عن
طلبى) منك لأن من
كان مشاهدا للحق
حاضرا معه يستحيي
أن يطلب منه شيئا
لرؤيته أنه مطلع على
حاله لايخفى عليه شيء
منها ومن كان كذلك
لامعنى للطلب منه قال
الشاذلى قدّس الله
سره والسعيد حقا من
أغنيته عن الطلب منك (أنت الذى أشرقت الأنوار) أى المعارف والأسرار (فى قلوب أوليائك حتى
عرفوك ووحدوك وأنت الذى أزلت الأغيار) أى المكوّنات والتعلق بها من قلوب أحبابك (حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى
غيرك) وهم أولياؤك وهذا من عطف السبب على المسبب لأن زوال الأغيار سبب فى شروق الأنوار (أنت المؤنس لهم) أى المدخل
للسرور على قلوبهم بتجليك (حيث أوحشتهم العوالم) التى كانوا يألفونها وتتعلق قلوبهم بها من أصحاب وأولاد وأموال وغير ذلك فان
من حصل له أدنى شيء من شهود الحق وتودده لم يستوحش لشيء من ذلك بل يغيب عنه ولم يستأنس بشيء منه بل ينفر عنه بقلبه

رضا الله تعالى صفة من صفاته وصفاته قديمة ولذلك امتنع عليها سبقية العلل والقديم لا يكون
مسبوقا بشيء و إذا كانت صفاته العلية منزهة عن أن يكون لها علة منه فكيف يكون لها علة من
غيره فرضا الله تعالى لاعلة له ولاسبب بل رضاه وسخطه هما سبب أعمال العاملين حسنها وسيئها رضى عن
قوم فاستعملهم باستعمال أهل الرضا وسخط على قوم فاستعملهم باستعمال أهل السخط قال أبو بكر
الواسطى رضى الله عنه الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا فى الأزل
يظهران الرسمين على المقبولين والمطرودين فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم كما بانت شواهد
المطرودين بظلامها عليهم فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرة والأكمام المقصرة والأقدام المنتفخة
(أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لاتكون غنيا عنى) الكلام فى الغنى
كالكلام فى الرضا وكأن المؤلف رحمه الله قصد فى مناجاته بهذه الكلمات الاسترضاء والاستعطاف
فطلب المسامحة والتجاوز عن أعماله المدخولة وأحواله المعلولة وذلك من أحسن المقاصد للداعى
(إلهى إن القضاء والقدر غلبنى وان الهوى بوثائق الشهوة أسرنى فكن أنت النصير لى حتى
تنصرنى وتنصربى وأغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى) هذا اعتذار واعتراف والله
تعالى أكرم من أن يردّ عذر من اعتذر إليه أو يخيب أمل من اعترف بذنبه وأقرّ به لديه يقال
إن العبد يبتهل إلى الله تعالى فى الاعتذار والحق سبحانه وتعالى يقول له عبدى لولم أقبل عذرك
لما وفقتك للاعتذار . وقال السكتانى رضى الله عنه لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفتح
باب المغفرة فلا جرم لما وثق بذلك وقوى رجاؤه فيه طلب منه النصرة له على أعدائه ولم يقتصر
على ذلك بل أضاف إليه طلب النصرة به لتكون تلك النصرة بسببه وعلى يديه كما قال أبو الحسن
رضى الله عنه واجعلنا سبب الغنى لأوليائك و برزخا بينهم و بين أعدائك . ثم لم يقنع بذلك
حتى طلب منه أن يغنيه بما يستغنى به عن الطلب منه وهو مايؤتيه من فضله العظيم وكرمه الجسيم
وهذه هى غاية السعادة كما قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال
منك (أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك وأنت الذى
أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث
أوحشتهم العوالم) سبب إيحاش العوالم لهم ماهى عليه من الفاقة والافتقار والحاجة والاضطرار فكل
واحد منها جالب لنفسه طالب لحظه من كمال نقصه ووفاء بخسه والله تعالى غنى حميد عزيز مجيد
وهو مع ذلك لطيف بعباده عطوف عليهم متودد إليهم رءوف بهم فلما شاهدوا هذا كله مشاهدة
يقين ومعاينة باشهاده إياهم لم يتمالكوا أن أحبوه وأووا إليه وقصروا هممهم عليه وجعلوه معتمد
أنسهم واستغنوا به عن أبناء جنسهم فحصلوا إذ ذاك على غاية النعيم وفازوا بالحظ العظيم قال
ذوالنون

(وأنت الذى هديتهم) بنور (منك حتى استبانت) أى ظهرت (لهم المعالم) أى طرق الحق التى سلكوها فان ظهور ذلك لا يكون إلا بهداية منك (ماذا وجد من فقدك) أى فقد شهودك ولم يشهد إلا ذوات المكونات وهذا كناية عن كونه لم يجد إلا شيئا حقيرا (وما الذى فقد من وجدك) أى لم يفقد شيئا بل حصل على غاية المقصود حيث كنت سمعه و بصره وجميع قواه (لقد خاب من رضى دونك بدلا) كالشهوات واللذات الدنيوية والأخروية فقد رؤى الشبلى فى المنام بعد وفاته فقيل له مافعل الله بك

ذوالنون المصرى رضى الله عنه بينما أنا أسير فى بعض البوادى إذلقيتنى امرأة فقالت لى من أنت فقلت رجل غريب فقالت وهل توجد مع الله أحزان الغربة . وكتب مطرف بن عبدالله بن الشخير إلى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه فان لله عبادا استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشد استئناسا من الناس فى كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون (وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم) لما تولى الله تعالى هدايتهم إلى طريق التوحيد والمعرفة أبان لهم علامات ذلك ودلائله فعند نظرهم فى تلك العلامات والأدلة انشرحت صدورهم بأنوار الايمان واليقين فلم يتداخلهم شك ولم يخالجهم ريب والمعالم جمع معلم كأنه رحمه الله تعالى عرض فى هذه الكلمات بالمطلب الذى بحصوله له يستغنى عن الطلب وهو إشراق الأنوار فى قلبه و إزالة الأغيار عن سره و إيناسه له وهدايته إياه وهذه الأربعة مطالب متضمنة لأسنى الرغائب (ماذا وجد من فقدك وما الذى فقد من وجدك) قد تقدم غيرمامرة أن ماسوى الله تعالى عدم وظلمة وأن الوجود الحق والنور المتحقق إنما هو الله عزّ وجلّ فاذا كان الأمر على هذا صح ماقاله المؤلف رحمه الله تعالى ههنا وكان حقا لامرية فيه قال أبوعلى الروذبارى رضى الله عنه سألنى أبو بكر الدقاق رضى الله عنه فقال لى ياأباعلى لم ترك الفقراء أخذ البلغة فى وقت الحاجة فقلت لأنهم يستغنون بالمعطى عن العطاء فقال نعم ولكن وقع لى شىء آخر فقلت هات أفدنى ماوقع لك فقال لأنهم قوم لاينفعهم الوجود إذ الله فاقتهم ولا يضرهم الفاقة إذ الله وجودهم وكان أبوحمزة البغدادى رضى الله عنه يقول فى مناجاته اللهم إنك تعلم أنى من أفقر خلقك إليك فان كنت تعلم أن فقرى إليك بمعنى هو غيرك فلا تسدّ فقرى (لقد خاب من رضى دونك بدلا ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا) هذا بين وهو مبنى على ماتقدم الآن من الكلام. رؤى الشبلى رضى الله عنه فى المنام بعد وفاته فقيل له مافعل الله بك فقال لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى إلا على شىء واحد قلت يوما لاخسارة أعظم من خسارة الجنة ودخول النار فقال وأى خسارة أعظم من خسران لقائى وفى معناه أنشدوا :

سهر العيون لغير وجهك باطل　　و بكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقال بعضهم كان عندنا رجل مكث عندنا ثلاث عشرة سنة يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فاذا صلى العصر احتبى واستقبل القبلة ، ثم قال عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا بل عجبت للخليقة كيف استأنست بسواك ، ثم يسكت إلى المغرب (إلهى كيف يرجى سواك وأنت ماقطعت الاحسان وكيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان) هذا تعجيب ممن كان على هذا الوصف وهو أعجب من كل عجيب والمعنى فى ذلك بين (يامن أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين) التملق هو التلطف فى التودّد وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين (و يامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين) استعزازهم بعزته هو رفع هممهم

قال لم يطالبنى بالبراهين على الدعاوى إلا على شىء واحد قلت يوما لاخسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار فقال وأىّ خسارة أعظم من خسران لقائى (ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا) أى طلب التحوّل عن حضرتك إلى التعلق بغيرك كالكرامات والمكاشفات فقد تقدم أن هذا شبيه بمن طلب منه الملك أن يكون جليسه فلم يرض إلا بسياسة الدواب (إلهى كيف يرجى سواك) أى يتعلق القلب بالطلب منه (وأنت ماقطعت الإحسان) بل إحسانك دائم مستمر (وكيف يطلب من غيرك) أى يتوجه إليه بالطلب (وأنت مابدلت عادة الامتنان) أى عادة هى الامتنان أى الإحسان (يامن أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته) المؤانسة سرور القلب بشهود جمال المحبوب شبهه بشىء له حلاوة وهى تخييل والاذاقة ترشيح (فقاموا بين يديه متملقين) التملق هو التلطف فى التودد كأن يقول الانسان حفظك الله سترك الله وهو هنا كناية عن الطلب من المولى بذلة وانكسار وترتبه على ذوقهم لحلاوة مؤانسته بين (و يامن ألبس أولياءه ملابس هيبته) أى ملابس هى هيبته أو هيبته الشبيهة بالملابس الحسية والمراد بالهيبة الجلالة والعظمة التى كساها الله لأوليائه فكل من رآهم حصل له رعب منهم كأنهم أسود (فقاموا بعزته مستعزين) أى قاموا بين يديه مستعزين بعزته بأن رفعوا هممهم عن تعلقها بالأغيار تيها وتكبرا عليها وثقة منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم إلى سواه

(أنت الذاكر من قبل الذاكرين) أى أنت الذى ذكرتهم بالاحسان إليهم فى الأزل بأن تعلقت إرادتك بوجودهم فيما لايزال فهذا ذكره لعباده قبل ذكرهم له ويحتمل أن يراد بذكره لهم توفيقه لهم لذكره إذ لولاه ماذكروه وقوله (وأنت البادىء بالاحسان من قبل توجه العابدين) يرجع لماقبله وكذا قوله (وأنت الجواد) أى المحسن (بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب) أى كثير الهبة أى الاعطاء للعطايا

كالأعمال الصالحة والأحوال السنية (ثم أنت لما وهبتنا) أى للشىء الذى وهبته لنا (من المستقرضين) كأنك قلت أقرضونى هنا أعطكم بدله فى الدار الآخرة قال تعالى ـ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ـ واستقراضه تعالى من عبده ماوهبه له فى غاية تلطفه به وإعلائه لقدره وفيه إشارة إلى أن إحسانه تعالى وإعطاءه ليس مشوبا بالعلل (إلهى اطلبنى) إلى القرب منك (برحمتك) أى إحسانك (حتى أصل إليك) فانه لاسبيل إلى الوصول إليك إلا برحمتك لا بأعمالى المدخولة والطلب إن كان من الأعلى كالسلطان لم يحصل فى الوصول مشقة بخلاف ما إذا كان من الأدنى (واجذبنى بمنتك) أى إحسانك فلا يصير لى قدرة على الامتناع (حتى أقبل عليك) وهو بمعنى ماقبله (إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك) لمعرفتى أنك المبتدىء بالاحسان ومن هو كذلك يرجى خيره ولو مع المعصية فلم

(كما أن خوفى لايزايلنى) أى لايفارقنى (وإن أطعتك) لعلمى بأنك الفعال لما تريد فالطاعة لاتقتضى رفع سخطك وزوال عقابك خصوصا وهى مدخولة معلولة ومنشأ اعتدال الخوف والرجاء عند العارفين شهود الصفات المخوفة والمرجوة فكما أن صفاته تعالى لاتفاوت فيها كذلك شهودها لاتفاوت فيه فان وقع فيه تفاوت كان شهودا ناقصا فلذا يتصور عندهم كمال الخوف مع

عن تعليقها بغير الله تعالى تيها وتكبرا عليها وثقة منهم به وذلك لما ألبسهم من ملابس هيبته حتى لم يهابوا معه غيره ولم تتأله قلوبهم إلى سواه ولذلك قالوا المعرفة حقر الأقدار سوى قدره ومحو الأذكار سوى ذكره قال بعض المشايخ إذا عظم الرب فى القلب صغر الخلق فى العين وقيل فى معنى قوله تعالى ـ تعز من تشاء ـ قال بأن يكون لك بك معك بين يديك (أنت الذاكر من قبل الذاكرين وأنت البادىء بالاحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين) الحق تعالى له الأولية فيما ذكر كما ذكر . قال أبو يزيد رضى الله عنه : غلطت فى ابتداء أمرى فى أربعة أشياء توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى ومعرفته تقدمت معرفتى ومحبته أقدم من محبتى وطلبه لى أول حتى طلبته فاذا كانت له الأولية فى ذلك لم يبق للعبد وسيلة يتوسل بها سوى فضله وكرمه ومما يوافق ماذكره المؤلف ماحكى عن الجنيد رضى الله عنه أنه كان يقول فى مناجاته : ياذاكر الذاكرين بما به ذكروه ويابادىء العارفين بما به عرفوه ويا موفق العابدين لصالح ماعملوه من ذا الذى يشفع عندك إلا باذنك من ذا الذى يذكرك إلا بفضلك واستقراض الرب من عبده ماوهبه له غاية فى ترفيعه لقدره وإبانته لشرفه ووعده مع ذلك جزيل الثواب عليه نهاية فى إكرامه له وتفضله عليه . قال بعضهم ماملكك ثم اشترى منك ماملكك ليثبت لك معه نسبة ثم استقرض منك ما اشتراه ثم وعدك عليه من العوض أضعافا بين فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان أن يكونا مشوبتين بالعلل (إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك) لاسبيل للعبد إلى وصوله إلى الله تعالى إلا برحمته فلذلك طلب منه أن يطلبه بها ولايتأتى له الاقبال عليه إلا بمنته فلذلك طلب منه أن يجذبه إليه بها وذلك لتحقق الأولية التى ذكرناها من قبل (إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك) الخوف والرجاء حالان يتعاقبان على قلب العبد واعتدالهما واستواؤهما هو المطلوب سواء كان العبد فى طاعة أو فى معصية وقد مثلوا ذلك بكفتى الميزان وجناحى الطائر وهذا من أعلى مشاهدة العارفين والأولياء وذلك لأن منشأها عندهم إنما هو شهود الصفات المخوفة والمرجوة وصفات الله تعالى لا تفاوت فيها فكذلك مشاهدتها لاتفاوت فيها فان وقع فيها تفاوت كانت مشاهدة ناقصة وأحوالا معلولة فلذلك يتصور وجود كمال الخوف مع عمل العبد بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكابه للمعصية كما وصف به المؤلف نفسه . قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الاخلاص وكيف أحررها وأنا بالآفة معروف وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل . ومن دعاء سيدى أبى العباس رضى الله عنه إلهى معصيتك نادتنى بالطاعة وطاعتك نادتنى بالمعصية ففى أيهما أخافك وفى أيهما أرجوك إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك

العمل بالطاعة وغلبة الرجاء مع ارتكاب المعصية كما وصف به المصنف نفسه (إلهى قد دفعتنى العوالم إليك) وذلك أنى إذا توجهت إلى أحد ليعطينى أو ينصرنى يقول لى لا معطى إلا الله ولاناصر إلا هو ويحتمل أن يراد بالعوالم جميع ماعدا الله فإذا ظهرت لى كرامة وكشف لى عن شئ من الكون وأردت أن أقف عنده تقول لى حقيقته لاتتعلق بى بل تعلق بمولاك وكذا إن خاطبتنى الجمادات وأردت أن أقف عند ذلك تقول لى حقيقتها لاتتعلق بى بل تعلق بمولاك فكل شئ يدفعنى إليك (وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك) أى على بابك فالحامل على وقوفى ببابك علمى بكرمك والكريم لاتتخطاه آمال المؤملين ولايتوجه نحو سواه طلب الطالبين (إلهى كيف أخيب) أى يحصل لى خيبة وعدم ظفر بالمطلوب

(وأنت أملى) أى الذى أملت العطاء منه لأن عادتك الاحسان (أم كيف أهان) أى يحصل لى هوان وذل (وعليك متكلى) أى اتكالى واعتمادى (إلهى كيف أستعز) أى يحصل لى عز فى نفسى (وأنت فى الذلة أركزتنى) أى أقمتنى فى الذلة وجعلتها مركزا ومكانا لى لا أفارقها (أم كيف لا أستعز) أى لايحصل لى عز بك (وإليك نسبتنى) أى وقد نسبتنى إليك نسبة خاصة بإفاضة الأنوار على ظاهرى وباطنى حتى صار كل من رآنى يقول هذا ولىّ الله فأنا ذليل من وجه عزيز من آخر (أم كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى) فهو صفة لازمة لى ومن لازمه الذلة فيرجع لما قبله (أم كيف أفتقر وأنت الذى بوجودك) أى بشهودك وفى بعض النسخ بجودك أى إحسانك إلىّ بالشهود فيرجع لما قبله (أغنيتنى) حتى حصل لى عز بك فالافتقار يرجع للذلة والاستغناء للعزة وتلونه فى هذه الأوصاف المتضادة بحسب الظاهر لما يغلب عليه من مشاهدة مايوجبها والذلة المثبتة هنا هى ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التى أشار إليها هى سر الخصوصية كما تقرر (أنت الذى لا إله غيرك) يعبد أو يستند إليه فى شئ (تعرفت لكل شئ) أى جعلت نفسك معروفا لكل شئ بما أودعته فيه من النور الذى عرفك به (فما جهلك شئ) بل صار كل شئ يعرفك (وأنت الذى تعرفت إلىّ فى كل شئ) بأن أودعت فىّ نورا (فرأيتك ظاهرا فى كل شئ) بسبب ذلك النور (فأنت الظاهر لكل شئ) مفرع على ماقبله (يامن استوى) أى استولى (برحمانيته) أى برحمته

فلم تدع لى خوفا وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك. ومن كلامه أيضا رضى الله عنه: العامة إذا خوّفوا خافوا وإذا رجوا رجوا، والخاصة متى خوفوا رجوا ومتى رجوا خافوا قال فى لطائف المنن ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر فمتى خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ماوراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله وأهل الله إذا خوفوا رجوا عالمين أن من وراء خوفهم ومابه خوفوا أوصاف المرجو الذى لاينبغى أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من منته فاحتالوا على أوصاف كرمه علما منهم أنه ماخوفهم إلا ليجمعهم عليه وليردّهم بذلك إليه وإذا رجوا يخافون غيب مشيئته الذى هو من وراء رجائهم وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارا لعقولهم هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف مابطن فى مشيئته فلذلك أثار الرجاء خوفهم (إلهى قد دفعتنى العوالم إليك) إنما دفعته العوالم إليه لما تضمنته من السمات الموحشة كما تقدم ولقد أحسن من قال لاوحشة مع الله ولا راحة مع غير الله وفى هذا المعنى أنشدوا .

ياقرة العين سل عينى هل اكتحلت ... بمنظر حسن مذ غبت عن عينى

(وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك) إذ الكريم لا تتخطاه آمال المؤملين ولا يتوجه نحو سواه طلب الطالبين (إلهى كيف أخيب وأنت أملى أم كيف أهان وعليك متكلى) لما تعلق بالله تعالى وتوكل عليه استبعد أن يخيب أمله أو يناله هوان يؤدّيه تحمله (إلهى كيف أستعز وأنت فى الذلة أركزتنى أم كيف لاأستعز وإليك نسبتنى أم كيف لاأفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى أم كيف أفتقر وأنت الذى بجودك أغنيتنى) تلونه فى هذه الأوصاف المتضادة لما يغلب عليه من مشاهدة مايوجبها والذلة المثبتة هنا هى ذلة الخليقة والعبودية والنسبة التى أشار إليها هى سر الخصوصية والافتقار بمعنى الذلة والاستغناء بمعنى العزة قال بعضهم رأيت ذل كل ذى ذل فزاد ذلى على ذلهم ونظرت فى عز كل ذى عز فزاد عزى على عزهم . وقال الشبلى رضى الله عنه لقد ذللت حتى عز فى ذلى كل ذى ذل وعززت حتى ماتعزز أحد إلا بى وبمن به تعززت (أنت الذى لاإله غيرك تعرّفت لكل شئ فما جهلك شئ وأنت الذى تعرفت إلىّ فى كل شئ فرأيتك ظاهرا فى كل شئ فأنت الظاهر لكل شئ) هذا كله قد تقدم معناه ولفظه فى كلام المؤلف على غاية الكمال والتمام . والحاصل منه أن الظهور التام لله تعالى بكل اعتبار ثم إنه عبر هنا عن ذلك بعبارة لم يذكرها فيما تقدم وهو قوله (يامن استوى برحمانيته

(على عرشه) فصار العرش تحت حكمه وقهره كاستيلاء السلطان بجنوده على أهل بلد فشبه المولى بسلطان ورحمته بالجنود وعرشه بأهل القرية (فصار العرش غيبا) أى غائبا ليس له وجود (فى رحمانيته) أى بالنسبة لرحمته (كما صارت العوالم) أى السموات والأرضون وما فيها (غيبا) أى غائبة (فى عرشه) أى ليس لها وجود بالنسبة له ثم بين ذلك بقوله (محقت) يا ألله (الآثار) وهى السموات والأرضون وما فيهن (بالآثار) وهوالعرش لأنه أثر الرحمة والعوالم بالنسبة له كلا شئ (ومحوت الأغيار) وهوالعرش (بمحيطات أفلاك الأنوار) أى بالأنوار الشبيهة بالأفلاك المحيطة بالعرش وهى تلك الرحمة . والحاصل أن رحمته تعالى أى إحسانه هو الذى اقتضى وجود العوالم كلها من عرشها لفرشها ولولا إحسانه لها بالوجود ماوجدت فالمراد بالرحمة الرحمة العامة التى وسعت كل شئ (يامن احتجب) (١٠٦) أى امتنع (فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار) أى فى عزه الشبيه بالسرادقات جمع سرادق بمعنى الخيمة التى تنصب على صحن الدار فالسرادقات الخيام وهومن إضافة المشبه به للمشبه فكما أن الخيمة تمنع من رؤية مابعدها كذلك عز الله أى قوته العظيمة يمنع عن رؤيته بالأبصار ثم إن أريد رؤية الاحاطة فهى ممتنعة فى الدنيا والآخرة وإن أريد مطلقها فهى ممتنعه فى الدنيا واقعة فى الآخرة للمؤمنين فعزه تعالى اقتضى حجب ماسواه عن رؤيته فان العزيز معناه المنيع الذى لايوصل إليه يقال حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه وقيل العزيز الذى لايرتقى إليه وقيل العزيز الذى ضلت العقول فى عظمته وحارت الألباب عن إدراك نعته وكلت الألسن عن استيفاء مدحته (يامن تجلى) على قلوب العارفين (بكمال بهائه) أى بمحاسن صفاته أى بصفة جلاله وجماله (فتحققت عظمته) أى كونه عظيما عظما لانهاية له (الأسرار) أى بواطن القلوب (كيف تخفى وأنت الظاهر) بذاتك أى فى جميع الأشياء كما يقوله أهل الشهود أو بظهور أفعالك وتصرفاتك فى العالم كما يقول غيرهم (أم كيف تغيب وأنت الرقيب) أى المراقب لنا فى حركاتنا وسكناتنا (الحاضر) الذى ليس بغائب وأتى به لأنه لايلزم من المراقبة الحضور إذ قد تحصل الاحاطة بأفعال الغير وأحواله بالمكاتبة والمراسلة وهذا آخر ماتيسر رقمه على هذا الكتاب المبارك على وجه لطيف جعله الله خالصا لوجهه الكريم بمنه وكرمه آمين . تم ذلك الشرح يوم السبت المبارك لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوّال من شهور سنة أربع بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر العباد إلى الله عبد الله الشرقاوى الخلوتى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

على عرشه فصار العرش غيبا فى رحمانيته كما صارت العوالم غيبا فى عرشه) كأنه أشار بهذا إلى معنى قوله تعالى ــ الرحمن على العرش استوى ــ وقوله تعالى ــ ثم استوى على العرش الرحمن ــ ورحمانية الله تعالى كونه رحمانا والرحمن اسم لله تعالى يقتضى وجود كل موجود وهومشتق من الرحمة والرحمة ههنا هى الرحمة العامة التى وسعت كل شئ كما وسع علمه كل شئ فى قوله تعالى مخبرا عن حملة العرش إذ قالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه الرحمن جميع أسمائه تعالى الايجادية ويفهم من معنى الاستواء القهر والغلبة ومقتضاها فى حق الله تعالى أن لا يكون لغيره وجود مع وجوده ولا ظهور مع ظهوره فلا جرم لما كان الحق مستويا برحمانيته على عرشه الذى العوالم كلها فى طيه كان العرش غيبا فى الرحمانية والعوالم غيب فى العرش لأنها فى طيه فلا ظهور إذن للعرش ولا للعوالم وانما الظهور التام لله عزّ وجلّ (محقت الآثار بالآثار) كما بين العوالم والعرش (ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار) كما بين العرش والرحمانية ومحيطات أفلاك الأنوار هى أسماء الله الحسنى والله تعالى أعلم (يامن احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار) عزة الله تعالى اقتضت كون كل ماسواه محجوبا عن رؤيته لله عز وجل فان العزيز معناه المنيع الذى لايوصل إليه يقال حصن عزيز إذا تعذر الوصول إليه وقيل العزيز الذى لايرتقى إليه وهم طمعا فى تقديره ولا يسمو إلى صمديته فهم قصدا إلى تصويره وقيل العزيز من ضلت العقول فى بحار تعظيمه وحارت الألباب دون إدراك نعته وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف جماله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وذكر السرادقات مضافة إلى عزه واحتجابه فيها مجاز حسن (يامن تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار) كمال بهائه محاسن صفاته وأسمائه فبظهور ذلك وتجليه بها تحققت عظمته أسرار العارفين (كيف تخفى وأنت الظاهر أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر والله الموفق وبه أستعين) هذا كله بين لا إشكال فيه والحمد لله وقد تقدم معناه غير مامرة من كلام المؤلف رحمه الله . قال مؤلف هذا الكتاب وقد نجز بحمد الله ما أردناه وبلغنا الغرض الذى قصدناه ولا حول لنا فى ذلك ولا قوّة إلا بالله وبذلك تبين ماعندى من مسائل الكتاب والله تعالى الهادى إلى الصواب . وقد تقدم فى أوّل هذا التنبيه

أنى لم أقصد فيه إلا هذا المعنى ولم نلتزم كون ما ذكرناه فيه صحيح المبنى حتى نحتاج إلى نصب الأدلة والبراهين على مادعيناه فيه و إنما سقنا ذلك على سبيل حكاية مذهب من المذاهب وللحكى له ذلك أن يصححه أو يبطله إن أحب وما وقع فيه من توخى استدلال على مطلب من المطالب فأنا فى ذلك متبرع فان صح ذلك الدليل فهو المطلوب و إن بطل ولم يلزم من بطلانه بطلان المدلول و بقى المذهب قابلا للتصحيح أو الابطال من غير أن تتوجه علىّ مطالبة بذلك والذى حملنى على سلوك هذا السبيل مافيه من وجدان السلامة لى من الخطر الذى يتعرض له كل من يتكلم على طريق التصوّف ممن لاتحقق له فيه ويدّعى صحة ماينظره بعقله وفهمه وينسب ذلك إلى القوم ولعل شيئا من ذلك لا يصح عنهم فيكون بذلك مفتريا كذباعليهم ثم فيه من سوء الأدب معهم والتقدم بين أيديهم مالايقوم له شئ وعند ذلك يكون الخرس والبكم وذهاب الحس والحركة أولى به وأحمد عاقبة له لتخلصه بذلك من شر لسانه و بنانه .

⁂

ثم إن ماقصدناه من ذلك لايمنع من حصول الفائدة لمن أراده الله تعالى بها ووفقه لهافعلى العبد أن يعمل على خلاص نفسه ولا يلزمه اتباع مرضاة غيره فقد قيل رضا الناس غاية لا تدرك .

⁂

ونحن نرغب إلى من وقع بين يديه هذا التأليف وظهر له فيه خطأ أوتحريف أن يصلح منه ما ألفاه مختلا وأن ينتهج من الاعتذار عنه الطريقة المثلى وإن ظهر له أن يضع فى ذلك تأليفا يتضمن تنبيها وتعريفا فذلك من المذهب الذى يرتضى ومما لم يزل من شأن من قد مضى .

⁂

ونحن نستغفر الله تعالى مما يعلمه منا من التعدى والجراءة فيما تعرضنا له من بيان كلام الأولياء والراسخين من العلماء وتقرير عباراتهم و إشاراتهم من غير اطلاع منا على كنهها ولا بصيرة فيها ونستغفره أيضا مما أقدمنا عليه من إظهار ماستروه و إعلان ماأسرّوه ونستغفره أيضا مما وقع منا فيه من ذكر أحوال الأولياء رضى الله عنهم ومقاماتهم وتحريضنا على سلوك طريقهم المستقيم مع إفلاسنا من جميع ذلك وعدم احتظائنا به ونسأله مع ذلك أن لا يؤاخذنا بما انطوت عليه ضمائرنا وأكنته سرائرنا من أنواع القبائح والمعايب التى يعلمها منا ولا نعلمها أونعلمها ولا تسمح نفوسنا بالتنقى منها والتنزه عنها اغترارا منا بحلمه واستهانة بنظره وعلمه ونرغب إليه جل وعلا أن يمن علينا بتوبة تمحو عنا كل حوبة حتى تنقلب أعداؤنا عنا خائبين خاسئين داخرين صاغرين لم ينالوا من تحقق إرادتهم فينا مطلبا ولم يبلغوا من عدم إسعافه إيانا بما طلبناه منه مأربا وأن يشمل فى ذلك معنا كل من أمّن على هذا الدعاء ممن سمعه وممن دعا لنا بمثله من إخواننا المسلمين ونتوسل إليه فى بلوغ الأمل والوصول إلى المبتغى الأجلّ بما انصرفنا به عن كل جحود وكفور وأخرجنا على يديه من الظلمات إلى النور سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين و إمام المرسلين وحبيب رب العالمين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه البررة الأكرمين وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا والحمد لله ربّ العالمين .

فهـــرس

الجزء الأول من شرح الحكم لابن عباد

صحيفة

صحيفة

فهـــرس

الجزء الثانى من شرح الحكم لابن عباد

بحمد الله تعالى تمّ طبع كتاب [شرح الشيخ ابن عباد] على [كتاب الحكم] لأبي الفضل « أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندرى » وبهامشه شرح شيخ الاسلام الشيخ «عبد الله الشرقاوى» على الحكم المذكورة مصححا بمعرفتى ؟

رئيس التصحيح

أحمد سعد على

من علماء الأزهر الشريف

[القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ ربيع أول ١٣٥٨ هـ — الموافق ٨ مايو سنة ١٩٣٩ م]

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

